في رحاب القرآن

مختصر تفسير العلامة الشيخ بيّوض

[سور : الحج ـ المؤمنون ـ النـور]

«برواية ورش عن نافع»

اختصره ورتبه وأشرف عليه

الشيخ الناصر بن محمد المرموري

الطبعـة الأولى

١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م

تفسير
ســـورة الحـــج

سورة الحج

مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ
كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم
بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

هذه سورة أخرى من سور القرآن الكريم سميت سورة « الحج » وقد تقدم غير مرة أن سور القرآن توقيفية كما هو موجود في المصاحف العثمانية والعلماء متفقون عليها وسميت السورة هذه بهذا الإسم لأن الله تعالى ذكر فيها الحج وشرعه وبيّن مناسكه وذلك في قوله تعالى: ﴿**وأذّن في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ..**﴾ «الخ الآيات» والمناسبة ظاهرة بين هذه السورة وبين السورة التي قبلها، ففي أواخر سورة الأنبياء يذكر الله تعالى اشراط الساعة الكبرى وما يقترن بها ﴿**حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ..**﴾ - الأنبياء ٩٦ - ٩٧ . «الآيات» ثم يذكر على إثر ذلك وعده للمؤمنين ووعيده للكفار والمشركين والمنافقين ويقول في أوائل هذه

السورة ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ... ﴾ «الآيات» فهو يحدثنا عن قيام الساعة ويحذرنا منها قبل وقوعها وإنها لاتقع إلا بغتة وإن الناس يذهلون ويفزعون عند وقوعها الفزعة الكبرى.

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾.

هذا من الله خطاب لجميع الناس إنسهم وجنهم وذكورهم وإناثهم يدخل فيه المؤمن والكافر والبرو الفاجر يشمل المكلفين جميعا نداء ثم أمر بالتقوى وهي كلمة جمعت كل شيء مما يقرب إلى الله مما يطلب به رضاه ويتقي سخطه وان كان يراد بها في هذا المقام التخويف ومن خاف الله اتقى سخطه وطلب رضاه، يخوفنا ربنا من قيام الساعة الذي هو قريب وهائل ولايكون إلا بغتة حتى نستعد له بالرجوع إلى الله ونعمل بطاعته قبل لقائه ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي خافوه واحذروه وتجنبوا سخطه، واتقوا عقابه إن عذابه عظيم لا يقوى عليه أحد من خلقه ﴿إن زلزلة الساعة شئ عظيم﴾ الأمر مؤكد بإن فهو لا شكك واقع، والزلزلة هي الهزة العنيفة المتكررة مرات ومعناها أن يزل كل شئ عن موضعه ثم يعود ثم يزل ويتكرر ذلك مراراً بعنف وشدة وهي زلزلة تعم الأرض كلها ولذلك نسبت إليها ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ - الزلزلة ١ - وهو زلزال عظيم وصفه بهذا خالقه فهو شئ عظيم فوق الوصف لا تدركه العقول ولا يتصور حقيقته إلا من حضره وهو بداية فناء هذا العالم وقيام الساعة أو بدايتها النفخ في الصور ونهايتها استقرار أهل الجنة في الجنة واستقرار أهل النار في النار ولا يعلم إلا الله كنه تلك الأهوال وشدتها ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ يريد الله تبارك وتعالى في هذه الآيات أن يبين

لنا مقدار هول قيام الساعة بهذه الأوصاف المذهلة التي يراها ويحسها من يحضر زلزلة الساعة أو يتخيلها ويتصورها عند سماع هذه «الآيات» ﴿**يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت**﴾ الضمير في « ترونها » إما إلى الزلزلة وإما إلى الساعة أي يوم ترون زلزلة الساعة ترون شيئا عظيما مفزعا حقا تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت والمرضعة هي الأنثى التي ترضع ولدها حال الرضاع وهي أشد ما تكون حنانا وعطفا على رضيعها ولذا يدر لبنها، يقول الله تعالى ـ إنَّ كل مرضعة، هكذا بهذا العموم الاستغراقي لكل أنثى من بني آدم أو حيوان أو وحش، تذهل عن رضيعها أي تغفل عنه وتتركه وتنساه لعظم ما ترى من الهول وتتوقع من العذاب والهلاك، وتضع كل أنثى ما في بطنها من الأجنه لهول الفزع المفاجئ ﴿**وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾ وصف ثالث يشمل جميع الناس الحاضرين في زلزلة الساعة يبين مدى فزعهم، تراهم سكارى حقيقة لا تشبيها سكارى طاشت عقولهم وغابت وليس ذلك بخمر ولا حشيش ولكن لزلزلة الساعة وما يكتنفها من الأهوال والعذاب الشديد ولا تقوم الساعة إلا على لكع بن لكع، ومنهم من يجعل هذه الاوصاف لساعة البعث والحشر لا لساعة الفناء ولكن الذي نراه أنها في ساعة الفناء لأنها هي الساعة التي توجد فيها المراضع والحوامل ولا مانع أن يكون هذا الهول في كلتا الساعتين، ساعة الفناء وساعة البعث وفي القرآن ما يدل على ذلك، ﴿**إذا رجّت الارض رجّا وبسّت الجبال بسّا فكانت هباءً منبثّا وكنتم أزواجا ثلاثة**﴾ ـ الواقعة ٤ـ٧ . الآية. فالهول واقع في كلتا الحالتين وتقوى الله خير زاد لتلك الاهوال العظام وما عظمه العظيم فهو عظيم حقا وشديد حقا وقد رأينا شيئا من نحو هذا في زلزال مدينة الأصنام قريبا الذي حول مدينة عامرة إلى مقبرة في مدة لم تتجاوز

إحدى عشرة ثانية، سُدُسُ دقيقة حول مدينة كبيرة إلى مقبرة ويكفي هذا للاعتبار وأمر الله واقع لا محالة ولكل أجل كتاب ولم يخلقنا الله في هذه الدنيا عبثا فويل للذين يكفرون بالساعة وويل للذين لا يستعدون لقيامها قبل مجيئه بزاد التقوى وماذلك إلا لشكهم في وعد الله ووعيده ﴿**وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظُن إلا ظنّا وما نحن بمستيقنين**﴾ ـ الجاثية ٣٢ ـ وفي مثل هؤلاء المكذبين بقيام الساعة ولقاء الله تأتي الآيات التالية فيقول الله تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾
كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

من الناس في كل زمان جاحدون للحق منكرون للبعث والحساب والجزاء يجادلون في الله بغير علم بعد ظهور آياته في الكون : في السموات وفي الأرض وفي البحار وفي سائر مخلوقات الله وفي أنفسهم لو كانوا يعقلون، يجادلون في الله بعد مبعث الرسل وإنزال الكتب البينات ينكرون آيات الله ويجادلون أنبياء الله بغير علم ولا هدى ويحسبون أنهم خلقوا عبثا ويتركون سدى، كلا لم يخلق الله هذا الكون عبثا ولا يترك هذا الإنسان سدى، هذا الذي مكنه من الخلافة في الأرض وقد سخر له ما فيها وما في السموات وذلل له الأنعام وفضله على كثير ممن خلقه تفضيلا، ما أضل هؤلاء الناس الذين يجادلون في الله وفي آياته وفي اليوم الآخر يشكون في البعث بعد الموت ويمارون في الساعة يقولون ﴿**أئذا متنا وكنا ترابا**

وعظاما أءِنّا لمبعوثون﴾ ـ الواقعة ٤٧. **﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾** ـ الصافات ٤٨ ـ يقولون ، **﴿ذلك رجع بعيد﴾** ـ ق ٣ ـ وقد علموا أن الله الذي خلقهم من العدم وأنشأهم أول مرة قادر أن يعيدهم بعد الفناء ويحييهم بعد الموت ولكنهم يجادلون في الله ويمارون في قيام الساعة ولا يؤمنون بيوم الحساب وذلك منهم جهل ومكابرة يريدون أن يتحللو من سلطان الله ويتهربوا من تشريعه الحكيم ليفجروا كما شاءوا وشاءت لهم أهواءهم **﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾** ـ القيامة ٥ ـ والزنادقة والملاحدة والمشركون في كل مكان يزعمون أنهم على صواب في شركهم ويدّعون العلم والفلسفة وقد علم الله أنهم كاذبون لا برهان لهم على شركهم وجحودهم فجرّدهم من العلم لألا يغتربهم البسطاء من الناس ولاينخدعوا بترهاتهم الباطلة وما أبعدها عن العلم وما أفلسها من البرهان وأنى لهم أن يطمسوا نور الله بشبهاتهم وقد ظهر الحق وسطع نوره لأولى البصائر فعلموا الحق وشهدوا به وعملوا بشرائع الله وحكموا بها واتبعوا رسل الله بينما اتبع غيرهم من أعداء الله المجادلين كل شيطان مريد، اتبعو الشياطين فأضلتهم عن الحق واجتالتهم عن سبيل الرشاد،شياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا شياطين مردة، مردوا على التضليل والإغواء ولا تروج شبههم إلا على من طمست الأهواء عقولهم فهم في ظلمات لا يبصرون ولا يقوم الباطل إلا في غفلة من الحق ثم إذا ظهر الحق اختفى وتلاشى **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾** ـ الإسراء ٨١ ـ والغواة في كل زمان يحاولون أن يصبغوا غيّهم بصبغة الحق حتى يطمئنوا إلى ما يأتونه من الفواحش والإجرام بعد ما زينت لهم شياطينهم سوء أعمالهم فهم يعمهون، ما أصدق وصف الله تعالى لهؤلاء

الغواة من الناس المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق المتبعين لوحي الشياطين المغترين بهم وصف الله تعالى هذا الصنف من الناس بقوله ﴿**ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاّه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير**﴾ يجادلون في الله ويتبعون كل شيطان مريد كتب الله عليه أنه من تولاه أي جعله وليا من دون الله فأنه يضله عن الحق ويهديه إلى الباطل والباطل يهديه إلى عذاب السعير فما أروع هذه المقابلة بين الإضلال والهداية في مثل هذا المقام وهما يؤديان إلى غاية واحدة ويصلان بصاحبهما إلى نهاية واحدة ومصير مشئوم وبئس المصير، وأصل كلمة الهداية تستعمل في الخير ولكنها هنا جاءت في الهلاك والشؤم تهكما بهؤلاء الذي يزعمون أنهم على هدى وأن غيرهم على ضلال فالويل لمن اتخذ الشيطان وليا من دون الله ويحسب أنه على هدى، نعم سيهديك وليك لكن إلى عذاب السعير وسيكفر يوم القيامة بإشراكك إياه ويتبرأ من إتباعك له وحينئذ يعلمون أنهم كانوا في غرور ولا يغني عنهم أولياؤهم من الله شيئا وقد صاروا معهم إلى عذاب السعير، والولاية لها في اللغة معان كثيرة، منها المحبة والنصرة ومنها رجاء النفع ومنها الاتباع والانقياد، فكل من اتبع الشيطان وخالف أمر الله فقد اتخذ الشيطان وليا من دون الله وإن زعم أنه مؤمن وأي إيمان يبقى لمرتكب الكبائر والموبقات المضيع للصلوات المتبع للشهوات إنه ولي للشيطان وقد يجادلون في الله فتنة من الله أضلهم الله بها بسبب سوء أعمالهم التي زينها لهم الشيطان أما أولياء الله فهم في عصمة من الله وهدايته قد اتخذوا الشيطان عدوا ونابذوه واتبعوا رسول الله واستمسكوا بسنته واهتدوا بشريعته فهم لا يقبلون فيها جدال مجادل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ
مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ
لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن
يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا
أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥
وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ
مَن فِي الْقُبُورِ ⑦﴾

جاء النداء من الله كافة للناس كما جاء في أول السورة والمنادون هم الإنس والجن معهم تبع **﴿إن كنتم في ريب من البعث﴾** الريب هو الشك الذي لايصل درجة الظن والظن هو الراجح من الطرفين ولا يصل درجة اليقين وكل الذي يتخوض فيه منكروا البعث والحساب ما هو إلا ريب وليس عندهم حجة على مايقولون **﴿قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون﴾**- الذاريات ١٠. وهذا هو سر الخطاب بالريب وليس معهم في الحقيقة إلا ريب وتشكيك ولديهم من الأدلة والحجج على قدرة الله وحكمته ما لو تأملوا لعلموا أن الله الذي خلقهم قادر على أن يحيى الموتى وما خلقهم باطلا ولا عبثا تعالى الله عن العبث وهو العليم الحكيم العادل البر الرحيم

يبعث الخلائق ليحاسبهم على أعمالهم وليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى وميعادهم لذلك يوم لا ريب فيه ومن خالج نفسه ريب في ذلك فلينظر في الآيات التالية. الدالة على كمال قدرة الله ،، **﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا علم من بعد علم شيئا﴾** انظروا أيها الناس نظر التأمل والاعتبار فإنكم ستجدون أن طريق عودتكم هو طريق وجودكم وقدرة الله صالحة لكل شيء **﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾** التراب هي المادة الأولى التي خلق منها آدم وبنوه وأصل خلقتنا من الأرض خلقنا منها وفيها نعود بعد موتنا ومنها نبعث كرة أخرى، وذلك على الله هيّن وهو على كل شئ قدير **﴿ثم من نطفة﴾** والنطفة التي هي قطرة من المني الماء المهين التي يتنزه عنها الإنسان ويبادر إلى غسل ثوب لامسته تلك النطفة المذرة هي أصل وجود الإنسان وفي القطرة منها عدد من ملايين الشعيرات التي واحدة منها يتكون منها الإنسان، ماء مهين تتكون فيه خلية الحياة بعد أن يتطور أطواره التي ذكرت هنا وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم، تراب هامد لا حياة فيه ذلك الذي خلق منه أبونا آدم وذلك الذي تتكون منه ذرات النباتات والثمار والفواكه التي نقتات منها وتقتات منه الدواب التي نأكل من لحومها ولا أحد يعلم سر الحياة ولا سر الأحياء التي تتكون من الأموات وقد تستمد حياتها من أشياء لاحياة فيها فسبحان من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو بكل خلق عليم، فلينظر الإنسان إلى مبدأ وجوده، من تراب ثم من نطفة ثم من علقة،، وهي قطعة دم متماسكة تحولت بعد النطفة إلى العلقة في مدة قدرها الله تقديرا تتنقل من طور إلى طور في أربعين

يوما ﴿ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ ثم تتطور العلقة إلى مضغة مخلقة أي مصورة وغير مخلقة وذلك في طورها الأول حين تتطور علقة الدم إلى مضغة لحم بإذن الله ثم تصور المضغة عظاما في هيكل جسم الإنسان ذكرا أو أنثى ذي أعصاب وعروق وأعضاء وقد نشاهد هذا في جسم السقط أحيانا فسبحان من يسوي خلقة الإنسان في ظلمات ثلاث ويسوي فيه خصائص أبيه وأمه من طباع وأخلاق وفهم وذكاء وبلادة وجبله على أمزجة يرثها من آبائه وأمهاته وكل هذا مراد في كلمة التخليق ﴿لنبين لكم﴾ يقول الله تبارك وتعالى : لنبين لكم من آياتنا مايدلكم على كمال قدرتنا لعلكم تهتدون إلى الإيمان بربكم وبالبعث في اليوم الآخر وما بعد بيان الله من بيان، هكذا يقحم الله هذه الجملة هنا وهي تبين الغرض من عرض هذه الأطوار التي يمر بها الجنين لبيان قدرة الله ثم تأتي بقية الأطوار ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى﴾ يقر الله في الأرحام ما يشاء من الخلق وما كتب له الحياة ليولد في أجل مسمى خلقا سويا يعيش إلى أجل مسمى وفي مثل هذا التطور يقول اللـه تعالى في موضع آخر من القرآن ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. المؤمنون ١٤ ـ تبارك الله ربنا أتقن كل شيء صنعا، خلقنا أطوارا من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ثم خلق المضغة عظاما لطيفة مصورة ثم كسى العظام لحما ثم نفخ فيها الروح ثم بعد بلوغ أجل مسمى يسلك سبيله فيولد جسدا سويا ﴿ثم يخرجكم طفلا﴾ ثم يولد المولود طفلا ضعيفا لا يعي شيئا وقد جعل الله فيه السمع والبصر والفؤاد وجهزه بكل ما يحتاجه وينتفع به من الأجهزة فجهاز للتنفس وتصفية الهواء وجهاز للشعور والإحساس وجهاز للتفكر والوعي وجهاز للتناسل يخص الذكر وآخر يخص الأنثى، كل وما يناسبه من الأجهزة، كل هذه الأجهزة وغيرها صنع في ظلمات ثلاث وسط المشيمة

وسط الرحم في بطن الأم كما يصنع الفرخ وسط البيضة وتجهزه بأعضائه وأجهزته فلا تفقس عنه البيضة إلا وهو خلق سوي نفخ فيه الروح وفي التأمل في خلق الله آيات على قدرته على الإعادة والله على كل شئ قدير ونحن نمر على هذه الآيات الكثيرة غافلين وما أكثر آيات الله وما أدلها على وجود الله وقدرته ووحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته بخلقه!

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وهذا الكون كله مصانع لله تشتغل في كل لحظة بنظام ودقة عجيبين واتقان فانظروا أيها الناس وتأملوا واعتبروا ﴿**قتل الإنسان ما أكفره من أي شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره**﴾ - عبس ١٧-٢٢. القرآن في كثير من الآيات يضرب مثل الإعادة والنشور بالنظر في الخلق الأول ونشأته وتطوره ثم في الأطوار التي تتعاقب على الإنسان بعد ولادته حتى يموت ويبلى وفي هذا تأتي الآية التالية ﴿**ثم لتبلغوا أشدكم**﴾ ثم بعد طور الطفولة يقوى الجسم ويشتد ويتكامل العقل وذلك هو بلوغ الأشد في حدود الأربعين سنة قال تعالى في سورة الأحقاف ﴿**حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة**﴾- الأحقاف ١٨-وكان الأنبياء يبعثون على رأس الأربعين سنة وفي أحدهم يقول الله ﴿**ولمّا بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين**﴾ - يوسف ٢٢- والأَشُدُّ عبارة عن إشتداد تكوين الإنسان جسميا وعقليا ثم بعد الإشتداد والقوة يبدأ الضعف والنقص الذي هو نهاية من يعيش في هذه الدنيا ثم يأتي الفناء والموت وقد يختضر الموت الأحياء قبل ذلك وذلك معنى قوله تعالى ﴿**ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا**﴾ منكم أيها الناس من يتوفاه الله قبل بلوغ عمر الضعف والشيخوخة ومنكم من يعيش ويعمر

ويهرم وفي كلا الحالين معتبر للإنسان، في اختضار الشباب والكهول عبرة وموعظة لنا لنتزود ونستعد للموت قبل نزوله ولا نركن الى الحياة الدنيا ولا تشغلنا لذاتنا عن الاستعداد لدار البقاء ولنعلم أن الإنسان خلق لدار أخرى ولم يخلق لهذه الدار وإنما يعمر فيه مقدارا يكفيه للتذكر وعبادة الله حتى ينال رضاه ويوفى جزاءه في الدار الأخرى ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ والإبتلاء حاصل بالعمر القصير كما يحصل بالعمر الطويل، ولنا عبرة وذكرى في حال تعمير الإنسان وبلوغه أرذل العمر، وسمي أرذل العمر لأن الإنسان يفقد فيه قوته ونضارته وحتى معرفته ويبقى عالة على غيره يحتاج إلى من ينقله من الشمس إلى الظل وإلى من يطعمه ويسقيه وينسى كل شئ بعد المعرفة حتى أولاده ينساهم ولا يذكر أسماءهم وإن عرَّفوه ينساهم من لحظة لأخرى وقد كان ذا عقل وتجارب وعلوم إستفادها في عمره الطويل بعقله الذكي وقلبه الواعي فمحلها الكبر فزالت فإذا هو لا يعلم بعد علم شيئا. ما أضعفك أيها الإنسان وما أشبه نهايتك ببدايتك فاعتبر بحالك واعلم أن الله لم يخلقك عبثا ولا يتركك سدى بل لك ميعاد يوم تصير فيه الى الله فيجازي المحسن بإحسانه والمسئ باساءته، تلك هي غايتك التي تسعى إليها وتلك هي الساعة التي لاريب فيها وذلك هو الوعد الحق ثم يذكرنا ربنا بأنواع الحياة الأخرى التي نراها كل يوم ونشاهدها وهي تتجدد مناظرها بين أسماعنا وأبصارنا في كل لحظة ودقيقة وهي تذكرنا بقصة الخلق والانشاء والإعادة .﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ - الروم ٢٧- وفي بدء الخلق واعادته في هذه الحياة الدنيا أكبر دليل على قدرة خالقنا تعالى على اعادة الخلق بعد فناءه وهو بكل خلق عليم، يقول الله عز وجل : ﴿وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى

وأنه على كل شئ قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ دليل آخر من أعظم الدلائل على قدرة الله على إحياء الموتى يلفتنا الله اليه وهو ما نشاهده كل يوم حولنا من تجدد حياة الأرض بعد موتها وما حياتها وحياء بذورها بعد همودها إلا كحياة الموتى بعد موتهم ورجوع الحياة في عظامهم البالية ﴿ **وترى الأرض هامدة** ﴾ الخطاب عام لكل ذي عقل يقدر على الرؤية والإعتبار ولكل من يسمع الكلام وهمود الأرض موتها وسكونها وسكون ما فيها وانعدام أي أثر للحياة فيها ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾ يقول ربنا تبارك وتعالى فإذا أنزل الماء على الأرض الميتة أحييناها ورددنا الحياة والبهجة والنضارة في البذور الهامدة المختلطة بتراب الأرض وكذلك نرد الحياة إلى عظامكم البالية، إلى تلك الرميم المختلطة بالتراب وننفخ فيها الروح بعد موتها فتبعث من جديد ﴿**وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج**﴾ ـ ق ١١ ـ انظروا إلى عملية الخلق والإعادة التي تجدد بين أعينكم آلاف المرات في حياة الأرض بعد موتها ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ واهتزاز الأرض انشقاقها حين تمتص الماء وعندما تنفلق فيها البذور والحب والنوى فتربو وتنمو وتخرج نباتها بإذن ربها ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء أهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير**﴾. هكذا يقرر الله تعالى مبدأ البعث والنشور في غير موضع من القرآن ويدلل له بآياته البينات ليثبت في النفوس عقيدة الإيمان باليوم الآخر وهي سر استقامتها واستجابتها لله وللرسول وأولئك الذين تنفعهم الذكرى وهم الذين يستمعون إلى النذر ولنرجع إلى بقية الآية، قال تعالى: ﴿**وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾ إن الله تعالى جميل يحب الجمال يلفتنا إلى بديع صنعه في أرضه ونباتها ويدعونا للنظر نظر إعتبار، هذه الأرض التي

يحييها مطر السماء فتهتز وتربو وتنبت من كل نوع بهيج له رواء وجمال يأخذ بروعته وجماله مجامع القلوب فهو شئ ظاهر متكرر يلفت الأنظار، ألا يكفي ذلك للإعتبار، أينكر أحد بعد هذا قدرة الله ويستبعد البعث بعد الموت، وما نحن إلا من هذه الأرض نموت كما تموت الأرض وبذورها ونحيا بعد الموت كما تحي الأرض بعد موتها من يدري لعل مطرا ينزل من السماء بماء الحياة فينبت الموتى من قبورهم كما تنبت البذور المختلطة بترابها وقد ورد في بعض الآثار هذا الخبر وقد سأل أبونا إبراهيم ربه ﴿**كيف تحيي الموتى**﴾- البقرة ٢٦٠- ليطمئن قلبه لا لشكه في البعث بعد الموت فأجابه الله لما سأل فقال له : ﴿**فخذ اربعة من الطير فصرهنّ إليك ثم اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ ياتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾- البقرة ٢٦٠- قال المفسرون فأخذ سيدنا إبراهيم أربعة من طيور متنوعة فذبحها وأمسك عنده رؤوسها ووزعها على أربعة جبال بعد أن عجن لحمها وعظامها وريشها فدعاهن إليه فجمع الله رفاتها كلاً في جسده وإبراهيم ينظر إلى الفتات يتطاير وينضم بعضه إلى بعض حتى رجعت أجسادها كما كانت ثم طارت إلى إبراهيم بلا رؤوس فرد إلى كل جسد رأسه فالتصق به وهو ينظر إلى بديع صنع الله العزيز الحكيم وقدرته فاطمأن قلبه بما رأى من آيات ربه وقد كان مؤمنا قبل ذلك ﴿**بأنّ الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شئ قدير**﴾ خمسة أوصاف لله تعالى تأتي تباعا يقدمها هذا الوصف : أي ذلك الذي رأيتموه من آيات الله في أحياء الله الأرض بعد موتها وخلق الإنسان أطواراً دليل على أن الله هو الحق، والحق هو الشئ الثابت الذي لا يزول ولا يشك عاقل في وجوده ووجود الله واجب وحق بل هو الحق قبل كل شئ وهو ما يفيده تعريف الخبر وضمير الفصل قبله وقد

استعمل القرآن هذه الكلمة في مواضع كثيرة ولكن معناها في الذات العلية واجب الوجود حقيقي ومعناها في غيره نسبي لأنه لم يكن ثم كان أو سيكون، أما وجود الله فحق ثابت دائم لم يسبقه عدم ولا يأتي عليه فناء فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لم يزل حيا عليما قديرا سميعا بصيرا هو الذي يعطي الحياة لكل حي والوجود لكل موجود يحي ويميت ويعز ويذل ويخفض ويرفع ليس كمثله شئ وهو السميع البصير تلك هي صفاته فهو وحدة الذي يحيي الموتى وهو الذي أحاط بكل شئ قدرة وعلما في هذه الدار الفانية وفي دار البقاء ثم يأتي ذكر الوصف الرابع الدال على صدق وعد الله وكمال قدرته﴿ **وأنّ الساعة آتية لاريب فيها**﴾ والساعة الموعد المضروب لفناء هذا العالم ليعود إلى الوجود من جديد على غير الصفة التي كان عليها وهو ما تنازع فيه الناس قديما وحديثا فهم يمارون في الساعة ويشكون في وقوعها ويستبعدونه وقد ينكرونها ولو نظروا في آيات الله نظر تدبر ما أنكروا قيامها، كيف وقد أجمعت رسل الله وأنبياؤه على الانذار بها وبيان حكمة الله وعدله في مجازاة عباده المكلفين على أعمالهم ﴿**وأن الله يبعث من في القبور**﴾ وفيما تقدم دليل على أن الله قادر على أن يحيي الموتى ويجمعهم لميقات يوم معلوم ليجزي المحسن بإحسانه والمسئ المصر بإساءته يوم لا ظلم ويوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم كل هذه الأدلة الواضحة وكل هذه الآيات البينات أن الله هو الحق وأنه مفيض الحياة والوجود على كل موجود، كل هذا، وهنالك من الناس الذين أعمى الله بصائرهم بفجورهم ينكرون الحق ويجادلون في الله بغير علم وما أعماهم إلا الكبر وهم الذين تفضحهم الآية التالية : وتبين سوء مصيرهم.

قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠

تقدمت قبل هذه الآية الكريمة آية تشبهها في بعض معناها وتتحدث عن هذه الأصناف التي تجادل في الله بغير علم ويظن البعض ممن لم يتدبر حقيقة معنى الآيتين أن الآية الثانية وهي هذه تكرار وتوكيد للآية السابقة ما دام موضوع الآيتين واحدا ومستهلهما واحدا والأمر ليس كما يظن هؤلاء فليست الثانية تكرار للأولى ولا توكيدا لها بل هما وإن اتحدتا في الحكم مستقلة كل منها بمدلولها فالآية السابقة تتحدث عن المقلدين المتبعين لائمة الكفر والضلال وهم الكثرة الكاثرة من الكفار ينكرون البعث ويكفرون بالله ورسله ويجادلون في الله بغير علم تقليدا لرؤساءهم في الملة واقتداء بآبائهم وأجدادهم ولا علم لهم بحقيقة ما يتبعون إن هو إلا التقليد الأعمى وهو ما تصرح به الآية ﴿**ويتبع كلّ شيطان مريد**﴾ فهم يتبعون شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا يضلونهم ، ﴿**كتب عليه أنه من تولاّه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير**﴾ فالآية تذم المقلدين للشيطان تقليدا أعمى يتولونهم ويضلونهم عن سبيل الله ويهدونهم إلى عذاب السعير، أما الآية الثانية وهي هاته التي نحن بصدد تفسيرها فموضوعها مردة الشياطين المقلَّدون المذكورون في الآية الأولى وهم رؤساء الكفر والضلال يدعون الناس إلى الكفر ويحملونهم عليه ويبثون سموم

الالحاد في أفكار البسطاء من الناس الذين يحسنون الظن بهم ويقلدونهم بغير علم هم القادة وغيرهم اتباع لهم هؤلاء الفلاسفة الذين يجادلون الحق بفلسفاتهم الضالة وهم يحسبون أنهم على شئ من العلم ويستهزؤون بأنبياء الله ورسله ويسخرون بدعاه الحق في كل زمان ومكان. قال الله فيهم ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**﴾ العلم والهدى والكتاب المنير هي أصول العلم الثلاثة وهؤلاء مجردون عنها، فهم يجادلون بغير علم ضروري ولا علم نظري ولا دليل سمعي يقين وهي أصول العلم الثلاثة، العلم الضروري هو ما يدرك بديهيا بالضرورة يدركه العقل السليم ولا يقبل غيره والعلم النظري، هو ما يدركه العقل بالنظر والإستدلال فهو نتائج لمقدمات يقينية سليمة مبنية على أدلة واضحة صحيحة وهو الهدى المذكور في الآية أما الكتاب المنير، فهو الأدلة السمعية المبنية على كتاب الله الذي يفيد العلم اليقيني الذي هو مثل الضروري بل أقوى منه لأن الأدلة قائمة على صدق رسل الله في التبليغ عن الله عالم الغيب والشهادة وقول الله حق ومن أصدق من الله قيلا ومن العلم ما لا ندركه إلا من هذا الطريق كالعلم بيوم القيامة والعلم بما في عالم الملكوت وهي علوم لا جدال فيها أما جدال هؤلاء الفلاسفة فسفسطات مجردة عن أصول العلم الحقيقية وخوض في نظريات شيطانية باطلة تسول بها نفوس فاجرة وقلوب منطمسة بالأهواء ﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإمّا ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكري مع القوم الظالمين**﴾ - الأنعام ٦٨ - فأصحاب هذه الآية ضلوا بفلسفاتهم وأضلوا غيرهم وجادلوا في الحق واتخذوا آيات الله هزوءاً وخاضوا فيها بغير علم وأصحاب الآية السابقة ضلوا بتقليدهم الأعمى لمن جعلوهم رؤساءهم وكبراءهم وجعلوا أنفسهم ذيولا لهم فهم يجادلون في الله بغير علم ويتبعون شياطين الإنس والجن وعبدوا أهواءهم من دون الله

وكفروا نعمة العقل فهم لا يسمعون ولا يعقلون ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ـ الأعراف ٣٠ـ ثم تستمر الآية في ذكر أوصاف هؤلاء المجادلين أيمة الكفر وذكر ما ينتظرهم ويستقبلهم من الجزاء فيقول الله تعالى فيهم ﴿ثاني عطفه ليضلّ عن سبيل الله له في الدنيا خزيٌ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ ثاني عطفه متكبر متعجرف ومعجب بنفسه شامخ بأنفه معتد بما معه من العلم أو الملك أو المال ، والعطف هو الجنب فهو يلوي جنبه عن الناس ويصعر بخده يظن أنه وأنه وله أتباع يسمونه نبيئا، وهم يكفرون بالنبوءات ويقدسونه أكثر مما يقدس كثير من المسلمين أنبياءهم فمن ذا الذي يستطيع أن يسب كارل ماركس عند أتباعه وهو يهودي خبيث جمع الخسائس من خبث الطوية وخبث الأعمال وتاريخه محفوظ وهو حديث العهد ومثله سارترودارون صاحب نظرية النشوء والتطور الذي يزعم أن الإنسان تطور عن قرد وأمثالهم من الفلاسفة الملاحدة المنكرين للأديان الذين يلحدون في الدين لعنهم الله جميعا جمعتهم ملة الكفر بالله وعداوة أنبيائه ورسله واتباعهم السخرية بعباد الله المؤمنين يصمونهم بالرجعية والجمود والتأخر ويقولون أن عقول هؤلاء المتدينين ناقصة وتفكيرهم ناقص وفي مثل هؤلاء يقول الله تعالى ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ـ البقرة ١٣ـ نسبهم الله إلى السفه بل قصر السفه عليهم ونفى عنهم العلم كما نفاه عنهم في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها والكفار على ملة واحدة وإن أختلفت بهم الأزمان وتباينت بهم الأمكنة، فضحهم الله وفضح أتباعهم ليتقي المؤمنون شبهاتهم ولا ينخدعوا بترهاتهم التي يلبسون بها على الناس الضعفاء بما يلبسونها من لباس العلم والنور والحضارة وهي جهل وظلام ووحشية

وفوضى ومن أغرب ما أنتهت إليه حضارة القرن العشرين أنهم أنكروا كل كرامة للنساء أو الرجال فأباحوا التسافد والسحاق واللواط إباحة مطلقة وأنكروا الطهر والعفاف وهذه الضلالات قديمة ولكنهم ألبسوها لباسا عصريا وعرضوها في معرض الفن والحرية وسموها بغير أسمائها وبلغنا أن خمسة من أساقفة النصارى ورجال الكنيسة في أكبر دولة متمدنة في إنجلترا ومعهم بعض من نواب مجلس الحكومة كتبوا، بطلب توجهوا به لحكومتهم في أكبر جريدة عندهم وهي جريدة «التايمز» نشروه فيها علنا يطالبون الحكومة في خطاب مفتوح أن تبيح الشذوذ الجنسي وتعتبره أمرا مباحا كسائر الأمور العادية التي يقرها القانون ولا يعاقب عليها مادام الفاعل والمفعول متراضيين على فعل الفاحشة فهم احرار فيما يريدون ولا يعتبر فعلهم هذا فاحشة ولا جريمة، هكذا يطلب رجال الدين ورجال الحكم في دولة تعتبر من أرقى دول العالم، وقرأنا هذا المقال منذ شهرين وهذا ما انتهت إليه فلسفة أدعياء العلم والحضارة وصدق الله العظيم قال ﴿**لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثمّ رددناه أسفل سافلين**﴾ـ التين ٤ ـ ٥. ولا نظن أن هناك دركة أسفل من هذه التي يصبون إليها ويطالبون بها علنا في أكبر جريدة سيارة، ذلك بأنهم كفروا بالله وباليوم الآخر فهم لا يرجون لله وقارا وإذا دعوا إلى الحق يعرضون ويسخرون ويثنون أعطافهم كبرياء واعتذارا بما توصلوا إليه من علم ظاهر من الحياة الدنيا ولم يكتف هؤلاء بكفرهم وعصيانهم بل انطلقوا يعملون جاهدين في دعوة غيرهم من الناس إلى هذا الكفر والضلال بشتى أنواع الوسائل تحت عنوان العلم والفلسفة والرقي الفكري ﴿**ثاني عطفه ليظل عن سبيل الله**﴾ لذلك كان خطرهم عظيما وفتنتهم كبيرة ، لقد بعثوا بعثات في شتى الأوطان تحت عنوان المبشرين بدين المسيح وما أبعدهم عن دين المسيح الحق وبعثات أخرى للشيوعيين حريصة

كل الحرص على إضلال الناس لا يقر لهم قرار حتى تصبح الدنيا كلها شيوعية حمراء لا تدين بدين وجمعيات الماسونيين والوجوديين وأنواع أخرى من الشعارات التي ترمي كلها إلى محاربة الأديان لا سيما الإسلام وهم كلهم ينفقون ملايير من الأموال يضحون بمجهودات جبارة ويتعرضون للأخطار في سبيل نشر ضلالاتهم وياليت المسلمين أنفقوا بعض ذلك في سبيل الدعوة إلى الإسلام ونشره ولعلهم يعتبرون بهم فيقومون لهذا الواجب وقد بدأت تظهر بعض البوادر في هذا الميدان نرجو أن تستمر وتقوى حتى يرتفع هذا الدين الحق ويظهر على هؤلاء الأعداء الذين قال الله في عاقبة أمرهم : ﴿**له في الدنيا خزيٌ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾ إن الله سيذيقهم في الدنيا خزيا والخزي هو الفضيحة والهزيمة والهوان وقد يكون هذا بأيدي المسلمين وقد يكون بأيدي بعضهم فتنة بينهم ونكالا والله ينتقم من الظالم بالظالم حتى ينتقم منهم جميعا فهم لا يزالون في صراع عنيف وشقاق فيما بينهم فالحرب الباردة بينهم على أشدها ولم يصلوا بعد إلى الحرب الساخنة ولله عاقبة الأمور هذا خزي الدنيا ولعذاب الآخر أشد وأبقى، إن الله سيذيقهم يوم القيامة عذاب الحريق ويخلدهم فيه مهانين أبد الآبدين وذلك جزاء الكافرين وبئس مثوى المتكبرين وبئس مثوى الظالمين وأي ظلم أعظم من ظلم الشرك والكفر بالله وباليوم الآخر والسعي في إضلال الناس وإخراجهم من النور الى الظلمات، هذا عمل مردة الشياطين من الجن والإنس وكثيرا ما يبلغ كيد شياطن الإنس ما لا يبلغ كيد شياطين الجن أعاذنا الله من كيدهم جميعا وهؤلاء توعدهم بخزي الدنيا وعذاب الآخرة وسيكون عذاب الآخره هو الحريق في جهنم والخلود فيه أبد الآبدين جزاءاً على كفرهم وإضلالهم غيرهم من الناس ﴿**ذلك بما قدّمت يداك وأنّ الله ليس بظلام**

للعبيد﴾ ذلك الخزي المقدم في الدنيا وذلك العذاب الشديد الذي ينتظركم في الآخرة بما قدمت أيديكم جزاءاً لكم بما كفرتم وبما كسبت أيديكم من المعاص والموبقات وأن الله ليس بظلام للعبيد، إن الله لا يظلم عبيده ولا يجور في حكمه عليهم قد حرم الظلم على نفسه وكتب على نفسه الرحمة يحاسب العباد بالعدل ويؤتي فضله من يشاء منهم والله ذو الفضل العظيم وينتقم الله من أعدائه وينتصر لأوليائه منهم والله عزيز ذو انتقام.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ
حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ
ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا
لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ
مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

يأتي هذا الأسلوب من الكلام في كتاب الله في مواضع كثيرة في سور من القرآن الكريم ومن الناس، ومن الناس في بيان أصناف الناس من المؤمنين والكافرين ومن أهل الكتاب في معرض مدح وذم ويأتي أيضا في فضح أصناف المنافقين ويأتي كثيراً في سورة التوبة : ومنهم : ومنهم، ومن الأعراب وفي سورة البقرة وهنا في سورة الحج يبين صنفا من الناس هم المنافقون ومرضى القلوب من الذين لا يفقهون حقيقة الإسلام هذا بعد بيان أصناف الكافرين من المقلدين المضلين لغيرهم وبيان المقلدين لهم الضالين.

يقول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن اصابه خير اطمأنّ به وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ يبين الله تعالى صنفا من الناس يعبدون الله على حرف صنف من المنافقين ومرضى القلوب غير ثابتين على الإيمان فهم يعبدون الله لا على الرضى واليقين ولا على نية صادقة وثبات ولا ينظرون إلى ثواب الله في الدار الآخرة بل ينظرون إلى ثواب الدنيا فهم على حرف أي طرف من الدين بحيث لو أصابهم خير اطمأنوا به ولو فتنهم الله ببلاء انقلبوا على أوجههم وارتدوا على أدبارهم ناكصين على أعقابهم وكذلك يفتن الله الناس ببعض البلاء ليعلم الذين صدقوا في إيمانهم وليعلم الكاذبين وهو الذين قال لنا في كتابه ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنّا الذين من قبلهم فَلَيَعْلَمَنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾ ـ العنكبوت ١ـ٣. ويقول أيضا ﴿ولَيَعْلَمَنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين﴾ ـ العنكبوت ١١ـ . إن الله يعلم ما في صدور العالمين من مخلوقات ولكنه يريد أن يمتحنهم بأنواع البلايا وبعزائم الأمور حتى يظهر منهم الصادق الثابت على دينه ويظهر المذنب الذي سرعان ما ينقلب على وجهه، والتعبير بالإنقلاب على الوجه فيه ما فيه من الروعة والتعبير الصادق على قبح هذا الصنف المتقلب المنافق الذي إن أصابته فتنة ظهرت حقيقة نفاقه وقصده الدنيئ الذي انكشف في إنقلابه من ولاية الله والمومنين إلى ولاية الشيطان وأوليائه انقلابا من الأعلى إلى الأسفل لو صورت حقيقته لكان كانقلاب الجسد على وجهه في حمأة الأرجاس والأنجاس، فالتعبير دال على معنى النفاق المتهافت الذي لايثبت أصحابه على مبدأ واحد ولا يتحملون الأذى في سبيل عقيدتهم لأنها غير ثابتة في قلوبهم بل هي على حرف فإن أصابهم خير وأقبلت عليهم الدنيا بحظوظها من المال والصحة

وسلامة الأولاد اطمأنوا بهذا الإسلام وقالوا خيراً وإن أصابهم مرض أو فقر أو رزيئة في ولد أو قريب عزيز تشاءموا بالإسلام وانقلبوا على وجوههم فيكونون بذلك خسروا الدنيا والآخرة فهم في حيرة وارتباك وتخوفات ووساوس وهم منبوذون من هؤلاء وهؤلاء لاثقة لهم من الفريقين ولا مبدأ لهم ثابت وتلك هي خسارة الدنيا، وخسارة الآخرة إفلاسهم فيها من الحسنات لا خلاق لهم في الآخرة لأن ثواب الآخرة ونجاة الآخرة للمتقين الصادقين وهؤلاء لا تقوى لهم ولا صدق في إيمانهم فلا نجاة لهم ولا ثواب ولا نفع ذلك هو الخسران المبين، الخسران الفادح الذي لا ربح معه ولا ينال صاحبه خيراً روي أن يهوديا أسلم زمان النبي ﷺ وبعد أيام من إسلامه ذهب بصره ومات ولده وضاع ماله فتشاءم بالإسلام فذهب إلى النبي ﷺ فقال له أقلني وهو يظن أن الإسلام كسائر العقود التي تصح فيها الإقالة فقال له النبي ﷺ: أيها الرجل. الإسلام لا يقال، فقال اليهودي لم أصب من ديني خيراً ذهب بصري ومات ولدي وضاع مالي فأرجو أن تقيلني وما علم هذا الجاهل أن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك قطع الذهب والفضة وينفي عنها الزيف ﴿**إن هي إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدي من تشاء**﴾ـ الأعراف ١٥٥ـ . فالناس فريقان مؤمن وكافر والمنافقون والمذبذبون فريق ثالث لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهم يتربصون بالمؤمنين إن أصابهم ظفر وفوز انضموا إليهم وزعموا أنهم معهم من قبل وإن أصابتهم المصائب تركوهم وانضموا إلى أعدائهم يتزلفون إليهم وهذا الصنف من الناس موجودون في كل زمان وهو شر الأصناف ولا خير فيهم ولا في إيمانهم وإن أظهروا الإيمان فقلوبهم خاوية من الإيمان لا تعبد الله إنما هي أسيرة الأهواء لا تطمئن بذكر الله ولا ثقة لهم بوعده إذا نزل بهم مكروه بل يلتجئون إلى أوليائهم من شياطين الجن والإنس ويستعينون بهم في دفع المكروه وجلب

المحبوب وهم في ذلك طرائق وأحزاب فمنهم من يعبد الأوثان يعكف عندها ويتقرب إليها بأنواع القرابين ومنهم من يستغيث بالأموات ويطوف بأضرحتهم ومنهم من ينذر لأنواع الأصنام من الأشجار والأحجار والقباب والنصب ويهرعون إلى أصحاب الحروز والبخور والخزعبلات الذين يفتحون أنواعا من الكتب ويدعون علم الغيب وكل هؤلاء من سقط المتاع من النصابين والمشعوذين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويرهقون المغفّلين والبسطاء والجهلة من الناس الذين يهرعون إليهم ويحسنون الظن بهم ويسيئون الظن بالله تعالى وهم على غيره يتوكلون أولئك الذين وصفهم الله تعالى وعلم ما في قلوبهم فقال فيهم ..

«وفي أمثالهم من الضُلاّل» ﴿**يدعوا من دون الله ما لايضرّه وما لاينفعه ذلك هو الضّلال البعيد يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبيس المولى ولبيس العشير**﴾.هذا الصنف من الناس يدعون من دون الله ما لايملك لهم ضراً ولا نفعا فهم إنما يدعونهم ليدفعوا عنهم الضر أو يجلبوا لهم النفع وهم يخافونهم ويرجونهم وذلك هو الضلال البعيد، وصفهم الله تعالى بالضلال لأنهم فارقوا الطريق ووصف ضلالهم بالبعد ومن كان ضلاله بعيداً لا يرجى له رجوع إلى الهدى ويكون حينئذ مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء وقد لا يسمعون النداء لبعدهم عن مصدر النداء والدعاء الذي يدعوهم من الطريق المستقيم وقد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴿**يدعوا لمن ضره أقربُ من نفعه لبيس المولى ولبيس العشير**﴾المولى هو الذي ينصرك ويتولى أمرك إنهم يتولون من دون الله من لا ينفعهم ولا يضرهم ويتوكلون عليهم ويلزمونهم ويطوفون بهم ويلتجئون إليهم عند الشدائد ولا يلجئون إلى الله لأنهم لا يعرفونه في الرخاء ولا يطيعون رسله بل يطيعون

أهواءهم وشياطينهم التي تزين لهم سوء أعمالهم، إن هؤلاء كانوا في جاهليتهم الأولى يدعون الأصنام يعكفون عندها ويذبحون لها أنواع القرابين وأشكالهم اليوم في جاهلية عصرنا يلتجئون إلى الكهنة وأصحاب الخرافات الذين يدعون علم الغيب ويدجلون على الناس يكتبون لهم أنواع الحروز ويبخرون لهم ويزينون لهم ماهم فيه من زيارات القباب والأضرحة والذبح لها أولئك مواليهم في القديم وفي الحديث وعشراؤهم قال الله تعالى: ﴿**لبيس المولى ولبيس العشير**﴾ لا خير في المولى ولا خير في العشير المعاشر لا حبذا فيهما بئسما جعلوه لأنفسهم مولى من دون الله وعشيرا لايجلب لهم نفعا ولا يدفع عنهم ضررا بل هو إلى الضر أقرب ﴿**يدعوا لمن ضرّه أقرب من نفعه**﴾ ليس في الآيتين تكرار كما يبدو بادي الرأي، بل الآية الأولى تتكلم على عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع وكذلك العكوف عند القبور ودعاء الأموات، أما الآية الثانية فتشير إلى أولياء الكفار والمنافقين من الشياطين من الجن والإنس الذين يضلونهم عن سبيل الله ويأكلون عليهم أموالهم بالباطل، ويدخل في زمرة هؤلاء الذين يتزلفون إلى الملوك والرؤساء بالرشا وأنواع الهدايا وقد يرفعون إليهم الوشايات إرضاء لهم وابتغاء ما عندهم وقد ينقلبون عليهم ويضرونهم بأنواع الأضرار وكثيراً ما يسجنونهم أو يقتلونهم وقد يرهقونهم بأنواع الغرائم والخدمات ولا ينالون مقابل ذلك نفعا ﴿**لبيس المولى ولبيس العشير**﴾ ولو كان لهؤلاء عقول لعلموا أن هؤلاء الأولياء لا تغني عنهم من دون الله شيئا وإذن لعبدو الله وأطاعوا رسوله واتخذوه ولياً ويا نعم المولى ويا نعم النصير، فهو الهادي لمن استهداه والشافي لمن استشفاه والمطعم من أستطعمه وهو نعم المولى لمن تولاه ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾ - محمد ١١- .قال لنا في كتابه الكريم ﴿**واستعينوا**

بالصبر والصلاة﴾ـ البقرة ٤٥ ـ .إذا نابك أمر فافزع إلى الصلاة وتضرع إلى ربك بالدعاء تجده سميعا قريبا مجيبا وكان النبي ﷺ إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة وكذلك صحابته وتابعوهم من السلف الصالح والخلف المقتدين بهم يرغبون إلى ربهم ويتوكلون عليه في أمورهم كلها حنفاء لله غير مشركين به وفي مثل هؤلاء يقول الله تبارك وتعالى في الآية التالية:

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

جاءت هذه الآية تذييلا لما سبق ليبين أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات جزاؤهم عند الله الجنات التي تجري من تحتها الأنهار لا السلامة من مصائب الدنيا وأكدارها فإن الله لم يعدهم بذلك بل أخبرهم أنهم سيبتلون في أموالهم وأنفسهم وسينالهم الأذى من الذين يعادونهم في الدين ووعدهم لمن صبر على ذلك الجزاء الأوفى ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ـ الزمر١٠ـ .وهذا الجزاء للمؤمن الصادق في إيمانه الصابر على ما أصابه مقابل لما ينتظر المنافقين المذبذبين من الخزي في الدنيا وعذاب الحريق في الآخرة، وآيات القرآن مثاني تأتي بالوعيد ثم تعقبه بالوعد وقد تبدأ بالوعد قبل الوعيد وفي هذا موعظة للمؤمنين وتهذيب لنفوسهم وتوطين لها على الصبر والثبات على الحق وترغيب لها فيما عند الله من الثواب الجزيل وهو ثواب عظيم حقا﴿**جنات تجري من تحتها الانهار**﴾ لا تنقطع ثمارها ولا تيبس أنهارها ظلها دائم وأكلها تلك عقباهم التي تنتظرهم وينتظرونها ثم يأتي التذييل الأخير للآية هكذا ﴿**إن الله يفعل ما يريد**﴾ليبين لنا الله تبارك وتعالى أن الأمور تجري في الدنيا بإرادة الله وفي الآخرة بإرادة

الله فـلا يكون إلا ما قـضاه الله وقـدره وأراده فلا يرد قـضاءه أحـد ولا يدفع إرادته جن ولا إنس ولا ملك ومن كان كـذلك فلنتوكل عليه وحـده ونتولاه وحده ولاية من يعتـمد عليه في أموره كلها ونغفل عن كل مـا سواه وكل ما سواه مـحتاج إليه ثم هـو ملك يوم الدين الواحد القهـار يدخل من يشاء في رحمته ويعذب من يشاء ولا معـقب لحكمه ولا راد لقضائه ومن كان كذلك نعـبـده وحـده مخلـصين له الدين حنفـاء راجين ثوابه خـائفين من عـقـابه، والتذييل هنا بهذه الكلمة متمكن أيما تمكن فيه مافيه من الروعة والبلاغة وفيه بيان عاقبـة الإيمان الصادع والعمل الصالح وفيه بيان خـيبة الذين يدعون من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله وبيان خسرانهم في الدنيا والآخرة :

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

اضطرب المفسرون في معنى هذه الآية وتبـدو للناظر باديء الأمر صعبة الفهم وقليل من الناس من يفهمها على وجهها والذي نراه في تفسيرها وهو الصـواب إن شاء الله أن مـرجع الضمـير مـن هذه الأفعـال إنما هو إلى صلة الموصول الذي هو «من» ليـتصل المعنى بما قبله فـالكلام هنا عن هذا الصنف من الناس الذين ساءت ظنونـهم بالله فذهبوا يدعون غـيره ويلتمـسون النفع ودفع الضـر عند غيـره من الأوليـاء ويظنون أن الله أهانهم بما أصـابهم به من البلاء وقبض بعض النعم عنهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ومـا أصـابهم الله إلا بـبـعض ذنوبهم ولو عـقلوا وأنـصـفـوا لأدركـوا ذلك وأحسنوا الظن بالله ورضوا بقضائه وصـبروا على إبتلائه ولـم يحسدوا الناس

على ما آتاهم الله من فضله، إن هؤلاء يسيئون الظن بالله ويقنطون ويظنون جهلا أن الله لن ينصرهم في الدنيا والآخرة فترى الواحد منهم يغتاظ عندما يصاب ويحسدون أهل السلامة وعندما تزوى عنهم بعض النعم يحسدون أهل النعم ويغتاظون على قضاء الله وقدره ولا يرضون بقسمته ولا يرتاحون لها لأن نظرهم مقصور على هذه الدنيا ولا يرجون الآخرة ويظنون أن الله لن ينصرهم في الآخرة كما لم ينصرهم في الدنيا لأنهم ناس يتشاءمون بالقدر ولايؤمنون الإيمان الراسخ الذي يدركون به أن البلاء من الله لأوليائه رحمة بهم ليغفر لهم ذنوبهم وليرفع درجاتهم يوم القيامة بما صبروا في الدنيا يقول الله تعالي :

﴿من كان يظنّ أن لّن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبنّ كيده ما يغيظ﴾ من كان يظن من هؤلاء المذبذبين الذين يعبدون الله على حرف وهؤلاء المنافقين الذين يدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم من كان يظن منهم أن الله لا ينصره ولا يرزقه ولا يدفع عنه المكروه ويغتاظ على قسمته ولا يرضى بقضائه ويظن أن لا ينصره في الآخرة بحسن العاقبة والعاقبة للمتقين، من كان يظن بالله ذلك فليمدد بسبب إلى السماء فليربط بحبل فوق رأسه على سقف البيت أو جذع شجرة أو نخلة وليشنق نفسه به ثم ليقطع صلته بما تحته ولينظر هل يذهبن كيده بما يغيظ، أنه يموت بغيظه ولا يزيده كيده هذا إلاّ هماً على هم وغماً على غم وكذلك ينتحر المنافقون والمذبذبون عندما يخيب أمل أحدهم في هذه الحياة ويظنون أنهم بذلك يذهبون غيظ قلوبهم بالإنتحار وهم إنما يستجيرون من الرمضاء بالنار ويذهبون إلى سخط الله وعذابه المستمر وهذا جزاء من لا يثق بالله ولا يؤمن به ولا يحسن الظن به، يكيدون ولا يرجع كيدهم إلا على أنفسهم وكذلك من يحمل الغيظ على قضاء الله وقدره

والتعبير القرآني هنا في هذه الآية يتجلى في صورة رائة ومشهد معبر عن حالة هؤلاء وضعفهم وحقارتهم وهوانهم على الله وإن كفرهم ومكرهم لا يغير من قدر الله شيئا ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فاولى لهم أن يؤمنو بالله ربهم ويحسنوا الظن به وينظروا إلى قدره وقسمته بعين الرضا ويبتغوا عنده ثواب الآخرة لو كانوا يعقلون والآخرة خير وأبقى وقد تبين في الآية السابقة جزاء الله الأوفى للذين آمنوا وعملوا الصالحات فالآية متمكنة أيما تمكن معبرة أصدق تعبير بما عرضته من مشهد الذين يدعون من دون الله أولياء وهو مثل ضربه الله لهؤلاء الذين لا يعقلون هؤلاء المنافقون والمذبذبون ينتحرون إحتجاجا على قد الله وتحديا لقضائه وما غيظهم هذا بنافعهم إنما ينقلهم من غم إلى غم أشد وأبقى والمؤمنون يدخلهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءهم على صبرهم في الدنيا وحسن ظنهم بربهم ورضاهم بقضائه وقدره فشتان ما بين الفريقين ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم**﴾ - محمد ١١ - هذا هو المعنى الذي نراه للآية وهو مناسب لما سبقها من الآيات ثم يعقب الله تعالى بآية فيها بيان سلطان الله وأن كل شيء في هذا الكون انما هو بإرادته وأنه لم يترك خلقه حيارى بل أنزل عليهم من الكتب ما فيه هداية من أراد الله هدايته واسعاده فيقول تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

وكذلك أنزلناه أي القرآن آيات هي هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان إن الله تعالى لم يترك عباده سدى بل أنزل عليهم الهدى في آيات

بينات لا لبس فيها ولا غموض من تدبرها علم أنها من الله هداية للبشر وهذه الهداية عامة للناس جميعا وهي هداية إرشاد وبيان أوجبها الله على نفسه ﴿إن علينا للهدى﴾ ـ الليل ١٢ـ .أما الهداية الخاصة التي هي هداية إيصال فهي لمن أراد الله إسعاده خاصة، ذلك بأن الناس على طوائف فمنهم من يفتح بصيرته لآيات الله يسمع ويتدبر وينتفع ويهتدي ومنهم من لا يرفع بذلك رأسا، وهم أهل الشرك والضلال ومنهم من يعرف الحق ويجحده ظلما وعلوا ومنهم من يظهر له الحق ولكن سرعان ما يختفي لغلبة أهوائهم عليهم وظلمهم لأنفسهم بالمعاصي والمخالفات وهم المنافقون والمذبذبون ﴿فإن تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ ـ المائدة ٤٩ ـ .إن هداية الله الخاصة لاتكون إلا وفقا لإرادته ولا يقع في ملكه إلا ما يريد وفضل الله يؤتيه من يشاء وما ربك بظلام للعبيد، ثم يبين الله أصناف العباد تجاه كتبه المنزلة وأنبيائه المرسلة وإختلافهم في ذلك .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يقول صاحب العقيدة رحمه الله «ليس مناّ من لم يعلم الملل الست ولم يعلم الحكم بينهم» والآية تتكلم عن الملل الست بتفصيل وهم أولاً الذين أمنوا بهذا النبي وسائر أنبياء الله وبهذا القرآن وبسائر كتب الله وهم الناجون وثانيا الذين هادوا وهم الذين يزعمون أنهم اتباع نبي الله موسى عليه السلام

وثالثا الصابئون يقال أنهم اتباع نبي الله نوح عليه السلام ثم بدلوا وغيروا وقال شارح العقيدة قيل أنهم قوم اختاروا مطائب التوراة ومطائب الانجيل فقالوا أصبنا دينا واختلفوا فيهم ما هو دينهم وما هي عقائدهم وهي على كل حال خاطئة ورابعا وهم النصارى وهم الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح عليه السلام وهم ضالون بقولهم إن الله ثالث ثلاثة وبكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن وخامسا وهم المجوس عباد النار وعباد الشمس والقمر وقد كانوا عند نزول القرآن في بلاد فارس وما والاها كانت لهم نيران يعبدونها ويقدسونها ولا تنطفئ ولكنها انطفأت ليلة ميلاد النبي محمد ﷺ إيذانا بزوال دينهم الباطل بظهور الدين الحق وقد قفاهم الغربيون اليوم فاتخذوا نارا مشتعلة على قبر الجندي المجهول ومن رأى قوس النصر في باريس فقد رأى هناك قبر الجندي المجهول ورأى فوقه نارا مشتعلة يقفون عندها في كل ذكرى وبعض ذلك من بعض ومن المجوس من يعبد الشمس ومنهم من يعبد القمر ومنهم من يعبد الزهرة ومنهم من يعبد عطارد ومن يعبد المريخ وما من كوكب من الكواكب السيارة إلا لها عباد منهم. وسادسا الطوائف الذين أشركوا والشرك نوعان: شرك جحود وشرك مساواة وذلك أنواع كثيرة وكل الطوائف موجودة وأنواع الوثنيات تعد بالآلاف وتدخل تحت عنوان الشرك وهذه الستة طوايف المذكورة في الآية هي أصول الديانات المنتشرة في العالم والدين الحق هو دين الإسلام وهو الذي جاءت به رسل الله وقد بشرت برسالة محمد ﷺ فمن كفر به فقد نبذ الإسلام وراءه ولن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿**إن الله يفصل بينهم يوم القيامة**﴾ إن الله يفصل يوم القيامة بين أهل هذه الديانات وبين المحق من المبطل وكل يدعي أنه على حق وآيات الله البينات قد بينت الحق لمن يطلبه ويريد أن يكون من المهتدين.

﴿ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ـ المائدة ٥ ـ .

إن الله يضرب يوم القيامة سورا بين أهل الهدى وأهل الضلال باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴿إنّ الله على كل شيء شهيد﴾إن الله الذي يفصل بينهم شهيد على كل شيء عالم بعقائدهم ودياناتهم عالم بأعمالهم وتصرفاتهم لا تخفى عليه خافية منهم وسيكون فصله وحكمه بعلمه وعدله يوم يجمعهم ليوم الجمع﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله﴾ـ الانفطار ١٩ـ .خالقهم ومحييهم ومميتهم وباعثهم ومحاسبهم ومجازيهم ومالك أمرهم وعالم سرهم وعلانيتهم﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾الآية تذييل محكم لما سبق من الآيات البينات تبين أن الأمر كله بيد عالم الغيب والشهادة وإليه تصير عواقب الأمور فهو الذي يفصل بين عباده يوم الفصل يوم يحشرون إليه ومصيرنا كلنا إلى الله﴿ألا إلى الله تصير الامور﴾ـ الشورى ٥٣ ـ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ
لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

يخاطب الله تعالى نبيّه محمد ﷺ خطاب تعجيب وإلفات نظر والخطاب لنا جميعا انظروا واعجبوا واعتبروا بكل ما خلق الله في الدنيا فهو خاضع لخالقه ساجد له مطيع لا يتعاصى على أمر الله، كل ما خلق الله من حيوان أو نبات أو جماد يسبح لله ويسجد لسلطانه إلا بني آدم افترقوا واختلفوا فمنهم من هو خاضع ساجد لله وكثير منهم حق عليهم العذاب فهم لا يسجدون لله ويستنكفون عن السجود له والإعتراف بالعبودية لله إذا قيل لهم أركعوا لا يركعون كفرا وعنادا﴿**قتل الانسان ما أكفره**﴾- عبس ١٧ - .والحال أن الله أعطاه عقلا فالمفروض أن يكون أطوع خلق الله لله شكرا لنعم كثيرة مازه الله بها وفضله على كثير من خلقه تفضيلا، سجد لله ما في الأرض من الإنس والجن ومن حيوان وأشجار وجبال وسجد له من في الأرض من عباده المسلمين وسجد له من في السموات من الملائكة وغيرهم ولعل هناك في الكواكب مخلوقات لله تعبده وتسجد له وسجد لله الشمس والقمر والنجوم وامتنع من السجود له من كتب عليه الشقاء من الإنس والجن﴿**ومن يهن الله فماله من مكرم إنّ الله يفعل ما يشاء**﴾الأمور بإرادة الله ومن يكتب الله إهانته وتخليده في العذاب فماله غير الله من مكرم لا أحد يكرمه بعد أن أهانه الله وكتب عليه الشقاء أولئك ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم دعوا إلى كرامة الله فأبوا وامتنعوا واستحبوا العمى على الهدى يهدي الله من يشاء ويضل من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وليس لأحد أن يعترض على الله أو يتكلف ويتدخل فيما ليس له به علم فإن وراء ذلك سرا من أسرار الله لا مطمع لأحد من الخلق في استكناهه وذلك ما عطف قلوب الأبرار من خلق الله فأنابوا إلى ربهم يسألونه الهداية والعون والتوفيق وليس لهم إلا الخضوع والسجود والتضرع والدعاء فإنه لا حول عن معاص الله إلا بعصمة من الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون من الله

والأمر كله لله من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له ولا عزيز إلا من أعزه الله بعز الإيمان وعز الطاعة ذلك هو العز الحقيقي تراهم أعزاء ولو أذيقوا شيئاً من هوان الدنيا ولكن حسن ظنهم بربهم وتعلقهم به جعلهم يحتقرون عذاب الدنيا ونعيمها وتصبوا قلوبهم إلى حسن العواقب في الآخرة ويعتصمون بعزة الله فهم أعزاء دائما ولو رآهم غيرهم في ذل أما أهل الكفر والمعاصي فهم أذلاء قد أذلتهم معاصيهم وأهانتهم عند أنفسهم وعند الله وسيلاقون الهوان عنده فهم في الحقيقة أذلاء مهانون وإن رآهم الجهلاء من الناس في عز ونعيم فمن أراد العز والإكرام فليطلبهما من الله مالك الملك ذي الجلال والإكرام واهب العز والإكرام لعباده المؤمنين مهين أعدائه الكافرين والمنافقين.

﴿إنّ الله يفعل ما يشاء﴾ والناس في هذين الأمرين فريقان مختصمان مختلفان.

هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ
فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ
يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي
بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢

يبين الله لنا في هذه الآية الفصل بين الفريقين المختصمين في الله يوم القيامة يوم يبعثون والخصم يطلق في اللغة العربية على الواحد وعلى

الجماعة وجاء في هذه الآية على معنى الطوائف والفرق اختصموا في ربهم في وجوده وتوحيده والإيمان به وبأنبيائه ورسله وكتبه واليوم الآخر، فريق آمن بكل ذلك وفريق كفر به أو ببعضه فاختلفوا في ذلك واختصموا فأصحاب الفلسفات ينكرون وجود الخالق أو ينكرون وحدانيته أو ينكرون البعث بعد الموت ويسخرون من الذين آمنوا بربهم ووحدوه وآمنوا بأنبيائه ورسله وكتبه والبعث بعد الموت وأحلوا الحلال وحرموا الحرام وطائفة أخرى آمنوا ببعض الكتاب وكفرت ببعض فهم كالذين كفروا لهم خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وسيحكم الله بينهم يوم القيامة وطوايف اليهود والنصارى آمنوا ببعض أنبياء الله وكفروا ببعض وألهوا رسلهم وغلوا فيهم.

﴿وقالت اليهود عُزَيْرُ ابنُ الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ - التوبة ٣٠ - .واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال فيتبعونهم وسرت هذه الوثنيات إلى طوائف من هذه الأمة واختصم الجميع في ربهم وفي صفاته وفي أنبيائه ورسله وآمن الرسول والمؤمنون بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه ويوم القيامة يفصل الله بين المتخاصمين ويحكم بينهم بالحق وقد بيّن الله لنا الحق في القرآن ولهذا سماه فرقاناً لأنه يفرق بين الحق والباطل والعجب أن الناس اختلفوا بعد نزول القرآن في معاني القرآن واختصموا فيها فخطأ بعظهم بعضا وكفر بعضهم بعضا ويوم القيامة يفصل الله بينهم بحكمه الحق ويجازي كلاً بما يستحق.

﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثيابٌ من نار يُصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا

أن يخرجوا منها من غمٍّ أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾. قطعت والتقطيع هو تفصيل الثوب على قياس لابسه وهؤلاء المنعمون المترفون من الكفار الذين كانوا يرفلون في ثياب الحرير الفاخرة في الدنيا تقطع لهم سرابيل من قطران النار تشتعل عليهم نارا لا تنطفي ولا تخبو ويصب من فوق رؤوسهم الحميم البالغ أقصى درجات الحرارة ويسقونهم في بطونهم فتقطع أمعاءهم وتنصهر لحومهم وجلودهم ثم يبدلهم الله جلودا غيرها في الحين ليذوقوا العذاب المستمر ولهم مع كل هذا مقامع أي مطارق من حديد بأيدي زبانية غلاظ شداد كلما أرادوا أن يخرجوا من غم النار وعذابها ضربتهم الزبانية بها ضربة يندفعون بها في النار حتى يعودوا إلى مواضعهم من العذاب أسفل سافلين وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق الذي كنتم به تكذبون وفي هذا القول الذي يخاطبون به يومئذ تبكيت بهم وقمع لهم وعقاب لهم على خصامهم لأهل الحق في الدنيا واستهزائهم بهم لقد كانوا يدفعون بأقوالهم الخاطئة في صدور الذين يدعونهم إلى الحق والإيمان ويجادلونهم في صلف وكبرياء أمر الجدال ويقمعونهم بالتعذيب والأذى فجازاهم الله على ذلك بعذاب يقمعهم في جهنم ويعيدهم فيها بمقامع من حديد كلما أرادوا الخروج منها وما هم بخارجين منها وهي عليهم موصدة في عمد ممددة ويشتد العذاب ويتضاعف إذا غلقت الأبواب وأوصدت ووقفت الزبانية بأيديهم مقامع الحديد يضربون بها المعذبين ويذيقونهم ألوان الخزي والهوان وهذا لهم من الله جزاء وفاقا على ما كانوا يظلمون الناس ويبغون عليهم في الدنيا ويسخرون بالذين آمنوا منهم، بينما يجازى فريق من الخصمين بهذا الجزاء الفظيع ويخاطب بهذا الخطاب القاسي.

﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾إذا بالأسلوب يرق ويلين في بيان مصير الخصم الآخر المحق وفي تغيير الأسلوب إيذان بفرق ما بين المصيرين وبعد ما بينهما ويا بعد ما بين فريق أهل الجنة وفريق أهل السعير ﴿**لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾ـ الحشر ٢٠ ـ . لا يستوون هنا حتى في الأسلوب الذي يصنف مصير هؤلاء ومصير هؤلاء، إن المتأمل ليدرك الفرق الشاسع بين التعبيرين فما على القارئ إلا أن يتدبر فيدرك الفرق فأحد الأسلوبين يبرق ويرعد بالعذاب والنكال والأسلوب الثاني ينبض بالرحمة ويتضرع العبير والنعيم.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا
مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾
وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

بينما يبين الأسلوب القرآني الحكيم أن أهل النار تقطع لهم ثياب من نار وحليهم السلاسل والأغلال ويذاقون ألوان الخسف والهوان فيها، إذا به يبين مصير أهل الجنة يكرمون فيها ويحلون فيها بأساور الذهب ويلبسون الحرير وهو لباسهم العادي لا يلبسون غيره وشتان ما بين الفريقين وبعد ما بين المصيرين ! ﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار**﴾ إن الله ولي الذين آمنوا وعملوا الصالحات لقد آمنوا بالله وكفروا بما سواه من الطواغيت وكللوا إيمانهم الصادق بالعمل الصالح إن الله يدخلهم بإيمانهم هذا جنات تجري من تحتها الأنهار فهي جنات واسعة ملتفة الأشجار كثيرة الفواكه والثمار تجري أنهارها من تحت أشجارها وقصورها

تزيدها جمالاً وبهاء وتضمن دوام اخضرارها وإثمارها وهم في هذه القصور والجنات منعمون يحلون فيها من أساور من ذهب كما يحلي الناس ملوكهم في الدنيا بالذهب فهم ملوك في ملك لا يبلى يتوجون بتيجان الذهب واللؤلؤ ويحلون بأساور الذهب واللؤلو ولباسهم في الجنات الحرير الناعم السندس والاستبرق ويتكئون على أرائك مبطنة برفرف خضر وعبقري حسان وقد نزع الله ما في صدورهم من غل إخوانا .

﴿وهدوا إلى الطيّب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾ بعض المفسرين جعل هذه الهداية إلى القول الطيب في الجنة يعني أن الله هداهم في الجنة إلى الطيب من القول فهم لا يقولون إلا كلاماً طيبا ولا يسمعون إلا كلاماً طيبا هداهم الله الحميد إلى صراطه الحميد الذي هو العشرة الطيبة والكلام الطيب الذي يدخل على النفوس السرور والارتياح فهم لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما هذا تفسير البعض والبعض يجعل هذه الهداية في الدنيا وإنها هي التي كانت السبب في نيل الجنة والخلود في نعيمها الدائم هداهم الله في الدنيا إلى الطيب من القول وهو قول ﴿لا إله إلا الله﴾ وما تثمره هذه الكلمة من الأقوال السديدة الطيبة وإذا استقام اللسان استقامت الجوارح بالأعمال الصالحة وذلك هو صراط الحميد الذي هداهم الله إليه بإيمانهم الثابت في قلوبهم نطقوا بكلمة الإيمان الطيبة مخلصة بها قلوبهم واستقاموا عليها فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم وأضاف الصراط هنا إلى الحميد أي صراط الله الحميد وصراط الدين الحميد للمناسبة بين الهداية والحمد فهم يحمدون الله الذي هداهم ويحمدون عاقبة سراهم وصراط الحميد حميد ولو كان مفروشا بالشوك وصراط المغضوب عليهم والضالين مذموم ولو فرش بالحرير والزهور فالسبل إنما تقدر بغاياتها والأمور بنهايتها وقد علمنا الله أن ندعوه في سورة الفاتحة أن يهدينا الصراط

المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك والهداية هنا هداية إيصال وتوفيق نسأل الله أن يمن علينا وعلى عباده المؤمنين بنعمة الهداية آمن .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

بعد أن بين الله الملل الستة وأن الله يفصل بينهم يوم القيامة وذكر الخصمين المختصمين في ربهم وبين عاقبة كل فريق من الخصمين في دار الجزاء عاد إلى ذكر الذين كفروا مرة أخرى ليبين لجاجهم في كفرهم وعتوهم وبين الآيتين لف ونشر ففي الآية السابقة ذكر الكفر مجملا وفصل ذكر عقوبة الكافرين وفي هذه الآية أجمل ذكر العقوبة وبسط القول في بعض ما يصل إليه الكفر من الظلم في أعتى مظاهره وصوره وهو الصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، لقد جاء الحكم صارماً ومؤكدا على هؤلاء الكفرة لم يكتفوا بكفرهم وتمردهم على الله وعصيانهم لرسله حتى راحوا يظلمون الناس ويفتنونهم في دينهم فهم يصدون الناس عن سبيل الله بمختلف أنواع الصد فهم يصدونهم بالكذب على محمد ﷺ ووصفه أنه ساحر أو مجنون أو الافتراء على الله فهم يجلسون على الثنايا يتلقون الناس الوافدين إلى مكة ليفتنوهم قبل أن يلقوا محمد ﷺ ويصدون الذين تحت سيطرتهم بالعنف وأنواع الأذى وبالقتل تارة فكم عذبوا عبيدهم وإماءهم ومواليهم وآذوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين الأوائل ولم يتركوهم

يصلون في المسجد الحرام وصدوهم عنه واضطروهم أن يعبدوا الله خفية في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي رضي الله عنه صدوهم عن المسجد الحرام أن يصلوا فيه لله وهم في مكة قبل الهجرة واستمروا في هذا الصد حتى صدوهم عن الدخول إليه لأداء أعمال العمرة بعد أن طووا إليه المراحل العديدة حتى صاروا على رمية سهم من الحرم فمنعوهم عن المسجد الحرام الذي جعله الله حرما آمنا يثوب إليه كل الناس وقد جعله الله محل العبادة لكل الناس سواء العاكف فيه أي المقيم في مكة والبادي أي الذي يقصده من خارج مكة من بعيد أو قريب لا فرق في حرم الله بين القاصي والداني يأتيها الناس من كل فج عميق فمن صد الناس عن دخوله أو الإقامة فيه للعبادة والطواف بالبيت فهو ظالم يستحق العذاب الأليم ﴿**ومن يرد فيه بإلحاد بظلمٍ نذقه من عذاب أليم**﴾ قال كثير من المفسرين أن معنى هذه الآية أن الله يعاقب في مكة خاصة على إرادة الظلم بمجرد الإرادة ولا غرو فهو بلد تضاعف فيه الحسنات وكذلك تضاعف السيئات ومعصية الله في بلد مقدس وحرم أمين جعل للعبادة أمر كبير قالوا لأن الله قال هو من يرد، فهو يعاقب على الإرادة حتى ولو لم يقع الفعل والإلحاد هو الميل والإنحراف عن طريق القصد ومن اللحد وهو القبر الذي يحفر ثم يلحد إلى جانب من جانبي القبر وكذلك الملحد في الدين يتجنب السدد ويميل عن القصد والظلم يشمل كل أنواع الظلم ظلم النفس بالمعاصي وظلم الغير والشرك بالله ظلم عظيم وصد الناس عن سبيله وعن المسجد الحرام أن يعبدو الله فيه هو أفظع أنواع الظلم والفتنة أكبر من القتل وسيكون عقابهم عنده أن يذيقهم العذاب الأليم هم وسائر الظالمين في الحرم كل بمقدار ظلمه وقال بعض أهل التفسير أن الله لا يعاقب على الإرادة حتى يقع الظلم للحديث

الوارد في الموضوع أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة وأن الله لا يعاقب هذه الأمة بما حدثت به نفوسها ما لم تعمل به فإرادة الظلم هنا معناها إرادته وفعله والله لطيف بعباده فإذا وقع الظلم فإن الله شديد العقاب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ
بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ
لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

في الآيات السابقة ذكر الله تعالى البيت الحرام وحرمته العظيمة عند الله تعالى ومن ذلك أن الحسنات تضاعف فيه وكذلك السيئات فمريد الظلم فيه يذيقه الله من عذاب أليم، بعد ذكر هذا يستمر الكلام في تاريخ بناء هذا البيت ومن هو بانيه وبأمر من وما القصد من بنائه وما هي أنواع العبادة التي تؤدى فيه كل هذا يأتي ذكره في هذه الآيات البينات.

﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ والبيت إذا كان ذكره مجردا من الإضافة فالمراد به بيت الله الحرام لشرفه وامتيازه بالقداسة والحرمة على سائر بيوت الدنيا بما فيها المساجد، لأن المساجد إذا ذكرت فبإضافتها إلى الله وقد يضاف البيت الحرام إلى الله تعالى وقد يأتي هكذا معرفا بالألف واللام ولا يراد به إلا الكعبة، ﴿وإذ بوّأنا﴾ أي أنزلناه وعيّنا له مكان البيت ليجدد بناءه وهذا نفهمه ويفهمه جمهور العلماء من قوله تعالى: ﴿مكان البيت﴾ فهنالك إذن مكان لهذا البيت قديم فليس إبراهيم أول بانٍ له بل هو مجدد له بعد أن رفعه الله يوم الطوفان، قيل كان البيت يلقبونه حمراءً، بنته الملائكة قبل أبينا آدم عليه السلام وثم رفع عند طوفان نوح عليه السلام وهذا الذي رآه جمهور المفسرين مناسب لأن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿إنّ أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكّة مباركاً وهدىً للعالمين﴾ ـ آل عمران ٩٦ ـ فلا يمكن أن يبقى الناس بدون بيت للعبادة قبل مجيئ إبراهيم عليه السلام وقد سبقه أنبياء أمروا بالصلاة والعبادة كما أمر إبراهيم ومن بعده عليهم السلام أجمعين فتبويئ الله إبراهيم مكان البيت إنزاله إياه المكان الذي كان وضع البيت الحرام أول الأمر.

﴿ألاّ تشرك بي شيئا وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والرّكع السجود﴾ ﴿ألاّ تشرك بي شيئا﴾ أي أوحينا إليه ألاّ تعبد مع الله شيئا ولا تشرك بعبادة ربك أحداً فاعبد الله مخلصا له الدين حنيفا وابن هذا البيت لله خالصا مخلصا نيتك في ذلك لله وطهره من الشرك والأنجاس أي ليكن هذا المسجد طاهرا من الوثنية والأصنام لا يعبد فيه غير الله رب البيت وليكن طاهرا من جميع النجاسات وفي هذا إرشاد للنبي محمدﷺ أن تكون غاية غاية دعوته اخلاص الدين لله وتطهير بيته الحرام من الوثنيات التي أحدثها

المشركـون فيـه ومن الطواف بالبيت عـراة فقد كـانوا عند نزول هذه الآيات يطوفون به عراة وقد كانوا وضعوا في الكعبـة وحولها أصناما كثيرة يطوفون بها ويعكفون عندها ويتقربون إليهـا بأنواع القرابين فأمر الله لإبراهيم بتطهير البيت أمر للنبي محمد ﷺ أن يقـتدي بأبيه إبراهيم عليه السلام ونَسبَ الله البيت إليه نسبة تشريف فقال:

﴿وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والرّكع السّجود﴾..

والطواف بالكعبة أعظم عبادة لله فـيه ولذلك بداية فهو الغرض الأَسْمَى من بناء البيت وتطهيره ثم بعد الطواف حوله القيام للصلاة والدعاء في مقام إبراهيم وفي الملتـزم وفي جمـيع المسـجد ثم في جـميع أقطار الأرض أينمـا وقف القائم لـلصلاة يتوجـه شطر المسجـد الحرام **﴿جعل الله الكعبة البيت الحـرام قيامـاً للنّاس﴾** ـ المائدة ٩٧ ـ ويستـحسن في غـير الصلاة إسـتقـباله بالدعاء والتـلاوة والذكر وخيـر المجالس ما اسـتقبـل به الكعبة كـما ورد في الأثر ولا تقبل صلاة لا يستقبل بهـا الكعبة وهي رمز لوحدة المسلمين واتحاد وجهتهم فهم يتوجـهون بوجوههم إلى قبلة واحدة وبقلوبهم إلى رب واحد وهو رب هذا البـيت الذي وحّد صـفـوفهم وقلوبهـم فهم يولّون وجـوهـهم شطر المسجد الحـرام ويستقبلونه بالقـيام والركوع والسجـود ثم هم يحجّون إليه كل عام إستجـابة لنداء ربهم الذي ناداهم به نبيه إبراهيـم وذلك يوم فرغ من بناء البيت هو وإبنه إسـماعيل عليهـما السلام أمره الله يومئـذ بهذا النداء العام للناس كافة أهل زمانه ومن بعدهم حتى تقوم الساعة.

﴿وأذّن في النـاس بالحجّ ياتـوك رجـالاً وعلى كـل ضـامـرٍ ياتـين من كل فجّ عـميقٍ ليشـهدُوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيّامٍ معلوماتٍ على مارزقـهم من بهيمةِ الانعام﴾ أمر الله عبده ونبيه وخليله إبراهيم عليه السلام

بالأذان بالحج والأذان هو الإعلام والنداء والحج هو القصد وهو هنا قصد البيت الحرام لأداء مناسك خاصة شرعها الله لعباده ليعبدوه بها في المسجد الحرام وحوله وفي عرفات وروي أن إبراهيم عليه السلام قال:

يارب وما يبلغ صوتي فقال له ربه: عليك الأذان وعلينا البلاغ فامتثل إبراهيم أمر ربه فصعد على جبل أبي قبيس وقيل على الصفا فأذن ونادى أيها الناس إن الله بنى بيتاً وأمر أن تحجوه فحجوا بيت ربكم فأبلغ الله صوته الناس جميعا حتى الذين في أرحام أمهاتهم وأصلاب آبائهم فلبى من كتب الله أن يحج بعدد حجاته فسبحان الله وسع علمه وقدرته كل شيء وقد اكتشف الناس اليوم هذه التموجات التي في الفضاء والتي تنقل الأصوات من أقصى الأرض إلى أقصاها في طرفة عين والكل من صنع الله الذي أتقن كل شيء وقد علم الله أنَّ صوت إبراهيم سيسمعه الناس كلهم وسيبلغهم إياه رسل الله في الكتب المنزلة ولذلك قال:

﴿ياتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ ياتين من كلّ فجٍّ عميق﴾

ياتوك ملبين لله قاصدين بيته رجالاً أي على أرجلهم ماشين وتقديم الرجال على الركبان دليل على فضل المشي وروي أن الملائكة تعانق المشاة وتصافح الركبان والأجر على قدر التعب لا سيما في هذا السبيل فمن أفضل القربات أن تقصد بيت الله للحج ماشياً على رجليك وإن ركبت إليه فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فقد قال الله :

﴿وعلى كل ضامرٍ﴾ أي وعلى كل مطية ضامرة البطن هزيلة بكثر المشي وطول الطريق وقد يضمّر الناس إبلهم وخيلهم قبل الإنطلاق ليكون ذلك سببا في خفتهن للسير لقطع المسافات في وقت قليل كما قطعت ناقة

جابر بن زيد المسافة بين البصرة ومكة المكرمة في تسعة أيام فقد أهل عليه هلال ذي الحجة في البصرة وأدرك الناس في عرفات واليوم أصبح السفر على هذه الطائرات ميسرا والحمد لله. ﴿ياتين من كل فجٍّ عميق﴾..

تأتي هذه المطايا إلى الحج من كل فج عميق والفج هو الطريق بين جبلين والعميق البعيد واستعمل الفج هنا وأريد به مطلق الطريق واليوم يحج الناس من أطراف الدنيا البعيدة من الشرق الأقصى في آسيا ومن الغرب الأقصى في أمريكا ومن أطراف أفريقيا وأوروبا ولا يزال وعد الله يتحقق منذ آلاف السنين إلى أن ما شاء الله ثم قال تعالى:

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ والمنافع منها الدينية والدنيوية أي ليغفر الله ذنوبهم ويغسلهم من آثامهم ويستجيب دعواتهم وليتعارفوا ويتناصحوا وينتفع بعضهم من بعض بالبيع والشراء فقد أباح الله في الحج التجارة حيث قال: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾- البقرة ١٩٨ -

قيل نزلت هذه الآية في التجارة في الحج لا جناح على من باع أو اشترى شرط أن ينوي بسفره الحج لا التجارة فإن خلصت نيته لقصد عبادة الله فلا بأس أن ينتفع في طريقه بالبيع والشراء فذلك من المنافع المقصودة في هذه الآية فإن الله أطلق ولم يقيد شهود الناس لهذه المنافع وهذا من لطفه بهم وسعة رحمته وفضله وقد علم أن عباده لن يستغنوا عن هذه المنافع من تجارة أو غيرها بل هم محتاحون إليها فأباح لهم شهود المنافع في الحج وأعظمها مغفرة الذنوب واستجابة الدعوات﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام﴾..

وبهيمة الانعام هي الإبل والبقر والضان والمعز كما هي مفصلة في

سورة الأنعام وهي التي يسوق الناس منها الهدى ويذكرون عليها اسم الله عند سوقها وعند ذبحها لأن الله أمر بذلك وذلك أفضل أعمال الحج فقد سئل رسول الله ﷺ عن أفضل أعمال الحج فقال: «العج والثج»،

والعج رفع الصوت بالتلبية والثج إراقة الدماء مما ينحر الناس ويذبحونه من هديهم الذي يذكرون اسم الله عليه مقتدين في ذلك بأبيهم إبراهيم الذي ضحى بإبنه اسماعيل وقد أسلما لرب العالمين ثم فدى الله اسماعيل بكبش وجعل ذلك شرعا لنا نتبعه ونقتدي فيه بأولياء الله الصالحين.

﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ كلوا من هديكم الذي تقربتم به إلى الله مما هو واجب للتمتع أو القران ومما هو نفل وأطعموا منه البائس الفقير أي الفقير المحتاج الذي ظهر عليه أثر البؤس في رثاثة حاله وتحول جسمه والأمر الأول للإباحة وهو الأكل لأنهم كانوا في الجاهلية لا يأكلون من هديهم ويعتقدون ذلك حراما والأمر الثاني للوجوب فلابد بإطعام الفقراء من الهدي هكذا قال أهل العلم أما هدي الفداء فلا يجوز الأكل منه وهو الهدي الذي يجب عند ارتكاب المخالفات كصيد البر للمحرم والصيد في الحرم للمحرم وغيره ومن السنة أن تأكل من هدي التمتع أو القران أو الهدي الذي تسوقه أو تذبحه تقربا لله تعالى:

﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾ ثم بعد الذكر والذبح أو النحر ليقضوا تفثهم وقضاء التفث، هو القاء الوسخ، قص الأظفار ونتف الإبطين وحلق الشعر أو تقصيره والإغتسال والتطيب وكانوا شعثا غبرا وقفوا بين يدي الله في عرفات شعثا وغبرا وباهى الله بهم ملائكته ثم أكرمهم يوم العيد بالإغتسال والتطيب وإلقاء تفثهم ثم قال

تعالى: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ والناس ينذرون لله إن رزقهم أولادا أو شفاهم من مرضهم أو نصرهم على أعدائهم أن يتقربوا إلى الله بذبح شاة أو بقرة أو ناقة أو أكثر في منى أو في مكة في حرم الله والوفاء بالنذر من خصال الأبرار أهل الصدق والإيمان فمن نذر لله عملا من أعمال الطاعة فليوف بنذره ومن نذر أن يعص الله فلا يعصه. ﴿وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾ وهذا الطواف الذي أمر الله به هنا هو طواف الزيارة وهو فرض من أركان الحج وسمي طواف الزيارة لأن الحاج يزور الله في بيته لينال جائزته بعد أعمال الحج والوقوف بعرفات والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، ويؤديه الحاج بعد رمي جمرة العقبة ونحر هديه أو ذبحه وبعد أن يتحلل من إحرامه التحلل الأصغر ثم إذا طاف هذا الطواف وسعى بين الصفا والمروة تحلل التحلل الأكبر وحل له كل ماكان محرما عليه عند إحرامه حتى النساء، هذه مناسك الحج الأربعة يوم النحر: رمى جمرة العقبة ونحر الهدي أو ذبحه وإلقاء التفث والطواف بالبيت والسعي إن لم يكن سعى من قبل من كان قارنا ولا بأس بتأخير هذا الطواف وشهر ذي الحجة كله وقت له وتقديمه أفضل ووصف الله البيت هنا بالعتيق وهو القديم لأنه أقدم مسجد وهو كما قال الله تعالى:

﴿إن أوّل بيت وضع للنّاس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين﴾ ـ آل عمران ٩٦ ـ ثم عندما ينوي الحاج مغادرة الحرم يكون آخر عهده الطواف بالبيت وهو طواف الوداع لا يبيع ولا يشتري بعده ولا يطيل المكث ولا يشتغل بشيء عن الأعمال إلا أعمال الرحيل، هذا معنى هذه الآيات الكريمة نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الحاجين بيته ومن الذين يكون حجهم مبرورا وذنبهم مغفورا وسعيهم مشكورا.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

ذلك، لفظ الإشارة إلى البعيد، يستعمل هذا اللفظ أثناء الكلام للانتقال من موضوع إلى موضوع يتصل به وتظهر بلاغة القرآن في اختيار هذا اللفظ في مكانه المناسب أي ذلك الذي ذكرته لكم من أحكام الحج ومنافعه وما أعده الله للأبرار الذين يعظمون حرمات الله ومن يعظم حرمات الله وحرمات الله هي مناسكه المقدسة فإنها من تقوى القلوب ونسبت التقوى إلى القلوب لأن قلوب الأبرار معادن التقوى وتعظيم حرمات الله من تعظيم الله وهو ثمرة التقوى وحرمات الله المكانية هي المسجد الحرام والمسجد الأقصى وحرم المدينة الذي حرمه رسول الله بإذن الله ثم جميع مساجد الله وحرمات الله الزمانية هي الأشهر الحرم والأعياد والجمع ومن ذلك احترام العهود والمواثيق ورعاية الأمانات وحفظ حدود الله ومحارمه، ألا وإن حمى الله محارمه فعلينا حفظ حدود الله وتعظيم حرماته والقيام بمناسك الحج المشروعة من الوقوف

بعرفات وذكر الله عند المشعر الحرام وإن شق علينا بعض ذلك فإن الأجر على قدر المشقة والحج جهاد لا قتال فيه وكثير من الناس يحسبونه نزهة ويلتمسون الرخص لكل شيء يتخيلون فيه المشقة وما كان ينبغي لهم ذلك والآية نزلت لمناسك الحج وهي تعم جميع الحرمات التي أمر الله بتعظيمها ولاتخص حرمات الحج وفي تعظيم حرمات الله الخير كل الخير وقوله تعالى: ﴿**فهو خير له عند ربه**﴾ بيان حقيقة هذا الخير الذي يجده المتقي عند ربه ومولاه وقد أعد لعباده المتقين الأبرار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهو خير لهم أيضا في الدنيا فلا مجتمع أسعد من مجتمع يعظم حرمات الله ويرعى حدود الله ولو أن الناس عظموا حرمات ما كانت هنالك جرائم ولا سرقات ولانصبت محاكم وخصومات بين الناس ولعاشوا سعداء وعمتهم بركات الله ﴿**ولو أنّ أهل القرى ءامنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾- الأعراف ٩٦ - ﴿**وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم**﴾ جاء ذكر بهيمة الأنعام مرتين في هذا الموضوع: الآية الأولى ذكر فيها أن حجاج بيت الله يذكرون عليها اسم الله لإيمانهم بوحدانيته وقيوميته فهم مسلمون لله غير مشركين به والآية الثانية ذكر فيها أن الحلال من بهيمة الآنعام ما أحله الله والحرام ما حرمه الله لا غيره فقد كان المشركون أهل الجاهلية يحرمون أنواعا من بهائم الأنعام وأنواعا يحرمونها على نسائهم كما فصل ذلك في سورة الأنعام وأنواعا لا يذكرون اسم الله ويذكرون عليها أسماء معبوداتهم كما يذكر أهل التوحيد في جاهليتهم الحديثة أسماء الأموات الذين يقدسونهم ويذبحون عند قبورهم وقبابهم فذكر الله في هذه الآية والتي قبلها في موضوعها أن الحلال ما أحله الله وما ذكر اسم الله عليه وأن الحرام ما حرمه الله من أنواع الميتة وما ذبح على النصب وما لم يذكر اسم الله وإنما ذكر عليه غيره افتراء على الله وصدق الله العظيم.

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون﴾ ـ يوسف ١٠٦ ـ وفي هذه الآية إمتنان من الله علينا بإنعامه علينا ببهائم الأنعام أحلها الله لنا وسخرها وذللها لنا نذكر اسم الله عليها وننحر ونذبح ونأكل من لحمها حلالا طيبا بعد أن نذكر اسم الله عليها مجتنبين أسماء غيره مطيعين أمره ونهيه مجتنبين فيها وفي غيرها عبادة الأوثان ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾ الرجس هو النجاسة الباطنة والشرك رجس وكل ما عبد من دون الله فهو رجس ولو كان في ذاته حسناً وجميلاً فقد عبد الناس الشمس والقمر وصنعوا أصناماً من الذهب والفضة وأنواع الأخشاب والحجارة وطلوها بالطيب والزعفران وضمخوها بالمسك ولكنها حين عبدت من دون الله وجعلت لله شركاء كانت رجسا وظلما عظيما ففي هذه الآية يأمرنا الله تبارك وتعالى أن نجتنب عبادتها وأمرنا أن نجتنب قول الزور ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ والزور هو الكذب من القول والمراد هنا نسبة الألوهية إلى الأوثان وأنها تنفع وتضر وتقرب إلى الله زلفى فهذا باطل من القول وزور ويطلق أيضا على شهادة الكذب مطلقا والافتراء والكذب ولكن السياق سياق النهي والتحذير من عبادة الأوثان والإفتراء على الله في نسبة الولد والصاحبة والشريك..

﴿تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا﴾ ﴿سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون﴾ ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾ أي مائلين عن كل ما سوى الله معرضين عنه لا تعبدون إلا الله ولا تخافون ولا ترجون إلا الله ولا تستعينون إلا بالله غير عابدين ولا داعين معه أو من دونه شركاء فإن ذلك ضلال وزور

﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطّفه الطّير أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق﴾..

ضرب الله مثلاً للمشـركين الذين يشركون بالله ويعبدون من دونه أوثانا أحيـاء وأمواتا ويدعـونهم وينذرون لهم ويذبحـون عندهم القرابين يـرجون نفعهم ويخافون ضرهـم ضرب الله لهؤلاء المشركين مثلاً بمن خرّ من السماء، سقط من علو شاهق فتخطفته الـطيور الكاسرة قبل أن يصل الأرض ومزقته أو تهوي به الريح العـاصفة في مكان سحـيق أي ناء فتحطم جسـمه وهلك فكذلك الذين يشركـون بعبادة ربهم غـيره أو يعبـدون غيره ولا يعـبدونه إن الشيـاطين يجتالونهم وتتـخطفهم الأهواء فهم في شـركهم طوائف وطرائق قددا ويهوي بهم الشرك جميعا في جهنم وهناك يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضـهم بعضا وهـم في الدنيـا بعيدون عن دعـاء الحق فهم ينادون من مكان بعيـد والذين عبدوا الله وحده مـخلصين له الدين في هدى من ربهم قلوبهم مطمـئنة قد أنزل السكـينة في قلوبهم فأحـوالهم دائمـا في خيـر وليس ذلك لأحد إلا للمـؤمنين المتقين أنعم الله عليـهم فشكروا الله فكان ذلك خـيرا لهم وابتلاهـم الله فصبروا لله فكان ذلك خيرا لهـم فهم مستمسكون بعروة الإيمان الوثقى لا تتـخـطفـهم الشـيـاطين والأهواء ولا تهـوي بهم الـريح في مكان سحيق. ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويومن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾ـ البقرة ٢٥٦ ـ شتان بين الفريقين لا يستوون في محياهم ولا في مماتهم فـالمثل المضروب في الآية ينطبق على جميع أنواع الذين يشركون بالله وفي جميع العـصور والأزمنة وهو مثال بديع في تصوير أحوال أهل الـشرك والإلحاد كـيف تتوزعـهم الأهواء وتمزقهم شـر ممزق ثم تهوي بهم ريح الشرك والـضلال في مكان سحيق لا يرجون بعـده خيرا ولا يطمعون في نجاة فـلا نجاة إلا في الحنيفية السمـحة ملة أبينا إبراهيم على نبينا وعليه السلام وعلى جميع المرسلين والحمد لله رب العالمين.

﴿**ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾. أما الكلام على «ذلك» فقد تقدم أنها تأتي في الكلام البليغ للانتقال من موضوع إلى موضوع آخر يمت إليه بصلة وقد يأتي بإشارة القريب «هذا» وهنا جاء بإشارة البعيد أي ذلك الذي ذكرته لكم من الأخبار والأوامر والأمثال هو كذلك فافهموه واعملوا به واحلوا حلال الله وحرموا حرامه وعظموا حرمات الله وعظموا شعائر الله ﴿**ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾.

والشعائر منها الهدي الذي يسوقه الحجاج إلى البيت الحرام ويجعلون له شعارا خاصا يعرف به وذلك أنهم يجرحونه ويطبعونه بدمه على جنبه ويعلقون في أعناقها القلائد وهي نعال قديمة فمن رآه عظمه واحترمه لأنه هدي يساق إلى الله وقد كان قطاع الطرق الذين يغيرون على الناس ينهبون أموالهم قد كان هؤلاء لايسرقون الهدي بل يعظمونه ويخافون إن أخذوه أن ينتقم الله منهم وقد كان تعظيم هؤلاء شأن الهدى تقليدا ورثوه من آبائهم ولم يكن عن إيمان بالله وتعظيم لحرماته أما المومنون الذين يعقلون أوامر الله ونواهيه فان تعظيمهم لشعائر الله نابع من تقوى قلوبهم وخشيتهم لربهم ومن شعائر الله مناسك الله التي جعلها في الحج وشرعها للناس يؤدونها بطريقة جماعية كالطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والتلبية والصلوات في المسجد الحرام وفي غيره من المساجد والوقوف بعرفات وبالمشعر الحرام والافاضة منهما والمبيت في منى ورمي الجمرات، تلك شعائر الله التي أمر بتعظيمها وكذلك نحر الهدي والحلق والتقصير وأعمال العمرة وصلوات الجُمع والأعياد والتكبير أيام التشريق، هذه شعائر الله من عظمها وأقامها فإن ذلك من تقوى القلوب والله انما يتقبل من المتقين ونسب الله التقوى إلى القلوب لأنها محلّ التقوى على الحقيقة وقد يكون العمل في

حد ذاته صغيرا ولكن يزن عند الله وزنا ثقيلا لأن الله يعلم أنه صدر عن تقوى متمكنة في قلب صاحبه والله عليم بذات الصدور كما جاء هذا المعنى في تقويم الهدى عند الله.

﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ نزلت هذه الآية في ناقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نذرها لله أن ينحرها في مكة إن مَنَّ الله على المسلمين بدخول مكة فلما تحقق وعد الله بدخول المسلمين مكة آمنين كان على عمر أن يوفي بنذره فينحر راحلته ولكن بعض الناس أعطوه فيها ثلثمائة دينار وكان هذا المبلغ يكفي لشراء ثلاثين ناقة فخطر ببال عمر أن يشتري ثلاثين ناقة وينحرها للفقراء، ويطعمهم إياها وثلاثون ناقة أوفر لحما وشحما من واحدة ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أبى عليه إلا أن يوفي بنذره وينحر ناقته لأن نحرها يعز على قلبه وتنازل القلب عما يتعلق به ويعز عليه فراقه أقرب للتقوى فنحر عمر ناقته ولم يرض لها بدلا، وتقرب إلى الله بنحرها ووفى بنذره ذلك هو تقوى القلوب ثم قال الله تعالى في حق الهدي أيضاً.

﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمىً ثم محلها إلى البيت العتيق﴾.

لكم فيها أي في بهيمة الانعام التي تسوقونها هديا إلى المسجد الحرام لكم فيها منافع وهذه المنافع هي ركوبها والحمل عليها إن احتجتم إلى ذلك وتحلبون ألبانها وتجزون أشعارها وأصوافها وأوبارها وهذا امتنان من الله بمنافع الأنعام وإباحة منه للإنتفاع بالهدي ولو شاء لحرم علينا ذلك وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك حراما فأباح الله لنا ذلك فضلا منه ورحمة وقال:

﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾. أي نهايتها إلى المسجد الحرام هنالك محلها حيث تنحر أو تذبح وليس معنى ذلك أنها تنحر عند البيت فلا قائل

بذلك ولكن تنحر عند الحرم في منى وفي مكة وكل فجاج مكة منحر وهدي الحج والتمتع والقِرانْ محله يوم النحر وثلاثة أيام بعده أما هدي العمرة ففي سائر أيام العام عند المروة والبيت العتيق هو المسجد الحرام هو الكعبة لأن الله وضعه أول بيت للعبادة في الأرض وجعله قبلة للناس ورمز الوحدة للمسلمين يستقبلونه في صلواتهم وتجتمع وفودهم عنده كل عام، ثم يقول تعالى:

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا
رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

يبين الله تعالى لنا أن هذه الشعائر التي جعلها لنا قد جعلها لجميع الأمم التي سبقتنا فهي من أصول العبادات كالصلاة والصوم والزكاة وفعل الخيرات يقول الله تعالى: ﴿ولكل أمةٍ جعلنا منسكا﴾ والمنسك هو المكان الذي يتقرب إلى الله بالذبح فيه وقد يطلق المنسك على الزمان الذي شرع للناس أن يتقربوا إلى الله بذبائحهم التي يذكرون عليها اسم الله فالنحر أو الذبح من أعظم العبادات التي شرعت للأمم ﴿ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام﴾ ليذكروا اسم الله وحده على بهيمة الأنعام ولا يذكروا أسماء غيره من الشركاء ولكن أكثر الناس أشركوا بربهم واتخذوا أوثانا ونصبا يذبحون عندها وينذرون لها ويهلون لها فسقا عن أمر الله أينما

سرت في هذه الأرض تجد معابد فـيها أوثان وأنصاب جعلت عندها المذابح ومنهم من يتقـرب اليها بولـده وينذر لها ذلك إن رزق عددا من الأبناء كـما نذر عبـد المطلب ولولم تسـقط القرعة علـى عبد الله لكان ذَبَحَ الـذي تسقط عليـه من أبنائه الاخـرين ففي هـذه الاية يذكر الله لنا مـكانة هذه المناسك في العبـادة ويدعونا في الاية التـالية إلى إخـلاص التوحـيد لله عـز وجل وإفراد العبادة والنسك له﴿فإلاههم إلاه واحـد فله أسلموا﴾ إلهكم وإلاه الأمم من قبلكم إلاه واحد هو الله العلي العظيم الذي شرع دين الإسلام لتعبدوه وحده ولا تشـركوا به شـيـئا فـله أسلموا والإسـلام هو الخـضـوع الكامل بالظاهر والباطن والتـسليم هو القبـول الذي لايشوبه حرج في القـلـب، له أسلموا لا لغيره وإياهُ فاعبدوا وله فاسجدوا وتواضعوا﴿وبشـر المخبتين الذين إذا ذكـر الله وجلت قلوبهم والصـابرين عـلى مـا أصـابهم والمقـيـمي الصـلاة ومما رزقناهم يـنفقون﴾ البشارة هو الإخبار، بخير محقق مقبل على المبشَّر وغالبا ما يكون جزاء صنيعه الحسن والإخبات هو التذلل والتواضع وأصله الموضع الخبت وهو المكان المتطامن المنـخفض اللين من الأرض كذلك المخبـتون من عباد الله الصالحين يتذللون له ويتـواضعون لإخوانهم المؤمنين ولا يطغون ولا يتكبـرون على الناس بل لهم قلوب توجل من ذكر الله كـلما ذكر قـد ملئت إيمانا وتعظيمـا لله والوجل هو الاشفاق والخوف الشـديد، عرفوا الله فخـافوه وإذا تليت عليـهم آياته زادتهم إيمانا وعـلى ربهم يتوكلـون، ومن أوصافـهم اللازمة لهم الصـبر على مـا أصابهم فهم يحـمدون الله على كل حـال رضاً بقضـائه وشكرا لنعمـائه وصبرا على بلائه وهم لا ينتـقمون ممـن ظلمهم بل يصبرون ويغفرون أولئك لهم البشارات..

﴿وبشـر الصـابريـن الذين إذا أصـابتـهم مـصـيبـة قـالوا إنا لله وإنا إليـه

راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وألئك هم المهتدون﴾ـ
البقرة ١٥٥ ـ ١٥٧

بشر الصابرين الذين يتلقون المصائب التي يصيبهم الله بها بالرضا واليقين وحسن الظن في الله بشرهم بحسن العواقب وبصلوات الله ورحماته في الدنيا والآخرة وبرضى الله عليهم ومدحه لهم، أربعة أوصاف مدحهم الله بها واستحقوا بها البشارات، الوجل من الله وعند ذكره والصبر على المصيبة وإقامة الصلاة وسخاء القلوب فهم مما رزقهم الله ينفقون وهذه الأوصاف تفسير لإخباتهم لربهم وهي أوصاف متلازمة بعضها يقوي بعضا ومجموعها يصنع نفس المومن صناعة ربانية ويملؤها بالخير والطمأنينة فهم يقيمون الصلاة يصلون الصلوات الخمس لأوقاتها بطهارتها وخشوعها وإتمام ركوعها وسجودها لأنهم يناجون فيها ربهم بذكره وتلاوة كلامه ولأنهم يعلمون أنها عمود الدين وأنها الصلة بينهم وبين ربهم وأنها أول ما ينظر من أعمال العبد يوم القيامة إن وجدت تامة قبلت وقبل سائر أعمالهم وإن وجدت ناقصة ردت ورد سائر أعمالهم فهم بها يتقربون إلى ربهم ويأخذون حظهم من النوافل بعد أداء الفرائض ثم هم ينفقون مما رزقهم الله من مال وعلم وجاه وقوة الأبدان لا يبخلون بشيء عن ذلك بل يسارعون إلى فعل الخيرات والمقصود الأول بالإنفاق أداء الزكوات لأنه هو الركن الذي يلي إقامة الصلوات والزكاة كالصلاة مشروعة في جميع الشرائع الأولى وكالصوم وفي قوله تعالى: **﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ـ**

تذكير لنا أن هذا المال الذي عندكم إنما هو مال الله جعلكم مستخلفين فيه إلى أجل مسمى عنده لينظر ما تصنعون فيه فاغتنموا الانفاق منه وبادروا العواري قبل أن تسترد واشكروا نعمة المال التي أنعم الله بها عليكم بالإنفاق

لا بالإمساك، وكـذلك كل نعمة منَّ الله بهـا عليكم اغتنموا منها قـبل زوالها وما أقرب زوالها ومـا أقصر أعماركم وستفرحـون بما قدمتم وتندمون على ما خلفتم والله لا يضيع أجر المحسنين.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا
اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا
وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ
التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

البدن جمع بدنة وهي الناقة السمينـة ويراد بها الناقة المهداة للبيت الحرام خاصة، لأنهم كـانوا يتخيرونهـا عادة من السمان والبـدين هو السمين لذلك قال: فـريق من الفقـهاء من نذر لله بدنة وجب عليـه أن ينحرها عند المسـجد الحـرام أي في الحرم لأن البـدن النوق التي تنحـر في الحـرم يقول الله تبـارك وتعالى :

﴿جعلناها لكم من شعائر الله﴾ أي جعلناها من المناسك التي تتـقربون بهـا إلى الله وأضاف الـشعـائر إلى لفظ الجـلالة تعظيـما لهـا، كـما أضـاف الحرمات كذلك إلى الله لتكتسب الشرف والعظمة من إضافتها إلى الله، يقال بيت الله وحـرم الله وشـعـائر الله، سَوْق الهـدي وإشـعـاره وتقليـده ونحـره والتصدق بلحمه على الفقراء كل ذلك من شعائر الله. ﴿لكم فيها خيرٌ﴾-

أطلق الخير ولم يصفه ليدل على الخير الكثير خير الآخرة وخير الدنيا، فشراؤه وتقليده ونحره والتصدق به على البؤساء والفقراء كل ذلك خير للآخرة إن وقع من الله موقع القبول وهو من أفضل أعمال الحج والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وفيها أيضا خير للدنيا وهو الإنتفاع بركوبه ووبره وبلحمه ميتا.

﴿فكلوا مِنْهَا وَأطعموا﴾ الآية ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾.

كانوا يصفون بدن الهدي صفوفا قبل نحرها ثم ينحرونها ويذكرون اسم الله عند كل واحدة «باسم الله الله أكبر اللهم إن هذا منك وإليك» وفي هذه الشعيرة وفي هذا المنظر الرائع الذي فيه تضحية الأموال لله تعالى تأثير عظيم على قلوب المومنين الذين يتفكرن في تسخير الله لهذه البهائم الكبيرة لنا فنحن نسوقها ثم نصفها صفوفا ثم ننحرها ثم نأكل من لحمها ونتصدق به على إخواننا الفقراء.

﴿فإذا وَجَبَتْ جُنوبُها فَكُلوا مِنها وأطعموا القانع والمعترّ كذلك سخّرناها لكمْ لعلكمْ تشكرون﴾ ـ

فإذا وجبت أي سقطت جنوبها لأنها تذبح وهي قائمة على ثلاث قوائم معقولة الرجل الرابعة وبعد النحر وإحساسها بالموت تسقط على جنوبها، حينئذ بعد تمام موتها أمرنا الله تعالى أمر استحباب أن نأكل منها وأمر وجوب أن نطعم الفقراء القانع منهم والمعتمر والقانع هو المتجمل الذي لا يبدي حاجته للناس والمعتر الذي يبدي فقره وحاجته يتعرض للصدقة ولا يسأل، أمرنا الله أن نطعم كلا النوعين وهي كرامة تنال الجميع تكرم الله بها علينا لعلنا نشكر نعم الله التي بسطها علينا.

﴿ومابكم من نعمة فمن الله﴾ـ النحل ٥٣ ـ والشكر يكون بالقلب

وباللسان وبالأعمال وهو هنا إتمام مناسك الحج وأعماله المفروضة والمسنونة في ذكر الله وتكبيره وحمده وإفراده بالتوحيد والعبادة والصبر على مشقات الحج واحتساب الأجر في ذلك عند الله مع الرغبة اليه والدعوة إليه والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ويمتن الله علينا ويلفتنا إلى تسخيره لنا هذه الأنعام نسوق وننحر ونذبح كما نريد وهي مذللة ولوْلاَ أن الله ذللها لنا ما استطعنا صولاتها وشرودها وهي أقوى منا وفي هذا موعظة وذكرى لنا لا ينبغي أن نغفل عنها فسبحان الله الذي خلقها وسخرها لنا وحمداً له وشكراً على نعمه هذه وغيرها من النعم التي لا تحصى.

﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين﴾ـ

يقول الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة: ليست لحوم هذه الأنعام ولا دماؤها هي التي تصل إلى الله ربكم ولكن يناله التقوى منكم، الذي يصل الى الله هو تقوى القلوب منكم فاتقوا الله وأطيعوه فيما يأمركم ويشرعه لكم واتبعوا رسوله في مناسككم فلا تلطخوا جدران الكعبة بدمائها وكانوا في الجاهلية يغرفون من دم الهدي ويلطخون به جدران الكعبة وفي عصرنا هذا عادات تشبه عادات الجاهلية وذلك أن الناس اعتادوا أن يذبحوا عند بناء عتبتي البيت ويحرصون على ذلك كل الحرص وكذلك عند ما يحفرون البئر وعند ما يطوونها ويأتون بالحجر الملطخ بالدم يجعلونه الحجر الأساس وهذا من أعمال الجاهلية ليس من شعائر الله ولا من شريعته والنسك لله ويتخذ الناس المذابح عند القبور والقباب وما أنزل الله بهذا من سلطان إن يتبع الناس في هذه الأمور إلا تقاليد آبائهم وهذا من أعمال الجاهلية ومن الشرك الخفي الذي يجب أن يترك ويطهر الاعتقاد منه فلا نسك إلا ما شرعه الله:ـ

﴿قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ـ الأنعام ١٦٢ ـ ١٦٣

فإذا كان العمل موافقا لما شرعه الله وكان صاحبه مخلصا فيه كان أهلا للقبول. ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾:ـ

ليس المراد من الآية الإخبار بحالة هذه الآنعام ولكن المراد التذكير وتقوية الإيمان به وبآلائه لذلك كرر لفظ التسخير مرتين بعد لفظ يأتي للإلفات بما مضى وبما يأتي من المعاني التي ترسخ عقيدة التوحيد وتعظِّمُ شأن المعبود في قلوب المومنين، لتكبروا الله وتشكروه على ما هداكم وأنزل عليكم من الكتاب والحكمة ولتحسنوا في العمل وتخلصوا في أدائه لوجه الله:ـ

﴿وبشر المحسنين﴾ـ أطلقت البشارة ولم يذكر معمولها لتعم البشارة بكل خير بشر المبشر به في الدنيا والآخرة وهم المحسنون الذين يراقبون الله في أعمالهم ويخلصون له الدين حنفاء غير مشركين به .

﴿للدين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ـ يونس ٢٦ ـ والإحسان يشمل العقيدة والأقوال والأعمال فلا زيغ ولا إلحاد ولا نفاق ولا شرك ولا زور ولا فسوق ولا انتهاك ولا غلو بل الإحسان استقامة على نهج الرشاد وعمل صالح في تقى:ـ

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ـ يونس ٦٢ ـ ٦٤

فالبشارة المذكورة في الآية تشمل الدنيا والآخرة كما وضعت هنا في هذه الآية نسأل الله أن يجعلنا من المحسنين الذين يفوزون ببشارات الدارين آمين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾

يخبرنا الله تبارك وتعالى في هذه الآية بشأن من شئونه مع أوليائه المومنين به وبرسله وهو أنه يدافع عندهم وفي هذا الخبر تسلية لهم وبشارة بحسن عاقبتهم ومصيرهم عنده وأن الذي ينالهم من الأذى ليس لغفلة الله عنهم أو تخليه عن نصرتهم إنما هي سنة من سننه في أوليائه ينالهم بعض الأذى من أعدائه ليبلو بعضهم ببعض فيرتفع أولياؤه درجات بالصبر على أذى الكفار وبالشهادة أحيانا ويستحق أعداؤه منازلهم التي أعدها لهم في جهنم جزاءاً لهم على ظلمهم ولله في خلقه شئون.

﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ - محمد ٤ - ولذلك يأمر الله نبيه ومن معه بالصبر على أذى الكفار ويعدهم بأنه سينتصر لهم منهم **﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾** - إبراهيم ٤٢ - وتأتي هذه الآية تحمل خبر دفاع الله عن الذين آمنوا بعد الآية التي يذكر فيها الذين كفروا ويصدون

عن سبيل الله والمسجد الحرام وأن الله سيذيقهم من عذاب أليم إن الله سينتقم لا محالة لأوليائه ولبيته وسينتصف لهم من أعدائه:

﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ ـ إن الله يمقت الخونة الكفرة ولا يحبهم وإذا أمهلهم فليس ذلك لأنهم أعجزوه كلاّ بل يستأنى بهم لعلهم يرجعون أو يتوبون فيقبل توبتهم، وكذلك كان المومنون الأوائل ومن لم يتب منهم ولم تنفعه الذكرى وعلم الله منه الإصرار فإن له أجلا ينتهي عنده إذا جاء أجلهم فلا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون، وعندئذ يندمون ولا ينفعهم الندم: **﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب تنقلبون﴾** ـ الشعراء ٢٧٢ ـ

﴿أذن للذين يُقَاتَلونَ بأنهم ظُلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله﴾ ـ

يرى جمهور المفسرين أن هذه الآية هي أول آية في مشروعية القتال، بعد أن كانت الآيات النازلة قبلها في مدة أربعة عشر عاماً تقريباً تأمر بالصبر والعفو والصفح، ويرى البعض أنها نسخت سبعين آية والحق أنها لم تنسخها فلا تزال محكمة، وإنما جاءت هذه بالإذن بعد الحظر لتوفر أسباب القتال بعد أن صار للمسلمين دار وجماعة ودولة في المدينة ويرى بعضهم أن أول آية في ذلك هي قوله تعالى:ـ

﴿إنّ الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً في التوراية والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله﴾ ـ التوبة ١١١ ـ ويرى البعض أن أول آية هي قوله تعالى: **﴿فإذا انسلخ الآشهر الحُرُمُ فاقتُلوُا المشركين حيثُ وجدتموهم﴾**.. الآية ـ التوبة ٥ ـ ويرى البعض أنها قوله تعالى: **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾** ـ البقرة ١٩٠ ـ وأرجح رأي الجمهور لأن الآية التي فيها التصريح بالإذن تفيد أن الإذن إنما جاء بعد

الحظر، فهي التي جاءت لترفع الحظر ثم بعد تأتي الأولى التي تأمر بالقتال وتعد عليه البشارات الحسنة، فالإذن أولاً ثم الأمر والقتال لحماية الدعوة لا لحمل الناس بالسيف على الإسلام.

﴿لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾ - البقرة ٢٥٦ -

فالذين يزعمون طعنا في الإسلام أن الإسلام انتشر بالسيف قوم أفّاكون يرد عليهم الواقع ويكذبهم العقل والنقل فإن بشاشة الإسلام إذا دخلت قلبا استقرت فيه وقد كان المسلمون الأوائل يحاولون بالاكراه أن يرجعوا الى دين آبائهم وأجدادهم ويأبون ذلك ويتحملون في سبيل عقيدتهم الإسلامية الأذى والتعذيب والموت، والإسلام إنما انتشر في الأرض حين كان المسلمون يمثلونه بصدق في عباداتهم ومعاملاتهم للناس وعدلهم في أحكامهم في أهل دينهم وغيرهم من أهل الكتاب الذين يعيشون في ظل الإمامة الإسلامية العادلة الرحيمة برعاياها وقد أعترف بهذا أهل الكتاب أنفسهم في شتى أنحاء البلاد التي حكمها المسلمون ولا يعقل أن ينتشر دين من الأديان في الأرض ثم يكتب له الخلود رغم المناوآت بالاكراه إذ لو انتشر بالاكراه لا نكمش حين ضعف سلطانه وانكمشت دولته في الأرض واستولت دول الكفر على بلاد المسلمين وما زادهم قهر أعداء الدين إلا تشبثا بإسلامهم حتى دعا ذلك التشبت بعضا من حكام الأعداء إلى الدخول في الإسلام واعتناق مبادئه كما وقع ذلك للملوك التتارو لا يزال الإسلام ينتشر اليوم في كثير من بلاد الدنيا التي لا يحكمها المسلمون فالناس اليوم يعتنقون الإسلام في أوروبا وفي أمريكا وفي اليابان وفي أفريقيا ولا أحد يكرههم على ذلك إلا أنهم لما اطلعوا على مبادئه وعقائده وقيمه التي يدعو إليها القرآن ارتاحو لها ووجدوا فيها غذاء عقولهم ودواء قلوبهم التي تشكو الفراغ من الحضارات المادية الجوفاء فأقبلت تستعرض الأديان الموجودة في الأرض فوجدت شفاءها في دين الإسلام وصدق الله العظيم:-

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ ـ الإسراء ٩ ـ ويقول تعالى في كتابه الكريم. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق﴾ ـ فصلت ٥٣ ـ فالآية التي نحن بصد تفسيرها تصرح بأن القتال إنما شرع للدفاع عن العقيدة ولحماية الدعوة. ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ ـ فهم إنما أذن لهم في القتال بعد مدة طويلة من الصبر دفاعا عن عقيدتهم بعد أن أوذوا وقوتلوا وما من دعوة حق نادى بها أصحابها إلا عورضت من أصحاب النفوذ والسلطان خوفا على زوال سلطانهم، ويؤيدهم أول الأمر أتباعهم من غوغاء الناس لأنهم يجدون في ظلهم أطماعهم وشهواتهم لأنهم يجدون في الدعوة الجديدة غلقا لأبواب الفجور وما تدعو اليه النفوس من الأهواء :ـ

﴿بل يريد الانسان ليفجر أمامه﴾ ـ القيامة ٥ ـ وقد حكى الله تعالى وقص علينا في القرآن أخبار الأمم السابقة مع أنبيائهم ورسلهم وما كان الناس الا أمة واحدة ﴿ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإي المرسلين﴾ ـ الأنعام ٣٤ ـ

ودعوة محمد ﷺ عامة وأمته من بعده مكلفون بالقيام بها وتبليغها الى أطراف الأرض، وسيلاقون معارضة وأذى كثيراً كما لاقى المسلمون الأوائل فأذن الله لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم ودعوتهم ووعدهم النصر.

﴿وإنّ الله على نصرهم لقدير﴾ ـ أكد الله الخبر بقدرته على نصر أوليائه حتى اطمئنوا ولا تخالجهم الظنون حتى عند اشتداد أزمات الحروب فإن نصر الله قريب سينزل وسيتحقق وعد الله به لأوليائه المقاتلين في سبيله:

﴿وكان حقاً علينا نصر المومنين﴾ ـ الروم ٤٧ ـ

﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ - محمد ٧ - تأتينا هذه الآيات في القرآن الكريم ليثق المسلمون بنصر الله وليتعبئوا نفسانيا بقوة الشجاعة في قلوبهم، وإن قصرت بهم الأسلحة المادية ولم تصل مستوى أعدائهم:-

﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ - الأنفال ٦٥ -

كان هذا في أول الإسلام بعد ما شرع القتال والمسلمون الأوائل أقوياء القلوب قد صقلتهم المحن وأعدتهم لمجابهة أعدائهم، أسودا صبرا في النزال صدقا عند اللقاء، ثم بعد ذلك لما كثر عدد المسلمين وعلم الله فيهم نوعا من الضعف في قلوبهم خفف الله عنهم فقال تعالى:-

﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكن ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ - الأنفال ٦٦ - فالنصر محقق ولكن للصابرين ولا نشك في نصر الله لأوليائه الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا:- ﴿**إن الله لقوي عزيز**﴾ - يصف الله نفسه بالقوي ويؤكد الوصف بمؤكدين فهو قوي حقا وقوته فوق جميع خلقه لا تغالب وهو عزيز يعز بعزته من يشاء ويذل من يشاء لا يذل من أعزه الله ولا يعز من أذله الله، لا تقوم لعزته جبابرة الملوك ولا جبروت الطغاة لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وهو القاهر فوق عباده والغالب على أمره يتولى بنصره وعزته من ينصره من عباده، أي يطيع أمره ويتبع أنبياءه ورسله، جاءت هذه الآية التي فيها إسناد النصر والقوة لله معترضة في سياق الكلام على أوليائه المقاتلين المستضعفين تقوية لإيمانهم بربهم وتثبيتا لقلوبهم :-

﴿**الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله**﴾ -

أذن للمظلومين أن ينتصفوا لأنفسهم من أعدائهم الظالمين الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ظلما وعدوانا لا لشيء إلا لأنهم قالوا ربنا الله لا اللات ولا العزى ولا مناة ولا غيرهن من الطواغيت:ـ

﴿وما نقموا منهم إلا أن يومنوا بالله العزيز الحميد﴾ـ البروج ٨ ـ

وأفظع أنواع الظلم أن يفتن الرجل عن دينه ويقاتل ويخرج من داره من أجل عقيدته وإيمانه بربه الواحد القهار مالك الدنيا والآخرة رب السموات والأرض رب العرش العظيم رب العالمين، إن هذا لهو الطغيان والظلم المبين، أخرج المسلمون من مكة بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله وحده لا شريك له تصديقا لرسوله محمد ﷺ وإيمانا بكتابه وباليوم الآخر، منهم من خرج وهاجر ومنهم من بقي مستضعفا لا حيلة له ولا قوة فأمر الله المومنين أن يقاتلوا في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان:ـ**﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾**ـ النساء ٧٥ ـ

فعلى جماعة المؤمنين وقد تحررت من بغي المشركين وسلطانهم أن يقاتلوا المشركين الذين لا يزالون يعذبون إخوانهم المستضعفين في مكة حتى يخلصوهم من الظلم الذي لا قوة لهم على التخلص منه فهم يلتجئون بالدعاء الى الله ويجأرون إليه أن ينصرهم ويخرجهم من دار أهلها ظالمون، فقتال المؤمنين إذن كان دفاعا عن أنفسهم وإخوانهم المستضعفين:ـ

﴿ولولا دفاع الله الناس بعضهم، ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن

الله لقوي عزيز﴾- هي سنة الله في خلقه أن يدافع بعض خلقه ببعض ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين:- **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مومنين ويُذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾**- التوبة ١٤- ١٥

وليتخذ الله المومنين شهداء قد أعد لهم الدرجات العلى في الجنة ولولا دفاع الله الكافرين بالمؤمنين لهدمت بيوت العبادة في الأرض ولعمت الجاهلية وطغى الكفر وأظلمت الأرض، والصوامع بيوت العبادة الخاصة للنصارى والبيع هي بيوتهم العامة، وهي الكنائس والصلوات هي بيوت العبادة لبني إسرائيل، مفردها صلوت، والمساجد هي بيوت العبادة للمسلمين أمة محمد ﷺ وهذه البيوت كلها بنيت وتبنى ليذكر فيها اسم الله كثيرا بالصلوات والذكر وتلاوة كتبه المنزلة، إن الله يدافع عن الذين آمنوا ويدافع عن بيوته التي يذكر فيها اسمه العظيم كثيرا، ويدفع الكافرين بأوليائه المومنين ليرفع درجاتهم عنده وينزل نصره عليهم، وينزل ملائكته تربط على قلوبهم وتلقي الرعب في قلوب الكافرين، وفي التعبير بالدفاع إشارة إلى أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن الدين وحماية الدعوة إليه لا لحمل الناس بالاكراه على الإيمان، بل المؤمنون مأمورون بالدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فإذا عارضهم أعداء الله وقاتلوهم وفتنوا الناس ولم يتركوهم أحرارا يعتنقون الدين الذي أنشرحت له صدورهم فإن الله حينئذ يأمر أولياءه بقتال أعدائه:-

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾- البقرة ١٩٣ -

﴿ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويٌ عزيز﴾ - يؤكد الله وعده بالنصر لأوليائه الذين ينصرون الله بطاعته وعبادته وحده واتباع أنبيائه

ورسله، وفي هذا التأكيد بشارة لهم وتقوية لقلوبهم حتى يقدموا على القتال أقوياء واثقين بنصر الله غير هائبين قوة أعدائهم ما بلغوا من الشوكة والعتاد ووعد الله محقق لا محالة للذين ينصرونه حقيقة لا للذين يدّعون الجهاد وهم إنما يجاهدون حمية أو عصبية أو رياء وسمعة، أو لجمع الغنائم وهؤلاء ضالون مخطئون في حقيقة جهادهم بعيدون عن نصر الله وربما يستبطئون ويرتابون في أمرهم ويشكون في وعد الله وليس في وعد الله شك ولكن هم الذين أخطأوا وجاروا عن القصد وضلوا عن سواء السبيل، وقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل عصبية والرجل يقاتل رياء أيهم في سبيل الله؟ فقال قولته المشهورة:-

«من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله». إن كثيرا من الناس يلحدون في نياتهم وينحرفون بها عن الحقيقة فتراهم ينادون ببعض الشعارات كالقومية العربية وهذه من الجاهلية أحدثها من لا يريد للإسلام خيراً ليشغل بها المسلمين عن دينهم، وطلوها بأنواع الشعارات البراقة وكل ذلك تغرير ودس للسم في الدسم وتضليل عن سواء السبيل، ولو كانوا يريدون للإسلام خيراً لنادوا بالقومية الإسلامية، إن النصر لن يكون إلا للذين يخلصون نياتهم لله ويقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا والله لا يغيرما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ثم إن الله يذيّل آية النصر لأوليائه الذين ينصرونه حقا باسمين من أسمائه الحسنى:ـ

﴿إنّ الله لقويٌ عزيز﴾ يجعلهما وصفا لاسمه العظيم وذلك لنفهم أن القوة لله جميعا والعزة لله ولمن يريد من عباده:ـ

﴿ولله العزة ولرسوله وللمومنين﴾ـ المنافقون ٨ ـ ومنهم هؤلاء المؤمنون الذين يعزهم الله وينصرهم على أعدائهم وأعدائه ما هي

أوصافهم؟ إنهم كما يلي: ﴿الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمُور﴾ـ.

هذا التمكين المذكور في الآية ليس مجرد الحياة لكل حي، لا بل هو العزة والسلطان والتأييد بالقوة والغلبة على الأعداء وهو التمكين الموعود به في قوله تعالى:ـ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ـ النور ٥٥ ـ هذا هو التمكين المراد في الآية، الذين إن مكنهم الله في الأرض وأعطاهم السلطان يحسنون خلافة الله فيها وذلك بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أربع دعائم للدين لا يقوم الا عليها ولا يصلح الناس الا بها، وفي قيام هذه الدعائم صلاح الدنيا والآخرة، وكل الخصال غيرها تبع لها وقد رتبها الله ترتيباً فأول شيء يبدأ به المسلم أن يوطد العلاقة بينه وبين معبوده بإقامة الصلاة فهي التي تصلح من شأنه وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، ثم إن الصلوات توطد العلاقات بين المسلمين بإقامتها جماعة في بيوت الله خمس مرات في كل يوم وليلة، يجتمعون هنالك ويقفون صفوفا القوي بجنب الضعيف والغني بجنب الفقير لا فرق بين الأبيض والأسود ولا بين الرعية والأمير كل بين يدي ربهم سواء خاضعون له راكعون ساجدون قانتون: ﴿إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويوتون الزكاة وهم راكعون﴾ـ المائدة ٥٥ ـ

فالمحافظ عليها وعلى خشوعها لا يمكن أن يكون باغيا في الأرض لأنها تكفه عن البغي والظلم وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، فالحاكم الذي

مكنه الله في الأرض يوطد علاقته أولاً بينه وبين ربه ثم يوطدها بينه وبين رعيته ويتخذ بطانته من الذين يقيمون الصلاة ويحملون رعاياهم على إقامتها ويصلون بهم الجماعات والجمع ويوتون زكاة أموالهم أولئك هم الملوك الصالحون والأئمة الراشدون، أما ملوك الدنيا فهمهم جمع الأموال وإنفاقها في أبهة الملك ونيل والشهوات ويوجد في رعاياهم البؤساء والفقراء ولا يهمهم أمرهم، إن أئمة الهدى يجمعون الزكاة من الأغنياء ويفرقونها على الفقراء فهم يجمعون المال من حله ويضعونه في حقه، ثم هم يأمرون بالمعروف ويفعلونه وينهون عن المنكر ويتركونه، بهم تصلح الرعية وتستقيم أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب:-

﴿ولله عاقبة الامور﴾ـ هذا إنذار من الله لطيف يفهمه أولوا الألباب يبين الله لنا فيه أن الأمور أوائلها وخواتمها بيد الله تعالى:-

﴿ألا إلى الله تصير الامور﴾ـ فاحذروا من بيده عواقب الأمور أيها الملوك والرؤساء الممكنون في الأرض زمانا ولا تنسوا أنكم ستفارقون الرئاسة وسينزع عنكم الملك إلى ذل أو موت أو قتل كما فارقه من كان قبلكم، وأن الملك بيد الله وستصيرون إلى الله ثم يحاسبكم على سيركم في سياسة الرعايا والحكم فيهم فإن كنتم أحسنتم فطوبى لكم وإن أسأتم فستجزون بإساءتكم ولن تفلتوا من حكم الله يوم القيامة، وسيجري عليكم قضاء الله في هذه الدنيا فاعملوا لحسن العواقب بالقيام بهذه الوصايا الأربع في أنفسكم وفيمن ملّككم الله أمرهم، ثم هو محاسبكم على سيركم فيه واذكروا دائما هذه الوصايا، إقام الصلاة وايتاء الزكاة والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وهي المصلحات لرعاياكم والمنجيات لكم ويا ليت الملوك والرؤساء فهموا عن الله هذه الوصايا وعملوا بها وإذن لاستراحت الدنيا من المشاكل ونزلت على الناس بركات السموات والأرض ولكن أكثر الناس لا يعقلون وقليل ما يتذكرون، ولا يزالون في ضلالهم يعمهون وهم عن الحق معرضون كأنهم في ملكهم خالدون وهم بمن مضى قبلهم لا يعتبرون وفي كلام الله يمترون:-

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾
وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ
مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ
ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ
وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ
قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا
تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ
لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

وإن يكذبك هؤلاء يا محمد فقد كذبت قبلهم أمم كثيرة كذبت أنبياءها ورسلها فـأمليت لها ثم أخذتها فكيف كـان عقابي، وكيف كـان نكيري أي تنكري لهم، يذكر الله هنا سبعة أمم لسبعة من رسل الله وفي هذا العدد كفاية لتسليـة النبي ﷺ وتثبيت قلبـه على الصبر على أذى قومـه وفي ذكر هذه الأمم تهديد لكفار قـريش وتخويف لهم بأن عاقبة المكذبين ستـكون وخيمة كعاقبة هؤلاء المكذبين من قبلهم، وأنهم لن يعجزوا الله ولن يفلتوا من قبضته وإنما لهم أجل مسمى لا يستاخرون عنه سـاعة ولا يستقدمون، لا تضق ذرعا بتكذيبهم وأذاهم فإن لهم أجلا ينتهون إليه ولن يعـجزوا الله شيئاً فقد كذبت قبلهم قوم نوح كذبوا نبيئهم نوحا عليه السلام وآذوه طويلاً كلما دعاهم إلى الله أعرضوا عنه وسخروا منه كما شكاهم الى الله حين قال له:ـ

﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا ً﴾ـ نوح ٧ ـ وكذلك كذبـت عاد قوم هود نبيئهم هوداً عليه السلام واعرضوا عنه وقالوا :ـ

﴿سواء ٌعلينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الاَولين وما نحن بمعذّبين﴾ـ الشعراء ١٣٦ـ ١٣٨ وكذبت ثمـود المرسلين حين كذبوا نبيئهم صالحا عليه السلام وآذوه وعقروا الناقة:ـ

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوّاً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك ٍممّا تدعونا إليه مريب﴾ـ هود ٦٢ ـ وكـذب قـوم إبراهيم نبيئـهم إبراهيم عليه السلام وآذوه وألقوه في النار بعد أن اجـتهد في دعوتهم إلى الله ونصحهم وتحذيرهم من عقابه فما أجدى ذلك فيهم شيئاً:ـ

﴿فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من

النار إن في ذلك لآيات لقوم يومنون﴾ـ العنكبوت ٢٤ ـ وكذبت قوم لوط تبيئهم لوطا عليه السلام وآذوه وهددوه بالأخراج من ديارهم وارتكبوا الفواحش جهاراً وقد كان دعاهم إلى الله ونصحهم وحذرهم عاقبة الكفر والمعاصي التي يرتكبونها وما سبقهم بها من أحد من العالمين:ـ

﴿وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناسُ يتطهّرون﴾ـ الأعراف ٨٢ ـ وكذبت أصحابُ مدين نبي الله ورسوله إليهم شعيباً عليه السلام وأعرضوا عنه واستخفوا به بعد نصحهم ودعاهم إلى الله وحذرهم عاقبة الكفر وخوفهم بعواقب الظالمين الذين من قبلهم:ـ

﴿قالوا يا شعيبُ ما نفْقه كثيراً ممّا تقول وإنّا لنريك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ـ هود ٩١ ـ وكذب فرعون وقومه رسول الله إليهم موسى وأخاه هارون عليهما السلام ونصحهم طويلا فلم ينتصحوا وجاء موسى بآيات الله المتتابعات فلم يغن ذلك فيهم شيئاً وازدادوا عتواً وايذاء لموسى وبني اسرائيل:ـ ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدُوا في الأَرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون﴾ـ الأعراف ١٢٧ ـ لقد صبر أنبياء الله ورسله على أذى أقوامهم وفوضوا أمرهم إلى الله فجاءهم نصر الله وانتقم الله من أقوامهم المكذبين بعد أن أملى الله لهم قال تعالى: ﴿فأمليت للكافرين﴾. وظنوا أن ذلك الامهال الطويل مسالمة لهم وأن الله لن يعذبهم فجاءهم العذاب وهم ظالمون قال الله في حقهم:ـ

﴿فكلاً اَخذْنا بذنبه فمنهم من اَرسلنا عليه حاصباً ومنهم من اَخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الاَرض ومنهم من اَغرقنا وما كان الله

ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ـ. تلك كانت عاقبة الظالمين في كل زمان وللكافرين أمثالها فكم كانت هائلة:ـ ﴿**فكيف كان نكير**﴾ـ. يقول الله تعالى بعد عرض هؤلاء الأقوام وانتقام الله منهم فانظروا كيف كان تنكري لهم وتغييري لحالتهم شديداً وسريعاً، يأتيهم أمر الله يوم يأتيهم فيهلكون في طرفة فينقلبون شر منقلب ولا ينتصرون:

﴿**فكأيّن من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية ُعلى عُروشها وبيرٍ معلقةٍ وقصرٍ مشيدٍ**﴾ـ. يقول الله ويصوغ الكلام في صيغة الاستكثار والتعجب فكأنه قال: ما أكثر هذه القرى التي أهلكناها جزاء لهم على تكذيبهم أنبياءهم وإيذائهم إياهم كم من قرية، ويطلق اسم القرية في القرآن على المدينة الكبيرة ثم هلاك هذه القرى وبادت بأمر من الله في أجل محدود وما نجا منهم أحد: ﴿**فلماّ أحسّوا بأسنا إذاهم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أُترفتم فيه ومساكنكم لعلكمْ تسئلون**﴾ ـ الأنبياء ١٢ ـ ١٣ .

ما نجا منهم إلا من نجاه الله من رسله ومن آمن بهم وما يؤمن بهم إلا قليل لقد جاءهم أمر الله وهم ظالمون فدمر الله عليهم، فكم من قرية تراها بعد الهلاك خاوية خالية من سكانها قد تهدمت سقوفها وسقطت جدرانها عليها فبقيت أثراً بعد عين فلا داعي ولا مجيب وكم من بئر بقيت معطلة وقد كانت يزدحم عليها الواردون، وكم من قصر مشيد بني بالجَصِّ و«الشيد»: هو الجير وقد كان عامرا فبقى خاليا يزار للاعتبار، فكم في الدنيا من هذه القصور المشيدة والحصون المنيعة تنطق بعز بانيها وقوتهم ووفرة عددهم فأين سكان القرى وأين عمار القصور، لقد أصبحت بيوتها قبوراً وجمعهم بوراً فاعتبروا يا أولي الأبصار وسيروا في الأرض وانظروا نظر الاعتبار:ـ

﴿أفلم يسيروا في الأَرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أوَ آذانٌ يسمعون بها فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾- تعجب الله منهم فقال: أعموا؟! أفلم يسيروا في الأرض فيعتبروا بحال من مضى قبلهم من المكذبين أمثالهم أفم يسيروا في الأَرض فينظروا آثار الهالكين فتكون لهم يعقلون بها لأن القلب اذا استنار استبصر وعقل، أو أذان يسمعون بها والمقصود بالسماع هنا سماع الفهم والاعتبار ولم يقل أو أعين يبصرون بها، لأن البصر النافع إنما هو بصر القلب وإنما تنظر العين ونظرها مقدر هنا غير مذكور وقد ذكر في مواضع كثيرة من القرآن: **﴿أفلم يسيروا في الأَرض فينظروا﴾**-.

العين تنظر والقلب يبصر أو يعمى وحينئذ لا ينفع نظر العين إذا عمي القلب **﴿فإنها لا تعمي الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾**.
إنه لا يضر عمى الابصار التي في الرؤوس إذا كانت القلوب مبصرة ولكن يضر عمى القلوب التي في الصدور إذا قست وأعرضت عن الذكر، فذلك هو العمى الحقيقي الذي لا ينفع معه حدة النظر ولا رهافة السمع، لقد طافوا في البلاد ورأوا الآثار والقصور الضخمة التي بنيت بالجنادل العظيمة فبقيت خاوية وسمعوا أخبار أهلها وتبين لهم كيف فعل الله بأصحابها ولكنهم لا يعتبرون بل يشكّون في كلام الله ويستعملون وعيده استخفافا به.

﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنةٍ ممّا تعدّون﴾- إنهم يستعجلونك بعذاب الله ارتياباً به واستهزاء ولو كانوا يؤمنون به ويتصورن هوله ما استعجلوه، ولكن الله لن يستخفه استهزاؤهم ولن يغير قدره ولن يخلف وعده فللعذاب أجل معدود ولو تأخر وكل آت قريب وإنما جاءت هذه العبارة هنا تهكما بأعداء الله

الساخرين بوعيد الله سخر الله منهم ولهم عذاب أليم، وصف الله نفسه بالأناة فمقدار اليوم عنده كألف سنة مما يعد الناس فلا تستعجلوه أيها الضالون المكذبون فهو آت قريب لا ريب فيه:ـ

﴿وكأيّن من قرية أمليْتُ لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير﴾ـ.

تكررت هذه الكلمة «كأين» مرتين وهي تدل على التكثير والقرية قد يراد بها المدينة الكبيرة وفي الجملة السابقة ذكر الاهلاك، وهنا يذكر الاملاء والامهال ولكل وقعه في النفوس ومناسبته لما قبله وما بعده يقول الله تبارك وتعالى: وكم من المدن والقرى أمليت لها وأخرت عنها العذاب وأنزلت عليها نعمي وهي ظالمة فلا يغرن الظالمين إمهالي إياهم فإن لهم أجلاً محدوداً ولا تيئسوا أيها المؤمنون بما يفعل هؤلاء ولا تشكوا في نصر الله إياكم: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ـ. وإقامة للحجة عليهم ولعل بعضهم يهتدي أو يخرج الله من صلبه من يؤمن بالله وقد خرج من أبي جهل عكرمة ومن صلب الوليد بن المغيرة خالد، ومن صلب العاص بن وائل السهمي عمرو، وهم أبطال الإسلام أيد الله بهم الإسلام وبغيرهم من أولاد المشركين الظالمين، ثم إذا جاء أجل قرية من تلك القرى الظالمة جاءها عقاب الله فلم تفلت بل يأخذها الله أخذ عزيز مقتدر، وفي التعبير بالأخذ بيان لقدرة الآخذ وضعف المأخوذ فهو لا ينفلت ولا ينتصر وما أروع هذه الكلمة في هذا المقام وما أروع التعقيب الذي يليه:ـ ﴿وإليّ المصير﴾ـ.

يقول الله تبارك وتعالى:ـ إليّ لا إلى غيري مصير الأمور كلها في الدنيا والآخرة: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ـ. إليه مصير الأمور وإليه مصير العباد فيقضي فيهم بقضائه العادل، وفي هذا التعقيب ربط على قلوب المؤمنين وتطمين لخواطرهم حتى يثقوا بعدالة الله ويفوضوا الأمور اليه، ويتوكلوا

عليه فلا يضيقوا ذرعا بما يعمل الكافرون ويصبروا على ما ينالهم منهم من ظلم وأذى:

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ
إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى
ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾
لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟
بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى
مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ
يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

يأمر الله تعالي نبيه محمد ﷺ أن يعلن في الناس جميعا إنسهم وجنهم عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم وأحمرهم منذ مبعثه حتى تقوم الساعة أمر بهذا النداء وهو باق ما بقي القرآن:-

﴿**قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين**﴾- يا أيها الناس لست إلا نذيرا لكم لست إلاهاً وليس لي من أمر الربوبية والألوهية شيء، فلا

تستعجلوني العذاب فلست أنا الذي آتيكم به إنما يأتي به الله إن شاء بمشيئته هو لا بمشيئتي أنا، فلست إلا نذيراً مهمتي النذارة والتبشير والتبليغ أنذر الذين كفروا بالله وعصوني بعذاب أليم، وأبشر الذين آمنوا بالله واتبعوني بأجر عظيم، وأبيّن نذارتي لكم بآيات بينات ومعجزات لا تدع الشك في الأمر الذي أدعوكم اليه وأحذركم مخالفته، ذلك معنى نذير مبين وكثيراً ما ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم دلالة على الوضوح وإقامة الحجة وظهور آيات الله البينات وقد ترد كلمة البينة وهي تدل على نفس المعنى مع تصريف الكلمة، قال الله تعالى:ـ

﴿لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تاتيهم البينة﴾ـ البينة ١ـ ثم قال في نفس السورة: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البينة﴾ـ البينة ٤ ـ

والحكماء يقولون: من أنذر فقد أعذر، ويوم القيامة يقول الزبانية لأهل النار بعد مصيرهم إليها والعياذ بالله:ـ

﴿ألم ياتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن اَنتم إلاّ في ضلالٍ كبير﴾ـ الملك ٨ ـ ٩ ذلكم مصير الذين كذبوا بنذر الله وتلك هي عاقبتهم السيئة، وتأتي النذارة في القرآن أكثر من البشارة لعلم الله أن التخويف يؤثر في النفوس ما لا يؤثره التبشير لتسلط الشهوات عليها:ـ

﴿وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفاً﴾ ـ الإسراء ٥٩ ـ فسلطان الهوى على النفوس شديد ولو أن الله رغب المطيعين في الجنة، ولم يخوف العصاة بالنار لما أطاعه إلا النبيئون والصديقون والآن وقد خوف الله الناس وأنذر لم يطعه إلا قليل قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ـ سبأ ١٣ ـ

ويسمي الله أنبيائه ورسله نذراً:ـ ﴿وإن من امةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾ـ فاطر ٣٤ ـ ثم يبين الله تعالى عاقبة الذين استجابوا لله وآمنوا به وعاقبة الذين كذبوا برسله حتى يبلغ في إقامة الحجة عليهم فيقول:ـ

﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾. هكذا تنتهي مهمة النبي ﷺ في النذارة والتبليغ والبشارة لمن استجاب وآمن أما الهداية فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء:ـ

﴿إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ـ القصص ٥٦ ـ

ثم إن أمر الجزاء بيد الله يقدمه أو يؤخره بمشيئه لا دخل للأنبياء في ذلك فالعباد بعد هذا فريقان، فريق يستجيب فيبين الله جزاءه عنده وفريق يكفر ويعرض فيبين الله عاقبته السيئة وفي هذا البيان موعظة بليغة لمن أراد الله به خيراً، وهنا يبدأ بذكر جزاء المستجيبين لأنبيائه ورسله فيقول:ـ

﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم﴾ـ.

ولتحقق الاستجابة وتكون صادقة فلابد بشيئين اثنين وهما: الإيمان والعمل الصالح فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولا ينفع أحدهما دون الآخر، ويذكران في القرآن معا في كثير من المواضع، فالإيمان الكامل الحق الذي يدخل صاحبه في رحمة الله ثلاثة أجزاء عقيدة في القلب لا يخالجها شك، وقول باللسان وهو النطق بالشهادتين وما يتبعهما، وعمل بالجوارح عملا موافقا لمضمون الشهادتين، وهو عبادة الله عبادة خالصة لا شرك فيها واتباع الرسول ﷺ، فإذا توفر هذا في شخص المؤمن فهو المؤمن

حقا فلا إيمان مع الإصرار والتمادي على الكبائر:ـ

﴿الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ـ النجم ٣٢ ـ وقد يلم المؤمن بما يلم به من المخالفات لكن سرعان ما يتذكر ويتوب ويستغفر فلا عصمة لأحد إلاّ لأنبياء الله عليهم السلام، والصالحات هي اِتيان ما أمر الله به من أنواع البرو دعا إليه من القربات التي يتقرب بها المحسنون، واجتناب ما نهى الله عنه من المخالفات والمحرمات، وفي ذلك الإتيان والاجتناب صلاح حال العباد في المعاش والمعاد وفي مخالفته فساد العباد والبلاد وتعرض لعقاب الله في الدنيا والآخرة فالذين استقاموا لربهم بالإيمان والعمل الصالح لهم مغفرة من الله لذنوبهم ورزق كريم في الجنة، والكريم من كل شيء هو الخالص الجيد، يقال في الذهب معدن كريم ويقال في اللؤلؤ والجوهر حجر كريم ويقال فرس كريم ويقال في الاخلاق خلق كريم، ومن أجود الاخلاق السخاء ولذلك يقال للرجل إذا كان سخيا: رجل كريم، فالرزق الكريم هو الرزق الذي يسوق الله لأهل الجنة لا صخب فيه ولا نصب ولا ذل ولا تعب، ليس كرزق الدنيا الذي لا يأتيك إلا بالذل والتعب والتعرض للآفات والاغتراب عن الأهل والأوطان، وإذا حصل عندك شيء منه فهوهم وتعب إذ ربما يفارقك أو تفارقه أما رزق المؤمنين في الجنة فهو هنئ يأتيك رغدا كما تحب وتشتهي ويحضر عنك حالا عنه الطلب: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللّهم﴾ـ يونس ١٠ ـ ثم هو متوفر غير قليل لا مقطوع ولا ممنوع وليس فيه محاسبة وهو خالد أبدا وهم فيه برحمة الله خالدون ذلك هو الرزق الكريم وذلك هو الفوز العظيم، هذا جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أما جزاء الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وعصوا رسله فإن الله يجازيهم بعدله ولا يظلمهم شيئا ﴿وما ربك بظلامٍ للعبيد﴾ـ

فصلت ٤٦ -

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾-.

إن هؤلاء الكفار لا يكتفون بكفرهم وإعراضهم بل هم يحاربون الله ورسوله ويحاولون إطفاء نور الله بأفواههم ويسعون بمختلف الحيل في صد الناس عن الإيمان بالكذب والافترار وإلقاء الشبه في قلوب الضعفاء من الناس، ويؤذون المؤمنين ويحاربونهم بأنواع المحاربات وأنواع المكر ﴿ولا يحيق المكر السيء الاّ بأهله﴾- فاطر ٤٣ - ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾- الأنفال ٣٠ -

يعاجزون بذلك آيات الله والله غالبهم ومظهر عجزهم ومن يغالب الله فإن الله يقهره ويغلبه ثم يرده إلى أشد العذاب:- ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾-.

والجحيم هي النار العظيمة المتأججة التي تستعر دائما ولا تنطفي قال الله تعالى: ﴿أولئك أصحاب النار﴾ فهم أهلها وأصحابها وهي أمهم ولم تخلق إلاّ لهم فهم لا يفارقونها وهم فيها خالدون لقد استحقوها بكفرهم ومكرهم السيء وصدهم عن سبيل الله، والتعبير بالصحبة أبلغ من التعبير بالدخول والصلي والخلود لأن فيها الملازمة الدائمة وفيه الإشارة إلى أنهم اكتسبوا صحبتها بكفرهم وأعمالهم السيئة، فقد أشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة وصاحب الشيء هو الذي اشتراه ورضي به بدلا مما باعه فهم أصحابها الذين اكتسبوها وعملوا لها واستحقوا الخلود فيها وما ظلمهم الله، هذا حكم الله وقضاؤه العادل في هؤلاء وهؤلاء ويزيد الله المؤمنين من فضله ورحمته ويدخلون الجنة برحمته ويقتسمونها بأعمالهم ثم يخبر الله نبيه بشأن

من شئونه مع انبيائه ورسله فيقول جل من قائل وقوله الحق:ـ

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء الاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاقٍ بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيومنوا به فتخبت له قلوبهم وإنّ الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تاتيهم الساعة بغتة او ياتيهم عذاب يوم عقيم﴾ـ. هذه الآية الكريمة في القرآن من أشكل الآيات على المفسرين منذ العهود الأولى فهم فيها على اختلاف بعيد بين المفسرين المحققين، وبين الذين هم كحاطبي ليل لا يميزون بين الغث والسمين، لقد وجد المنافقون والكفار منفذا للطعن في الدين من خلال كتابة البعض الذين لا يحققون في تفسير ما أشكل عليهم ولو تركوا تفسيره وفوضوا فيه الأمر إلى الله لكان خيرا لهم، اختلف المفسرون منذ القديم في سبب نزول هذه الآية فرووا في ذلك قصة باطلة كما سنبين تحقيق بطلانها وهي التي تعلق بها الطاعنون في صحة نبوءة نبينا محمد ﷺ وفي صدق رسالته فخبوا ووضعوا أولئك هم المستشرقون من المسيحيين والزنادقة والملاحدة، وأكثر المستشرقين من النصارى إنما يتعلمون علوم القرآن للطعن فيه ليستخلصوا من خلال ذلك بعض شعرات من الشبه يتعلقون بها ابتغاء فتنة ضعفاء المؤمنين عن دينهم ولصد الناس عن الإسلام، والقصة التي أشرنا إليها أكذوبة من وضع الزنادقة وبعض هؤلاء من اليهود أظهروا الدخول في الإسلام للطعن فيه وما أكثر ماكذوا على النبي ﷺ ودسوا الأحاديث الموضوعة في جملة الأحاديث للطعن في الدين، وتوسيع شقة الخلاف بين

المسلمين زوروا في نفوسهم أشياء فنسبوها لبعض رواة الحديث وربما يزيدون في الحديث الصحيح كلمة أو كلمات أو ينقصون لنقض بعض قواعد الإسلام الصحيحة مما علم من الشرع بالضرورة أو للتفريق والفتنة بين المسلمين، بعض المفسرين يحشرون الرواية الضعيفة في تفسيرهم من غير تمييز فيسيئون بذلك إلى الإسلام ولا يشعرون وكذلك الذين يروون بعض الاسرائيليات ولا يمحصونها ولا يزنوها بميزان القواعد الصحيحة من الدين، ولا ينبغي أن تؤخذ إلا بحذر ونذكر القصة التي رووها في سبب نزول الآية لنبيّن فسادها ولا يجوز لمسلم أن يصدقها لأنها يخالف ما علم من الدين بالضرورة قال الله تعالى:ـ

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء الاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ـ « الآية » قالوا تمنى بمعنى قرأ أي إذا قرأ ألقى الشيطان في قراءته وذلك أن كلمة « تمنى» في اللغة لها معنيان الأول المعنى المذكور، والثاني تعلق القلب وطلبه لأمر محبوب، وهو المُنى قالو معنى الآية ما من رسول قبلك ولا نبي إلاّ إذا قرأ على قومه ما أنزل إليهم ألقى الشيطان في قراءته ما ليس من قوله ليلبس على المستمعين، أما «تمنى» بمعنى قرأ فصحيح في اللغة قال حسان ليلة قتل عثمان.

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

وأما إلقاء الشيطان في قراءته حتى يتوهم المستمعون أنه من قراءته فهذا هو الزور والباطل، قالوا لما نزلت عليه سورة « النجم » تلاها على الناس في المسجد الحرام وكبراء قريش يستمعون فلما بلغ عند قوله تعالى:ـ ﴿أفرايتم اللاّت والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ـ النجم ١٩ ـ سكت سكتة خفيفة قالوا

فألقى الشيطان على طريقة قراءة النبي ﷺ هذه الكلمات:

تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي ... أقحمها في القراءة ثم زاد النبي ﷺ بقية السورة.

﴿ألكم الذكر وله الانثى تلك اذاً قسمة ضيزى﴾ ـ النجم ٣١ ـ ٣٢ إلى آخر السورة.

تلك الغرانيق إشارة إلى الأصنام الثلاثة المذكورة وهي أصنام مشهورة يعبدونها والغرانيق هو شيء حسن ويرمز به إلى الملائكة فالكلمات إذن موافقة لزعمهم وقولهم:ـ

﴿ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ـ الزمر ٣ ـ والعجب كل العجب ممن يصدق بهذا الكلام ويرويه، كيف يكون للشيطان سبيل إلى الزيادة في وحي الله والله يقول: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المومنين سبيلا﴾ ـ النساء ١٤١ ـ

وإذا لم يكن لهم سبيل على المؤمنين فكيف يكون لهم سبيل على رسول الله وعلى وحيه ويقول الله تعالى في أمر الشيطان خاصة:ـ

﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ ـ النحل ٩٩ ـ ١٠٠

قالوا وكان المشركون يسمعون فلما انتهى من قراءة السورة سجد وسجدوا معه كلهم إلا الوليد بن المغيرة فقد حمل حفنة من التراب ووضع فيها جبهته لأنه كان شيخا يشق عليه السجود، وهذا منهم تعبير عن ارتياحهم لذكر أصنامهم بخير قالوا وأخبر الله رسوله أن هذا لم يقع له

وحده بل يقع لكل رسل الله وأنبيائه وهذا تسلية منه له، ثم بعد ذلك يحكم الله آياته وينسخ ما يلقي الشيطان وهذا منهم غريب فإذا كان الله يحكم آياته وهذا حق فلما لا يكون من أول مرة يطرد عدوه الشيطان فلا يدع له مجالا في القراءة، لماذا يتركه يتسلط بمثل هذا الالقاء على جميع الأنبياء والرسل، أليس هذا باطلا تعالى كلام الله عما يقوله المفترون والمبطلون، وبهذا تعلق الطاعنون في الإسلام قديما وحديثا أدخلوا هذه الروايات الباطلة في التفسير والقرآن من أوله الى آخره رد عليهم والله تعالى يقول لنبيه:ـ

﴿سنقرئك فلا تنسى إلاّ ما شاء الله﴾ـ الأعلى ٥ ـ ٦ ويقول له **﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثمّ إن علينا بيانه﴾**ـ القيامة ١٦ ـ ١٩

ويقول: **﴿وإنّه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾**ـ فصلت ٤١ ـ ٤٢

ولا يزال القرآن محفوظا لم يجد أعداء الله الكفار سبيلا الى زيادة كلمة أو حرف واحد فيه أو النقص، فكيف يجد الشيطان سبيلا الى إلقحام إلقائه في قراءة رسول الله ﷺ ثم يكون مثل هذا لكل رسل الله وأنبيائه، إن هذا لهو الباطل والزور من القول فلا يستقيم في عقل عاقل أن يسلط الله عدوه على كلامه الحق يلقي فيه قول الزور كيف يروج هذا الادعاء الباطل على بعض أهل التفسير فيدرجوه في تفسيرهم، عجباً لهؤلاء أين عقولهم وأين إيمانهم وقد ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام إذا جاء بالوحي بالقرآن إلى رسول الله ﷺ تنزل معه كوكبة من الملائكة يحرسون النبي ﷺ ويطردون عنه الشياطين أوردوا هذا الحديث لمناسبة تفسير قوله تعالى:ـ

﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الاّ من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ـ الجن ٢٦ ـ ٢٨

الرصد هم الحرس يحرس الله تبارك وتعالى رسله ويذود عنهم الشياطين فلا سلطان لهم عليه لا في اليقظة ولا في منام، فرؤيا الانبياء حق وهي وحي من الله، هذا خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول لابنه حين أراد أن ينفذ أمر الله فيه بالذبح: **﴿يابنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تومر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ ـ الصافات ١٠٢ ـ.** فلا إبراهيم قال لعل هذه الرؤيا من إلقاء الشيطان ولا ابنه اسماعيل قال ذلك بل أعتقد الاثنان اعتقاداً جازماً أنه أمر الله تبارك وتعالى يجب أن يطاع، ولم يقع لهما ريب في ذلك فكيف يزعم زاعم أن الشيطان يلقي على قراءة رسول الله محمد ﷺ للقرآن الكريم وكتاب الله العزيز، وجاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: « من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي» فإذا كان الشيطان لا يقدر أن يتمثل بالنبي ﷺ في المنام في زمنه وبعد زمنه فكيف يتمثل بقراءته ويفترى على الله الزور والبهتان إنه أحقر وأدحر مما يظنون، وإن كلام الله أعز وأرفع، ورسول الله ﷺ أمنع من أن تتمثله الشياطين أو تتزيد في قراءته ما ليس منها، وإذا أبيتم أيها المستشرقون من أهل الكتاب إلا أن تتشبثوا بطعنكم في هذا النبي من خلال هذه الآية فما تقولون في الرسل السابقين ما تقولون في موسى وعيسى وابراهيم عليهم السلام، هل كانت الشياطين أيضا تلقي في قراءتهم وعلى ألسنتهم ما ليس منها على أن الآية هذه ذكرت الرسل من قبل محمد ﷺ ولم تدرج من بينهم محمد بالنص فما لكم كيف تحكمون،

ونحن ننزه جميع رسل الله عن هذا الفهم الخاطئ للآية، وعن هذه الرواية المكذوبة في سبب نزولها ولنرجع إلى المعنى الصحيح للآية فنقول.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء الاّ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾- الرسول في عرف الديانات هو الرجل الذي أوحي إليه بشريعة جديدة وكتاب أمر بتبليغه الناس والنبي هو الذي أوحي إليه وأمر أن يحكم في قومه بالشريعة السابقة والكتاب على الرسول الذي يتبعه فقد كان في بني إسرائيل أنبياء كثيرون أوحي إليهم وأمروا بالحكم بشريعة التوارة ودعوة الناس إليها، والعلماء في هذه الامة بمثابة الانبياء في بني إسرائيل إلا أنه لا يوحى اليهم لأن النبوة ختمت بمحمد ﷺ فهو خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين وأما « تمنى» فلها معنيان «تمنى» بمعنى قرأ وهو المراد هنا وتمنى وهو الرغبة القلبية وهو المنى وقال به بعض وإلقاء الشيطان في أمنية الرسول ليس هو التزيد فيها والقراءة على لسانه، فإن ذلك لن يقع لأن الله يحفظ أنبياءه ورسله وكتبه من الشياطين فليس لهم إلى ذلك سبيل، وإنما معناه أنه إذا قرأ الرسول أو النبي كلام الله على الناس يأتي الشيطان فيلقي الشبه والأوهام في قلوبهم فيتأولوها على غير وجهها ويخوضون في معناها فيلحدون في تأويلها على حسب أهوائهم ابتغاء الفتنة وإضلال الناس قال الله تعالى:- **﴿وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلونكم وإن اَطعتموهم إنّكم لمشركون﴾**- الأنعام ١٢١ - ذلك هو إلقاء الشيطان في قراءة الرسول أو النبي يعني إلقاء الشبه في القلوب القاسية وأبعد القلوب من الله القلب القاسي وهذا المعنى مناسب جداً للآية السابقة:

﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾- سبأ ٣٨ - وهذا من السعي

للمعاجزة في آيات الله، كانت قريش إذا نزلت عليهم آيات الله يجتهدون في إلقاء الشبه والتأولات الباطلة في معناها حتى يضللوا ضعفاء الناس ويصدوهم عن سبيل الله، فأراد الله، في هذه الآية تسلية قلب النبي ﷺ والمؤمنين بعده فقال له: إن هذا الطعن ليس هو الأول بل كان لكل رسول ونبي قبلك أعداء يطعنون في رسالات الله وتلقي إليهم شياطينهم بالتأويل الباطل فيسخرون من المؤمنين ويستهزئون بآيات الله البينات:ـ

﴿وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوّاً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ـ الفرقان ٣١ ـ

وحذر الله نبيه والمؤمنين من مجالس هؤلاء الخائضين في آيات الله فقال تعالى:ـ **﴿وقد نزّل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾**ـ النساء ١٤ ـ هذا ما يقع لجميع أنبياء الله ورسله: **﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾**. إن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل فينسخ أي يذهب ويمحو ما يلقي الشيطان من الشبه والتآويل الباطلة ويحكم الله آياته المحكمات يثبت بها الذين آمنوا والله عليم حكيم، ومن حكمة الله تسليط الشياطين على قلوب الضعفاء بالشبه والتآويل الباطلة حتى يمتاز فريق الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم من فريق المؤمنين الصادقين المخبتين إلى ربهم. **﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾**. ليجعل ما يلقي الشيطان من الشبه في تأويل الآية فتنة للذين في قلوبهم مرض وفي

الناس من في قلوبهم نفاق أو مرض بسبب معاصيهم وفي الناس ذووا القلوب القاسية ونعوذ بالله من قساوة القلوب، فتلك القلوب المريضة والقاسية هي التي تفتتن بشبه الشياطين وتتشربها، ويريد الله أن يميز بين الخبيث والطيب لينال كل جزاءه ولله في خلقه شئون، تنزل الآية الواحدة أو الآيات فتزيد المؤمنين ايماناً وتزيد الذين في قلوبهم رجسا إلى رجسهم، ومثال ذلك المطر الذي ينزل في شهر (نيسان) فيقع في أجواف أنواع من الحوت فينقلب لآلئ وجواهر ويقع في أجواف الأفاعى فينقلب سماً قاتلاً فلنحذر سمومهم القاتلة فإنها أنكى وأضر من سموم الأفاعى والثعابين وقد أمرنا الله أن نجتنب مجالس هؤلاء الشياطين وأن نعرض عنهم.

﴿**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإمّا ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكري مع القوم الظالمين**﴾- الأنعام ٦٨ - وكذلك يفعل ملاحدة اليوم وزنادقة الشيوعيين يطعنون في آيات الله ومنهم أساتذه كبار، وقد يغتر بكلامهم الشباب المتعلمون منهم فليحذروا من فتنة هؤلاء فإن الله أمرنا أن نعرض عن هؤلاء الذين يخوضون في آياته بالطعن والتشكيك، وإما ننسى بعض الوقت فنقعد فلا يجوز أن نقعد بعدما نتذكر يجب أن نقوم حالا ولا ندخل معهم في جدال فإن فلسفتهم خطيرة على العقول مظللة لها لنرجع الى آيات الله المحكمات ففيها الهدى والشفاء وصدق الله العظيم:- ﴿**قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**﴾- فصلت ٤٤ -

﴿**فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم**﴾-.

ومن شبههم التي ألقاها الشيطان إليهم في قراءة النبي لما نزلت آية تحريم

الميتـة قولهم، انظروا إلى محـمد يحرم التي قـتلها الله ويحلل التي قـتلها هو بنفسه وقـولهم عند نزول قوله تعالى: ﴿قل ادعـوا الله أو ادعـوا الرحـمن﴾ـ الإسراء ١١٠ ـ

قـالوا إن له إلاهين أحدهمـا اسمـه الله والثـاني اسمـه الرحمن وكـانوا ينكرون الرحمن والرحمن والرحيم من أسماء الله الحسنى وآيات الله محكمة تأبى تأويلهم الباطلة وتدفـع شبههم الضـعيفة فليس لهـا أي تأثير في قلوب أوليـاء الله المؤمنـين، ونظائر هذا كـثيـرة في كـلام الخـائضين في آيات الله وكتـاباتهم ومن عـصمه الله وثـبت قلبه بالإيمان الثـابت لن تضره أضـاليلهم وأباطيلهم: ﴿فـأمـا الذين في قلوبهم زيغٌ فـيتّـبعـون مـا تشـابه مـنه ابتـغـاء الفـتـنة وابتـغـاء تأويله ومـا يعلم تـاويله إلاّ الله والرّاسـخـون في العلم يقـولون آمنا به كلٌّ من عند ربّنا ومـا يذّكر إلاّ أولوا الألبـاب﴾ـ آل عمران ٧ ـ أما الذي يتعلق بالحـلال والحرام والأحكام فمفصل ليس فـيه لبس أبدا، وأما المتشابهات فكـبعض أخبار الغيب عن السماء والملائـكة وعالم الجن وأخبار الغيب التي تتعلق بـالآخرة فنسلم فيها الأمر لله تـعالى بعد الإيمان الكامل أنه من عند ربنا ومـا يبلغ علمـنا في علم الله عـز وجل عالـم الغيب والشـهـادة ونحن لم نحط علما بما في أنفسنا فكيف نطمع أن نعلم ما في السموات وما وراء المادة وما بعـد الموت فضـلاً عن معـرفة ما يـتعلق بصفـات الله الواجب الوجود فأسلم لنا أن لا نخوض في المتشـابه منها وقد قال الله تعالى في حق نفسه:

﴿يعلمُ مـا بين أيديهم ومـا خلفـهم ولا يحـيطـون بشيءٍ من علمـه إلاّ بمـا شـاءَ﴾ـ البـقـرة ٢٥٥ ـ وقـال أيضـاً: ﴿يعلم مـا بين أيديهم ومـا خلفـهم ولا يحيطون به علماً﴾ـ طه ١١٠ ـ

فكيف يطمع المخلوق أن يحيط بشيء من علم الخالق فضلاً عن معرفة ما يتعلق بذاته وصفاته، فأسلم له أن يتفكر في الخلق ليزداد إيماناً ولا يتفكر في الخالق ولا يستمع إلى من يخوض في ذلك كما قال بعض أهل العلم: فالعجز عن إدراكه إدراك والخوض في إدراكه إشراك، والراسخون في العلم يردون أمر المتشابه من الآيات إلى المحكم منها بعد إيمانهم بجميعها وتلك هي المعرفة وذلك هو الرسوخ في العلم وتلك هي السلامة أما الخائضون في آيات الله بغير علم فقد قال الله فيهم:

﴿وإنّ الظّالمين لفي شقاقٍ بعيدٍ﴾. سماهم ظالمين لأنهم عدوا طورهم ودخلوا فيما لا يحل لهم الدخول فيه وخاضوا في آيات الله بالباطل وسولت لهم شياطينهم بما تلقي إليهم من الشبه الفاتنة، فهم بذلك ظالمون وهم في شقاق بعيد عن الحق يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آيات الله هزوا ولا مطمع في هدايتهم لأنهم بعداء عن الحق يشاقون الله ورسوله ويعبدون الشيطان، فلنترك هؤلاء ولنرجع إلى المعنى الثاني للتمني الذي في الآية وهو تمني القلب بمعنى الرغبة الملحة في أمر محبوب، إذ من المعلوم أن الأنبياء والرسل حريصون على إيمان قومهم مجتهدون في تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله قد حملوا من ذلك الهمّ الكبير يتفكرون في بعض أشياء ليجلبوا بها أقوامهم للإيمان بدعوتهم ويرون أن لوأذن الله لهم فيها ليستميلوا الرؤساء والكبراء إليهم حتى يتبعهم سواد الناس، وقد وقع هذا في قلب نبينا محمد ﷺ مراراً وذكر في القرآن مثل قصته مع إبن أم مكتوم وقصته مع زيد بن حارثة مولاه حين أراد الله أن يبطل التبني ويتزوج النبي ﷺ زينب بعد أن يطلقها زيد وكان النبي ﷺ يخطر بباله أشياء يودها ويتمناها وذلك أيضا مثل ما وقع بينه وبين بعض كبراء قريش حين رغبوا اليه أن

يكف عن سب آلهتهم أو يذكرها بخير وبعض كبراء ثقيف وأبدوا بعض الموافقة على دعوته على بعض شروط، منها أن يخصهم بميزة يذكرون بها عند العرب، ومنها أن يبطل السجود في الصلاة ومنها أن يعفيهم من جباية الزكاة، ومنها أن يجعل من منازلهم حرماً كحرم مكة، ومن اشتراط كبراء قريش أن يطرد من حوله فقراء المؤمنين أو يجعل لهم يوماً وللفقراء يوماً وأمثال ذلك من الإقتراحات التي ربما كان النبي ﷺ يود لو وافقهم إلها حتى يستميلهم إلى الإسلام، ولكن الله تعالى كان يبين له خطأ ذلك التمني من وقت لآخر وربما يعاتبه على بعض ذلك أو ينهاه مثل ما أنزل عليه في سورة ﴿عبس وتولى﴾ أو ينهاه، مثل ما أنزله عليه:ـ

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً وقل الحقّ من ربكم فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر﴾ الأية ـ الكهف ٢٨ ـ ٢٩ وفي سورة الإسراء أنزل عليه قوله: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً ولولا أن ثبتناك لقد كدّت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ـ الإسراء ٧٣ ـ ٧٥

هذا وأمثاله من التمني الذي يلقيه الشيطان في رغبة الرسول وما يقصد من ورائه إلا خيراً ولكن الله يسدده للحق ولا يقره على ذلك وفي هذا تعليم لنا أن الداعي يجب أن يكون صلبا في دعوته مادام يعتقد أنها الحق ولا يقبل

المساومة فيها ولا المداهنة، بل يدعو إلى الله على بصيره وبالحكمة والموعظة الحسنة ولا يلاين ولا يداهن في الدين، ويهدي الله لنوره من يشاء ويضل من يشاء وهو أعلم بالمهتدين، ولا حاجة بعد ذلك إلى استظهار أمر الدعوة بالمتكبرين أهل العلو الذين يرون لأنفسهم منة على الإسلام إن أسلموا بل المنة لله على من هداهم للإيمان وشرح صدورهم للإسلام، فعلى الرسول أن يصدع بما يؤمر ويتوكل على الله ولا يطيع المنافقين والكافرين في شيء ولو قليل، ويعرض عن أذاهم ويعتصم بالله فإن الله قد وعده أن يعصمه من الناس، هذا هو أحد المعاني للتمني وقد يكون هو المراد من الآية والمعنى الأول الذي ذكرته قبل هذا أنسب للآية التي سبقت هذه الآية والله أعلم، ثم ذكر الله تعالى حكمة ذلك الإلقاء وأثره في نفوس الذين أوتوا العلم إنه يزيدهم علماً أنه الحق من عند الله وهذا يرجح المعنى الأول للتمني الذي هو القراءة قال الله تعالى:

﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربّك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإنّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم﴾.

وليعلم المؤمنون الذين آتاهم الله العلم والإيمان أن قول الله حق وإن تشابه عليهم فيؤمنوا به وقد آمنوا بكل ما أنزل الله أنه من عند الله فتزداد قلوبهم المخبتة إخباتا وبصيرة، وإن الله لهادي الذين آمنوا بإيمانهم الى صراطه المستقيم فلا تؤثر فيهم أبداً إرجافات المبطلين وتأويلاتهم الفاسدة أولئك في شقاق بعيد بينما الذين آمنوا في صراط الله المستقيم فشتان بين هؤلاء وهؤلاء ثم قال تعالى:

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تاتيهم الساعة بغتةً أو ياتيَهم عذاب يومٍ عقيم﴾. يبين لنا في هذه الآية بعد الكفرة عن الحق فهم لا يهتدون بآيات الله المحكمات ولا المتشابهات لأن قلوبهم قاسية مظلمة بكفرهم فلا يزالون في شك من أمر الرسالة حتى تأتيهم الساعة بغتةً أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، فيه عذابهم ليس بعده يوم آخر ذلك يوم القيامة وهذا تهديد من الله صريح لهؤلاء الذين يمترون في أمر الله ووعيد لهم وهو تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين معه يقول لهم لا يغيظنكم أمر هؤلاء الكفرة المجادلين في آيات الله الممترين بها فإنهم لا يزالون كذلك حتى يأتيهم أمر الله بغتةً فيندمون ولات مندم وينادون بالحسرات:

﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يومنون﴾ - الأنعام ١٢٥ - نسأل الله أن يشرح صدورنا للإسلام ويزيدنا علماً ولا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويبعد عنّا الشكوك وأن لا يفتننا بهؤلاء المضللين، وما أضر فتنتهم على المسلمين، فإنا في عصر كثر فيه الهجوم على الإسلام من مختلف الجهات وزماننا أشد ما يكون من كل زمان مضى، فعلى حملة العلم أن يذودوا عن دينهم ويتمسكوا بدعوتهم وينصروها وينشروها ويصمدوا أمام الهجمات ويصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين والحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى:

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟

لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾

الملك في ذلك لله الواحد القهار يحكم بينهم بعدله وهو خير الحاكمين لا ظلم، والاشارة في يومئذ إلى اليوم العقيم الذي ينتظره هؤلاء الكفرة المردة، الذين يمارون في الساعة ويشكون في أمر الرسالة وفي رسالة محمد ﷺ خاصة، ويخوضون في آيات الله لفتنة الناس، الويل لهم من حكم الله يحكم بينهم وبين خصومهم المؤمنين فيجازي كلاً بما يستحق، وشتان بين الجزاءين، لقد بيّن الله تبارك وتعالى نوعي الجزاء ليعتبر المعتبرون فقال تعالى:

﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنّات النعيم والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا فاؤلئك لهم عذاب ٌمهين ٌ﴾- هما جزاءان لا ثالث لهما:

جنة يدوم نعيمها أو نار يدوم جحيمها، فالذين آمنوا الذين استقاموا في إيمانهم على صراط مستقيم وعملوا الصالحات والإيمان لا يتم إلا بالعمل الصالح هؤلاء في جنات النعيم، جنات كثيرة ينعمون فيها بكل أنواع النعيم: **﴿فلا تعلمُ نفس ٌما أخفي لهم من قُرّة أعين ٍجزاءاً بما كانوا يعملون﴾**- السجدة ١٧ - قال الله تعالى: **﴿في جنات النعيم﴾**- فكأنهم فيها منذ الآن لتحقق دخولهم فيها فقد أعدت لهم وهم أصحابها، ولن يخلف الله وعده، وهذه بشارة عظيمة من الله للمؤمنين العاملين، أما الذين كفروا وكذّبوا بآيات الله واتخذوها هزؤاً فاؤلئك، الإشارة بالبعيد لهوانهم على الله بكفرهم، لهم عذابٌ مهينٌ، إن الله أعد لهم عذاباً مهيناً لن يفلتوا منه، عذاب

يخلدون فيه مهانين أذلاء وهذا الجزاء مقابل اعتزازهم في الدنيا بالكفر وطغيانهم فيها وكبريائهم وشقاقهم لله ورسله، فجعل الله جزاءهم الذل والإهانة مع العذاب جزاء وفاقا: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثمّ قُتِلوا أو ماتوا ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً وإنّ الله لهو خيرُ الرّازقين ليدخِلنّهم مدخلاً يرضونه وإنّ الله لعليمٌ حليمٌ﴾.

كرامة عظيمة للمهاجرين خاصة، سوى الله بينهم فكتب الشهادة لجميعهم الذين قتلوا في الجهاد والذين ماتوا على فرشهم، جعل الله هجرتهم شهادة ذلك لأنهم هاجروا وقاتلوا في سبيل الله فمن قتل منهم في الجهاد ومن مات حتف أنفه لهم جميعا كرامة الإستشهاد، ذلك لأنهم تركوا أوطانهم وأموالهم وأهاليهم في سبيل الله، فراراً بدينهم ولينصروا الله ورسوله، يبيّن الله جزاءهم في هذه الآية وهو أنهم يدخلون مدخلاً يرضونه وهي مقابلة عجيبة، لقد خرجوا في الدنيا من منزل يحبونه وهو مكة أشرف بلاد الله وأحبها إليهم، خرجوا منها كارهين فجعل الله جزاءهم على هذا الخروج المر دخولاً حلوا في دار يرضونها، وكلمة الرضا هنا لها مدلولها فهي تغني عن أوصاف كثيرة للجنة وكل لذة وكل نعيم هناك يدل عليه كلمة يرضونها، فهم مغتبطون بها لا يتمنون خيراً منها ولا يبغون عنها حولا ومناسب جداً ذكر هذا الجزاء للمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربّنا الله، ﷺ وأرضاهم وأكرم مثواهم:

﴿وإنّ الله لعليمٌ حليمٌ﴾. أثنى الله على نفسه بالعلم والحلم وهو أهل للثناء والمجد فهو عليم بأعمال عباده ونوايا قلوبهم لا تخفى عنه خافية وقد أعد لكل جزاءه الذي يستحقه، حليم لا يعجل بالعقوبة بل يمهل عباده ويستانى بهم لعلهم يتوبون ومن تاب منهم قبل توبته ومن أسلم منهم بعد

كفره غفر له ما قد سلف، والإسلام جب لما قبله ومن أصر وتمادى على كفره فإن الله يملي له ثم يأخذه ويجازيه على ظلمه وكفره جزاءاً عادلاً لا ظلم فيه، فلا تغتروا أيها الطغاة المكذبون بحلمه فإن لكم أجلاً لا ريب فيه وثقوا بنصر الله أيها الضعفاء المظلومون:

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

تقدم الكلام في معنى ذلك هذه التي تأتي لربط الصلة بين ما سبق وبين ما يأتي وفيها من البلاغة ما فيها ثم قال تعالى:

ومن عاقب بمثل عوقب به جاء هذا الكلام من باب المشاكلة وقد تعددت هذه المشاكلة في القرآن الكريم، وذلك أن يطلق على أحد الطرفين اسم الطرف الآخر مع الاختلاف في حقيقة المعنى، فقد سمى الطرفين هنا عقاباً، وأحدهما عقاب وهو فعل المظلومين وانتصافهم من ظالميهم الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق، أما فعل الظالمين فهو بغي وليس بغيهم عقاباً، لكن سمي عقاباً للمشاكلة وذلك كقوله تعالى:

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ - البقرة ١٩٤ -

فسمى فعل المسلمين اعتداء للمشاكلة وليس هو اعتداء إنما الاعتداء فعل الكفار والمشاكلة فن من فنون البلاغة في اللغة العربية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾- آل عمران ٥٤ -

وورد هذا المعنى هنا لمناسبة ذكر المهاجرين الذين أذن لهم في القتال لأنهم ظلموا، أخرجوا من ديارهم وأموالهم ثم بغي عليهم فأذن لهم أن ينتصفوا لأنفسهم وأن ينتصروا لدين الله الذي هو دينهم، أذن الله لهم في القتال ووعدهم النصر على أعدائهم:

﴿لينصرنّه اللهُ﴾- وعد مؤكد بتوكيدين حتى يطمئن المؤمنون ويثقوا بنصر الله ولا يستبطئونه إن تأخر فلكل أجل كتاب:

﴿ولينصرنّ اللهُ من ينصرُهُ﴾- ثم قال: ﴿إنّ اللهَ لعفوٌ غفُورٌ﴾.

جاء هذا التذييل بهذه الآية وهو مناسب للمقام لا يشك في عفو الله ومغفرته بعد أن أمر بالانتقام، والانتقام هنا لابد لنصر دين الله ورسوله ونشر دينه الذي هو رحمة للناس، يخرجهم من عبادة العباد الى عبادة خالق العباد، والله عفو بخلقه يعفو ويصفح ويأمر بالعفو والصفح وهو غفور لذنوب عباده التائبين:

﴿واستغفروا الله إنّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾- البقرة ١٩٩ - المزمل ٢٠ - فليس إذنه بالقتال لأوليائه مناقضا لعفوه ومغفرته بل هو من أجل عفوه ومغفرته، فهم يقاتلون من كفر بالله حتى يرجع إلى أمر الله فيتوب ويستغفر فيعفو الله عنه ويغفر له، أليس قد قال رسول الله لهؤلاء الذين كانوا يحاربون الله ورسوله (اذهبوا فأنتم الطلقاء) قال لهم ذلك ليرجعوا إلى عفو الله ومغفرته فيغفر لهم ما سلف منهم ولا يؤاخذهم على ما صدر منهم من الظلم:

﴿ذلك بأنّ اللّه يولجُ الليل في النّهار ويولجُ النهار في الليل وأنّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ﴾. ذلك بأن الله يولج الليل في النهار أي قدرة الله التي أحاطت بكل شيء فهو ينصر أولياءه ويديل لهم من أعدائه، لأن قدرته وسمعه وبصره أحاط بكل شيء فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض يولج الليل في النهار يأخذ منه شيئاً فشيئاً حتى يطول الليل ويقصر النهار ويولج النهار في الليل يأخذ منه حتى يطول النهار ويقصر الليل، فكما يفعل ذلك بالليل والنهار كذلك يدوال الأيام بين الناس ينصر الضعيف على القوي ويسلط المظلوم على الظالم يقهره وينتصر منه، فلا يغتر الأقوياء بقوتهم فإنها لن تدوم كما لا يدوم حال الليل ولا حال النهار، انظروا إلى أحوال الدنيا كلها فإنها تنقلب وتزول فكذلك أحوال الظالمين وسلطانهم يزول ويتحول إلى المظلومين:

﴿وأنّ الله سميعٌ بصيرٌ﴾- إن الله سميع بشكاوى المظلومين ودعواتهم بصير بما يعمل الظالمون غير خاف عنه شيء من أحوال هؤلاء وهؤلاء قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع مخلوقاته فاحذروا بطشه ولا تيأسوا من رحمته وثقوا بعدله:

﴿ذلك بأنّ اللهَ هو الحقُّ وأنّ ما تدْعون من دونهِ هو الباطلُ وأن اللهَ هو العليُّ الكبيرُ﴾- ذلك بأن الله هو الحق يشرع الحق وينصر الحق لأنه هو الحق ودينه حق وكتابه حق ووعده حق والموت حق والساعة حق والجنة حق والنار حق وما سواه باطل:

﴿وأنّ ما تدْعونَ من دونهِ هو الباطلُ﴾- إن الذين تدعون من دون الله أيها المشركون هو الباطل الزاهق لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً، فما تغني الأصنام ولا الأوثان ولا القباب ولا الأضرحة شيئاً وما دعاء الكافرين إلاّ

في ضلال، فالذين يدعون من دون الله هو الباطل وتعريف الخبر مع الإتيان بضمير الفصل يفيد حصر الباطل في هذه الأشياء التي تدعى من دون الله فهو عين الباطل، ولما نصر الله نبيئه يوم فتح مكة كان يدفع الأصنام بعصاه فتسقط وهو يردد قوله تعالى:

﴿وقُلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطل إنّ الباطل كانَ زهوقاً﴾ ـ الإسراء ٨١ ـ

﴿وأنّ اللّهَ هو العليّ الكبيرُ﴾ ـ اثنى الله الثناء الحسن على نفسه بما يستحق وهو أهل للعلو والكبرياء، وهو العلي الأعلى الكبير الأكبر وهو القاهر فوق عباده، وكل من سواه مخلوق له ساجد له خاضع لسلطانه لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وما ألزم هذين الوصفين بعضهما ببعض فله وحده العلو والكبرياء يفعل في ملكه ما يريد، لا ينازعه في علوه وكبريائه منازع، ومن حاول ذلك قصمه الله وأدخله ناره الموقدة، سبحان ربنا الأعلى سبحان الله الكبير المتعال المتفرد بالكبرياء والعظمة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً
إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي

أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

بعد أن بين الله لنا شمول قدرته وإحاطة علمه بكل شيء وأنه هو العلي الكبير الذي يجب أن يفرد بالعبادة لأنه الاله الحق، زاد فألفت أنظارنا إلى آية أخرى من أعظم آياته الكبرى، وهو إنزال الماء من السماء وإنبات النبات من الأرض فقال: **﴿ألمْ ترَ أنّ اللّهَ أنزلَ من السّماء ماءً فتصبحُ الأرضُ مخْضرّةً إنّ اللّهَ لطيفٌ خبيرٌ﴾**.

أي انظر الى قدرة الله في إنزال الماء من السماء بقدر ما يشاء لمن يشاء عندما يشاء فإذا نزل المطر امتصت منه الأرض ما يحييها فتصبح بعد زمن يسير مخضرة بالنبات فتخرج أنواعا من الأعشاب المختلفة الألوان بعد أن اختلطت بذورها بتراب الأرض، فإذا نزل عليها الماء انشقت عنها الأرض فانبتت كل زوج بهيج إن الله لطيف، أي دقيق الصنع أعطى الحياة لكل حي من النبات والحيوان، ولا يعلم سر الحياة إلا معطي الحياة خبير بالأحياء والأموات وتطوراتها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، انظروا إلى هذا واعتبروا به، واعلموا أن خروجكم من الأرض بعد تفرق أجزائكم فيها مثل خروج النبات من بذوره المتفرقة فيها واعلموا أن الله:

﴿له ما في السموات وما في الارض وإن اللّه لهو الغني الحميد﴾.

كل ما في السموات وما في الأرض خلق لله وملك لله وحده يتصرف فيه كما يشاء، واعلموا أن الله لهو الغني الحميد، وأنتم الفقراء إلى الله وهو الغني، لا ينقص من غناه معصية العاصين، كما لا يزيد في غناه طاعة المطيعين، هو الغني الحميد تحمده جميع مخلوقاته وتثني عليه وهو أهل للحمد والثناء: **﴿ألم ترَ أنّ اللّهَ سخّر لكم ما في الارض والفلكَ تجري في البحرِ بأمْره﴾**.

انظر كيف سخر لكم ما في الأرض من حيوان ونبات ومعادن وأحجار وسخر لكم الفلك تجري في البحر بأمره، ولولا أمر الله وتقديره اللطيف بمخلوقاته ما جرت السفن كالأعلام على ظهر الماء، ففي هذا عبرة للمعتبرين وآية للمتفكرين وذكرى لاولي الألباب، ولو يفكر الانسان في تسخير الله له ما في الأرض ما انتهى عجبه من هذا التسخير، فلا يزال الانسان يخترع من العلوم ما يمكنه من هذه الأرض والانتفاع بما فيها برها وبحرها وجوها وهو متوجه إلى الفضاء يغزوه ويطمع أن يسكن القمر وبعض الكواكب بعد أن نزل على أرض القمر، ولكن الله تعالى لم يجعل القمر لسكن البشر إنما خلقهم في الأرض ليعمروها إلى حين:

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ ـ طه ٥٥ ـ

﴿ويمسك السماء ان تقع على الأرض إلاّ بإذنه إنّ الله بالناس لرؤوفٌ رحيمٌ﴾ ـ وهذه آية أخرى من آيات ربنا الكبرى وهي أن الله رفع السماوات فوقنا بغير عمد، والعلماء اليوم يقولون إنه نظام الجاذبية الذي انتظم هذه الأجرام العظيمة وامسكها عن الاصطدام والسقوط وما هي الجاذبية؟

هل ادركوها؟ هل عرفوا حقيقتها؟ هل اكتشفوا سرها؟ هل هي إلا قدرة الله التي أعجزتهم أن يدركوا حقيقتها فسموها الجاذبية، أفلا يتفكروا في هذه القوة فيؤمنوا بالله القوي خالق السموات ونجومها ممسكها أن تقع على الأرض إلا باذنه، ما من حركة ولا سكون إلا باذنه، إن هذه النجوم والكواكب سوف تنتثر عند قيام الساعة باذن الله وأمره وهي اليوم سائرة في مساراتها كل في فلك يسبحون:ـ

﴿إنّ اللّهَ بالنّاس لرءوفٌ رحيمٌ﴾ ـ إن الله رفع السموات وبسط الأرض

وامسكهما أن تزولا رحمة بخلقه الضعفاء ورأفة بهم ليعيشوا ويتمكنوا من الانتفاع بما سخره الله لهم وليشكروا نعم الله عليهم ولكن أكثرهم كافرون غافلون عن شكر المنعم:-

﴿وهو الذي أحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم إنّ الانسان لكفورٌ﴾-.

يذكّرنا الله تعالى بنعمة الحياة إنها من الله فهو الذي أحيانا ثم يميتنا ثم يحيينا بعد الموت ليجزينا على ما عملناه في الحياة الأولى وفي هذا تذكير وموعظة لنا وعبرة لمن أراد أن يغتنم من هذه الحياة للحياة الثانية وهي الحياة الحقيقية، ولكن الناس قليلا ما يتذكرون وأكثرهم لا يشكرون، وما من حقهم أن يغفلوا عن المنعم الذي أسبغ عليهم نعمه التي لا تحصى وسيجزي الشاكرين الجزاء الحسن، ويجزي الكافرين بما عملوا، ثم قال تعالى:

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي
الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن
جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن

نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ
يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

هذه الآيات إخبار من الله لنا وتسلية لنبيّه محمد ﷺ حتى لا يضيق صدره بما يجادله به اليهود وهم أعداؤه الجدد بعد هجرته، وهم من سكان المدينة منذ القديم، يجادلونه كلما نزلت عليه شريعة تخالف ما عندهم كتحويل القبلة مثلا يقولون لو كان نبياً حقاً لاتبع شرائع الأنبياء من قبله وهم يعلمون أنه رسول حق وشريعته تنسخ الشرائع، وقد امروا أن يومنوا به ويتبعوه وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فرد الله عليهم بما أخبرنا أن لكل أمة شريعة يأتي بها نبيها أما الدين فواحد وهو الإسلام.

﴿ولكلّ أمّةٍ جعلنا منسكاً همّ ناسكوهُ فلا ينازعنّك في الاَمْر﴾.

لكل أمة شريعة هم متبعوها وهذا كقوله تعالى:

﴿لكلٍّ جعلنا منكمْ شرعةً ومنهاجاً﴾ ـ المائدة ٤٨ ـ فإذا كان الأمر كذلك وقد علم الله أن هذه الشريعة هي ناسخة الشرائع فاتبع ما شرع الله لك ولا تشتغل بمنازعتهم في أمرك.

﴿وادع إلى ربّكَ﴾ ـ ادع الى سبيل ربك واعرض عن منازعتهم.

﴿إنّكَ لعلى هدىً مستقيمْ﴾ ـ هذا تثبيت من الله لنبيّه ﷺ وتطمين لقلبه أنه على طريق الهداية المستقيم وأن الأمر الذي عليه حق فليستمسك به وليدع إليه وليعرض عن الجاهلين والسفهاء:ـ

﴿وإن جادلوكَ فقُلْ اللّهُ أعْلَمُ بماَ تعْملونْ﴾ - وإن جادلوك فلا تجادلهم وقل الله اعلم بما تعملون، هكذا يأمره الله أن يجيبهم بهذا الجواب ولا يشتغل بجدالهم، لأنهم إنما يجادلون ويلجون في جدالهم تعنتا بعد أن ظهرت لهم الحجج البينات فمنعتهم نفوسهم المتكبرة عن تفهمها فأمرهم الله أن يجيبهم بهذا الجواب: الله أعلم بما تعملون وأما قوله تعالى:

﴿اللّهُ يحْكُمُ بينَكمْ يومَ القيامةِ فيماَ كنتُمْ فيهِ تختَلِفون﴾.

فقد يكون من جملة ما يقوله لهم وقد يكون من قول الله لهم جميعا أي الله يحكم بينك وبين قومك يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، فيظهر المحق منكم من المبطل، ويجازي كلا بما يستحق، هذا وما أكثر المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، لا سيما في هذا الزمان الذي طغت في الفلسفات المادية واللادينية ولا جواب لهؤلاء إلا السكوت والاعراض عن جدالهم.

﴿ألمْ تعلم أنّ اللّهَ يعلمُ ما في السماءِ والأَرض إنّ ذلك في كتابٍ إنّ ذلك على اللّه يسيرٌ﴾ - إنما يحكم بين الناس من يعلم سرهم ونجواهم الذي يعلم الضالين منهم والمهتدين، الذي يعلم ما في السموات وما بينهن ويعلم ما في الأرض برها وبحرها وجوها، وقد علمت أن الله هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض وهو خالق كل شيء عليم بكل شيء.

﴿ألا يعلمُ من خلقَ وهو اللّطيفُ الخبيرُ﴾ - الملك ١٤ - وأمر السموات والأرض مدون مكتوب في كتاب سماهُ الله اللوح المحفوظ، وهو أعلم به وبما كتب فيه قلم القدرة وأمر العلم بكل ذلك والتصرف فيه يسير على الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا السماء، وقد علمك مالم تكن تعلم فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

﴿ويعْبُدُونَ منْ دونِ اللّهِ مالمْ يُنزّل به سلطاناً وما ليسَ لهمّ به علمُ وما للظّالمينَ من نصير﴾ـ إن هؤلاء المجادلين بالباطل ويدعون العلم يعبدون أوثانا وأصناما ليس لهم بها سلطان من الله تعالى ما أنزل بها من سلطان، ولا أمر بعبادتها ولا أذن في ذلك، وليس لهم بها من علم انها تضر أو تنفع فلا دليل لهم فيها سمعي ولا عقلي، والعلم إنما يثبت بأحد هذين الطريقين.

الدليل السمعي النقلي أو الدليل العقلي وهؤلاء الذين يزعمون أنهم أعقل الناس وأعلم الناس لا علم لهم مطلقا بحقيقة ما يعبدون من دون الله إنما يعبدون أهواءهم وهم ظالمون:ـ

﴿وما للظّالمينَ من نصير﴾ـ هم يزعمون أنهم شفعاؤهم إلى الله وأنهم ينصرونهم ومالهم من نصير ولا شفيع، إنهم لا ينصرونهم وسيكفرون بعبادتهم يوم القيامة، كما أنها لا تنصرهم في الدنيا فهي لا تملك لنفسها ضرا ولا ونفعا أولئك قوم أضلهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتُنَا بيّنات ٍتعرفُ في وجُوهِ الذينَ كفَروا المنكرَ يكادُونَ يسْطونَ بالذينَ يتلونَ عليهمْ آياتُنَا قل أفأنبّئكم بشرٍ من ذلكم النار وعدَهَا اللّهُ الذينَ كفَروا وبيس المصيرُ﴾.

بيّن الله تبارك وتعالى في الآية مبلغ انكارهم وجحودهم، وذلك أن وجوههم تتنكر تنكر التمرد والبغي والمكر حتى يظهر ذلك عليها جليا فيعرفه الرائي، أولئك قوم تأصل الكفر في قلوبهم فكرهوا ما نزل الله واشمأزت له قلوبهم، وودوا لو أنهم انتقموا من الذين يتلون عليهم آيات الله البينات التي أنزلها رحمة للعالمين لتخرج الناس من الظلمات إلى النور إنهم يزدادون كفرا وطغيانا بالذي يزيد المؤمنين هدى وايماناً، وما ذلك إلا لخبث

طواياهم وسوء نواياهم بسوء أعمالهم، والشر يدعو إلى الشر فهم منغمسون في المعاص والشهوات لا يستطيعون تركها وعلى قلوبهم أكنة قد اشتعلت فيها نار الغيظ على الذي يتلو عليهم القرآن، لأنهم هم المقصودون بالتقريع والانذار والتهديد الذي في القرآن، فهم عندما يتلى عليهم يكادون يهجمون على تاليه، وأيسر ذلك ما فعله عتبة بن ربيعة عندما كان رسول الله ﷺ يتلو عليهم فواتح سورة «فصّلَتْ» عندما بلغ قوله تعالى:-

﴿فإن اَعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾...الآيات - فصلت ١٣ -

فهجم عتبة على النبي ﷺ وامسك فمه بيده وقال:

نناشدك الرحم وقد خاف خوفا شديدا لأنه يعلم أن الكلام حق من عند الله ولكن كفره المتمكن في نفسه لا يدعه أن يؤمن ويستجيب، هذا ما فعله عتبة أما غيره من الكفار فيودون لو هشموا رأس رسول الله ﷺ ولكن يعصمه الله منهم، وهكذا المبطلون في كل زمان يبغضون أهل الحق ويكرهون سماعه، ويودون لو يسطون على دعاة الحق ويقطعون ألسنتهم، ولا يزال الحق في صراع مع الباطل وذويه، ولذلك أمر الله أهل الحق أن يكونوا أقوياء متوكلين على الله، والله كتب لهم العزة والنصر.

﴿قل أفأنبئكم بشّرٍ من ذلكمُ النارُ وعدها اللّهُ الذين كفروا وبيسَ المصيرُ﴾ - أمر الله نبيّه أن يجيبهم بجواب رادع لهم لعلهم ينتهون عن غيّهم ويرجعون إلى الحق والإيمان به. قل لهؤلاء الكفار: أفأنبئكم بشر من النار المشتعلة في قلوبكم من الغيظ والغضب؟

نار جهنم التي تطلع على أفئدة الكفار، وعدها الله إياهم وهي واقعة وهم صالوها هي مصيرهم وبئس المصير، إنها شر من نار الغيظ والحسد الذي في قلوبهم ما أخزاه من مصير لهم إن أصروا على كفرهم وتمادوا على طغيانهم ومحادتهم لله ورسوله.

﴿والطّور وكتاب مسْطورٍ في رقٍّ منشورٍ والبيتِ المعمورِ والسّقفِ المرفُوع والبحرِ المسْجورِ إنّ عذابَ ربّك لواقع مّاله من دافعٍ﴾- الطور ١ـ ٨ فأولى لهم أن يبادروا إلى الاستجابة قبل فوات الأوان وقد علموا أنه الحق.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ
لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ
ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ
قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

نداء من الله للناس جميعا وأمر لهم بالاستماع لمثل ضربه الله لمسألة الخلق، يبيّن الله فيه تفرده بالخلق وبنفخ الروح في الأحياء، لا أحد من مخلوقاته يقوى على ذلك مطلقا، وهذه الجملة هنا تأتي عودا على بدء فهي كأنها خلاصة ما تقدم أول السورة، فقد بسط القول على سر الخلق والحياة وبين أن آلهتهم التي يدعونها من دون الله لا تضر ولا تنفع، وهنا يضرب الله مثلا مفهوما واضحا ويأمر الناس جميعا أن يستمعوا له، وهذه العبارة فريدة من نوعها وذلك لاهمية القضية ليعيها الناس بأذن واعية، في هذا المثل يبين

الله تعالى عجز مخلوقاته كلها عن خلق حيوان من أضعف الحيوانات التي يراها الناس وهو الذباب، هذا الحيوان الطائر الصغير الضعيف الذي يقلق راحة الناس ويملأ عليهم الدنيا بكثرته، يقول الله تعالى:-

﴿إنّ الذينَ تدْعُونَ من دُونِ اللّهِ لن يخلُقُوا ذُبَاباً ولَوِ اجتمعُوا لهُ﴾.

إن الذين تدعونهم من دون الله ترجون نفعهم وتخافون ضرهم لن يخلقوا ذبابة واحدة ولو اجتمعوا لها وتعاونوا كلهم إنسهم وجنهم وحتى الملائكة، - وقد عبد الناس الملائكة - لن يقدروا على خلق ذبابة أبدا ومهما تقدمت فنون العلوم والصناعات فإنهم لم يصلوا إلى القدرة على الخلق والابداع، ولم يعلموا حقيقة الروح، ولن يصلوا ذلك أبدا ولو اجتمعوا كلهم لن يفعلوا ذلك، وكل ما وصل إليه الناس اليوم من اختراعات إنما هو تركيب وتحليل لمواد خلقها الله وأودع فيها من الأسرار والقوى ما أودع، فهم اليوم يكتشفونها ويستعملونها في النفع أو الضر، وهم لا يعلمون حقائق كثير منها بل يقفون مدهوشين أمام القوى والأسرار العجيبة التي أودعها الله في الكون علوية وسفلية، وإذا سئلوا عن حقيقتها لا يجيبون بل، يردون العلم إلى خالقها، وليست الروح في الأحياء إلا من هذه الأسرار، ضرب الله المثل بالذبابة الضعيفة ليدل بذلك على ضعفهم المتناهي، وإذا عجزوا عن خلق الضعيف فهم عن القوى أعجز ثم زاد فقال:

﴿وإن يسْلبْهُمُ الذُّبابُ شيْئاً لا يستنقذوهُ منهُ﴾- وهذا أدل على غاية عجزهم وضعفهم، تسلبهم الذبابة شيئا وما مقدار ما تأخذه الذبابة تحط على أحد معبوداتهم فلا تقوى على استنقاذ الشيء الذي أخذته واسترجاعه كيف وقد دخل في جوفها واستهلكه مصنع من مصانع الله في جوفها فأحاله إلى شيء آخر، ثم إلى طاقة في بصرها أو سمعها أو غير ذلك فأنى لهم أن يدركوه: ﴿ضَعُفَ الطّالبُ والمطلوبُ﴾ استوى طالبهم ومطلوبهم في العجز

والضعف فلا آلهتهم ولا عابدوها يقوون على خلق شيء ولا على نفخ الروح فيه ولا على استرجاع شيء قليل مما يأخذه منهم، ومن كان كذلك فليس أهلا لأن يخاف أو يرجى فضلا لأن يعبد، إنهم يدعون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ولا يملك شيئا.

﴿ما قَدَرُوا اللّهَ حقّ قدْرِه إنّ اللّهَ لقَوِيٌ عزيزٌ﴾.

ذلك لأنهم ضلوا وما عرفوا قدر الخالق القوي القدير، ما قدروا الله حق قدره ولو قدروه ما دعوا غيره ولكن أعمالهم تقليد آبائهم وأجدادهم، فهم بهم يقتدون وعلى آثارهم يسلكون، قد انغمسوا في همأه الشرك واستحوذ عليهم الشيطان وأسرتهم الأهواء فهم يعبدونها من دون الله:

﴿إنّ اللّه لقوي ٌعزيزٌ﴾ـ إن القوة لله جميعا فهو القوي القاهر فوق عباده وهو العزيز الغالب الذي لا يغالب، وهذا تهديد من الله شديد لهؤلاء الذين يعبدون غير الله ويعتقدون فيهم القوة ويعوذون بهم إنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض وسوف تنقلب ولايتهم عداوة، يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضا ومأواهم النار وما للظالمين من انصار، يومئذ يدعون شركادهم فلا يستجيبون لهم يومئذ يرون العذاب ولا يجدون عنه مصرفا:

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ
بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦

إن هؤلاء الكفرة يشركون بالله وينكرون أن يرسل الله الرسل من ضعفاء الناس وفقرائهم، ويقولون هلا كان هؤلاء الذين أنزل عليهم الوحي من عظماء الناس فرد الله عليهم وعلى مقالتهم هذه فقال:

﴿اللّه يصطفي من الملائكة رسُلاً ومن النّاس﴾.

إن إرسال الرسل واصطفاءهم من الناس ومن الملائكة أمر من أمور الله وحده لا دخل لكم فيه، فهو وحده يعلم حيث يجعل رسالاته وهو الذي يصطفي رسله من الناس ومن الملائكة ويهيئهم تهيئة خاصة لتحمل رسالاته وتبليغها بأمانة وصدق.

﴿إنّ اللّهَ سَميعٌ بصيرٌ﴾- الله سميع لا تخفى عنه الأصوات بصير قد أحاط بكل شيء علماً يسمع ويرى ما فوق عرشه وما تحت تخوم الأرض وما في لجج البحار وقيعانها لا تخفى عنه خافية.

﴿يعْلمُ ما بيْنَ أيديهمْ وما خلفهمْ وإلى الله تُرجعُ الأمورُ﴾.

يعلم ما بين أيدي رسله وما خلفهم أو ما بين أيدي الناس كلهم وما خلفهم أي يعلم ما يشهده الناس وما غاب عنهم ومن كان كذلك فهو الذي يصطفي الرسل والأنبياء من الناس ومن الملائكة ويحمّلهم الرسالات ويكلفهم بتبليغهما وهم يقومون بما كلفهم الله به ولا يقصّرون أبدا لأنهم من المصطفين الأخيار:-

﴿وإلى اللّهِ تُرْجعُ الأمورُ﴾- أي جميع أمور الخلق مصيرها الى الله، أمور الدنيا والآخرة يتصرف فيها كما يريد ويحكم عواقبها وهو خير الحاكمين وأحكم الحاكمين ليس لغيره من الأمر شيء، رسولا كان أو ملكا مقربا، تفرد خالق الخلق بتدبير الأمور يرسل الرسل وينزل الكتب لألا يكون

للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيمـا، قد تبين الرشد من الغي نسأله التوفيق والرشاد والنجاة يوم المعاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

مـا أروع هذه الآيات في خـواتم هذه السـورة الكريمة التي بدأها بقـوله تعالى :ـ ﴿يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعةِ يوم ٌعظيم ٌ﴾.

نداءان: النداء الأول لجميع الناس يأمرهم بالتقوى ويخوفهم من عذاب الله والنداء الأخير للـمؤمنين خاصة الذين استـمعوا وأجابوا وانتـفعوا بما بين الله في وسط السورة من دلائل وحـدانيته وقدرته وإحـاطة علمه بكل شيء، ومن تشريعـاته التي بيّنها لهم ليـعبدوه بما شـرع وانتفعـوا بما ضرب لهم من الأمثـال التي ما يعقـلها الا العالمون، فـآخر السورة منعطـف على أولها وفي هذه الآيات خلاصة مـا تقدم في السورة كلها، وفي العمل بما فيـها النجاة مما ذكر في أول السورة من الأهوال والعذاب، والذي بسط في أواخـرها تفسير

لما طوى في أولها في الأمر بالتقوى فسمعا لك وطاعة يا من استأثر بعلم الساعة ومن إليه ترجع الأمور يأمرنا الله تبارك وتعالى بثمانية أوامر هي أسباب النجاة والفلاح، وهي مفاتيح ابواب الجنة الثمانية وفيها خلاصة أعمال الإسلام وبيان أفعال المسلمين الحقيقيين الذين إن هم فعلوها عدّلت شهادتهم فكانوا شهداء على الناس ولا يكون الشاهد إلا عدلاً:-

﴿يأيّها الذينَ آمنُوا اركَعُوا واسجُدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخَيْر لعَلّكم تُفلحونَ﴾.

يأمرنا الله تبارك بالركوع والسجود وهما عنوان التواضع والتذلل والخضوع لله تعالى والاعتراف بقهره وكبريائه وعظمته، ويراد بالركوع والسجود الصلاة وهما من أركانها، ويفهم أيضا من الركوع والسجود لله الاستسلام لأمره والخضوع لحكمه وشريعته والرضا بقضائه وقدره، وذلك هو معنى الركوع والسجود على الحقيقة، وما جعل الركوع والسجود إلا دليلي الرضا والخضوع والاستسلام فلا يتم الركوع والسجود بدون الإسلام الكامل لله العلي القدير.

﴿ومن يسلم وجههُ إلى اللّه وهو محْسِن فقد اسْتمسكَ بالْعروةِ الوثقى وإلى اللّه عاقبةُ الأُمور﴾ - لقمان ٢٢ -

وجاء في الحديث الشريف: «أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد» وجاء في القرآن الكريم في أثر السجود على وجوه الساجدين.

﴿سيماهم في وجوههم من اثر السجود﴾ - الفتح ٢٩ - وذلك لما يتركه السجود من نور على وجوه الساجدين الراكعين يعرفهم المتوسمون به ولا يخفى عنهم وهي فراسة المؤمن بنور الله يبصر ثم قال تعالى:

﴿واعْبُدُوا ربّكمْ﴾- وهو أمر لنا أن نعبد ربنا الذي خلقنا والذي يملك

أمرنا والعبادة هي التذلل والخضوع وهو أن نذكر ربنا ولا ننساه ونطيعه ولا نعصيه ونشكره ولا نكفره، وهي الاتيان بالاوامر واجتناب النواهي، والعبادة كذلك هي النية الحسنة في سائر الاعمال، وطلب الرزق الحلال من أفضل أنواع العبادات، وقد جاء في الحديث الشريف أن عرق المؤمن في طلب رزقه كدم المجاهد في سبيل الله والكد في طلب الرزق عبادة تكفر الذنوب وإن من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الكد في طلب القوت الحلال ولذلك ينطبق على المؤمنين قوله تعالى:

﴿وما خَلَقْتُ الجِنّ والاِنْسَ إلاّ ليَعْبُدونِ﴾ـ الذاريات ٥٦ ـ وطلب الرزق استجابة لامر الله تبارك وتعالى وهو الذي يقول:

﴿هُو الذي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ ذَلولاً فامْشُوا في مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِن رزْقِه وإليهِ النُّشُورْ﴾ـ الملك ١٥ ـ ويقول جلّ من قائل:

﴿فإذَا قُضيَتْ الصّلاةُ فانْتشِرُوا في الاَرْض وأبتَغُوا من فَضْلِ اللّهِ واذكُرُوا اللّهَ كَثيراً لعَلّكُمْ تُفْلحون﴾ـ الجمعة ١٠ ـ

والابتغاء من فضل الله طلب الرزق من طرقه المشروعة التي لا تخالف شريعة الله بعد أداء فرائض الله في بيوت الله تعالى من صلوات وذكر وتلاوة ثم قال تعالى:

﴿وافْعَلوا الخَيْرَ لعَلّكمْ تُفْلحُون﴾ـ ينظم الله علاقاتنا بيننا وبينه أولا، ثم بيننا وبين بعضنا البعض، أما علاقاتنا بيننا وبينه فبأداء حق العبادة وأفعال العبادة، وأما بيننا وبين بعضنا فبأنواع أفعال الخير من صلة الرحم والاحسان إلى الجار وكفالة اليتيم، وإطعام المسكين وايواء الغريب، وعيادة المريض وتشييع الجنازة، وقضاء حاجة الأرملة، وغير ذلك من أنواع البر بالمؤمنين والإحسان إلى الناس جميعا فقد جاء في الحديث ـ

«كلكم عيال الله وأحبكم إلى الله أنفعكم لعياله» وبفعل الخير والإخلاص في ذلك ننال الفلاح وهو الفوز والسعادة ونيل رضوان الله تعالى، وليس فعل الخير مقصورا على ما ذكرنا من أنواع البر بل يعم الإحسان في خدمة الارض والاتقان في جميع الحرف والصناعات والصدق والوفاء في التجارة، والقيام بالوظائف والأعمال التي تسند إلى أهلها خير قيام بالأمانة والوفاء فأفعال الخير تعم جميع الميادين الصالحة والنافعة التي يعم الناس نفعها ولما كان فعل الخير أمرا شاقا على النفس يحتاج إلى صبر على الاتيان به والمداومة عليه أوصانا بالجهاد حتى نقوى بالجهاد على فعل الخير فقال تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ - والجهاد بذل طاقة النفس حتى تستفرغ جهدها أو تكاد في فعل الخير وأداء الحقوق والواجبات، والجهاد في الله هو القيام بحق الله والصبر في سبيل ذلك ومن أجل ذلك، وقد يقول قائل ومن هذا الذي يقوى على القيام بحق الجهاد في الله كما يجب.

لن يستطيع العبد الضعيف أن يجاهد في الله حق جهاده فالجواب عن هذا التساؤل قد جاء في آية اخرى والقرآن يفسر بعضه بعضا.

قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ - التغابن ١٦ -

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ - البقرة ٢٥٦ -

فالله كلفنا يسيرا ووعد عليه خيرا كثيرا، فما علينا إلا أن نخلص في العمل ونتحمل مشقته ولا نضجر ولا نمل، ومن جاهد في الله هداه الله ووفقه ويسر عليه أمره .

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ - النحل ١٢٨ -

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ - أمرنا الله أن

نجاهد في حقه قياما بشكر نعمه ونعمه علينا لا تحص وأجلها نعمة الاسلام والهداية والتوفيق وتيسير أمور الدين.

﴿هُو اجْتبَاكُمْ﴾ـ والاجتباء هو الاصطفاء والتفضيل اصطفانا الله وفضلنا على كثير من خلقه وجعلنا مهتدين، ولولا فضله علينا لكنا ضالين ويسر لنا شريعته وما جعل علينا فيها الحرج، والحرج هو الضيق والمشقة وهذه الكلمة أصل لكثير من الفروع وقاعدة فقهية كلية تستنبط جزئيات كثيرة وهي نظير قوله تعالى:

﴿لا يُكلّفُ اللّهُ نفْساً إلاّ وُسْعَها﴾ـ وقول رسوله ﷺ.

«وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» وهي منة عظيمة لله علينا، ولو شاء لأحْرجنا في كثير من أوامره وتشريعاته، فهذا الحج الذي هو قاعدة من قواعد الاسلام الكبرى يقول الله في حقه.

﴿ولله على النّاس حج البيْت من استَطاعَ إليّهِ سَبيلاً﴾ـ آل عمران ٩٧ ـ

ولو لم يزد الكلمة الأخيرة لعظمت فيه المشقة وكذلك جميع التكاليف حفها الله بالتيسيرات الكثيرة ففي تشريع التيمم في الطهارات أعظم التيسير وفي الترخيص، للإفطار في رمضان لذوي الأعذار رفع للحرج، وفي إباحة الأكل من الميتة للمضطر مثل ذلك، والله رؤوف بالعباد ثم يحرّك الله فينا عاطفة البنوة لأبينا إبراهيم في هذا الدين الذي هو ملته من قبلنا فيقول:

﴿ملّة أبيكمْ إبراهيمْ﴾ـ أي إن هذا الدين الذي ارتضاه الله لكم كان ملة أبيكم إبراهيم من قبلكم، فاتبعوا ملة أبيكم إبراهيم سيد الحنفاء ولا تتبعوا الضالين والمغضوب عليهم من اليهود والنصارى وأهل الوثنيات فإن الله لا يقبل ممن بدل وغيّر وابتغى غير الإسلام دينا.

﴿هو سمّاكمْ المسْلمينَ من قبْل وفي هذا﴾ - الذي عليه جمهور المفسرين أن هذا الضمير «هو» لله تبارك وتعالى فهو الذي سمانا مسلمين منذ العهد الأول ورضى الإسلام دينا للمستقدمين منا والمستأخرين.

﴿إنّ الدّينَ عندَ اللهِ الاِسلام﴾ - التغابن ١٦ - دعا أبونا ابراهيم لنفسه ولذريته من بعده أن يجعلهم مسلمين فاستجاب الله دعاءه.

﴿ربّنا واجعلْنا مسْلمينْ لكَ ومنْ ذرّيّتنا أمّةً مسْلِمَةً لك وأرنا منَسِكنا وتُبْ علينا إنّكَ أنتَ التّوّابُ الرّحيمُ﴾ - البقرة ١٢٨ - استجاب الله دعاء إبراهيم لنفسه وذريته من بعده فسماهم المسلمين في الكتب الأولى وفي هذا الكتاب الآخر نزولاً وهو القرآن الكريم، لقد عرف أهل الكتب الأولى أن محمداً ﷺ رسول الله وأنه جاءنا بدين الإسلام وأن دعوته للناس كافة وأن أتباعه المسلمون، ولكنهم جحدوا به بعد أن عرفوا أبناءهم ظلما وعلواً وحسداً من عند أنفسهم، عرفوا زمانه ومكانه ومهجره وأوصافه ولكنهم حسدوه ألا يكون منهم، وقد كانوا يظنون أن شرف النبوءة لا يتعدى بني اسرائيل وليتهم اتبعوا أنبياءهم الذين بشروا به في التوراة و الانجيل، ولكنهم كانوا يقتلون الانبياء بغير حق وكانوا يعتدون ثم قال تعالى:

﴿ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكمْ وتكونوا شُهَداءَ على النّاس﴾.

يقول الله تعالى مخاطبا إيانا أمة محمد ﷺ ارتضيت لكم الاسلام دينا ومحمداً رسولاً ليكون شهيداً عليكم، يشهد لمن استجاب دعوته وتقبل شهادته فيهم، وعلى من أبى وأعرض ولم يرد إلا الحياة الدنيا، هذا الرسول الشاهد الذي تنفع شهادته يوم القيامة من اتبعه وأطاعه فهو الذي ينال شفاعته، هذا الرسول يشهد عليكم وتشهدون على الناس، أي على الانبياء والرسل أنهم بلغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم، وهذا رفع لمقامنا فجعل شهادتنا

عنده معدّلـة مقبولة كشـهادة الرسل على أممهم وناهيك من درجة عالـية رفعنا الله إليها ولكي نستحقها ونكون أهلا لها أوصانا بالاستقامة في الدين فقال:

﴿فأقيموا الصّلاةَ وآتوا الزّكاة واعْتصمُوا باللّهِ هو موْلاكُمْ فنِعْمَ المولى ونِعْمَ النّصير﴾.

فاعملوا الاعمال الصالحة التي تجعلكم على مستوى الشهادة المعدّلة المقبولة، أقيموا الصلوات المفروضات لأوقاتها بطهارتها وركوعها وسجودها وخشوعها، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتقوّمُ صاحبها فحافظوا عليها، وتقربوا إلى الله بالنوافل من الصلوات، وءآتوا زكاة أموالكم فهي التي تطهرها وتنميها، وتطهر نفوسكم من شحها وتربيها على السخاء وحسن الظن بالله تعالى، وتوثق العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم، وتبعث على التوادد والتراحم والتناصر، ثم أوصانا بالاعتصام بالله مولانا الذي يلي جميع أمورنا بالخلق والتدبير والعون والنصر هو مولانا لا غيره، فاعتصموا به إن اردتم النجاة والسعادة فنعم المولى ونعم النصير، لا يضعف ولا يموت ولا يفتقر ولا يذل من استجار به. ﴿ذلكَ بأنّ اللّهَ مولى الذّينَ آمنوا وأنّ الكافِرينَ لا موْلاَ لَهُمْ﴾ ـ محمد ١١ ـ

وما أنسب خاتمة السورة بفاتحتها، ففي بداية السورة يأمرنا بتقوى الله ويخوفنا من زلزلة الساعة ويصف من روعتها وعظمها، وفي نهايتها يأمرنا بالاعتصام به، ويصف نفسه أنه نعم المولى ونعم النصير لمن تولاه واستنصره واستجار به.

﴿ربّنا عليكَ توكّلنا وإليكَ أنبْنَا وإليْكَ المَصيرُ﴾ ـ الممتحنة ٤ ـ كن لنا ولياً ونصيراً يا نعم المولى ويا نعم النصير، والحمد لله رب العالمين.

ـ تم تفسير سورة الحج ـ

تفسير
سورة المؤمنون

تفسير سورة «المؤمنون»

مكية وآياتها ١١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ
هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ
هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١

هذه الآيات الكريمة التي افتتحت بها هذه السورة العظيمة شديد المناسبة بأواخر السورة السابقة لها فقد اختتمت سورة «الحج» بنداء من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين : ﴿**يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون**﴾ ـ الحج ٧٧ ـ .. إلى آخر السورة ـ أمرنا الله تعالى هناك بخصال تؤدي إلى الفلاح وهنا في هذه السورة يحكم الله بالفلاح حكماً مؤكداً لمن أتى بما هو تفسير وتأكيد لتلك الخصال فما أوثق صلة السورتين بعضهما ببعض فتبارك الله منزل الفرقان.

أخبرنا الله تعالى بفلاح المؤمنين المتحلين بصفات وأكد الخبر بقد وقال كثير من العلماء إن هذه الصيغة من التأكيد تشعر بقسم محذوف والفلاح هو الفوز بالنجاة والسعادة برضوان الله والخلود في الجنة والظفر بالفردوس الأعلى فإن كنتم أيها الناس تصبون إلى الفلاح فاقرءوا هذه الآيات واعملوا بها تفلحوا وتفوزوا بالسعادة الدائمة .

جمعت هذه الآيات العشر خصال المفلحين فمن أراد الفلاح فليعمل بها كلها ومن أتى بالبعض منها وضيع البعض الباقي لم ينفعه ذلك ولم يغنه شيئاً لأن الدين متين لابد بالإتيان بكله لمن أراد النجاة والفلاح وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو نصر النفوسي ـ رحمه الله ـ :

ألا كل شيء ذاهب منه بعضه	ففي بعضه مستمتع للمرقن
سوى الدين فما زال منه أقله	مضى كله والبعض من ذاك لا يغني

الدين هو الإتيان بالأوامر واجتناب النواهي وإخلاص العبادة لله عز وجل والمبادرة إلى التوبة بعد كل ذنب كبيراً أو صغيراً. فما أخيب ظنون الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ما أخسرهم، إنهم يرتكبون المعاصي ويصرون عليها ويضيعون الفرائض ويتمسكون بالأماني الفارغة، يقولون نحن نحسن الظن بالله تعالى، كلا لقد رد عليهم الحديث الصحيح بقوله ﷺ : «كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

وقبل أن نشرع في تفسير هذه الآيات نذكر حديثاً رواه أصحاب السنن عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي نسمع عند وجهه دوياً كدوي النحل وأوحي إليه ذات يوم فمكث ساعة ثم سرى عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه ثم قال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا واعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وأرض عنا»

ثم قال: «قد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامها دخل الجنة» ثم قرأ ﴿**قد افلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ إلى تمام عشر آيات عند قوله تعالى: ﴿**أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾.

لقد سر النبي ﷺ واستبشر وبشر أصحابه بهذه الآيات التي نزلت عليه من ربه وهي أوصاف للمؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح الذين يرثون الفردوس وقد أعدها لهم وخلقها من أجلهم.

وسئلت عائشة أم المؤمنين ﵂ عن أخلاق النبي ﷺ فقالت للسائل: هل تقرأ القرآن. قال: نعم. قالت: لقد كان خلقه القرآن. ثم قرأت: «قد افلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون» ... الآيات ـ من خلال هذين الحديثين حديث عمر وحديث عائشة ﵄ نعرف قدر هذه الآيات في أوائل هذه السورة فلنجتهد في إقامتها على وجهها حتى ننال فضلها وما علق عليها من فلاح وفوز ولنرجع إلى تفسير معنى الآيات: ﴿**قد افلح المومنون**﴾ ـ الإيمان هو الإعتقاد بالقلب والنطق باللسان والعمل بالجوارح ذلك هو حقيقة الإيمان الذي ينجي صاحبه يوم القيامة ويختلف الناس في معنى الإيمان فيزعم ناس أنه عقيدة في القلب ويزعم آخرون أنه عقيدة وقول، والحق أن جميع ما ورد في القرآن من أوصاف للمؤمنين يدل دلالة واضحة أن الإيمان عقيدة وقول وعمل فهو كل لا يتجزأ إذا ذهب بعض هذه الأجزاء لا تنفع الأجزاء الباقية فمجموع الأوصاف التي يصف بها الله المؤمنين تكوّن شخصية المؤمن المسلم وإذا نقص شيء منها صار الإيمان كالجسم المبتور منه بعض أعضائه ولم يعد ينفع صاحبه والإيمان يزيد وينقص فهو يزداد بالنوافل وينقص بالمعاصي، وهناك حد ينتهي إليه لو ينقص دونه لم يعد إيماناً بل يصبح أماني ويحذر القرآن من الأماني ويذم

أصحاب الأماني ويبكتهم يوم القيامة بقوله:

﴿وغرتكم الأماني﴾ ـ الحديد ١٤ ـ ويقول تبارك وتعالى: **﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو انثى وهو مومن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾** ـ النساء ١٢٣ ـ ١٢٤ .

أنظر كيف حصر دخول الجنة في هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات أولئك هم المفلحون الذين تصدق أعمالهم أقوالهم، وفي الحديث الشريف: «ليس الإيمان بالتمني لكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» والمغفرة للتائبين.

قال الله تعالى: **﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾** ـ طه ٨٢ ـ، والتوبة النصوح هي الإقلاع عن الذنوب والندم على ما فرط منها، وقضاء الفوائت ورد المظالم التي بينك وبين العباد والعزم على عدم العودة إلى الذنب فحينئذ تستغفر الله فتجده غفوراً رحيماً ذلك هو الإيمان الذي جعله صفة لعباده الذين استجابوا لربهم وأقام الصفة مقام الاسم فسماهم المؤمنين والمسلمين وأسند الصفات الأخرى لهذا الاسم فقال:

﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ وصفهم بأنهم يخشعون في صلاتهم، ولم يقل «الذين هم يصلون» لأن أمر الصلاة مفروغ منه فهي عمود الدين ولا يُعقل أن يكون مؤمن لا يصلي إنه لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وقال في صلاتهم ولم يقل في الصلاة بل نسبها إليهم تشريفاً لهم ولأنها رأس مالهم وشغلهم الشاغل وهمهم اللازم، والخشوع هو السكون والإطمئنان وعدم الحركة إلا ما كان من أعمال الصلاة وهو سكون الباطن والظاهر.

وقال بعض العلماء: «يحتاج المصلي إلى أربع خصال ليكون خاشعاً: إعظام المقام وإخلاص المقال واليقين التام وجمع الهيئة لها والإعراض عما سواها».

وقال الشيخ أبو نصر ـ رحمه الله ـ :

وليس خشوع الجسم يوماً بنافع إذا غاب عقل في شعاب التدبر

أي لا ينفع سكون الجسم الظاهر إذا اشتغل القلب بالتدبر في أمور المعاش وغيرها والخشوع كما قال أهل العلم روح الصلاة وصلاة بلا خشوع جسم بلا روح، وجاء في الحديث الصحيح «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها» فأعظم مقامك بين يدي الله وقم قانتاً له وأنت تناجيه خائفاً راجياً واحذر أن يفتنك الشيطان عما أنت فيه فإنه يحاول ذلك فاطرده عن نفسك واستعن على طرده بالاستعاذة منه بالله العظيم وذلك أن تقول قبل البدء في القراءة بقلب حاضر كما أمرك الله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» عسى الله أن يصرفه عنك فتتدبر ما تقرؤه وتستمع إلى قراءة الإمام بقلب حاضر شهيد.

قال الله تعالى: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾ ـ النحل ٩٨ ـ ثم امض على عزمك حتى تكمل صلاتك واذكر الله بعد ذلك وانتصب للدعاء فإن من صلى ولم يدع كمن هز شجرة ولم يلتقط ثمارها وكلما خطر لك خاطر في أثناء صلاتك مما ليس منها فانفه عنك وارجع إلى ما أنت فيه فإنما أنت تناجي الله في صلاتك فانظر كيف تناجيه وقد بدأ الله في ذكر أوصاف المؤمنين في هذه السورة بالخشوع في صلاتهم إيذاناً منه بعلو مقام الخشوع عنده، وختم هذه الأوصاف السبعة في مطلع السورة بالمحافظة على الصلوات وما ذاك إلا لعظم مكانة الصلاة عنده وعلو قدرها في كتاب الأبرار وأفرد ذكر الصلاة عند الكلام على الخشوع لأن

المقصود هنا وصف الخشوع في العبادة التي هي الصلاة بينما جمع لفظ الصلوات عند ذكر المحافظة لأن المقصود هناك هو المحافظة على الصلوات الخمس المفروضات كلها وصلاة الوتر السادسة والسنن المؤكدات والمرغبات والنوافل ثم يأتي الوصف الثالث لعباد الله المؤمنين:

﴿**والذين هم عن اللغو معرضون**﴾ - وصف الله تعالى عباده المؤمنين بالإعراض عن اللغو واللغو هو الباطل من القول الذي لا خير فيه ولا فائدة تجنى منه وأيضاً هو الباطل من الأفعال فهم يعرضون عن اللغو في صلاتهم وفي غيرها وما ألزم هذين الوصفين بعضهما ببعض. فالخشوع في الصلاة لا يتأتى إلا بالإعراض عن اللغو وهو يهدي صاحبه إلى الإعراض عن اللغو في غير الصلاة كما أن الإعراض عن اللغو من الكلام والأفعال يكون عصمة للمعرض في صلاته فيخشع فيها وفي غير صلاته فيوفق إلى الطيب من القول وإلى صراط الحميد وما أكثر ما يشتغل الناس باللغو في مجالسهم وستكون عليهم حسرة يوم القيامة إلا من تاب واستغفر وكفر عن ذلك بحضور مجالس الذكر.

وقد ورد أن مجلساً واحداً من مجالس الذكر كفارة لسبعين مجلساً من مجالس اللغو، وورد أن قوماً جلسوا في مجلس لم يذكروا اسم الله فيه لا يقومون إلا عن مثل جيفة حمار وورد أنهم إذا ختموا كلامهم بقوله تعالى: ﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**﴾ - الصافات ١٨٠ -١٨٢. فإنهم إن قالوا ذلك كتب الله لهم أجرها وعصموا من اللغو وكتبوا في الذاكرين وإذا مررت بقوم يلغون فلا تشتغل بلغوهم وامض إلى حالك، وإن حاول أحد جرك إلى اللغو والجهل فاعرض عنه وامتثل بقول الله تعالى: ﴿**وأعرض عن الجاهلين**﴾ - الأعراف ١٩٩ -

ووصف الله عباد الرحمن فقال: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ ـ الفرقان ٧٢ ـ وأحرى بالمؤمن أن يغتنم من عمره ما يعمر ساعاته بذكر الله وتلاوة كتابه والاشتغال بطلب العلم أو الاشتغال بطلب الرزق الحلال قصد الاستغناء عما في أيدي الناس فإن طلب القوت عبادة ولا يصرفنه طلب الرزق عن أخذ نصيبه من مجالس العلم فإن طلب العلم فريضة وليأخذ نصيبه من مجالس الذكر وقراءة القرآن إن لم يكن من التالين فليكن من المستمعين وليغتنم عمارة المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة وزيارة الإخوان في الله وعيادة المرضى، وتشييع الجنائز وقضاء حوائج الأرامل واليتامى وليقم بحق الأهل، والجلوس مع العيال عبادة والعمر أضيق وأغلى من أن نضيعه في اللغو وما أشد حسرة اللاغين يوم القيامة.

وقد نظم السلف ـ رحمهم الله ـ لمحاربة اللغو والفراغ مجالس للذكر في المساجد والمحاضر (الكتاتيب) التي هي تبع للمساجد يأوى إليها الكبار والصغار فيدرسون كتاب الله ونظموا لحفظة القرآن مجالس للاستزادة من العلم في ديار خاصة تتصل بالمساجد وتكون سبباً لعمارتها وهي ديار «إيروان» هي ديار للرباط يرابط فيها حملة العلم وحفظة القرآن يشتغلون بما يفيدهم من التبحر في سائر فنون العلوم وهي رباط وثيق لمن انخرط فيها، يغيب أحدهم ويغترب سنين ثم يرجع إليها ويستأنف السير مع عمارها من الطلبة والمشايخ فيسترجع ما فاته أيام السفر ويراجع ما نسى من العلوم ونعم الرباط رباط يربطك بمجالس الذكر ورياض العلم في بيوت الله وما أحسن ما صنعوا تقبل الله منهم وجزاهم بما عملوا خير جزاء.

كل ذلك محاربة للغو والفراغ واغتنام لسويعات العمر القصير التي تمر سراعاً ولا تعود بينما ترى السفهاء من الناس يقضونها في لعب الميسر وغير ذلك من أنواع اللهو واللغو وما أشد غبنهم وخسارتهم وليس بذلك من

سيرة المؤمنين ولا هو من طبيعة أولي النهي أولئك ناس لا خلاق لهم وسوف يندمون فليحاسب كل منا نفسه وليزن أفعاله وأقواله بميزان القرآن وليبادر إلى إصلاح حاله واستدراك ما فاته قبل فوات الأوان وكثيراً ما تجر مجالس اللغو إلى الغيبة والنميمة والظلم والبهتان وذلك هو الخسران المبين وأولئك هم المفلسون وسيعلمون حقيقة الإفلاس يوم القيامة يوم تؤخذ منهم حسناتهم ويُطرحون في النار، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم .

فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وقل من الناس من يسلم من اللغو نستغفر الله ونتوب إليه ونسأله أن يتجاوز عما علم منا من اللغو إنه هو التواب الرحيم .. ثم ننتقل إلى الوصف الرابع من أوصاف عباده المؤمنين :

﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ ـ أي زكاة هذه يراد الفعل لها في هذه الآية والآية مكية والزكاة التي هي قاعدة الإسلام إنما فرضت وشرعت بعد الهجرة والذي نذهب إليه أن الزكاة هنا هي الطهارة والصفاء، هي تربية النفس على خصال الخير والبر والإجتهاد في تنقيتها من خصال الشر ودباغ السوء.

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ ـ الشمس ٧ ـ ٩. نسب الله الفلاح لمن زكى نفسه أي طهرها ونقاها، وقال تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** ـ الجمعة ٢ ـ.

في أمثالها من الآيات القرآنية الذي تذكر الزكاة بمعنى الطهارة والصفاء، ومنها قوله تعالى في سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام :

﴿وآتيناه الحكم صبياً وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا﴾ ـ مريم ١٢ ـ ١٣ ـ، وقوله تعالى في عيسى بن مريم عليهما السلام: ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ ـ مريم ١٩ ـ .

فالزكاة في هذه الآيات إنما هي طهارة النفس وتنقيتها مما يدنسها من خصال السوء ومن الطهارة تخليصها من الشح. قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ ـ التوبة ١٠٣ ـ .. الآية ـ هذا ما نراه في معنى الآية وما فسر القرآن مثل القرآن واللام المقترنة هنا بالزكاة ليست لام التقوية التي تقترن بالمفعول به إنما هي لام الغاية فهم للزكاة فاعلون بمعنى أن جميع أفعالهم الخيرية إنما يفعلونها لتزكية نفوسهم وتطهيرها فهم يصلون ويصومون ويتصدقون لأجل تزكية نفوسهم وتربيتها على النهج الذي يريد الله هذا ما نراه والله أعلم بمراده.

وصف الله عباده المؤمنين أنهم ذووا أنفس زكية قد اجتهدوا في تزكيتها فلا شرك ولا نفاق، ولا بدعة ولا شح ولا غل ولا حقد ولا حسد ولا كبر ولا غش ولا إصرار، فهي نفوس نظيفة وقلوب مستبصرة تطمئن بذكر الله وتنيب إليه وتخشع له، نفوس لا تطغى عليها الشهوات والأهواء ولا تستحوذ عليها الشياطين فهي زاكية نقية .

﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ ـ الوصف الخامس من أوصاف عباد الله المؤمنين وهو حفظ الفروج، والعفة والبعد عن فاحشة الزنا، وما أشد اتصال هذا الوصف بالذي قبله فالعفة فرع من زكاة النفس وطهارتها، والذين يحفظون فروجهم هم الذين زكوا أنفسهم، فهي مؤمنة غافلة لا يخطر السوء لها ببال ولا الفحشاء .

مدح الله تعالى عباده الأطهار الذين زكوا نفوسهم بحفظ الفروج فهم أعفاء لا يبتغون متعة الفروج في غير أزواجهم الحلال وما ملكت أيمانهم من الإماء، عزفت نفوسهم عن الفاحشة واعتصموا بالحلال وابتعدوا عن الحرام، حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، غضوا أبصارهم وعفوا نفوسهم واستغنوا بالحلال عن الحرام وقد علموا أن قول الله حق فعملوا به.

قال الله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ ـ الإسراء ٣٢ ـ علموا أن الزنا فاحشة يتسع خطرها وتهلك المجتمعات باختلاط الأنساب وانتشار الأمراض وويل لأمة ينتشر فيها الزنا وتكثر فيها أولاد الزنا وويل لأمة لا يثق فيها الزوج بزوجه، تراهم يعزفون عن الزواج لأنه لا ثقة لهم في الأزواج لانتشار الخيانة في بيئاتهم، تلك أوساط موبوءة طلاب الحرام ركاب الشهوات خُوان الأمانات وما أكثرهم في هذا الزمان وما ذلك إلا لضعف الإيمان وإنعدامه من القلوب، وتفريط الحكام في إقامة الحدود ومحاربة الفواحش، ترى الواحد منهم لا يرغب أن يقيد عنقه بزوجة بل يفضل أن يبقى حراً يتصل كل يوم بمن شاء من الفواسق، وربما ينتهي أمره إلى الإقتران بمن ظلت خدينته سنوات، وربما يكون قد ولد معها أولاداً قبل أن يتزوج بها، كيف يصلح مجتمع تنتشر فيه الخيانة وتنتزع الثقة من رجالهم ونسائهم، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، إن صلاح المجتمعات وارتباط الأنساب بالعفاف وحفظ الفروج لذلك كتب الله الفلاح للذين هم لفروجهم حافظون فهم لا يضعون شهواتهم إلا في الحلال.

قال الله تعالى: ﴿**إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون**﴾ إنهم يحفظون

فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم من السرارى فإن في بضع إحداهن لهم صدقة فإنهم غير ملومين بالتمتع بهن بل ذلك مباح لهم ويكتب لهم به أجرٌ وفيما وراء ذلك وزر .

﴿**فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون**﴾ ـ من طلب اللذة في غير الزوج أو ما ملكت يمينه فهو عليه وزر ويشمل ذلك الزنى واللواط والاستمناء باليد أو نحوه.

﴿**فأولئك هم العادون**﴾ ـ الذين يتعدون حدود الله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون عليهم الحد أو العقوبة في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى للذين أصروا على ذنوبهم ولم يتوبوا ولم يقلعوا، وعذاب الزناة عند الله عظيم، وللترغيب والترهيب ذكر الله الفريقين هنا ووصف الفريق الثاني بالعدوان، فهم عادون لأنهم تعدوا حدود الله بابتغائهم وراء ما أحل الله لهم من أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

ثم ذكر الله تعالى الوصف السادس من أوصاف عباده المؤمنين أهل الفلاح فقال: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾ هنا في هذه الآية ثلاث كلمات: الأمانة والعهد والرعاية ولابد بمعرفة معاني هذه الكلمات لكي نفهم معنى الآية، فلنبدأ بتعريف الأمانة التي جاءت في الآية بصيغة الجمع : الأمانات، والأمانة كثيرة أنواعها وأجلها وأعظمها أمانة التكليف التي ذكرت في سورة الأحزاب :

﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾ ـ الأحزاب ٧٢ ـ .

فعبادة الله تعالى بما شرع أمانة فالطهارة والصلاة والصوم والحج والأمر

بالمعــروف والنهي عــن المنكر، والولاية والبــراءة والنصــح في الدين وأداء الحـقوق إلى أهلهـا، والعدل في الحكـم والقسم والقـول، كل هذه الأشيـاء أمانات نحن مكلفـون بأدائها، وكل ما اسـترعاك الله إياه من جـوارح نفسك من العقل والسـمع والبصر والفـؤاد واللسان وسائر الأعـضاء أمانة ستسأل عنها، وما جعلك الله أميناً عليه من الأموال والأعراض والأسرار أمانة وهتكه ظلم وإفشـاؤه خيانة سـيعاقـبك الله عليهـا، وما اسـترعاك الله إياه من الناس ستسأل عنه يوم القيامة.

كـما جـاء في الحديث: «كلكم راع وكل راع مـسؤول عن رعـيتـه يوم القيـامة» فأسـرة الرجل وأولاده أمانة وتلاميـذ المعلم أمانة وعـمال المصنع أو المتجر عند صـاحب العمل أو الدكان أمانة سـيسأل عنهم يوم القيامـة ورعية الأميـر أو السلطان أمانة فـإن هم رعوا أمـاناتهم أي حفظوها وقـاموا عليـها أحسن قيام ولـم يضيعوها ولم يخونوها نجوا وأفلحـوا، والرعاية هي الحفظ وحسن القـيام وهي العدل في الحكـم والقسم، وهي أداء الحقـوق إلى أهلها وهي وفـاء الكيل والميـزان وقضـاء الدين والصـدق في المعامـلات كل ذلك أمانة، والجـار له حرمة وحقـوق إن أنت حفظتها وأديتـها فقد رعـيت الأمانة وإن أضعـتهـا وهتكتها فـتلك الخيـانة والعلم أمانة عندك إن أنت عـملت به ونشرته وتحريت قول الحق فقد رعيت الأمـانة وإن أنت لـم تعمل به أو كتمته أو قلت على الله بغير حق فتلك الخيانة، وحقوق الأزواج والوالدين والأولاد والرحـم أمانة إن قمت بذلك وأديت الحقوق فـقد رعيت الأمانة وإن أضعت حقوقـهم فتلك الخيانة، فـالأمانات كثيـرة والمؤمن يرعى الأمانة ويراقب ربه ويخشى مقامه بين يدي من لا تخفى عنه خـافية ولا يتحقق الإيمان إلا برعاية الأمانات والعهود ولذلك قرن ذكر الأمانات والعهود في نسق واحد :

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ ـ والعهد هو الميثاق الذي يعطيه الإنسان ويقطعه على نفسه وهو مطالب بالوفاء به.

قال الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ ـ المائدة ١ ـ ، وقال تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ ـ النحل ٩١ ـ ووصف الله المؤمنين في آية أخرى فقال: ﴿والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ ـ ووصف الأشقياء فقال فيهم: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ ـ الرعد ٥٢ ـ .

في أمثالها من الآيات التي تؤكد على المحافظة على العقود ورعايتها وتحذر من نقض العهود والمواثيق، وتبين سوء عواقب الناكثين لأيمانهم الناقضين لعهودهم الخائنين، فالمؤمن من أوصافه اللازمة رعاية العهود والمواثيق لأنه يخشى ربه ويخاف سوء الحساب، ومن كان طبعه النقض والنكث والخيانة فهو منافق كما جاءت بذلك نصوص الأحاديث الصحيحة وكل هذا وكثيراً من الناس الذين يدعون الإسلام ينقضون المواثيق ويختلقون الأعذار والتأويلات الباطلة ولا تغنى عنهم من الله شيئاً، فمنهم من يزعم أنه ما لم تكن كتابة فيها توقيعه فلا يلزمه الوفاء بها وهذا ضلال وخيانة، ومنهم من يوقع وينكر توقيعه ومن يوقع باليسرى حتى إذا طولب بالوفاء أنكر ذلك، ومنهم من يرشي القاضي ومن القضاة من يقبضون الرشا، ومنهم من يحامي عن الخائنين وهو يعلم أنهم ظالمون، ومنهم من يتلاعب بالألفاظ، ومنهم من يغري الطرفين المتخاصمين ويأكل من هذا وذلك ويراوغ ويحتال ويخادع وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون،

ومنهم من يشتري ويدور في شرائه أو يبيع ويدور في بيعه، ويختلق الدعاوي الباطلة وهذا نقض وهو حرام وسحت ولو في ربطة بصل أو دون ذلك فإن البيع والشراء عقود يجب الوفاء بها، ومنهم من يعد ويخلف وهذا من صفات النفاق.

فلنحذر جميع ذلك ولنعلم أن الرزق لا تزيده الحيل والحرص والخيانات، إن الرزق مقسوم ولن يزيد حرصك في قليل ما كتب الله لك كما أنه لن ينقص وفاؤك من كثير ما كتب الله لك ولنتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين، ولنبتعد عن أبواب الربا في المعاملات فإنها كثيرة ودقيقة وأدناها كالذي يأتي أمه كما ورد في الحديث الشريف ونعوذ بالله من أنواع الربا كلها، ونسأل الله أن يجعلنا من الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون حتى نكون من المفلحين الذين يرثون الفردوس ويخلدون فيها.

هذه أوصاف ستة تقدم بيانها ثم ننتقل إلى الوصف السابع الذي ختمت به هذه الأوصاف الحميدة للمؤمنين وهو المحافظة على الصلوات: ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾ ختم الله في هذه الآيات الكريمة أوصاف المؤمنين المفلحين بمثل ما بدأها به بدأها بالخشوع في الصلاة وختمها بالمحافظة على الصلوات لأن الصلاة عماد الدين، عليها يقوم بنيانه فمن تركها أو ضيعها فقد هدم الإسلام، ومن حافظ عليها فهو المؤمن حقاً والمحافظة هي القيام بجميع شروطها وأركانها ووظائفها، والإتيان بها في أوقاتها الموقوتة، وتلك هي الإقامة التي تذكر في القرآن كثيراً.

﴿**فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المومنين كتاباً موقوتاً**﴾ - النساء ١٠٣ - ، وقال تعالى: ﴿**وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾ - العنكبوت ٤٥ - .. الآية، والإقامة هي

المحافظة على هيكل الصلاة وروحها وروح الصلاة هي الخشوع وهيكلها هي القيام والركوع والسجود مع المداومة فلا تنفع المحافظة في وقت والتضييع في وقت آخر ولا يسمى هذا محافظاً ولا يكون محافظا إلا من جمع الأوصاف السبعة وتلك هي موازين الإيمان فإذا اجتمعت في مجتمع فهو المجتمع المثالي للإيمان.

﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ ـ

أشار الله إليهم بأولئك وهي إشارة البعيد تعظيماً لقدرهم وتفخيماً لشأنهم وأقحم ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر وعرّف الخبر بأل للدلالة على حصر السعادة فيهم وقصرها على من اتصف بهذه الخصال فكأنه قال: «أولئك هم الوارثون لا غيرهم» الذين يرثون الفردوس أي يدخلونها ويملكونها ملكاً دائماً واختار كلمة الميراث هنا لتدل على معنى لا يدل عليه غيرها لأن الميراث هو أخذ الشيء الكثير وامتلاكه من غير عناء، وهم وإن كان دخولهم الجنة بإيمانهم ولكن أعمالهم ليست هي التي استحقوا بها الفردوس فهي حقيرة لا تفي حق الشكر بأدنى نعمة من نعم الله فكيف بالخلود في الفردوس الأعلى، لقد ورثوها برحمة الله التي تغمدتهم ذلك هو الميراث الحقيقي الذي يسعد به صاحبه لا ميراث الدنيا، وقلما يتمتع الوارث في الدنيا بميراثه، وقد لا يتمتع أصلاً وقد يموت الوارث بعد موروثه بقليل، وقد يموت قبل أن يتصل بإرثه، وقد يتخاصم الورثة على ميراث ويطول خصامهم ويموتون قبل أن يبرد الخصام وقد يورثون الخصومة لأولادهم، وهكذا نعيم الدنيا منغص مكدر ومتاع قليل، والآخرة خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فهم يرثون الفردوس ويبقون في ميراثهم الذي لا ينفد ولا يفنى.

قال تعالى: ﴿هم فيها خالدون﴾ هم في الفردوس خالدون ماكثون منعمون أبدا لا هي تفنى ولا هم يبغون عنها حولاً، لا يزاحمهم فيها أعداؤهم بل هم بعداء عنهم في نار موصدة في عمد ممددة، لقد صبروا على أذاهم في دار الدنيا وكان صبرهم خيراً لهم، لقد نالوا به الدرجات العلى عند الله فهم مغتبطون بثوابه، والشهداء منهم نالوا كرامة الشهادة وظالموهم قد انتقم الله منهم وألقاهم في النار، يومئذ يقال لأهل الجنة خلود فلا موت أبداً ويقال لأهل النار خلود فلا موت أبداً فأي الفريقين خير مقاماً وأحسن مرداً؟، ما أعظمها من آيات تبين مصير الوارثين للفردوس الخالدين فيها، وفيها ترغيب في الأعمال الصالحة التي هي آثار الإيمان الصادق الراسخ في قلوب المؤمنين ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ - المطففين ٢٦ - وفيها الموازين والحقائق التي تفند مزاعم أصحاب الأماني الفارغة الذين يطمعون في نيل الجنان بغير عمل ويذنبون ويظنون أن ذنوبهم تغفر بدون توبة، فلنرجع إلى موازين كتاب الله الكريم فتلك هي الموازين القسط ولنستمسك بما جاءتنا به، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا
الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا
ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم
بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

يبين الله لنا أصل تكويننا مفصلاً أطوارنا تفصيلاً ليقوي إيماننا الذي بدأ به السورة وسميت السورة «المؤمنون» فبالتأمل في أطوار تكويننا يزداد إيماننا

ويقوى وويل للكافرين الذين لا يتفكرون ولا يعتبرون، وويل للذين يفترون الكذب ولا يؤمنون بكلام الله ويقولون زوراً: إن الإنسان أصله قرد لما يرون من بعض التشابه بينهما: قتل الخراصون الذين يعارضون بهذه النظريات الخاطئة كلام الله الخالق العليم.

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ ـ الملك ١٤ ـ يؤكد الله الخبر ليقطع وساوس الضالين المضلين ويدحض شبهاتهم والله يعلم ما سيفترون فيما ليس به علم، قال الله تعالى رداً على هؤلاء وأشكالهم. ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ ـ الكهف ٥١ ـ الآية ـ فلا داروين ولا أمثاله يعلمون من أصل الخليقة شيئاً إن هم ألا يظنون إن أصل كل خليقة يعلمه الله. ﴿الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ ـ يس ٧٩ ـ .

ولنرجع إلى قول الله تبارك وتعالى وهو الحق ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ـ يؤكد الله الخبر بمؤكدين ليقطع شبه الخارصين وينسب الخلق إليه بضمير العظمة ومن أحق بالعظمة منه تبارك الله العالمين، والخلق هو الانشاء الأول، والإنسان الأول هو أبونا آدم أصل البشر وأبوهم الأعلى خلقه الله بيده من سلالة من طين، والسلالة ما يستل من الشيء ويستخلص منه واليوم يستل الناس معادن غالية مثل الأورانيوم من تراب يستخلصون «غراما» منه من أطنان من تراب وكذلك الذهب يستل من تراب.

استل الله من تراب هذه الأرض عناصر جمعها وعجنها فصارت طيناً لازباً ثم حمأ مسنوناً ثم صارت صلصالاً كالفخار، ثم صور منها صورة أبينا آدم ثم نفخ فيها من روحه فصارت بقدرته إنساناً، ثم صور منه زوجه حواء ثم بث منها رجالاً كثيراً ونساء، وكل هذه الأطوار ذكر في آي من القرآن بتأملها جميعاً نستجمع أطوار الخلق الأولى وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

قال الله تعالى على لسان عبده نوح عليه السلام يخاطب قومه ويعظهم ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾ ـ نوح ١٣ـ١٤. هذا مبدأ خلق الإنسان الأول أبي البشر، ثم يذكرنا الله تبارك وتعالى بمبدأ خلق كل إنسان وأطواره الأولى من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام إلى جسم مصور ينفخ فيه الروح، ثم ينمو حتى يصل أجل خروجه من بطن أمه إلى ظهر الأرض، ثم يصير إلى بطنها ثم يبعث بشراً سوياً ليحاسب ويُجازى على أعماله، وكل ذلك تذكير لنا لنؤمن بيوم البعث ونستعد له.

قال تعالى: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ ـ جعل الله مبدأ خلق الإنسان أي كل إنسان جعل بداية تكوينه من نطفة من ماء مهين، يقذفه الرجل في رحم المرأة فيستقر هناك في قرار مكين، أي في ركن محفوظ داخل بطن الأم يتمكن فيه من الاستقرار والنمو من غير أن تزعجه أو تناله الأشياء التي ربما تضره.

يقول العلماء: إن القذفة من المني تشتمل على ما يتراوح من ٢٥٠ مليون حيوان منوي إلى ٣٥٠ مليون، والذي كتب الله له الحياة واحد أو اثنان أو ما يريده الله يثقب بويضة المرأة ويستقر فيها في قرار مكين، ولا يرى هذا الحيوان المنوي إلا بالمكبرة التي تكبره خمسمائة مرة أو ألف مرة، فسبحان من أحاط علمه وقدرته بكل دقيق وجليل لا تخفى عنه خافية، وفي ذلك القرار في ظلمات ثلاث يتكون ويتطور من طور إلى طور.

﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ ـ ثم يخلق الله النطفة علقة وذلك أن الحيوان المنوي من مني الرجل الذي يستقر في بويضة المرأة يتطور وينمو حتى يصير علقة أي قطعة من دم متكونة بقدرة الله وذلك قوله تعالى:

﴿خلق الإنسان من علق﴾ ـ العلق ٢ ـ قطعة من دم متجمد عالق بالرحم ﴿ثم خلقنا العلقة مضغة﴾ ثم تتطور العلقة إلى مضغة بإذن الله وصنعه الذي اتقن كل شيء، والمضغة قطعة من لحم صغيرة قدر ما يمضغه الفم وقد يشاهدها المشاهد عندما تجهض المرأة جنينها في ذلك الطور ﴿ثم خلقنا المضغة عظاماً﴾ ثم يخلق الله المضغة عظاماً كثيرة متنوعة متكونة لا عظماً واحداً وتلك هي أجزاء الجهاز العظمي الذي يتركب منه جسم الإنسان كل قطعة في موضعها ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ ثم يكسو الله تلك العظام النحيلة اللينة لحماً ينبته منها بقدرته، وما أحلى التعبير بالكسوة فاللحم كسوة الله للعظام وأي كسوة أجمل وأحفظ للعظم من هذه الكسوة ، وقد اكتشف العلماء نوع اللحم هذا فوجدوه نوعاً آخر غير العظم، فخلايا اللحم غير خلايا العظام لكل تكوينه، فسبحان الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ولا يزال العلم يتقدم ويطلعنا على العجائب من أمر تكويننا.

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ ـ الذاريات ٢١ ـ فما لهؤلاء الكفار لا يتدبرون ولا يعتبرون ومن يقدر على هذا إلا الله فما لهم لا يؤمنون .

﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فَتبارك الله أحسن الخالقين﴾ ثم بعد هذه الأطوار المتطورة ينشئه الله خلقاً آخر يخلقه خلقاً جديداً، وذلك أن ينفخ فيه الروح بعد تصويره إنساناً فيصير بنفخ الروح خلقاً آخر غير النطفة المتطورة إلى علقة فإلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، إنه عندما ينفخ فيه الروح يصير إنسانا حقا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، ومن قبل ذلك جزءاً تابعاً لأمه متكوناً من أمه وأبيه ثم صوره الله إنساناً، ثم نفخ فيه الروح فهو خلق آخر غير أمه وأبيه إلا أن الله تعالى قد أودع كثيراً من خصائص أبويه

فهو يشبهها في كثير من الأوصاف ويمتاز عنهما بكثير فهو إنسان مستقل بخصائصه سيولد إن قدر الله سلامته خلقاً سوياً، وسيتحمل الأمانة التي خلق من أجلها وسيكون واحداً من هذا الجنس البشري الذي جعله الله خليفة في الأرض وفضله على كثير ممن خلقه تفضيلاً، هذه هي الأطوار التي يتكون منها الجنين وليس جنيناً واحداً بل ملايين الملايين وفي كل لحظة وحين فتبارك الله أحسن الخالقين وهل هنالك خالق غير الله ! لا يزال الناس علماؤهم وبسطاؤهم إنسهم وجنهم وملائكتهم يقفون عاجزين أمام القدرة الربانية في خلق الحياة والأحياء وفي نزع الحياة منهم يوم يموتون.

﴿**ربي الذي يحيي ويميت**﴾ - البقرة ١٥٨ - الخلائق بيده مخلوقة والحياة منه موهوبة والآجال عنده مكتوبة والأرواح بيده مقبوضة بيده الملك وإليه المصير.

﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾ - يس ٨٣ - ﴿**ثم إنكم بعد ذلك لميتون**﴾ - يذكرنا الله تعالى بمصيرنا حتى نستعد له بعد أن ذكرنا بمبدئنا حتى نوحده ونخضع له ونعبده، ثم إنكم بعد الحياة وأطوارها تصيرون إلى الموت حتماً ويؤكد لنا الموت بمؤكدين ولا أحد ينكر الموت فلِمَ التأكيد إذن؟ إنما التأكيد جاء لأن أكثر الناس يغفلون عن الموت ويتعلقون بهذه الحياة الدنيا، وتطول فيها آمالهم وتعظم فيها رغبتهم فهم لها يجمعون وفيها يلهثون ولها يحرصون ويحتالون كأنهم لا يموتون، فحسن هذا التأكيد لنتذكر مآلنا، ولنعلم أن الموت نهاية هذه الحياة فنستعد له بالإقلال من الحرص والحيل وبتقصير الأمل، وبالتكثير من صالح العمل فالموت غاية كل حي وإن طال الأجل.

﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ ـ وما أنسب التذكير بالموت في مثل هذا الموضع فما هو إلا طور من أطوار الأحياء بعد نهاية أجل الحياة الأولى وقبل الدخول في الحياة الثانية التي هي الباقية الدائمة.

﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ ثم إنكم بعد موتكم وفنائكم تبعثون ليوم القيامة ويوم القيامة بداية مبعث الناس من قبورهم ونهايته استقرار أهل السعادة في جناتهم وأهل الشقاء في نارهم والعياذ بالله.

يؤكد الله أمر البعث بمؤكد واحد لنتيقن بالخبر ونستعد ليوم القيامة، ولا يحتاج الأمر لأكثر من هذا لأن العاقل يدرك أن الله لم يخلقنا عبثاً ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً.

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ ـ آل عمران ١٩١ ـ فالواجب التفكر في هذه الأطوار وما يحمله هذا التطور من العجائب والأسرار، من نظر فيها نظر المتأمل يزداد إيماناً بربه ويستعد للموت الذي هو نهاية كل حي ويتزود ليوم القيامة الذي هو يوم البعث والحساب والجزاء، وجاء التعبير في الأطوار الثلاثة الأخيرة بحرف المهلة الذي هو «ثم» لأن هذه الأطوار الأخيرة أطوار متعاقبة على مهل وللتنبيه على أهميتها فكل واحد منها يستدعي وقفة للنظر والتأمل والاعتبار ومن وراء الاعتبار، التأهب والاستعداد ليوم القيامة.

هذه آيات لله عظيمة في تكويينا وتطورنا في رحلتنا الطويلة هذه ولله في كل شيء آية تدل على عظمته وقدرته ووحدانيته ثم يلفتنا الله تبارك وتعالى إلى آيات أخرى من آياته الكبرى فيقول :

وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا
عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن
نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾
وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ
فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

يلفتنا ربنا تبارك وتعالى أولاً إلى آية الله في السماوات السبع الطباق وما فيها من أسرار الملك والملكوت فيقول ويؤكد قوله باللام وقد **﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾** ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق أي سبع سماوات طباقا، تقول العرب نزعت النعلين وطرقتها إذا جعلت إحداهما على الأخرى، فهي سماوات سبع متطابقات لا يعلم إلا الله مقدار سمكهن وبعد ما بينهن وما يمسكهن إلا الله، بناهن بقوته وامسكهن بقوته لن يقعن على الأرض إلا بإذنه، فهو القائم عليهن لا يغفل عنهن طرفة عين.

﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾، وقال تعالى: **﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾** ـ فاطر ٤١ ـ هو الخالق القادر القائم على خلقه لا يغفل عنه ﴿لا

تأخذه سنة ولا نوم﴾ ـ البقرة ٢٥٥ ـ هن فوق رؤوس جميع الخلائق فما علينا إلا أن ننظر فوق رؤوسنا ونعتبر، وسماهن الله تبارك وتعالى طرائق وفيها معنى الطريقة وهي المسلك والمدار والسبيل ذلك لأنها مدارات ومسارات للأفلاك والنجوم والكواكب السابحات في الفلك، خلقهن الله بقوته ثم سيرهن في مساراتهن لا يعدو نجم مساره ولا شعرة وباعد بينهن فلا تصطدم، ورفع السماوات بغير عمد ترونها.

ويعبر العلماء عن هذا الرفع بالجاذبية ولا يعرفون حقيقة الجاذبية، هي قدرة الله التي أمسكتها ورفعتها ﴿والسماء وما بناها والأرض وما طحاها﴾ ـ الشمس ٥ ـ ٦ .

ويقدر العلماء المسافات بين النجوم بسرعة الضوء التي تقطع ثلثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة وبهذه السرعة في قطع المسافات الواسعة يقولون أن هنالك نجوماً في الفلك بيننا وبينها ملايين السنين الضوئية، أما بيننا وبين الشمس التي هي أقرب النجوم إلينا أرضنا هذه من توابعها فالمسافة بينها وبيننا ثمان دقائق والله أعلم، وشمسنا أكبر من الأرض بنحو مليون ونصف وهي نجم من نجوم مجرتنا التي نراها في السماء وفي الكون مجرات كثيرة وكثيرة لا نراها لبعدها عنا، ويتحدث عنها علماء الفلك بما لا يكاد يدرك العقل كنهه ولا يزال الكون يتمدد ويتسع.

قال الله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون﴾ ـ الذاريات ٤٧ ـ ولا يزال الله يخلق وهو الخلاق العليم وصدق الله العظيم.

﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ ـ فهلا اعتبر هؤلاء المكذبون بهذه السماوات العظيمة، وهلا تأملوا في هذه النجوم والكواكب العجيبة أفلا يعقلون أفلا يعلمون أن من وراء هذا الكون الهائل رباً محيطاً به عالماً قادراً قاهراً خلاقاً.

﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾ - الغاشية ١٧ - ٢٠. تبارك الله رب العالمين.

﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ - يلفتنا ربنا تبارك وتعالى إلى آية أخرى من آياته الكبرى وهي إنزال الماء من السماء، وإن هذا الإنزال مقدر بمقادير يقدرها الله تبارك وتعالى ويعلمها وما يعلمها إلا هو، وهو الذي يقدر مواقيتها ومواضع نزولها ومقاديرها وكيفية نزولها وقبل ذلك هو الذي ينشئ السحب ويسيرها ثم يؤلف بينها ويجعلها ركاما ويخرج المطر من خلالها أو ينزله برداً فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، أو ينزله ثلوجاً يغطي بها الأرض والجبال ثم تتسرب في طبقات الأرض فتسكن فيها بإذن الله إلى حين ويسلكه الله ينابيع في الأرض منها ما يتفجر على وجه الأرض ومنها ما يستخرجه الناس ويستنبطونه من صخورها فينتفعون بكل ذلك ولو شاء الله لأذهبه في الأرض غوراً.

قال تعالى: ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ - وإن لنا لقدرة على أن نذهب به وليست لكم قدرة على إرجاعه ولا على الاتيان بماء معين فاشكروا نعمة الله عليكم ولا تكفروه فتعرضوا نِعم الله للزوال وفي هذا التذكير تحذير لنا من كفران المنعم .

وفي قوله تعالى: ﴿فأسكناه في الأرض﴾ في هذا الإسكان تأمل كبير، فكيف يسكن هذا الماء اللطيف في أحواض من الأرض ومجاري تحتضنه جدران وأرضية وسقوف صلبة لا ينفذ منها مع العلم أن الماء شديد التسرب بين أجزاء الأرض فمن الذي بنى هذه الأحواض والمجاري بهذا الإحكام وهذه المتانة، ونحن في خدماتنا نعاني من تسرب الماء وتشقق البنيان سبحان

الله الذي مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان، وفي الأرض بحار متنوعة من المياه وبحار من البترول والغاز لا يبغي بعضها على بعض، ويعجز أهل الأرض والسماء عن صنع هذه البحار وهذه البرازخ فسبحان الله الذي أتقن كل شيء صنعاً نشكره على نعمه التي لا تحصى ومن أجلها إنباع الماء من بين صخور الأرض وبه حياتنا وحياة جناتنا .

﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون﴾ ـ الجنات هي الأراضي المغروسة بالنخيل والأشجار الملتفة فهي تجن على من يمشي خلالها ولذا سميت جنة، وقد أنبت الله بالمياه جنات من نخيل وأعناب، خصص الله ذكر النخيل والأعناب لأهمية ثمارها ولكونها الغذاء الكافي والمفيد فهي تقتطف وتؤكل رطبا وفاكهة وتدخر لكل وقت وزمان، ولذلك أوجب الزكاة في غلالها وفي هذه الجنات من النخيل والأعناب فواكه أخرى كثيرة كالرمان والتفاح والبرتقال والمشمش، وأنواع أخرى كثيرة من الفواكه اللذيذة المطعم والمفيدة المغذية لكل منها خصائص يستفيد منها جسم الإنسان امتن الله علينا بها وبكثير .

ثم قال : **﴿ومنها تاكلون﴾** وليس المراد بالأكل هنا مجرد الأكل بل المعيشة كلها يقول ومنها تعيشون أي تأكلون وتدخرون وتبيعون وتكتسبون مالاً تعيشون به، فانظروا إلى ثمارها واعتبروا وتمتعوا بها وبظلالها وبهجتها واشكروا الله الذي أنشأها لكم وأجرى لكم مياهها العذبة، ولو شاء لذهب به فأصبح غوراً ومن يكفر فسيكون من عقابه زوال النعم نسأل الله تعالى دوام النعم ونعوذ به من زوالها ومن حلول النقم. ثم قال تعالى: **﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾** حكمة يعلمها الله تعالى، خصص هذه الشجرة «الزيتونة» بالذكر وقد سماها مباركة في سورة النور حيث يقول :

﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ - النور ٣٥ - مدح الله تعالى هذه الشجرة وخصصها بالذكر بعد ذكر النخيل والأعناب وذلك لما يعلم منها من البركة والمنفعة بل والمنافع الكثيرة ولم يذكر اسمها ولكن ذكر أوصافها المميزة والعلماء يقررون بإجماع أنها الزيتونة، ولأنها هي الشجرة المشهورة التي تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، والزيتون موجود في كثير من بلاد العالم وأماكنه معروفة، وطور سيناء معروف وهو الجبل الذي اختاره الله تعالى لمناجاة عبده ونبيئه موسى عليه السلام، وهو في جزيرة سيناء بين فلسطين ومصر، ونفهم من تعبير الآية أن ذلك هو موضع الزيتون الأصلي حيث أنشأ الله شجرة الزيتون ومنه نقل الناس فسلها إلى مواطن أخرى من الدنيا، وذكر العلماء أنها أول شجرة نبتت بعد طوفان نوح عليه السلام، ولذلك يحمل الناس غصنها رمز للسلام.

ويقول علماء النبات أن الزيتون أطول الأشجار المثمرة عمراً وإن عمرها قد يتجاوز ثلاثة آلاف عام وذلك خاصة في زيتون الجبل، ويوجد الآن في جبل نفوسة زيتون من عهد الفراعنة، وثمرة الزيتون تؤكل بعد تخليلها وتمليحها، ويعتصر منها الزيت وهو غذاء ودهن وصبغ للشعر وغذاء جيد للآكلين وشفاء للمتداوين وكم من أمراض دواؤها زيت الزيتون.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يذهب سبعين داء منها الجذام» هكذا ورد في بعض كتب الحديث وهو دواء للمعدة وللرئة ولأمراض القلب وللجلد والجروح ويلين المعدة ويسهل الهضم

وللصدر، وكل من يفطر بملعقة زيت الزيتون يكون ذلك وقاية له من مرض السل، ولا يصاب بأمراض البرد التي تصيب الحنجرة، فهو عصارة مباركة من شجرة مباركة والزيت دواء للعين ولقوة العضلات ويجلو لون البشرة ويصفيها، والبلاد التي لا تنتج هذه الثمرة تشتري الزيت بأثمان غالية والتي تنتجها وتصدرها مثل تونس تربح منها أموالاً كثيرة فهي من مواردها المهمة التي عليها الاعتماد، ولهذا خصصها الله تعالى بالذكر وامتن علينا به وذكر بعض منافعه الكبرى ثم امتن الله علينا بنعمة عظيمة وهي نعمة الأنعام وما أعظمها نعمة فقال:

﴿وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تاكلون وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ - يعرفنا ربنا تبارك بنعمه لنقوم بشكره ويؤجرنا على ذلك بالزيادة في الدنيا وبرحمته في الآخرة ومن أجلها علينا نعمة الأنعام وهي الإبل والبقر بأنواعها والغنم كذلك وفيها عبرة للمعتبرين تزيدنا إيماناً بربنا الخالق الرازق وحبا له وتوكلا عليه، فهو يسقينا من بطون الأنعام أي أجوافها لبناً خالصاً يخرج من بين الفرث والدم ونحلبه صافياً سائغاً للشاربين، ألا نعتبر في تكون هذا اللبن في أجوافها ومن يقدر على ذلك غير الله فهو وحده خالق الدر ومجمعه في ضروعها وموفره لأولادهن ثم لنا من بعدهن، واللبن غذاء عام في جميع أنحاء العالم ولجميع طبقات الناس منذ ولادتهم إلى شيخوختهم وهو مهم لا يستغني عنه الطفل الرضيع ولا الشيخ الكبير ولا من بين ذلك، وما أشد حاجتنا إلى الألبان وما نستخرجه من الألبان من الزبد والسمن وأنواع الجبن والإقط، وكل ذلك غذاء شهي لذيذ سهل الهضم غذاء للأصحاء ودواء للمرضى، وقد اعتنى أهل الألبان الكثيرة اليوم بتعليبها وتجفيفها وتصديرها إلى أطراف

الدنيا فعمت بركاتها جميع البلاد وتمتعت بها كل العباد، فسبحان الذي سخر لنا هذه الأنعام ووفر لنا منافعها وجعلها مأكلاً ومعاشاً للناس يربونها ويقتاتون منها ويبيعون ويستعينون بأثمانها على معاشهم وجميع حاجاتهم، فهي من أعظم المكاسب منفعة، يعود نفعها على جميع الناس ولولا تسخير الله إياها لنا ما كنا نطيق تذليلها للحلب والركوب والحمل والنحر والذبح فمنها أكلنا وعليها حمل أثقالنا وركوبنا.

قال تعالى: ﴿**وعليها وعلى الفلك تحملون**﴾ - ولا يزال الناس رغم اختراعهم لعربات الركوب والشحن لا يستغنون عن ركوب الأنعام وحمل أمتعتهم عليها، فالإبل هي سفن الصحراء سخرها الله لذلك وجهزها وقواها على قطع الفيافي الشاسعة تقطع الأراضي التي لا تسلكها السيارات لأن السيارات لا تسير إلا على الطرق المعبدة أو الأراضي الصلبة المستوية، أما الإبل فترى قوافلها تشق الطرق الرملية في كل أنحاء البلاد وتحمل أهل البادية وخيامهم وأمتعتهم فما أعظم نفعها وأعم بركتها وفي التأمل في كيفية خلقتها وتجهيزها بما تقوى به على ذلك عبرة للمعتبرين .

﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾ - الغاشية ١٧ - وهي الحيوان الوحيد الذي يبرك للركوب والحمل ويدني ظهره ثم يقوم بأعماله الثقيلة وفي قيامه ذلك عبرة للمعتبرين ولولا أن الله هيأه لذلك وذلله لنا ما كنا له مطيقين.

قال الله تعالى: ﴿**وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾ - الزخرف ١٢ - ١٣. فطوبى لمن نظر بعقله إلى هذه المخلوقات واعتبر بما فيها وفي تسخيرها من آيات بينات وويل لمن أعرض ولم يعتبر وتمتع بنعم الله ولم يشكره. هذا ولنا في الفلك المسخر في البحر عبر وآيات بينات، ومن تدبر في ذلك البحر

الرهيب والخلق العظيم والماء اللطيف الذي سخره الله لحمل الجواري العظيمة كالجبال وهي تحمل آلاف الأطنان وآلاف البشر ثم تسير بإذن الله وتسخيره، بالرياح أو بالبخار وهو من تسخير الله، من تدبر في ذلك وإن الطائرات المسخرات اليوم لهي سفن للهواء، من تدبر في كل ذلك أدرك عظمة الله وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وازداد إيماناً به وتوكلاً عليه واجتهد في شكره على نعمه واستعان بها على طاعته وذكر نعمة ربه ولم يكن من الغافلين، ونعوذ بالله أن نكون بعد كل هذا من الغافلين، فطوبى للشاكرين وويل للكافرين نسأل الله أن يوفقنا ويعيننا على شكر نعمه والحمد لله رب العالمين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ
عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ
ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ
أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ
فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ
ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

يأتي القصص القرآني لتثبيت النبي ﷺ ومن آمن معه من السابقين الأولين وهم قلة، فيثبت الله به أفئدتهم، ولينذر المكذبين المعرضين وذلك ببيان عاقبة أمثالهم من الظالمين، وقد يكون هذا القصص مبسوط مفصلاً وقد يكون مطوياً موجزاً كما هو هنا، ولكل وقعه ولكل مقامه وأول المرسلين هو سيدنا نوح عليه السلام الجد الثاني بعد أبينا آدم عليه السلام ودعوة الرسل جميعاً هي توحيد الله عز وجل وعبادته بما شرع، وذلك هو الدين الحق الذي دعا الله إليه الأولين والآخرين من الناس أجمعين.

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ - الشورى ١٣ - ذلك ما دعا إليه نوح قومه وما سألهم أجراً.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ - يؤكد الله أمر الرسالة حتى لا يشك أحد في حكمة الله فإن الله لم يترك الناس هملاً بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، وأولهم نوح أرسله الله إلى قومه فدعاهم دعوة هي كلها عطف وإشفاق وتحنن إليهم **﴿يا قوم﴾** دعاهم أولاً إلى عبادة الله وحده وترك ما سواه من الشركاء الذين لا يغنون عنهم شيئاً ولا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً .

﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ - اعبدوا الله ربكم الذي خلقكم وخلق كل شيء رب السماوات والأرض مالك الدنيا

والآخرة هو وحده يستحق العبادة ما لكم من إله غيره ما لكم من إله يستحق العبادة غيره، إنكم تدعون أصناماً لا تسمع ولا تبصر ولا تعي ولا تغني شيئاً أفلا تتقون الله الذي خلقكم وأنعم عليكم وهو وحده يملك النفع والضر، أفلا تتقون عاقبة الشرك، تتركون عبادة الخالق المنعم المالك وتذهبون تخرقون له شركاء، والصيغة صيغة إنكار لأن أمرهم عجيب يدعو إلى الإنكار وفعلهم هذا ظلم عظيم وانحراف عن الصواب فأولى لهم أن يرجعوا إلى الحق الذي تدعو إليه الفطر السليمة .

كانت هذه دعوة نوح عليه السلام وجميع الأنبياء والرسل: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره الدعوة إلى توحيد الله وعبادته عبادة خالصة من كل شائبة من شرك وأن يتقى وهو أهل التقوى والمغفرة، فماذا كان جواب قومهم لهم أول مرة؟ كان الإباء والإنكار والإعراض بدل الإستجابة والقبول لا سيما الكبراء منهم الذين يتبعهم الناس وينظرون إليهم.

﴿فقال الملؤا الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ ـ

الملأ هم أعيان القوم وسموا ملأ لأن العيون تمتلئ بهم هيبة واحتراماً ووقاراً أولئك هم الملأ كبار القوم وغيرهم لهم أتباع فالكلمة الأولى لهم والناس جميعاً ينتظرون رأيهم في هذه الدعوة الجديدة، قال هؤلاء الملأ لسيدنا نوح عليهم السلام وقالوا لقومهم **﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾** ـ هي الشبهة الكبرى التي يسارعون إلى إشاعتها في أقوامهم وهي أن هذا الذي جاءكم بهذه الدعوة ما هو إلا بشر مثلكم فكيف يرسل الله بشراً مثلكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة، ما هو إلا رجل يريد أن

يتفضل عليكم، يتهمونه بحب العلو والظهور ولأنهم أصحاب التعالي والسيادة وهذا همهم، قد أسكرتهم خمرة العلو فهم لا يرضون أن يزحزحوا من مناصبهم ولا يصدقون أن أحداً يأتي بأمر لا يريد به العلو.

هكذا شأن من نغل قلبه وفسدت طويته ينظر إلى الناس بمنظاره الأسود فهم يتهمون رسل الله بحب السيطرة ويظهرونه للعامة بهذا المظهر المشين، وهم المرضى بهذا الداء الذي حجب عنهم النور فأصمهم وأعمى أبصارهم وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، فهم يجحدون الرسالات ويكفرون بحملة الرسالات ونظراؤهم في كل زمان يكفرون بالدعاة إلى الله، حاملي رسالات الإصلاح وليلبسوا شبهتهم بلباس الفتنة والتضليل يقولون لأقوامهم ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ وهي كلمة تنطلي على بسطاء الناس وسفهائهم وذلك أن الله لو كان مرسلاً رسولاً لجعله ملكاً كأن الله حاشاه يعجز أن يصطفي بشراً يجعله رسولاً إلى بني جنسه، وقد رد الله على شبهتهم هذه في سورة الأنعام حيث يقول عز وجل :

﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ - الأنعام ٨ -، وفي سورة الاسراء يقول عز وجل في هذا المعنى: ﴿وما منع الناس أن يومنوا إذا جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ - الإسراء ٩٤ - ٩٥ ، وهذا معقول جداً إذ لو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل الله عليهم من السماء ملكاً رسولاً، أما وهم بشر فلو أنزل الله عليهم ملكاً لجعله على صورة بشر حتى يطيقوا رؤيته ومكالمته، وحينئذ يلتبس الأمر عليهم مرتين فيطالبونه أولاً أن يثبت الدليل على أنه ملك وينكرون ملكيته

ثم ينكرون رسالته ويقعون في اللبس الذي يلبسونه، والواقع أنه ليس هنالك لبس فإن الله يصطفي رسله على أخلاق عظيمة ويعرفهم الناس قبل الرسالة بالنزاهة والأمانة والصدق، ويؤيدهم بالمعجزات الباهرات فلا يأبى دعوتهم إلا الأشقياء المتشبثون بالمناصب والزعامات ويلبسون على أتباعهم ويفتنونهم بأنواع الفتنة حتى لا يؤمنوا بهم، ويوم القيامة يختصمون والقرآن يقص لنا الحوار الذي يقع بين المستضعفين والمستكبرين في مواضع كثيرة منها :

﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مومنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددنكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ ـ سبأ ٣١ ـ ٣٢. الآية. إن هؤلاء مستكبرين الذين يصدون الناس في الدنيا عن دعاة الحق ينكرون هذا الصد يوم القيامة حين يخاطبهم أقوامهم المستضعفون، وفي هذا الإنكار نكاية لهم وزيادة في عقوبتهم وذلك جزاء على كفران نعمة العقول التي أنعم الله بها عليهم ليميزوا بين الحق والباطل، فلم ينتفعوا بعقولهم وقيدوا أنفسهم بهوى كبرائهم وبالتقليد الأعمى لآبائهم الأولين، ومنعهم في النظر إجرامهم وفجورهم وكم طمست المعاصي عيون البصائر فعميت عن مشاهدة الحق.

﴿بل كنتم مجرمين﴾ ـ سبأ ٣٢ ـ لقد كانوا بارتكاب الإجرام صماً بكماً عمياً فهم لا يعقلون لقد أعماهم التقليد عن النظر السليم إلى الحق الذي جاءتهم به الرسل من عند الله فقالوا:

﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ يقولون: ما سمعنا بهذه الدعوة في آبائنا الأولين وهكذا يجابه السفهاء دعاة الإصلاح والتجديد في كل زمان بمثل هذه الشبهة، كأن آباءهم حجة على دعاة الحق ولو كان الذي جاءتهم به دعاة الحق أهدى مما وجدوا عليه آباءهم الأولين.

﴿قل أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ ـ الزخرف ٢٤ ـ إن التعصب لدين الآباء والأجداد أعمى الناس عن إتباع الحق وليس هذا بنافعهم عند الله شيئاً والعقل السليم يدرك أن الحق لا يكون وقفاً على الآباء والأجداد دائماً هي فتنة الخاصة للعامة ويقولون: **﴿إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾** ما هو إلا رجل أصابه جنون في عقله فتربصوا به حتى يزول خباله أو يموت، وقد جمع الله هنا أربع شبه من الشبه الكبرى التي يصدون بها الناس عن الحق والتي يمنى بها الدعاة إلى الله وفي هذا تسلية لنبيئنا محمد ﷺ إذ فيه بيان أن ما جابهه قومه ليس مقصوراً عليه، بل لقد جوبهت الرسل من قبله من لدن أبينا الثاني نوح عليه السلام فليصبر كما صبروا فإن الله سينصره كما نصر الرسل من قبله.

﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ ـ تضرع نوح عليه السلام لربه بعد صبر طويل دام قروناً ورأى أن دعاءه لم يزدهم إلا فرار فدعا ربه **﴿أني مغلوب فانتصر﴾** ـ القمر ١٠ ـ شكا نوح إلى ربه تكذيب قومه إياه بعد جهاده الطويل في تبليغ رسالة الله إليهم، وطلب منه أن ينصره عليهم بإهلاكهم جزاء تكذيبهم وطغيانهم وظلمهم، وأدرك أن إمهال الله إياهم لم يعد ينفعهم فدعا ربه عليهم فسمع الله دعاءه .

قال تعالى: **﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾** ـ أوحى الله تعالى إلى عبده نوح عليه السلام بما يلي : **﴿أن اَصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾** «أن» تفسيرية أي اصنع السفينة ونحن نحفظك ونحفظ صنعك ولولا حفظ الله إياه لكان قومه يفسدون ما يصنع ويحطمونه، ولكن الله إذا

حفظ شيئاً لن تناله أيدي المفسدين. قال «ووحينا» أي بإرشادنا، وتعليمنا فكان الله هو الذي يعلمه صناعة الفلك ويرشده ولا شك أن السفينة تكون كبيرة لأنها ستحمل المؤمنين وستحمل من كل زوجين اثنين من الأنعام والبهائم والوحوش والطيور وقيل حتى من النباتات وتحمل مؤونتهم مدة بقائهم على ظهرها.

كان نوح يصنع السفينة والله يحفظه ويرشده ويعينه ويرد عنه كيد الكائدين من قومه ﴿**وكلما مر عليه ملؤا من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون**﴾ ـ هود ٣٨ ـ وكان ينذر قومه بالهلاك وكانوا يسخرون منه ومن إنذاره ويعجبون من صنعه السفينة في أرض يبس ويضحكون من صنيعه، وكان ماضياً جاداً فيما أمره به ربه غير شاك في وعده ولا مستبعد أمر الله وكان الله يؤيده بالوحي وبروح من عنده أما ما كان من شأن قومه فقد أوحى الله إليه:

﴿**ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾ ـ فأمرهم مفروغ منه ومآلهم الغرق فالهلاك فالعذاب المؤبد في النار ﴿**مما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً**﴾ ـ نوح ٢٥ ـ اشتغل نوح بصنع السفينة بعون الله وقد جعل الله له علامة تحقق وعد الله ونزول العذاب على قومه ﴿**فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم**﴾ فإذا جاء أمرنا وفار التنور، جعل الله فوران التنور بالماء علامة على تحقق الوعد ونزول العذاب يوم تتفجر الأرض عيوناً وتفتح أبواب السماء بماء منهمر. قال الله لعبده نوح: إذا رأيت تنور المطبخ يفور بالماء فاسلك في السفينة أي ادخل فيها من كل زوجين اثنين من الحيوانات، ومر من آمن بك وأهلك أن يركبوها باسم الله ومن كان من أهلك غير مؤمن فلا يركب معك فمآله الهلاك، أولئك الذين سبق عليهم القول وحقت عليهم كلمة العذاب.

﴿**ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾ - لا تكلمني في أهل الشرك والضلال إنهم مغرقون بالطوفان فمعذبون في النيران، هكذا يطلع الله من شاء من رسله على شيء من غيبه ويرشدهم إلى أسلم العواقب في الدنيا والآخرة والعاقبة للمتقين، ويرشد الله عبده نوحاً إلى الذكر الذي يذكر الله به حين ينجيه الله ومن آمن من العذاب الذي يهلك قومه الظالمين وهذا من حفاوة الله به.

﴿**فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين**﴾ - فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك، إذا تبوأتم مقاعدكم من السفينة وصرتم مطمئنين عليها وسارت بكم بإذن الله بعد هلاك القوم وأراكم الله ما تحبون من نصر الله إياكم على قومكم، وإهلاكه إياهم فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، فاحمد الله واثن عليه بما هو أهله واشكره على التوفيق والهداية والنصر والنجاة من القوم الظالمين، اذكره ذكراً كثيراً واحمده بجميع المحامد واشكر له جميل صنيعه بك وبمن معك من المؤمنين والعاقبة للمتقين .

هكذا يقص الله علينا خبر نوح وقومه في كلمات موجزة ليسلي نبيئنا ولينذر الكافرين من قومه بسوء العواقب وما هي من الظالمين ببعيد وأمر الله لابد واقع فلا تستعجلوا أيها الظالمون.

﴿**وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين**﴾ دعاء جميل علمه الله عبده نوحاً أن يدعوه به بعد مشاهدته لآيته العظمى ونجاته من الهلاك يتضرع إلى الله يسأله أن ينزله نزولاً مباركاً عند نزوله من السفينة إلى الأرض، ينال بركة الله فيه كما نال حفاوة الله في إنجائه من الهلاك ونال نصره المبين على قومه، وفي الدعاء ثناء على الله بما هو أهله ﴿**وأنت خير**

المنزلين﴾ وفيه تعليم لنا أن نتأدب مع الله حين ندعوه فنثني عليه الثناء الذي يستحقه والله خير المنزلين، ينزل أولياءه وأحبابه وأهل طاعته خير المنازل مكرمين مبجلين ويذل أعداءه وينزلهم شر المنازل أذلاء مخذولين.

﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾ - إن في ذلك أي ما قصصنا عليك من أمر نوح وقومه وعاقبتهم لعبرة للمعتبرين.

﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾ - إن شأننا أن نبتلي بعض عبادنا ببعض ذلك ليمحص الله الذين آمنوا ويرفع درجاتهم ويمحق الكافرين ولو شاء الله لانتصر لأوليائه من أول يوم، ولكن ليبلو بعضهم ببعض حتى يستحق كل جزاءه، ولينال المحسن عاقبة صبره، ويذوق المسيء وبال أمره وتبقى العبرة للمعتبرين من عاقبة هؤلاء وهؤلاء، وهكذا اقتضت حكمة الله أن يغسل الأرض التي عمها الشرك وأرجاسه بهذا الطوفان العظيم الذي عم الأرض كلها ليغرس بذرة الإيمان من نوح وذريته في أرض نظيفة طيبة.

﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ - الصافات ٧٧ - وقد استجاب الله لنوح دعوته في قومه ودعوته في نفسه فأهلك قومه الكافرين وأنزله والمؤمنين منزلاً مباركاً استأنفوا فيه حياة مباركة عبدوا فيها ربهم حتى أتاهم اليقين ثم أنشأ الله بعدهم أمماً وأمماً كثيرة.

قال تعالى:

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ

فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ
إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ
إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا
لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

القـرن هو أمـة من الناس يعيشـون في عـصر واحـد تشـملهم ظروف تجعلهم جماعة واحدة مشتركين في أسلوب معيشتهم وربما ينتسبون إلى جدٍّ واحد يعـرفون به ويجـمعـهم بلد واحد وبلـدان متقـاربة، ولهم لغـة واحدة يتخاطبـون بها ومميزات تميزهم عن غيرهم من الناس، ثم أنشـأ الله تعالى بعد قرن نوح ومن مـعه قرناً آخر من الناس فـأرسل إليهم رسولاً منهم كـما هي سنة الله أن يرسل لكل أمة رسـولاً منهم يخاطبهم بلسانهم ويعـرفونه ويكون على أخلاق عظيمة أبرزها الصدق والأمـانة، يخبرنا الله تبارك وتعالى أنه لم يتـرك الناس سدى، فـفي كل قرن يرسـل رسولاً يدعـوهم إلى عبـادة ربهم ويبين لهم طريق الهداية والنجاة ويعلمهم الهدى والحكمة.

قال تعالى: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾ أي ثم أنشأنا بعد قوم نوح قوماً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم يعرفونه ويعرفون نسبه ويتكلم بلغتهم ويثقون بأخلاقه وأمانته وصدقه، ولا يكون الرسول إلا في الذؤابة من قومه في بيت عريق ذي نسب أغر لا شبهة فيه ولا ريبة حتى يكون موضع ثقة قومه، وذلك أبلغ في إقامة الحجة عليهم وكونه منهم رحمة من الله لهم وذكر لهم ورفع لشأنهم، وقد خاطبهم بما أرسله الله به قال لهم:

﴿أن اعبدوا الله ما لكم من الله غيره أفلا تتقون﴾ «أن» تفسيرية أي كان قوله لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره دعاهم إلى توحيد الله بالعبادة وقال لهم ما لكم من إله غير الله الذي خلقكم ورزقكم وهو مالك أمر الدنيا والآخرة، اعبدوه وحده، وخافوه وارجوه وادعوه واشكروه أفلا تتقون سخطه وعذابه إن أنتم عصيتموه واشركتم به غيره، وعصيتم رسله، إن بطشه شديد وعقابه أليم، كانت هذه دعوة كل رسل الله إلى أقوامهم، الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة والتحذير من عاقبة الشرك والفجور في صيغة واضحة جادة حاسمة ولكن أقوامهم كانوا يجابهونهم بالإعراض والتكذيب لا سيما الملأ منهم وهم السادات والكبراء.

﴿وقال الملؤا من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم تخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين﴾ ـ تقدم الكلام قريباً في معنى الملأ وهم الذين ينظر الناس إليهم ويتبعونهم، قال هؤلاء الملأ من قوم هذا الرسول

الذين كفروا بربهم ورسله وكتبه وكذبوا باليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء، وهذا هو أصل الكفر والإجرام والفجور والتكذيب بلقاء الآخرة، فهو الذي يفتح أبواب الشرور على مصاريعها ويغلق أبواب السمع والفهم كيف يرجى خير ممن لا يؤمن بلقاء الله، والكبر هو الذي حجبهم عن النور وحب السيطرة والعلو، فهم حريصون على السيادة أن تنزع منهم لذا فهم يفتنون أتباعهم ويصدونهم عن سبيل الله ولا يتركون لهم مجالاً للنظر والاستماع .

وصف الله هؤلاء الكفار بالترف حيث قال: ﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ ـ أغدق الله عليهم نعمه وبسط لهم في الرزق فمرحوا في دنياهم واتبعوا شهواتهم وعبدوا أهواءهم وهي فتنة من الله لهم ولو عقلوا لشكروا الله على هذه النعم، وتمتعوا بالطيبات من الرزق فيذهبوا بخيري الدنيا والآخرة، لكن ظلمهم وكبرياءهم حجباهم عن الحق فزادتهم النعم طغياناً وكفراً.

قال هؤلاء المترفون لأقوامهم المستضعفين: ﴿ماهذا إلا بشر مثلكم﴾ ـ أي هذا الذي يدعي أنه رسول من الله إليكم ما هو إلا بشر مثلكم كأنكم تنكرون على الله أن يرسل إلى الناس رجلاً منهم وهو أمر معقول جداً ليس فيه أدنى عجب، وقد يدركون إمكانه ووقوعه ولكنهم يجحدونه ظلماً وعلواً، فهم ينكرونه ويستبعدونه ويؤيدون إنكارهم هذا بوصف هذا الرجل بصفات البشرية اللازمة، وهي الأكل مما يأكل الناس والشرب مما يشربون ويقصدون أيضاً وضع الفضلات من هذا الطعام والشراب حتى يلبسوا على أقوامهم ويشككون في أمر النبوة والرسالة ليظهروا بمظهر الناصح المشفق يقولون لهم :

﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ـ ويؤكدون لهم الحكم بكل المؤكدات التي يعرفونها، إنكم لخاسرون خسارة كبرى ان اتبعتم بشراً مثلكم، وصدقتموه في دعواه النبوءة، وآمنتم بما يقوله ويزعمه من أمر البعث بعد الموت، ينكرون على أقوامهم طاعة بشر مثلهم، والعجب أنهم هم بشر مثلهم ويسخرونهم في مآربهم الخاصة ويستعبدونهم ويستخدمونهم في الخدمات الكبرى التي تفني أعمارهم وأعمار أبنائهم وأحفادهم، فيا عجباً من تسخيرهم للناس في طاعتهم في الباطل وينكرون عليهم طاعة الرسل في الحق ولكنه التسلط والجبروت والطغيان، يستعبدون الناس ورسل الله يحررونهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد الواحد القهار .

إن هؤلاء العباد لم يكتفوا بتسخير أبدان مربوبيهم فهم أيضاً يملكون ضمائرهم ولا يأذنون لهم في الإيمان بما يدعوهم إليه رسل الله، فالويل لمن آمن منهم بما جاءت به الرسل فهم يؤذونه ويعذبون من قدروا على تعذيبه منهم ويقولون له كما قال فرعون لمن آمن من قومه بموسى:

﴿ءآمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ـ طه ١٧ ـ الشعراء ٤٩ ـ .. الآية ـ وليستخفوا عامة الناس الذين يخافون إيمانهم برسل الله فهم يستبعدون لهم أمر البعث بعد الموت ويظهرونه بمظهر المستحيل الميئوس منه. «كيف ترجع الحياة إلى عظام قد رَمَت» .

﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون﴾ ـ أيعدكم هذا الرسول بالبعث بعد أن تموتوا وتصيروا عظاماً بالية، أتبعثون وترجعون إلى الحياة وتخرجون من قبوركم، هذا رجع بعيد لن يقع هذا أبداً هيهات هيهات لهذا الوعد إنه بعيد ومستحيل، يقولون هذا وينسون قصة الخلق الأول ولكنه الكفر والطغيان.

﴿أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾- يس ٧٧ - ٨٠ يستبعدون قضية البعث بعد الموت ويخدعون أقوامهم حتى لا ينفلتوا من نفوذهم، لأنهم لو آمنوا باليوم الآخر لأذعنوا للحق وأطاعوا الرسل فيتفرقوا عن ساداتهم وكبرائهم، وهذا هو مكر الليل والنهار الذي أشار إليه القرآن عند ذكر مراجعة القول بين المستضعفين والمستكبرين في النار يوم القيامة.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تامروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾- سبأ ٣٣ - أنكروا البعث ولجوا في إنكارهم هذا حتى أنكروا فناء هذه الدنيا فقالوا: **﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾** - قالوا ما هي الحياة هذه التي نحن فيها يموت جيل من الناس ويخلفهم جيل آخر ولا نهاية لهذه الحياة وهم الدهريون الذين ينكرون قيام الساعة ويقولون «الأرحام تدفع والأرض تبلع» والحياة مستمرة ولا نهاية لهذا الدهر، فلا قيامة ولا بعث ولا جنة ولا نار، يقولون هذا حتى يبيحوا لأنفسهم ركوب أهوائها واتباع شهواتها فلا وازع ولا رادع، وهكذا فتنهم الشيطان بهذه العقيدة الباطلة وفتنوا بها ضعفاء الناس حتى يتمكنوا من استعبادهم واستغلالهم بهذه العقائد الباطلة وينكرون أن يرسل الله نبيئاً من البشر ويتهمون أنبياء الله ورسله بالافتراء، يقولون :

﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمومنين﴾ - يتظاهرون بالغيرة على الحق ويتهمون رسل الله بالافتراء على الله وهم المفترون الكاذبون على الله مكذبون بالصدق إذ جاءهم **﴿فمن اظلم ممن**

كـذب على الله أو كـذب بالصـدق إذ جـاءه أليس في جـهنم مـثـوى للكافـرين﴾ ـ الزمـر ٣٢ ـ وهكذا يتـعـمـدون الكذب ويكذبـون بالصـدق ويبتكرون فنوناً من الحيل ليلبسوا على أقوامهم حتى لا ينفلتوا من سيطرتهم ونفوذهـم حرصاً منـهم على السيـادة والزعامة ويـقررون بعد ذلـك قرارهم الأخير في إصرار وتمرد:

﴿وما نحن له بمومنين﴾ ـ يغلقون باب التفاهم ويوصدون باب الإيمان على أنفـسهم وعلى أتبـاعهم، وهذا هو الظلم المبين والفـتنة في الدين أعظم من كفـرهم وهنا وعند وصولهم هذا الحـد من الطغيان يـلتجئ رسل الله إلى ربهم بالدعاء والتضرع أن ينصرهم على هؤلاء المكذبين الضالين.

﴿قـال رب انصـرني بما كـذبون﴾ ـ قـال رب انصـرني على هؤلاء المكذبين وأنزل عليهم عقابـاً على تكذيبهم للحق ولا يكون هذا الدعاء منهم إلا إذا استيـأسوا منهم وطال تكذيبهم وإيذاؤهم لهم وللمـؤمنين فلا يجدون مـعهم حـيلة إلا أن يتضـرعوا إلى ربهـم بالدعاء فـيجـيء نصر الله لهـؤلاء الرسل والمستضعفين من المؤمنين.

﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ ـ استجاب الله دعاء الرسول فقال له إن عذاب الله قـريب منهم وسيندمون عند نزوله ولات منـدم، وجاء التعبـير هنا بالاصبـاح «ليصـبحن» لأن عذاب الله في الغـالب يصبحـهم، ويا ويلهم عند نزول العـذاب يجـأرون ويصرخـون حـتى يخمـدهم العـذاب، هذا إن وجدوا مـهلة للصراخ وقد لا يمهلهم العـذاب كما لو أخـذتهم الصيحـة فلا وقت حينئذ للصراخ .

قال تعالى: ﴿فـأخـذتهم الصيـحـة بالحق فـجعلناهم غثـاء فـبعداً للقـوم الظـالمين﴾ ـ فـأخـذهم عذاب الله الـذي هو الصيـحـة القـوية التي قـتلتـهم

وصرعتهم فأصبحوا جاثمين صرعى، وقد انخلعت أوصالهم وانهارت أجسامهم فتراها جاثمة وهي بالية كأنها غثاء السيل.

يقول جمهور العلماء ويرجحون أن هؤلاء هم قوم صالح لأن عقوبتهم كانت بالصيحة وقد يكونون قوماً آخرين والله أعلم، وكان قوم صالح اتخذوا من الجبال بيوتاً نحتوها نحتاً في الجبال الصخرية يتحدون بذلك عقاب الله، وقد كان الله أهلك عاداً قبلهم بالريح العاتية عقاباً على كفرهم وتكذيبهم لرسل الله، فجاءت ثمود بعدهم وهم قوم صالح فكذبوا صالحاً رسول الله وآمنوا عقاب الله، لأنهم ينحتون بيوتهم في الجبال والريح لا تقتلع الجبال كأن الله ليس له من العذاب إلا الريح وما علموا أن الله على كل شيء قدير.

﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾- المدثر ٣١ - فجاءهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، أمر الله جبريل عليه السلام فصاح عليهم صيحة عظيمة وهو الذي وصفه الله تعالى أنه ﴿**شديد القوى**﴾- النجم ٥ - وما إن سمعوا الصيحة حتى خرجت أرواحهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين وأجسادهم كأنها أكوام من الغثاء ﴿**فبعداً للقوم الظالمين**﴾ بعداً وسحقاً للقوم الظالمين الذين عصوا رسول ربهم وكذبوا بلقاء الله وارتكبوا أنواع المآثم. كم كانت عاقبتهم وخيمة وكم كان مصيرهم سيئاً وبئس المصير ومصيرهم بعد هلاكهم عذاب جهنم ولعذاب الآخرة أشد وأبقى فاعتبروا يا أولي الأبصار .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا
وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

ثم أنشأ الله من بعد قوم نوح والقرن الذي ذكر من بعده قروناً آخرين أي أمماً أخرى ولكل أمة رسول ولم تقتض حكمة الله هنا أن يذكر أسماء هذه القرون وأسماء رسلها؛ لأن الغرض لا يتعلق بذكر أسمائهم إنما الغرض هو الاعتبار والاتعاظ بهلاكهم لما كذبوا الرسل بأنواع الهلاك التي فصلت في مواضع أخرى من القرآن.

﴿ما تسبق من أُمة أجلها وما يستاخرون﴾ ـ ما من أمة تسبق أجل فنائها وهلاكها المحدد ولا تستأخر عنه **﴿إذا جاء أجلهم فلا يستاخرون عنه ساعة ولا يستقدمون﴾** آجال مضروبة إذا حَانت لأمة لا تبقى لحظة على وجه الأرض ولا تنفعها قوتها وكثرة عددها في دفع أمر الله المحتوم، إن في هذا لعبرة للمعتبرين.

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يومنون﴾ ـ يقول الله تبارك وتعالى: ثم أرسلنا من بعد نوح في كل أمة رسولاً، أرسلنا رسلاً متتابعات يقفوا بعضهم بعضاً كلما جاء أمة رسولها كذبوه وعصوه وآذوه ولم يؤمن به إلا القليل.

قال الله تعالى: «فأتبعنا بعضهم بعضاً في الهلاك»، وفي سورة أخرى يقول عز وجل: **﴿فكلا اَخذنا بذنبه فمنهم من اَرسلنا عليه حاصبا ومنهم من اَخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الاَرض ومنهم من اَغرقنا﴾** ـ العنكبوت ٤٠ ـ.

ومن الأمم من لم يقص الله خبرهم وفيما قص علينا كفاية للمعتبرين فأين قوم نوح وأين عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وموتفكات، وأين

صناديد قريش العتاة وأين الملوك الجورة من بعدهم، وأين قواتهم وجنودهم وعتادهم وأموالهم، هلوكوا ولم تبق إلا أحاديثهم تروى وتقص من بعدهم.

قال الله تعالى: ﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ - أي تبع بعضهم بعضاً في الهلاك ولم ينتصر أحد منهم وأنى لهم وقد فنوا وصاروا في عذاب الله وبئس المصير.

قال الله تعالى: ﴿وجعلناهم أحاديث﴾، والأحاديث جمع أحدوثة وهي الحكاية تحكى أي جعلهم الله أخباراً تروى وحكايات تحكى، والناس مولعون بحكاية الأحاديث لا سيما أخبار الأمم السالفة وأسباب هلاكهم بعد تمكنهم في الأرض وعمارتها، بعد حشد القوات والجنود وبناء القصور وتشييدها كل ذلك بقي أثراً بعد عين وكثير منها لم يبق عين ولا أثر إنما بقيت الأحاديث والأخبار.

﴿فبعدا لقوم لا يومنون﴾ - وهي كلمة تدل على سخط الله على هؤلاء وإبعادهم من رحمته، وقد عقب بها هنا على هلاك القرون المتتالية التي كفرت بأنبياء الله ورسله كما عقب بها في هلاك القرن الذين أهلكهم بالصيحة، وقال هناك ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾، والذين لا يؤمنون هم الكافرون والكافرون هم الظالمون، وتعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الإشتقاق فقد كان ظلمهم وعدم إيمانهم برسل الله سبباً لهلاكهم فبعداً وسحقاً للقوم الظالمين المكذبين من كل قرن وفي كل زمان، وسنة الله فيهم لن تتبدل ولن تتحول ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وفي هذا إنذار للمكذبين من قوم نبيئنا محمد ﷺ وإقامة للحجة عليهم وعلى أمثالهم حتى تقوم الساعة وفي مثل هذا المعنى نزل قوله تعالى:

﴿ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾ ـ طه ١٣٤ ـ

ثُمَّ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ
لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ
ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رُبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم
بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

تقدمت قصة موسى قريباً في سورة «طه» مبسوطة مفصلة وطويت هنا طياً لتناسب نسق الاختصار والإيجاز لأخبار السابقين في هذه السورة، وذكر اسم موسى وهارون دون تسمية سائر الأنبياء بعد نوح عليهم السلام لأن شريعة التوراة أقرب إلى شريعة القرآن، ولوجود بني اسرائيل في البلاد

التي هي مهاجر النبي محمد ﷺ وما بسط القرآن في أمة مثل ما بسط في بني اسرائيل، واسرائيل هذا هو ابن اسحق الذي هو أخو اسماعيل جد قريش قوم النبي ﷺ وهو منهم فبينهم وبين بني اسرائيل قرابة نسب .

قال الله تعالى: ﴿**ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملإيه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين فقالوا أنومن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين**﴾ - ثم أرسل الله من بعد تلك القرون الأولى موسى وأخاه هارون بآياته البينات وسلطان مبين بمعجزاته الباهرة من العصا واليد في تسع آيات بينات إلى فرعون ملك مصر وملإه، أي وزرائه وبطانته ورؤوس قبائل القبط الذين يشدون أزره وينفذون أمره، فماذا كان جواب هؤلاء لرسل الله وماذا كان موقفهم من آياته البينات وسلطانه المبين؟ استكبروا وكفروا وجحدوا بآيات الله ظلماً وعلوا وأنكروا أن يؤمنوا لرجل استضعفوا قومه واستعبدوهم.

﴿**فقالوا أنومن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون**﴾ - قالوا كيف نؤمن لبشرين مثلنا، وهي شبهة الكافرين من قبلهم وما هي بشبهة لو عقلوا، بل هي رحمة من الله لهم أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم يعرفون نسبه وأخلاقه وصدقه وأمانته ويؤيده الله بالمعجزات. وتعاظموا أن يؤمنوا الرجلين من قوم قد استعبدوهم وسخروهم لقد حجبهم الكبر والعلو عن نور الحق فلم يبصروه واستحبوا العمى عن الهدى .

﴿**فكذبوهما فكانوا من المهلكين**﴾ - فكذبوا موسى وهارون فكانت عاقبة تكذيبهم لهما إهلاك الله لهم غرقاً في اليم، وهكذا طوى الله أخبار فرعون وقومه وتكذيبهم وهلاكهم في بضع كلمات لها مدلولها وتكفي عبرة للمعتبرين، وللإيجاز في القرآن سلطانه كما للإطناب سحره وبيانه

والقرآن يفسر بعضه بعضاً، أهلك الله فرعون وقومه الأقباط ونجى بني اسرائيل من العذاب الأليم، وبعد نجاتهم أنزل الله عليهم التوراة فيها هدى ونور .

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ ـ أنزل الله كتاب التوراة على موسى في الألواح، وكتب لهم فيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء لعل قومه بني إسرائيل يهتدون بها إن هم أقاموها عملاً بها وحكماً بما فيها فهي هدى ورحمة من الله لهم، كما أن القرآن هدى ورحمة لنا معشر المؤمنين من أمة محمد عليه وعلى الرسل من قبله الصلاة والسلام بعد موسى وهارون، ومن بعدهما أرسل الله عيسى بن مريم عليهما السلام وأنزل عليه الإنجيل يقرؤه على بني إسرائيل ويحكم بينهم بما أنزل الله فيه وفي التوراة، ويقيم فيهم التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ ـ جعل الله ميلاد عيسى من غير أب آية، كما كان حمل مريم من غير زوج آية على قدرة الله على كل شيء، ثم نطق عيسى في المهد صبياً معجزة من الله.

يقول الله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمة آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ ـ أي جعلناهما آية للناس وحفظناهما من كيد الكائدين من بني إسرائيل وآويناهما إلى ربوة، والربوة المكان المرتفع من الأرض قيل هي دمشق وقيل هي مصر وقيل غيرها، ودمشق ربوة للقادم من فلسطين وفيها قرار طيب لساكنيها وفيها معين وهو نهر بردى نهر ماؤه عذب نظيف، ولقد لطف بعبده عيسى وأمه مريم وهيأ لهما منزلاً طيباً ذا قرار ومعين بعيد عن أيدي الأعداء وتلك عناية الله بأوليائه الأخيار ونعَم الله على عباده لا تحصى ويزيد الشاكرين ويجزيهم على شكرهم أجراً عظيماً.

﴿**يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ ـ هذا النداء من الله جل جلاله لجميع رسله من لدن سيدنا نوح شيخ المرسلين، من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى خاتم النبيئين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ أجمعين هذا النداء فيه التصريح بوحدة هذا الدين الذي هو الإسلام، ووحدة أمهات الأخلاق والشرائع، وإن اختلفت بعض الجزئيات ما بين شريعة وأخرى كتحريم بعض أشياء في شريعة دون أخرى، وكاختلاف يسير في هيئة أداء بعض الفرائض كالصلاة والزكاة مثلاً، والنداء يشمل الرسل جميعاً فكأنهم وقد اجتمعوا في زمان واحد وعلى صعيد واحد يتلقون نداء ربهم وقد ذابت فوارق الزمان والمكان، فما أروعه من نداء يحمل في طياته سراً من بديع إعجاز القرآن وحلاوته وفي هذا النداء يتوجه إلى الرسل من ربهم أمران عظيمان:

﴿**كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً**﴾ وقدم الأمر بالأكل من الطيبات وهو الحلال من الرزق والنافع، لبيان أن الأكل من الطيبات سبب في تهيئة الإنسان وهدايته للعمل الصالح، وهو نفسه عمل صالح للدلالة والتوضيح أن جميع رسل الله إلى الناس بشر مثلهم يأكلون مما يأكلون ويشربون مما يشربون إلا أنهم لا يأكلون ولا يشربون الخبائث، بل يطعمون الحلال من المآكل والمشارب ولا غضاضة في هذا وليس في الأمر عجب.

﴿**أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس**﴾ـ يونس٢ـ ..الآية ـ ذلك ما عجب منه الكفار واتخذوه ذريعة إلى تكذيب الرسل وفتنة الناس، فجاء هذا النداء الكريم بتقديم الأمر بالأكل من الطيبات على سائر أنواع العبادات ليقرر الله تعالى في أذهان وقلوب المنصفين من عباده أن الرسل من جملة البشر ليسوا ملائكة ولا جنساً آخر

ولا يصلح للبشر إلا رجال يبلغونهم رسالات ربهم، بلغات يفهمونها ويشاركونهم في جميع الصفات الجبلية البشرية فهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق لقضاء حوائجهم ويتزوجون النساء ويلدون ويمرضون ويموتون ويمسهم من الضعف والشيخوخة ما يمس سائر الناس ذلك ما يريد الله أن يقرره في هذا الأمر الذي يوجهه إلى رسله، يأمرهم أن يأكلوا من الطيبات والطيبات هي المآكل والمشارب اللذيذة النافعة التي تحتاجها الأجسام لتغذيتها وتقويتها على عبادة ربها، لأن أجسامنا خلقت من طين فهي مادة فلابد للمادة من مواد مثلها خلقت من الأرض لتغذيتها وتقويتها .

﴿**كلوا من الطيبات**﴾ أمر من الله لرسله بالأكل من الطيبات وكذلك أمر المؤمنين جميعاً. ﴿**يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون**﴾ـ البقرة ١٧٢ ـ فالأمر واحد وهو عزيمة من الله لرسله والذين آمنوا بهم ألا يأكلوا إلا طيباً حلالاً، وأن يبتعدوا عن الحرام لأن الحرام زقوم وأيما لحم غذي بسحت فالنار أولى به، والقليل من أموال الناس يورث النار، فإذا أكل الإنسان الطيبات كان طيباً وتلقى الأمر الثاني وهو العمل الصالح والقيام بشكر نعم الله فما أروع هذا الترتيب في هذا النداء .

﴿**كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً**﴾ ـ والعمل هو القيام بتكاليف العبادة التي شرعها الله تعالى لعباده من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإصلاح بين الناس وفعل الخير وصلة الرحم وإكرام اليتيم وإطعام المسكين، وغير ذلك من الأفعال الحسنة والتخلق بالأخلاق التي جاءت بها شرائع الله وكانت أنبياؤه ورسله أسوة للناس فيها ذلك هو العمل الصالح، ويدخل في العمل الصالح الإبتعاد عن الفواحش والمنكرات والموبقات واعتزال المظالم والبغي وقد بسطت خصال الأعمال

الصالحة في موضع من القرآن وباستقرائها تكتمل شعب الإيمان، وهي التي تقرب العبد إلى الله حتى يحبه فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها كما جاء ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ.

﴿**إن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ ـ التوبة ١٢٠ ـ بعد هذين الأمرين يأتي قوله تعالى: ﴿**إني بما تعملون عليم**﴾ وهو تذييل مناسب لهذا النداء للرسل ويراد به الرسل وأممهم، يخبرنا ربنا أنه بما نعمل عليم حتى نتقيه ونتقي الظلم والمخالفات ونستقيم عند من لا تخفى عنه خافية وحتى نكثر من الأعمال الصالحة، ولا نحتقر عملاً صالحاً مهما كان ضئيلاً فإن الله يعلمه ويكتبه في حسناتنا فمعرفتنا بعلم الله المحيط بأعمالنا تكون سبباً لاستقامتنا فنتقي الذنوب ونذر ظاهر الإثم وباطنه، ونتحرى الأعمال الصالحة ونستكثر منها ونخلص عبادتنا للذي لا تخفى عنه النوايا وهو عليم بذات الصدور.

﴿**وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ ـ ويؤكد الله تبارك وتعالى للرسل أن أمتهم أمة واحدة، قال كثير من المفسرين أن الأمة هنا بمعنى الملة أي وأن هذه ملتكم ملة واحدة.

ومنه قوله تعالى: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ ـ الزخرف ٢٣ ـ قالها الكفار لرسلهم متعصبين لملة آبائهم ولو كانوا على غير هدى، والذي أراه ويراه بعض المفسرين أنه لا مانع أن يكون معنى اللفظة على ظاهره ويراد به الأمة وهو إتباع الرسل فهم على الحقيقة أمة واحدة دينهم واحد وإلاههم واحد، وإيمانهم برسل الله جميعاً واحد لا يفرقون بين أحد من رسله فلماذا لا يكونون أمة واحدة وإن تناءت بهم الأوطان وتباعدت الأزمان، فلتذب هذه الفوارق كما ذابت من قبل في

خطاب الرسل بخطاب واحد وهذا من الروعة بمكان وهو دعوة من الله لأهل التوحيد عامة أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا.

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ـ الأنعام ١٥٩ ـ ثم قال تعالى: ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ ـ يقرر الله تعالى في هاتين الكلمتين أصل التوحيد وهو أن الذي يُتقى ويُعبد وحده هو الرب الذي خلق ورزق والذي يحيي ويميت والذي بيده الأمر وهو على كل شيء قدير وهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم هو أهل التقوى وأهل المغفرة، يقول الله تعالى لرسله ولأمتهم بالتبع ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ وخافون ولا تعبدوا إلا إياي، والتقوى جماع كل خير فهي عنوان لجميع خصال الإيمان ما ظهر منها وما بطن وهي وصية الله لرسله وللأولين من المؤمنين والآخرين.

﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ ـ النساء ١٣١ ـ المعبود واحد والأمة واحدة والوصية واحدة فلا مبرر للإفتراق والإختلاف ولا محل للتنازع والعداوات، ودعوة الله أنبياءه إلى توحيد الأمة ظاهرة واضحة غير أن الشياطين اجتالتهم عن الطريق وفتنتهم بما تلقي إليهم من الشبه التي تخرجهم من صراط الله المستقيم إلى سبل الغواية التي تفرق بهم عن سبيله القويم وتفتنهم بالمعاصي والفجور والمآثم المفتحة الأبواب عن إيمانهم وشمائلهم عن النواس بن سمعان ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلاً» صراطاً مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال:

ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام والسوران

حـدود الله والأبواب المفتحـة محـارم الله وذلك الداعي على رأس الصـراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله من قلب كل مسلم.

هذا الحديث يـبين وحده الصراط واسـتقـامته والآية التي نحـن بصددها داعي الله للناس جـمـيـعا أولهم وآخـرهم إنسـهم وجنهم، فـالطريق واحـد والداعي واحـد والأمم قـوافل فـي الطريق ولكل قـافلة هاد من قـبل الله، وقافلتنا هذه آخـر القوافل وهادينا ورسولنا خـاتم الرسل صلوات الله عليهم أجمعين وما هو إلا واحد منهم .

﴿**قل مـا كـنت بدعـاً من الرسـل**﴾ـ الأحـقـاف ٩ـ وهنا أذكـر كلمة قـالها بعض المشايخ وردت في كتـاب السير. قال: مضى الأولون على خـيل عتاق وبقينا على حمر دبرة فقال الآخر: أخشى أن لا نكون على الطريق أما إن كنا على الطريق فـإننا سنلحق، وهو كلام جـميل جداً فـإننا إذا كنا على الطريق فسنلحق وإن قصرنا عن بلوغ شأو هؤلاء السابقين وقال بعضهم.

«وما منعهم من الوصول إلا تضيـيع الأصول» فأصل الأصول تقوى الله ولزوم الطريق ولو لزم الناس الـطريق ما اخـتلفوا، ولـكنهم بالأهواء فرقـوا دينهم وكانوا شيعا.

قال الله تعالى: ﴿**فـتـقـطّعـوا أمـرهـم بينـهـم كـل حـزب بمـا لديـهـم فـرحـون فـذرهـم فـي غـمـرتـهـم حـتى حين أيحـسـبـو ن أنما نمدهـم بـه من مـال وبـنين نسـارع لهم في الخيرات بل لا يشعـرون**﴾.

يبين الله تعـالى لنا في هذه الآية الكريمة مواقف الأمم مـن نداء الله وأمره هل اسـتـجـابوا لله وللرسل؟ هل اتـخـذوا الرسل أيمة وسلكـو الطريق من ورائهم؟ كلاًّ بل ضل أكـثرهم وزاغـوا ولـم يطع الرسل إلا القليل، قليل من اسـتجـاب واتبع الطـريق الذي أرشدهم الله إلـيه وضـمن لهم به سـعـادتهم

الأبدية، أما أكثرهم فحادوا عن الطريق واتبعوا سبل الشياطين فتفرقوا شيعا وأحزابا كل فريق يزعم أنه وحده المحق وغيره مبطل ضال.

﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

أي فانقسموا في أمرهم قطعا، واختار الله هذه العبارة لتدل على تقطيع الشيء الواحد وتمزيقه الى قطع كثيرة ﴿زبرا﴾ ـ هذه اللفظة تدل على معنين:

أولها الزبر بمعنى القطع ومنه ﴿زبَرَ الحديد﴾ ـ الكهف ٩٦ ـ في سورة الكهف وثانيهما الكتب والزبور هو الكتاب ومنه.

﴿ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذكر أن الاَرض يرثها عبادي الصالحون﴾ ـ الأنبياء ١٠٥ ـ وقوله تعالى: **﴿فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر﴾** ـ النحل ٤٣ ـ ٤٤ أي والكتب ولعل هذا المعنى الأخير هو الأرجح لافادته معنى جديدا فوق التفرق، والتأسيس خير من التأكيد كما يقولون.

أي فتقطعوا أمرهم بينهم كتبا كل فريق يكتب كتابا يرجع إليه ويكتبون كتبا يسمونها المواثيق والدساتير والقوانين وهي من وضع البشر يقدسونها ويرجعون إليها، وأكثر ما فيها مخالف لشرائع الله مباين لأصول الدين أئمتهم الملاحدة والفلاسفة يثقون في فلسفاتهم أكثر من ثقتهم في كتاب الله **﴿فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾** ـ غافر ٨٣ ـ

وهنا يقول الله تعالى:

﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ ـ تفرقوا إلى شيع وأحزاب كل حزب معجب بما لديه فرح به متعصب له يرى أن الحق معه ومع أسلافه، والباطل عند غيره، وتجاهل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وكل تلك

الأحزاب هالك ما عدا واحدا وهو حزب الله المستمسك بحبل الله المؤمن المتبع لما جاءت به رسل الله.

﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ـ هود ١١٨ ـ ١١٩ ولسليَ الله نبيّه ويحدد له موقفه من هؤلاء بعد أداء واجب التبليغ خاطبه بقوله:

﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ـ الخطاب للنبي ﷺ ويدخل فيه بالتبع جميع المصلحين والدعاة والمبلغين بعده، والغمرة هي الشيء الذي يغمر الإنسان ويغطيه من جميع جهاته ويقال للماء الكثير المتجمع في بحر أو بركة أو حوض ماء غمر، لأنه يغمر الداخل فيه وغمرتهم هي ظلمات الشرك والجهل والتقليد الأعمى والعصبية الموروثة أي ذرهم في ضلالهم يعمهون بعد أن بلغت لهم.

﴿فذكر إنما أنت مذكر لسْت عليهم بمسيْطر﴾ـ الغاشية ٢١ ـ ٢٢ أتركهم في غمرتهم فإن لهم أجلا لا يعدونه: ﴿لكل أجلٍ كتاب﴾ـ الرعد ٣٨ ـ وفي هذا تهديد لهم شديد لو كانوا يعقلون، وفيه تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين معه بأن الله غير غافل عما يعمل الظالمون، وإذا أملى لهم فإنهم لا يعجزونه إنما يؤخرهم لأجلٍ مسمى إذا جاء ذلك الأجل فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾.

في الآية تهديد وتوبيخ لهؤلاء المنعمين المترفين الذين طغوا بخمرة الدنيا ونسوا أن يشكروا نعمة ربهم، بل عصوا رسل ربهم واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

يوبخهم الله ويـخطئهم في زعمـهم، وحسـبانهم بهذه الكلمـات لعلهم يرجعون إلى الصواب قبل فوات الأوان.

يقـول الله تعالى: «أيحـسب هؤلاء الضـالون المكذبون أن الذي يعطيـهم الله من الأموال والبنين إنما يسارع لهم في الخيرات محبة وإكراما لهم»؟

نعم إنهم يظنون ذلك: **﴿فأمّا الإِنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمني﴾** ـ الفجر ١٥ ـ

ويزعمون أنهم لو بعثوا يوم القيامة على فرض ذلك لاستبعادهم البعث يزعم أحدهم أنه لو بعث بعد الموت لتكونن له عند الله الحسنى.

﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ ـ فصلت ٥٠ ـ ذلك هو ظنهم الخاطئ أرداهم فأصبحوا خاسرين يقول الله تعالى في تفنيد زعم هؤلاء الضالين:

﴿بل لا يشعرون﴾ ـ بل أعماهم جهلهم وكفـرهم وحبهم للدنيا فهم لا يشعـرون أنهم مسـتدرج بهم من حيث لا يعلمـون، ممكور بهم وهم لا يشعرون، تلك حالـة هؤلاء الكفار يتمادون في كفرهم ومعـاصيهم ويظنون أن الله راض عنهم بما يفيض عليهم من نعم الدنـيا، وهم لا يشعرون أن ذلك مـا هو إلا مكر من الله واستـدراج لهم، بينمـا يصور لنا حـالة هؤلاء المدعين المغـرورين يثـني الله بذكـر عبـاده المؤمنين الذين يسـارعـون في الخـيرات ويشكرون النعم وهم وجلـون من ربهم مشـفقـون من عـذابه غيـر آمنين من مكره، أولئك الذين يستـحقون المدح والثناء ولهم يوم القيامـة حسن الجزاء، وبذكر حـالة هؤلاء الصالحين يتمـيز الفرق بين فريق وفـريق وبضدها تتمـيز الأشياء، ويقول الله تبارك وتعالى:

إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾
وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

في هذه الآيات العظيمة يجلوا الله لنا أوصاف أوليائه المؤمنين الذين هم على صراط مستقيم حتى يتبين البون البعيد بين طائفة وطائفة وهذا على طريقة القرآن الذي هو كما قال الله في وصفه.

﴿**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى**﴾ - الزمر ٢٣ - وما أبعد الفرق ما بين الفريقين، فريق يعصي ويكفر ويغتر ويأمن مكر الله ويظن أن الله مكرمه وراض عنه، وفريق يعبد الله ولا يشرك به شيئا ويطيعه ويسارع في الخيرات، ويشفق ويوجل قلبه من الله كلما تذكر أنه راجع إليه وواقف بين يديه يوم القيامة. ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون**﴾.

الوصف الأول لهؤلاء الصادقين في ايمانهم هو الخشية البالغة حد الاشفاق، وللخشية معنى فوق الخوف لأن الخوف هو توقع القلب وحذره من أمر مكروه مخوف، أما الخشية فهي الخوف الذي يخالطه المهابة والاجلال، فأنت تقول: أخاف الاسد ولا تقول أخشاه فهم يخافون ربهم ويخشونه، أي يخافون سخطه وعقابه ويجلونه ويهابونه ويحبونه لأنه ربهم

الذي خلقهم ورباهم وأنعم عليهم، كيف لا يخشونه وهو ربهم وهم عباده والاشفاق خوف فيه رقة تدرك القلب فيخشع ويلين، وليس كل من يخاف يشفق بل هناك كثيرون يخافون ولا يحجزهم خوفهم عن المعاصي، ولا يحملهم على الطاعات لأنهم لا يشفقون فالخشية التي فيها اشفاق القلب هي التي تحمل الجسد على الاستقامة وبها صلاح القلب وبصلاح القلب يصلح الجسد كله وكان من دعاء النبي ﷺ.

«اللهم إني أسألك خشية تحجزنا بها عن معاصيك...الحديث»

دعا الله وسأله أن يرزقه الخشية التي تحجز عن المعاصي وهي هذا النوع الذي يخالطه إشفاق القلوب وخشوعها نسأل الله مثل ذلك.

﴿والذين هم بآيات ربهم يومنون﴾ـ الوصف الثاني لهؤلاء الأولياء الاتقياء هو الإيمان الصادق، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، فهم ينظرون إلى آيات الله في الأكوان نظر تأمل واعتبار، ولا يعرضون عنها اعراض الغافلين، وهم يستمعون إلى آيات الله في القرآن سماع تدبر وتفكر كلما تليت عليهم أو تلوها فيزدادون بها إيمانا ولا يخرون عليها صما وعميانا.

لهم قلوب يفقهون بها ولهم أعين يبصرون بها ولهم آذان يسمعون بها، فهم يسمعون آيات الله تتلى عليهم ويفقهونها فيقوى إيمانهم ويثمر العمل الصالح، ويبصرون آيات الله المجلوة في الأرض والسماء وفي أنفسهم فتزيدهم ايمانا ويتواضعون لعظمة الله الذي بيده ملكوت كل شيء ويهابونه فيخافونه ويرجون رحمته ويتقون سخطه وذلك هو الإيمان الصادق الذي إذا خالط قلبا نشطت أعضاء الجسد في عبادة الله.

﴿أولئك هم المومنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾- الأنفال ٤ - ثم يأتي الوصف الثالث: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾. من أوصاف هؤلاء المؤمنين الصادقين أنهم لا يشركون بربهم شيئا انهم آمنوا بربهم ووحدوه في ايمانهم وفي عبادتهم، وإن كثيرا من الناس يوحدون الله في ربوبيته ولا يوحدونه في الوهيته فتراهم يشركون بعبادة ربهم آلهة يخافونهم ويرجونهم ويدعونهم ويقولون.

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾- الزمر ٣ - أما الربوبية فيعترفون بها لله وحده ولا يمارون فيها.

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولون الله﴾- لقمان ٢٥ - الزمر ٣٨ يوحدونه في ربوبيته ولكنهم يؤلهون معه غيره وهذا ظلم عظيم وصدق الله العظيم.

﴿وما يومن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾- يوسف ١٠٦ - إن عباد الله المخلصين لا يشركون بربهم لانهم يعلمون أنه لا إلاه إلا هو الحي القيوم وأن كل من سواه عبدٌ له لا يملك من الأمر شيئا.

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾- البقرة ٢١٥ - وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ :

«إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله...الحديث.

ذلك هو الإيمان الذي لا يخالطه شرك، وقد أمرنا الله أن نعبده ولا نشرك به شيئا ثم يأتي الوصف الرابع في تحديد معنى الاخلاص في العبادة.

﴿والذين يوتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾.

والذين يعطون من أنفسهم ومن قلوبهم ومن أموالهم حق العبادة لله وقلوبهم وجلة، أي خائفة يوم يقومون فيه بين يدي الله فيحاسبون على نواياهم في أعمالهم يخافون ألا تكون هذه الأعمال التي قدموها خالصة لله فترد عليهم، وللوجل معنى أبلغ من الخوف لا سيما وقد جاء في صيغة الصفة المشبهة فهو خوف شديد ملازم لهم أقض مضاجعهم فهم الذين قال الله فيهم.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾ـ السجدة ١٦ ـ ورد في الأثر أن عائشة سألت رسول الله ﷺ :

«فيما نزلت الآية أفي الرجل يصلي ويصوم ويتصدق أم في الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر؟

فأجابها رسول الله ﷺ لا يا ابنة الصديق بل نزلت في الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه.

نعم يصلون ويصومون ويتصدقون ويفعلون أفعال الخير وقلوبهم وجلة يخافون أن تكون أعمالهم هذه غير خالصة لله، لأن من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق، وكان من دعاء النبي ﷺ :«اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك فيما أعلم واستغفرك فيما لا أعلم».

كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من شرك يخالط العمل وهو يعلم ويستغفره من شرك يخالطه وهو لا يعلم ذلك لخطورة الشرك على العمل.

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ - النساء ٤٨ - ١١٦ -

قليل من الشرك يحبط العمل ويجعله هباء منثورا. **﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾**.

ويصف الله تبارك وتعالى هؤلاء الذين يتقون الشرك ويخافونه على أعمالهم بالحرص في استكثار الحسنات.

﴿أولائك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ - أولائك الذين يسارعون في فعل الخيرات ونيل الخيرات وهم لها سابقون، هم وسط الخيرات ويسعون الى الاستزادة منها وهم سباقون لكل خير، حريصون في نيل الخير فكأنهم خلقوا لخير والخير مخلوق لهم فطوبى لهم كلما لاح لهم باب من الخير وثبوا إليه سراعا لإيمانهم بربهم الذي يجزي على الإحسان إحسانا ولا يضيع أجر من أحسن عملا، ويجتهدون في تخليص نواياهم من شوائب الرياء وإرادة غير الله، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار وتنكشف الاسرار، يخافون ألا يقبل منهم وليطمئن الله قلوب عباده الأبرار ويكفكف من وجلهم ويهدئ من قلوبهم المؤمنة خاطبهم بقوله تعالى:

﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يُظلمون﴾ - يقول الله تبارك وتعالى:

«ولا نكلف نفسا إلا وسعها وطاقتها فاعملوا واخلصوا واجتهدوا في فعل الخير واعتصموا بي واتقون أقبل منكم».

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ - ويقول تبارك وتعالى:

﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يُظلمون﴾ - إن كتاب الله ينطق أن

الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء، والسيئة بمثلها وهم لا يظلمون، لا ينتقص من حسناتهم ولا يزاد في سيئاتهم بل يمن الله بالرحمة ويزيد المحسنين من فضله ولا يظلم بالعذاب.

﴿فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ ـ القصص ٨٤ ـ

وهذه الآية التي نحن بصددها فيها تطمين لقلوب المؤمنين وتبشير لهم وترغيب في الاستزادة من فعل الخيرات، وفيها تهديد للفجار وتحذير لهم من الفجور، فإن كتاب الله ينطق عليهم بالحق ويحصي عليهم أعمالهم وسيأتي اليوم الذي يقولون فيه.

﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ ـ الكهف ٤٩ ـ

يتعجبون من دقة الاحصاء ويلاقون عدالة الجزاء ولا يشتكون الظلم لأن الله حرم على نفسه الظلم. ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ ـ ويقول الله تعالى:

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ ـ يونس ٤٤ ـ

ولا أحد أحب إليه العذر من الله:

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن
دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ
إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ
كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم

مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ
لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَٰتُ
وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ
الرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ عَنِ الصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾
وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا
لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا
عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

عود على بدء فالاسلوب القرآني البديع المثاني يناظر بين الفريق الذي هو كالنهار إذا تجلى، والفريق الذي هو كالليل إذا يغشى حتى يظهر الفرق جليا بين هؤلاء وهؤلاء.

﴿مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون﴾ - هود ٢٤ - وهنا يعود إلى ذكر حال أهل الضلال الذين طمست بصائرهم وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ولا يسمعون الحق فهم معرضون. **﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها**

عاملون﴾. بل قلوب هؤلاء العمي والصم في غمرة من هذا الذي تدعوهم إليه، فهم في غمرات من الجهل والضلال والتقليد الأعمى لآبائهم تغمرهم فلا يظهر لهم نور الحق ولا يبصرونه، وكل الذي تذكره لهم وتتلوه عليهم من أنوار التنزيل هم في غفلة منه وعمى عنه، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وفيها لاهون وأعمالهم المعاصي والفجور والظلم وجمع الدنيا وحطامها هي التي شغلتهم وملأت عليهم ليلهم ونهارهم فهم لا يفكرون إلا فيها ولا يلهثون إلا عليها ولا ينصرفون إلا إليها، ذلك لأنها همهم الوحيد فهم لا يرجون لقاء الله وقد رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وهم عن آيات الله غافلون، فلا تعجب إذا لم يسمعوا داعي الله ولم يبصروا نور الحق ولا تذهب نفسك عليهم حسرات إن عليك إلا البلاغ، بهذا يسلي الله نبيّه حين يدعوهم فلا يستجيبون له ويكشف له عن صفاتهم اللازمة، وهذا الصنف من الناس موجود في كل زمان وهم حرب على الدعاة المصلحين وما الله بغافل عما يعملون وما هم بمعجزين، إن ربك لبالمرصاد وقد يأخذهم بالعذاب ولكل أجل كتاب.

﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ـ يقول الله تبارك إنهم يستمرون كذلك ويتمادون في غفلتهم وإصرارهم على الكفر والمعاصي والظلم ويظنون أن الله غافل عما يعملون.

إنهم لكذلك إذا بعذاب الله يصبحهم أو يمسيهم فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، يأخذ المترفين منهم الذين أسرفوا على أنفسهم باتباع شهواتهم ويذكر الله هنا صفة الترف ليبين لنا أن الترف هو الذي كان السبب في إعراضهم عن الحق واتباعهم الهوى، ثم كان السبب في أخذ الله إياهم فنزل عليهم العذاب فما استطاعوا له دفعا، ولم يملكوا حيلة في صرفه إلا الصراخ فهم

يجأرون، والجؤار هو الصراخ الشديد يصرخ الجائر حتى يتغير صوته من شدته، إن المؤمنين عندما ينزل عليهم البلاء يلطف الله بهم في نزوله فيتلقونه برضى وقلوب مطمئنة، ويتضرعون إلى ربهم بالدعاء فيرحمهم، أما هؤلاء المترفون فينزل عليهم العذاب بعنف وشدة فيجأرون ويسخطون القدر ويعلمون حينئذ أنهم أصيبوا بكفرهم وذنوبهم فيركضون ويجأرون ولا يخفف عنهم العذاب، فلا يزالون كذلك حتى يجعلهم الله حصيدا خامدين وأنواع العذاب التي تأخذهم كثيرة.

فتارة تكون بالخسف وتارة بالقذف وتارة بالغرق، وأحيانا بالفتن يذيق الله بعضهم بأس بعض وما يعلم جنود ربك إلا هو فيهلكون ولا تبقى إلا آثارهم عبرة للمعتبرين.

﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾ - القصص ٥٨ -

أما المؤمنون فيتضرعون عند نزول البلاء فيرحمهم الله، وأما الكافرون الطاغون فيكون جوابهم. **﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾**.

لا تجأروا ولا ينفعكم الجؤار شيئا ولا تستحقون الرحمة إنكم من الله لا تنصرون ومن غيره ينصركم.

مالكم من دون الله من ولي ولا نصير، أتجأرون إلى ربكم وقد كنتم تكفرون وتكذبون بلقائه وتؤذون رسله وتعرضون عن آياته.

﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون﴾. لا يزال الخطاب القاسي من الله موجها لهؤلاء المستكبرين الذين يجأرون حين ينزل عليهم عذاب الله بغتة ويندمون ولات

مندم، وقد فرطوا وأنكروا آيات الله وأعرضوا عن ذكره يقول الله لهم.

﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ وكان يمكنم أن تهتدوا بها وتسعدوا ولكنكم كنتم تنكصون على أعقابكم حين تتلى عليكم، وتدعون إلى الإيمان، والنكوص على الأعقاب هو الرجوع بشدة إلى الوراء، كالذي يفجؤه الخطر من أمامه فيولي القهقرى، كذلك كانوا يفعلون عند سماع آيات الله لشدة كراهيتهم لها وفزعهم منها فهم ينفرون منها ويفرون.

﴿كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة﴾ـ المدثر ٥٠ ـ ٥١ يولون مستكبرين قد أعمى قلوبهم الكبر، فهم لا يبصرون وكذلك يفعل المترفون في كل زمان يتعالون عن آيات الله ومجالس الذكر وأهل الذكر وعن المساجد ويرون أنفسهم أشرف وأعز من مجالسة هؤلاء ومن غشيان المساجد، وأن المساجد يعمرها الفقراء والضعفاء والأميون ويرى الأمراء والملوك أن المساجد إنما هي للرعية، وهم أعز من أن يخالطوا الرعية ويقفوا معهم في صفوفهم أو يجلسوا معهم في مجالسهم أو يخاطبوا معهم بخطاب واحد، وكذلك شأن المتكبرين وعندما يسمرون، بالليل يهجرون القول في أهل القرآن والمساجد، كان هذا قديما في المستكبرين من أقوام أنبياء الله والمعرضين عن كتبه المنزلة، وحديثا في هذه الأمة ينفخ الشيطان في قلوبهم ورؤوسهم فيكفرون ويستهزؤن ويصور الله لنا مجالسهم بالليل حين يسمرون وهم يتفكهون بشتم أهل الصلاح، ويفحشون القول فيهم، ويسخرون بعقولهم، يصور الله لنا كل ذلك في خطاب منه إليهم في حالة استغاثتهم وقد أحاط بهم الهلاك، وذلك تبكيتا لهم وتوبيخا، لأنهم لا يستحقون الرحمة وليسوا أهلا لها بعد أن أعرضوا وطغوا وتكبروا، وكانوا من الساخرين، ثم يتعجب الله من حال هؤلاء الذين جعل الله لهم عقولا

وأسماعا وأبصارا فلم ينتفعوا بها، ولو شاءوا لاهتدوا بها فيقول مستنكرا لضلالهم متعجبا من أعراضهم:

﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يات آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جِنّةٌ﴾.

ما لهؤلاء؟ أعموا فلم يدبروا القول الذي خاطبتهم به رسل الله من عند الله، وهو قول واضح مفهوم معقول فيه الدعوة إلى ما فيه نجاتهم وفوزهم وفلاحهم، وفيه التيسير في التكليف وليس فيه مشقة ولا شطط، وفيه الدعوة إلى محاسن الأخلاق، وليس فيه ما ينكر وهو الحق من عند الله، تعرفه القلوب السليمة، ولكن قلوبهم طمستها الشهوات وأعمتها الأهواء فهم لا يسمعون ولا يعقلون ولا يتدبرون ويقول الله:

﴿أم جاءهم مالم يات آباءهم الأولين﴾- أم أعماهم التقليد الأعمى وقد جاءهم ما لم يجدوا عليه آباءهم وكذلك صنع آباؤهم الأولون مع رسل الله لما جاؤوهم بآيات الله البينات ويقول المستأخرون منهم إفكاً وزوراً.

﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾- المومنون ٢٤ - وليس في التقليد عذر لهم ولا حجة، بل يجب عليهم النظر بعقولهم وتدبر القول الذي يلقى إليهم لوكانوا يفقهون .

أما آباؤهم الأولون فحسابهم على الله وليسوا مسؤولين عنهم، وكذلك المقلدون هم حرب على الدعاة المصلحين في كل زمان ولو تحرروا من أمر التقليد لفهموا الحق واتبعوا نوره ثم يذكر الله تعالى الإستفهام الثالث التعجبي.

﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾-

يقـول: أم أنكروا رسـولهم ولم يعـرفـوه، هل أنـكروا هذا الرجل الذي جاءهم برسالة الله.

هل أنكروا شخصه هل أنكروا نسبـه وعشيرته، ماذا أنكروا منه ألم يكن هذا الرجل من أوسطهم نسبا وأرفعهم شرفا وأشرفهم بيتا، أليس هذا الرجل بأحسنهم أدبا وأكملهم خلقا، وهم قد اتفقوا كلهم على تحكيمه يوم خلافهم وتسمـيته بالأمين، أليس نسـبه جليا كالشـمس من بني هاشم وبنو هاشم من قريش، وهم صـفوة العـرب، سدنة بيت الله الحرام وعـمار حـرمه، أليس هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد البطحاء.؟

مـاذا أنكروا منه ومن نسبـه الواضح النـظيف، لو جـاءتهم الرسـالة مع رجل مـجـهول أو عـابر سـبـيل لكان لهم بعض العـذر في إنكاره، ولكنهـا جاءتهم في رجل عظيم نبيل هو في ذؤابة الشرف والمجد من بيوتهم وكذلك يصطفي الله الرسل من بين أقوامهم.

﴿الله يصطفي من الملائكة رسـلاً ومن الناس﴾ـ الحج ٧٥ ـ إنهم يعرفونه ويعـرفون نسـب آبائه وأمهـاته، ولا ينكرون شـيئا من ذلـك ولكنهم ينكرون دعوته والرسالة التي جاءهم بها لأنها لا توافق أهواءهم فهم يرمونه بالجنون.

﴿أم يقـولون به جِنّةٌ﴾ـ يقـولون أصابه جـنون، عجـبـاً لهؤلاء كـيف يرمـونه بالجنون، وهو يدعـوهم إلى تـوحيـد خـالقـهم ورازقـهم بالعـبـادة، ويدعوهم إلى مكارم الأخـلاق ونبذ الظلم والشرك والبغي وقطيـعة الرحم، ماذا ينـكرون في هذه الدعوة، إنهـا دعوة توافق العـقول السليـمة، إنهـا رسالة عظيمـة نزلت عليهم في كلام بليغ يعلو كل كـلام ويعجز كل مـتكلم وكاتب فكيف يصـدر هذا عن مجنون، إنه لم يأتـهم بما تنكره العقـول بل أتاهم بالحق وهو الذي تنكره أهواؤهم. ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ـ

بل جاءهم صاحبهم بالحق، وهالهم أمر الحق، وأكثرهم كارهون للحق وما صاحبهم بمجنون، ولو عقلوا ما كرهوا الحق الذي فيه فلاحهم وسعادتهم، ولكنها الأهواء تجتوي مرارة الحق وتكرهه وتتجافى عنه وعن أصحابه، وهو خير لهم وأسلم عاقبة لو كانوا يعلمون، ولو لا صبر المريض على مرارة الدواء ومشقة المعالجة ما نال الشفاء.

يقول الله تبارك وتعالى:

إنهم لا ينكرون رسولهم ويعلمون أنه ليس بمجنون ولكنهم يكرهون الحق لا سيما الكبراء منهم، لأن هذا الأمر يجردهم من رداء الكبرياء والعظمة ويسويهم بعامة الناس الذين يسيطرون عليهم، إن الإسلام جاء لتحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتحريرهم من عادات الجاهلية وتحليتهم بمكارم الأخلاق، والقلوب السليمة تتفتح لهدايته وتهش لها لكن القلوب المطموسة بالمعاصي والشهوات تكرهه، لأنه يزعجها بما يحمل من آيات الوعيد والإنذار وهذا ينقص عليها لذتها فهي تحب أن تمرح في المعاصي، وتكره سماع أصوات الناصحين أهل الأمر والنهي.

﴿بل يريد الانسان ليفجر أمامه﴾ ـ القيامة ٥ ـ فهذه الآية تكشف عن طبع شيطاني في الإنسان يحول بينه وبين قبول الحق وسماع كلام الله ويقف عقبة كأداء بينه وبين هداية الله، فلنحذر هذا الطبع ولنطهر نفوسنا من هذا الداء ونعوذ بالله من كراهية الحق ومن أصيب به فليسع في وسائل العلاج فإنه ما من داء إلا وله دواء وفي القرآن الدواء.

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمومنين﴾ ـ يونس ٥٧ ـ

ونعوذ بالله من نغل القلوب وتسلط الأهواء عليها.

﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون**﴾ ـ يقول الله تبارك وتعالى بعد ذكر معارضة هؤلاء المتبعين للهوى وكراهيتهم للحق، يقول عز وجل:

﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم**﴾ ـ أي أهواء هؤلاء الناس.

﴿**لفسدت السموات والأرض ومن فيهن**﴾ ـ أي لفسد نظام هذا الكون العجيب واختل وضاع وهلك، إن الله خلق السموات والأرض ويسر الأفلاك السابحة في نظام دقيق يسير وفق إرادته منذ خلق الخلق، لا يختل لحظة ولا يتوقف وخلق من فيهن من الملائكة والإنس والجن وجميع المخلوقات كل على هيئته التي خلقه الله عليها لا تبديل لخلق الله، وقد أفنى العلماء أفكارهم وأبصارهم وجهودهم وأوقاتهم في استكناه أسرار هذا النظام العجيب الدقيق، فاطلعوا منه على أسرار وأسرار مما جعلهم يعتقدون ويصرحون أن خالق السموات والأرض ومن فيهن حيّ قيوم عالم حكيم قدير فعال لما يريد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وكل ما توصلوا إلى إدراكه يعد قليل من كثير، وما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأن الحق ما كان ليميل مع أهواء الناس، ولو اتبع أهواءهم لفسدت السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وفسد من في السموات ومن في الأرض من المخلوقات وجاء التعبير هنا. «بمن» التي للعقلاء تغليبا للعقلاء على غير العقلاء وفي كلا الجنسين نظام حكيم وتدبير للعزيز العليم، فيه آيات بينات تدل على عظمة الخالق المدبر الحكيم وليس للهوى دخل في تدبير العزيز العليم، فكيف يطمعون أن يتبع دين الله أهواءهم أو يميل تشريعه الحكيم مع الهوى، إن دين الله وتشريعه أعز وأعلى من أن يميل مع أهواء الإنس والجن، بل هو الذي يقوّم النفوس ويحررها من

إتباع الأهواء ويزكيها باتباع الحق الـذي نزل إليها من الله فلا صلاح للنفوس إلا بأن تدين دين الحق وتتبع شرع الله الحق.

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾- الإسراء ١٠٥ - إنه لا صلاح للأرض إلا بتحكيم شريعة الحق التي شرعها الله لـصلاح العباد والبلاد، ولو اتبعوها لعم الأمن واستـقرت أحوال الناس على العـافية والرخـاء واستقـامت لهم أمور دينهم ودنياهم وآخـرتهم وزال الفساد، ثم يعقب الله على هذه الآية العـظيمة بآية أخرى يحدثنا فيها عن قوم النبي ﷺ خاصة فيقول جل من قائل:

﴿بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾- يقول تعالى:

بل أتينا هـؤلاء القـوم المكذبين بكتـاب فـيـه ذكـرهم، إنه هـداية للناس جميعا وشرف وذكر لقريش خـاصة وللعرب عامة، فهم إن أعرضوا عنه إنما يعرضون عن ذكـرهم ومجدهم، ويعرضون عن الـذكر الذي يقربهم إلى الله ويبلغهم رضاه.

﴿فمالهم عن التذكرة معرضين﴾ - المدثر ٤٩ - فالقرآن سماه الله تعالى ذكرا وهـو الذكر الحكيم، الذي يحـيي الله به القلوب الميتـة، وهو أيضـا ذكر للعرب الذي نزل فـيهم وبلغتـهم وهو المعنى الظاهر في هذه الآية، ذلك لأن العـرب لم يكن لهم ذكر في العـالم قـبل مبـعث النبي ﷺ بل كانوا أمـيين يعيـشون في البـوادي وبعض القرى، لم تكن دولة مـنظمة ولا سلطان كـما كان لبعض الدول المعروفـة في التاريخ، كان العرب يعيشون في مجـتمعات قبلية، لكل قبـيلة رئيس قد يسمونه ملكا كما هي المحمـيات التسع اليوم في الخليج وهي عـشائر لهـا أمراؤها كـمـا كان الغـساسنة في مـشارق الشـام، والمناذرة في الحيـرة في مشارق العـراق، مضت قرون وقـرون وليس للعرب

في الأمم شأن يذكر في التاريخ وكانوا في جاهلية يسطو بعضهم على بعض وينهب القوي الضعيف على ما فيهم من خلال كريمة كالكرم والنجدة والشجاعة وحماية الجار والإبتعاد عن العار، ولكنها أخلاق تحتاج إلى تهذيب، فبعث فيهم النبيء محمد ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق ونزل عليهم القرآن فيه ذكرهم ومجدهم وشرفهم، فالعجب كل العجب أن يعرضوا عن كتاب فيه ذكرهم، وما دخلوا التاريخ إلا بنزول القرآن بلغتهم ومبعث محمد ﷺ فيهم فبالاسلام ارتفع ذكرهم وعلا صيتهم، وتكونت دولتهم، وقبل الإسلام لم يكونوا شيئا مذكورا وما كان يقام لهم وزن في تاريخ الدول والجامعات، واليوم لا عز لهم ولا شرف إلا بالرجوع إلى إقامة كتاب الله عز وجل واتباع رسول الله ﷺ وتحكيم شريعته، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، لا سيادة للعرب ولا دولة لهم إلا بالرجوع إلى كتاب الله المقدس وإقامة أحكامه وشرائعه، ففيه ذكر للأولين وعز وشرف للآخرين فالذي وصل به الأولون أوج العز والمجد هو الذي يصل به الآخرون، ثم يعود الله تبارك وتعالى إلى تساؤل آخر هو الخامس لما تقدم من الإستفهامات الأربعة المتقدمة فيقول عز قائل:

﴿أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ وهنا يوجه السؤال للنبيء ﷺ وهم المقصودون بالخطاب: هل تسألهم خرجا أي عطاء هل تسألهم جزاء من أموالهم ليسلموا لك أجرة على رسالتك إليهم وهذا تبكيت لهم وقد علموا أن رسول الله ﷺ ما كان طامعا في اموالهم وكذلك الرسل من قبله منذ سيدنا نوح عليه السلام ماكان أحد يطمع في الأجرة على الرسالة والتبليغ، لقد كانوا يقولون لهم :

﴿لا أسألكم عليه أجرا﴾ ـ الأنعام ٩٠ ـ هود ـ ٥١ الشورى ٢٣ ـ ﴿ولا أسألكم

عليه مالاً﴾ـ هود ٢٩ ـ ولو طالبوهم بالمال لقالوا إنما اخترعوا هذا الأمر طمعا في أموالنا والخرج هو ما يخرجه الرجل من ماله ويعطيه للسلطان أو الأمير، قال الله تعالى :

﴿**فخراج ربك خير وهو خير الرازقين**﴾ أي فعطاء ربك خير وأبقى مما يعطونك وهو خير الرازقين ولله خزائن السموات والارض وخزائنه لا تنفذ ﴿**ماعندكم ينفذ وما عند الله باق**﴾ـ النحل ٩٦ ـ يرزق من يشاء بغير حساب، قطع الله هذه التساؤلات كل شبهة يمكن أن يتعلقوا بها وأرشد الوعاظ والدعاة إلى الله أن يكونوا نزهاء كرام النفوس، لايفسدون أمرهم بالطمع، ولايلوثون دعوتهم بالنظر إلى ما فى أيدى الناس مهما اشتد بهم الحال، والعلماء ورثة الأنبياء، لايجوز لهم أن يطلبوا أجرا على تعليمهم الناس ووعظهم وإرشادهم "والاكل بالدين حرام، ولو كشربة الماء النمير القراح" يقول الشيخ أبو نصر رحمه الله : في هذه القصيدة التى سماها تحريض الطلبة : "لا يجوز التوصل إلى أكل أموال الناس بتبليغ الدين إليهم وما أتى اليهم منهم عفواً بطيب وبدون تسبب واستشراف نفس فذاك مباح لابأس به :

وشرح ذاك الأكل عن سبب   وما أتى عفوا فذاك مباح

وقديما كرم الناس العلماء ونعما فعلوا وإكرامهم لهم كإكرام الأنبياء وكان النبئ ﷺ لايأكل الصدقة وهي محرمة عليه وعلى آله ولكنه كان يقبل الهدية، ذلك لأن الصدقة فيها نوع من الذلة لآخذها واليد العليا خير من اليد السفلى فأكرم الله نبيئه ورفع مقامه ومقام آل بيته أما الهدية فتقدم حتى لمن هو أغنى وأرفع مقاما، ومنذ القديم اعتاد الناس أن يقدموا الهدايا إلى الأمراء والملوك فأخذ الهدية لا يشعر بحطة ولاغضاضة، ومعطيها يقدمها لمن يريد أن يتعرف إليه ويتخذ عنده يدا، وغرض المهدي إكرام

المهدى إليـه فالفرق ظاهر بـين الصدقة والأجـرة والهدية. فأنبـياء الله ورسله لايطلبـون الأجـر علـى تبليـغـهم أبداً ولكن أجـرهم علـى الله الذي فطرهم وأوحى اليهم وأمرهم بالتـبليغ وتعليم الناس وهدايتهم إلى صراط مسـتقيم، وبهذا يتبين لذوي العقول أنهم مبلغون عن الله دعاة للخير لا طلاب دنيا ولا مال قال سيدنا سليمان عليه السلام لرسل بلقيس.

﴿أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون﴾- النمل ٣٦ - إن أنبيـاء الله أزهد الناس في مـتاع الدنيـا وأشدهم رغبة فيما عند الله، همهم هداية الناس إلى صراط الله لاجمع حطام الدنيا.

﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لايومنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ يأتي هذا الخطاب من الله تسلية لنبيئه محمد ﷺ وتثبيت لقلبه، يقول له إنك حـقا على صراط مسـتقيم وإنك لتـدعوهم إلى هدى الله فلا تشك في أمرك هذا، ولاتهلك نفـسك أسىً عليهم إن لم يؤمنوا بما تدعوهم إليه وهو الحق من ربك.

﴿وإن الذين لايومنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ إن الذين يكفـرون بآيات ولقـائه ولايخـافـون الآخـرة ولايؤمنون بهـا عن صـراط الله لناكـبون، أي متـجنبون عنـه ضالون لا يهـتدون، ولا يحبـون الناصحـين قد يئسـوا من الآخرة، وهذا سبب إعـراضهم وكفرهـم وهم يكرهون من يذكر لهم الآخرة ومـا فيهـا من حساب وعـقاب وثواب، لأن ذكـر الآخرة ينغص عيلهم شهـواتهم ويكدّر لهم لذاتهم، والحال أنهم حتماً سـائرون إليها، إنك على صراط مستقيم وإنما أعماهم عنـه كفرهم بلقاء الله واستهزاؤهم بالآخرة وبمن يخوفهم بالآخرة .

﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ - الأنبياء ٤٩ - أولئك الذين ينفعهم التخويف والانذار وأولئك الذين يستمعون القول، أما الذين هم غافلون عن الآخرة فإنهم ينادون من مكان بعيد إنهم لم يقدروا الله حق قدرة إذ ظنوا أنه خلقهم عبثا، وأنهم أهانوا جنس الإنسان الذى فضله الله على كثير من مخلوقاته، ووهب له العقل وعلمه من علمه مالم يعلم، وميزه على سائر الحيوان ويظنون أنه يصير ترابا كالحيوان وهذه إهانة لبنئ آدم لو كانوا يعقلون، بنوآدم الذين امتلكوا الارض يسخرونها ويستخرجون ما فى بطنها وما فى أجواف البحار وهم يغزون الفضاء ويحاولوا احتلال أجرام السماء، أيكون مآلهم ومصيرهم مثل مصير العجماوات من الحيوانات .

﴿مالكم كيف تحكمون﴾- الصافات ١٥٤ ـ القلم ٣٦ ـ وقال الله تعالى : **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق﴾**- المومنون ١١٥ ـ ١١٦ تعالى الله عن العبث علو كبير، إن الله خلق الموت والحياة لابتلاء عباده، وأن الآخرة هي دار الجزاء . ثم يقول الله تبارك وتعالى فى شأن هؤلاء الذين هم ناكبون عن صراط الله الحميد .

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجو في طغيانهم يعمهون ولقد اخذناهم بالعذاب فما إستكانوا لربهم وما يتضرعون حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون﴾ إن الله تبارك وتعالى يبتلي عباده بالشر والخير فتنة منه لعلهم يشكرون نعمة الخير لله ولعلهم يتضرعون إلى الله عند البلاء فيرجعون إليه ولكن هؤلاء الذين لا يؤمنون بلقاء الله لاينفع فيهم التذكير ولا الابتلاء، فهم في النعم يبطرون ولا يشكرون، وهم عندما يمسهم البلاء يجزعون ويكفرون ولا يتضرعون، يقول الله فيهم :

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون﴾ لو اصبناهم برحمتنا وأزلنا عنهم الضر لازدادوا طغيانا وأمعنوا فى ضلالهم يعمهون، والعمه هو المشي على غير هدى فهو كالعمى فهم عُميُ البصائر تائهون فى الضلالة متحيرون فى أمرهم لايستجيبون للهداة إنهم في طغيان كبير لا ينفع معه نزول البلاء ولا كشفه بل يزيدهم كشف البلاء والضر لجاجا وعنادا وتمرداً.

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون﴾ـ الأنعام ٤٣ ـ وهنا في هذه الآية يقول الله فيهم : ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ لقد أخذ الله كفار قريش ومن معهم بعذاب القحط والجفاف المستمر بضع سنين ذلك لأن رسول الله ﷺ دعا عليهم بعد ظلمهم وطغيانهم وإيذائهم المؤمنين قال : "اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف" فاستجاب الله دعاءه فيهم فأصابهم بقحط شديد فى سنوات متواصلة، حتى أجهدهم البلاء لحد أن أحدهم يزيغ بصرة فيرى كأن في أفق السماء دخانا يغش الجو لشدة جوعهم بعد أن هلكت المواشي ونفذ الطعام وجفت الارض، وذلك عقوبة من الله لهم على ظلمهم وإخراجهم المؤمنين من ديارهم، وقد كانوا قبل ذلك قاطعوا بنى هاشم وكتبوا فى مقاطعتهم صحيفة مضوها كلهم وعلقوها على جدار الكعبة وهذا منهم غاية الطغيان ولقد أمهلهم الله لعلهم يتوبون ولكن أكثرهم لجوا في طغيانهم فاستحقوا عقاب الله، وليتهم لما نزل عليهم عذاب الله تضرعوا لربهم واستكانوا له قال الله تعالى :

﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ الاستكانة هي التذلل والخضوع.

قال تعالى :

﴿فما استكانوا لربهم ﴾ ماتذللوا لربهم الذى خلقهم والذى أصابهم بما أصابهم به، بل طافوا بأصنامهم واستغاثوا باللات والعزى ومناة وغيرها ثم قال تعالى :

﴿وما يتضرعون﴾ إنهم لايتضرعون لربهم وليس من شأن المستكبرين أن يتضرعوا لربهم، لقد أعماهم الكبر والعزة بالكفر، فلا يعرفون ذلة لله ولاتضرعا، ماأبعدهم عن ذلك حتى أحلك ساعات البلاء ﴿بل قلوبهم فى غمرة من هذا﴾ إنما يتضرع أولو الألباب الذين هداهم الله وألان قلوبهم لذكره ثم يختم الله الكلام في هؤلاء الطاغين بقوله :

﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون﴾ يبين الله تبارك وتعالى في هذه الآية العاقبة الوخيمة لهؤلاء الكفار الطاغين الذين لا ينفع فيهم تقلب الأحوال ونزول العذاب ولايزيدهم ذلك إلا غفلة وقساوة فى قلوبهم ، يقول الله تعالى :

لا يزالون كذلك حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد وهذا الباب إما الساعة والساعة أدهى وأمر وإما مجئ الموت الذى هو نهاية كل حيّ، حينئذ يطلبون الرجعة والإمهال ولا يسعفون إلى ذلك بل ينزل أمر الله المحتوم ويحق عليهم عذاب الله فإذا هم مبلسون، والإبلاس هو اليأس من كل خير في حالة غم وحسرة وعذاب، حينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ويندمون على ما فرطوا ويستعتبون فلا يقبل منهم، وفى هذه الآية إنذار لهم ووعيد وتسلية للنبئ ﷺ وللمؤمنين حتى يصبروا ولا يضيقوا بمكرهم وطغيانهم، فإن لهم أجلاً مسمى لن يعدوه إذا جاء أجلهم لا

يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وليهدأ بال رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، يعرفه بحقيقة قومه المكذبين وعاقبتهم التي يصيرون إليها وإن متعوا في هذه الدنيا طويلا فسينتهي كل شيء، فإذا به كلا شيء وفي موضع آخر من القرآن يخاطب الله نبيّه بهذا الخطاب.

﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ ـ الأحقاف ٣٥ ـ وكم لله من آيات قوارع تحمل الوعيد الشديد وما يذكر إلا أولوا الألباب، ونسأل الله أن يجعلنا من الذين يعتبرون ويتذكرون، ونعوذ بالله من مصير أهل البغي والضلال إنه مصير مشئوم وبئس المصير.

ثم يذكرنا الله تبارك وتعالى ببعض نعمه التي نحن نسبح فيها ونتمتع بها وينبغي شكر الله عليها فيقول:

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا
وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ
وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

في هذه الآيات دعـوة للناس كلهم أن ينظروا في نعـم الله التي غمـرهم بها ويتـدبروا كيفية صنـعها ويشكروا خالقـها لأن تدبرهم يزيدهم إيمانا بالله وحبا له وتعلقا به واستعداداً للقائه بالشكر والعمل الصالح.

﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأَبصار والأَفئدة قليلا ماتشكرون﴾.

هو الله لا غير، خلق لكم السمع والأبصـار والقلوب، خلقها لكم وأنتم أجنة في بطون أمهـاتكم وجهزكم بهـا لأنكم ستستـعملونها بعـد خروجكم إلى الدنيا، وهي أبـواب المعرفة وأسـباب إدراك حقـائق الأشياء، جـهزنا الله بالأسماع والأبصار والأفـئدة ولم يقل بالآذان والعيون والقلوب، لأن الأذن ليـست هي التي تسـمع إنما يسمع الـدماغ وليـست الآذان إلا جـهازاً لتـبليغ الصوت بعـد تلقيه، ولـيست العين هي التي تبصـر فليست إلا جـهازاً لتلقي الأشعة وصور الأشـياء وتبليغها إلى الدماغ والدمـاغ هو الذي يبصر، وليس القلب يفكر ويـعقل بذاتـه بل يفكر الدمـاغ، والقلب إنما يعـقل ويعي بقـوة هيأها الله في قلوب خلقه ولو سلبها منهم ما نفعت القلوب بل تصبح عندئذ كقلوب البـهائم أو أفرغ منها ولا يزال العـلماء يقضون أعـمارهم في النظر والتفكر في هذه الأجهـزة العجيبة ويـطلعون على ما فيهـا من أسرار وقوى، يقـول العـلمـاء إن في الأذن طبلة، وفي الـطبلة مـلايين الأعـصـاب تتلقى تموجات الأصوات وتبلـيغها إلى الدماغ في الحين، وهنـاك في الدماغ خلايا تتلقى الأصـوات وتسـتـمع وليس العـجيب في تركـيب الأذن وحـده، وإن تركيـبها لعجـيب، بل العجب أيضا في تبليغ الأصـوات إلى الدماغ بواسطة مـلايين الأعصـاب، وفي خـلايا الدماغ والعـجب أيضـا في الصوت كـيف يتكون وكـيف يتـمـوج في الفـضـاء، وفي الأثيـر الذي يملأ الفـضـاء ويبلغ

الأصوات والصور بحيث لو فرغ منه الجو ما سمع صوت، وللصوت في الأثير تموجات ودوائر كدوائر الماء الذي يلقى فيه الحجر، وقد أكتشف الناس اليوم هذه القوة العجيبة فهم بواسطتها يرسلون الأصوات والصور إلى آفاق بعيدة عبر الفضاء الواسع، وهذا بالاستعانة بقوة الكهرباء في التلقي والإرسال فعالم الأصوات عالم واسع وعلمها علم دقيق وعجيب، وكذلك أمر الأبصار والمرئيات، فإن العلماء يقولون إن العين مركبة من عدة ملايين طبقة من الأغشية، ومجهزة بعدة ملايين من العروق والأعصاب، يقولون أربعون مليونا من نوع، وعشرة ملايين من نوع آخر، وهي تتعاون في تلقي الصورة وتبليغها إلى خلايا الدماغ المختصة بذلك، ولو أصيب بعض هذه العروق والأعصاب لاختل نظر العين، أو فقد بالمرة، وليست العين إلا كعدسة آلة التصوير والذي يرى في الحقيقة هو الدماغ وهو المخ، والذي يفهم ويعي ويتحكم هو الفؤاد، فهو الذي يعقل ويصدر الأوامر، وهو المخاطب بالتكليف وتحمل الأمانة العظمى، ومركزه القلب وليس القلب إلا مضغة لحم على شكل ثمرة الصنوبر، وله وظيفته المادية التي هي ارسال الدم في الجسد بعد تلقيه في كل نبضة، ولكن هذا العمل تشاركه فيه قلوب البهائم وسائر الحيوانات، أما العقل الذي هو وظيفة الفؤاد فذلك قبس من نور الله، كرم الله به بني آدم وجعله مناط التكليف بحيث لو انطفأ هذا النور لارتفع التكليف، وكان حكم الإنسان المصاب بهذا كحكم البهيمة يرتفع عنه القلم، ويتحدث بعض الناس المصابين بفقدان الإحساس في قلوبهم أنهم لا يشعرون برقة، من فرح ولا حزن ويعبر أحدهم فيقول لو أخذت ولده وقطعته إرباً ما شعر بما يسميه الناس الحزن أو الاشفاق وهذا نوع من الإصابة، فقدان الإحساس في القلوب، فما هذا الشيء الذي فقدوه وما هذه

القوة وما هذا السر الذي جهزت به قلوب بني آدم خاصة؟ فسبحان الذي أنشأ لنا السمع والأبصار والأفئدة له الحمد والشكر على هذه النعم وعلى سائر النعم التي لا تعد ولا تحصى، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ويستعينون بهذه النعم على مبارزة الله بالمعاصي والمخالفات وهذا كفران مبين. **﴿وهو الذي ذرأكم في الأَرض وإليه تحشرون﴾**

هو الذي خلقكم وجعلكم ذرية تتناسلون بعضكم من بعض وفرقكم ونشركم في أطراف الأرض، و«ذرأ» فيه معنى الخلق وفيه معنى الذرية ومعنى الإنتشار كل ذلك مفهوم من الكلمة ومقصود في المعنى.

يقول الله تعالى: اعتبروا بوجودكم من الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ومكنهم من التزاوج والتناسل وما من نسمة كائنة الا وهي كائنة إلى يوم القيامة والله هو الذي يكونها.

﴿هل من خالق غير الله﴾ - فاطر ٣ - جعل الله هذه الأرض مهادا لبني آدم وسخر لهم ما فيه، وجعلها لهم ذلولا يمشون في مناكبها وسلطهم على برها وبحرها، ومكنهم من استخراج ما في أجوافها من مياه وأرزاق وكنوز وهي على سعتها واختلاف أقاليمها من حرارة إلى برودة ومن خصب إلى صحاري ومن نجود إلى وهاد، هي مضطرب ومستقر لبني آدم يحرثون ويبنون وينحتون وينقبون ويمشون وفي بحارها يغوصون وفيها بعد موتهم يعودون ومنها يخرجون ليوم النشور. **﴿وإليه تحشرون﴾**-

يقول الله تبارك وتعالى ليذكرنا بيوم المعاد:

﴿لإلى الله تحشرون﴾ ـ آل عمران ١٥٨ ـ أي تجمعون ليوم الجمع يجمع الأولون والآخرون يحشر إنسكم وجنكم وأولكم وآخركم، إن أجزاءكم المتفرقة في البراري والبحار لن تغيب عنه. ﴿لاتخفى منكم خافية﴾ـ الحاقة ١٨ ـ

يأمر الله الأرض فتخرجكم ويرد إليكم أرواحكم بنفخة واحدة والله على كل شيء قدير.

﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ـ لقمان ٢٨ ـ فاعتبروا بالخلق الأول ان كنتم تعقلون واذكروا وقوفكم بين يدي خالقكم واستعدوا لذلك اليوم إنه يوم عظيم وله ميقات محدود معلوم.

﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ـ الواقعة ٤٩ ـ

وهو قريب غير بعيد. ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا﴾ـ المعارج ٦ـ٧ هكذا يقرر الله في هذه الآية أن جميع المخلوقات تحشر إلى ربها لا يفلت منها أحد ثم يقرر في الآية التالية أنه المحيي المميت.

﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ـ الله هو يخلق الحياة في الأحياء وينزعها منهم متى شاء فهو المحيي والمميت، ولا أحد من الناس يعلم سر الحياة، وقد تقدم العلم وتوصل الناس إلى معرفة أشياء دقيقة واستخدموا قوى لا يرونها ولا يعرفون حقيقتها، ورغم ذلك لم يتوصلوا إلى معرفة كنه الروح وسر الحياة ولن يتوصلوا إلى ذلك مهما تقدم بهم العلم وصدق الله القائل:

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا إلا قليلا﴾ـ الإسراء ٨٥ ـ ما الروح وما حقيقتها وما سرها؟

هذه الروح التي هي قوام الحياة وملح الجسد إذا فارقته ينتن وتتفكك

أجزاؤه كيف تنتشر في جميع أجزائه وكيف تزايلها، ونحن ننظر ونبصر ولا نرى شيئا عند خروجها، والميت أمامنا ونحن جالسون من حوله أو واقفون فلا نرى ولا نسمع شيئا، إن الله الذي خلقها وأسكنها الجسد أجتذبها إليه، إن الله هو المحيي والمميت، وقد يظن سفهاء الناس أنهم يميتون والحقيقة أنهم يقتلون ولا يميتون، إنهم يباشرون القتل الذي هو سبب الموت إن حضر الأجل والمميت هو الله لا غيره.

﴿**وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون**﴾ـ لله لا لغيره اختلاف الليل والنهار، والاختلاف له معنيان أحدهما تعاقب الليل والنهار، يجئ الليل ويذهب النهار ثم يجئ النهار ويذهب الليل، تقول فلان يختلف إلى فلان أو إلى المسجد أو إلى السوق بمعنى: يتردد ذاهبا وراجعا إلى المكان الذي يقصد، وكذا الليل يغشى النهار يطلبه حثيثا، فهما متعاقبان ما دامت الحياة وفي تعاقبهما منفعة للعباد والبلاد وعبرة للمعتبرين، وفيه نعمة عظمى للشاكرين والمعنى الآخر للإختلاف هو إختلافهما في الزيادة والنقصان وتعاقبهما في ذلك فتارة يطول الليل ويقصر النهار وتارة يقصر الليل ويطول النهار، وذلك في اطراد محكم وحساب معلوم فسبحان من يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهذا الإختلاف يختلف بين أقاليم الأرض حسب مواقعها بين خطوط العرض في هذه الكرة الأرضية كما يكون إختلاف المشارق والمغارب بين خطوط الطول في الأرض بحسابها المعلوم ونظامها الدقيق وذلك ناتج عن دوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس، فأما دورانها حول نفسها فينتج عنه إختلاف المشارق والمغارب أي تعاقب الليل والنهار، وأما دورانها حول الشمس فينتج عنه إختلاف الليل والنهار زيادة ونقصا وتتكون بذلك الفصول الأربعة التي تظهر في المناطق المعتدلة.

ولهـذا الإختـلاف تأثيـره في النبات والحـيـوان وما في جـوف الأرض وبحارهـا من المعادن والسـوائل، كما يـقع المد والجزر في البـحار باخـتلاف منازل القمـر عند مروره في كل يوم، وهذا الإختـلاف في الليل والنهار وإن أدرك علماء الطبيـعة الكونية سببه وبعض آثاره، ولكنهم لا يملكـون له تغييرا ولو دقـيقـة ولا أقل من ذلك فلله وحـده التـصرف المطلـق وهو الذي يسيـر الأفلاك على نظام مطرد منذ خلق هذا الكون.

﴿**وكل في فلك يسـبـحـون**﴾ـ يس ٤٠ ـ ولا يعلم إلا الله عمر هذا الكون ولا يعلم إلا هو ساعـة نهايته وفنائه، وإنما يلفتنا في هذه الآية إلـى هذا السير الدقـيق والنظام العجـيب لنعتـبر ونـؤمن ونزداد إيمانا بخالق الكون ومـدبره ومـسيـر الفلك وممسك السـمـوات والأرض أن تزولا وهـو الذي رفع السموات بغير عمد ترونها.

﴿**أفـلا تعـقلون**﴾ـ يقـول الله تبارك وتعـالى: أبعـد مشـاهدة هذا النظام الدقيق المسـتمر ملايين السنين في الهـيئة الكونية وأنتم تشـاهدونه، أبعد هذا تكفرون وتصـدفون ﴿**أفلا تعـقلون**﴾ـ مـا لكم لا تنتفـعـون بعقـولكم ولا تستعملونها في إدراك الحق وتغفلون عن حكمة العزيز العليم القدير وتظنون أنما خلقكم عبثا وأنكم إليه لا ترجعون، وتستبعدون أمر البعث وقيام الساعة وأنتم تشاهدون اختلاق الليل والنهار.

﴿**أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم**﴾ـ يس ٨١ ـ

﴿**أفلا تعقلون**﴾ـ إستفهام تعجبي لهؤلاء الكفار الذين ينكرون قدرة الله على إحـيـاء الموتى وحـشـرهـم ليـوم الجمع ويـنكرون الحسـاب والعـقـاب

والثواب، إن أمرهم لعجيب إنهم في أمر مريب وما أمر الكافرين إلا في ضلال.

﴿بل قالوا مثل ما قال الأوَلون قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأوَلين﴾.

بل أعماهم التقليد وحب الشهوات فلم ينظروا بعقولهم إلى آيات الله التي تدل على قدرته وحكمته ولم يعتبروا بالخلق الأول، أعماهم اتباع الهوى وأنكروا البعث والجزاء وسخروا من أنبياء الله ورسله وقالوا مثل ما قال سلفهم الأولون والكفر ملة واحدة، قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما ورمت العظام وصارت رفاتا أءنا بعد ذلك لمبعوثون خلقا جديدا ذلك رجع بعيد، لقد وعدنا نحن وآباؤنا الأولون هذا البعث إن هذا الوعد إلا أساطير الأولين يكررها علينا هؤلاء الذين يزعمون أنهم أنبياء الله ويخوفوننا بها كما خوفوا بها آباؤنا من قبل وما نحن بمبعوثين، وما بُعث من مات قبلنا ولا قام أحد من المقابر وما هي إلا الحياة الدنيا حياء وموت وولادة وفناء والدهر هو الدهر ولا شيء بعد الموت، هذه مقالة الكفار الدهريين لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار.

﴿بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا﴾- الفرقان ١١ -

إن الساعة حق وهي آتية لا ريب فيها وويل لمن كذب بالساعة وكلامهم هذا هو الافتراء وهو الأساطير، واغتروا بما قال الأولون وغرهم الشيطان واتبعوا أهواءهم ونفروا من الحق، لأن التفكر في البعث والجزاء يعكر عليهم صفوهم ويكدر عليهم شهواتهم، وإنكارهم هذا لا يرد عنهم قضاء الله وقدره ولا يدفع عنهم العذاب يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ولكل أجل

كتاب، إن أجل الله لآت وما هم بمعجزين في هذه الآية يعرض الله تعالى سخافة عقول المكذبين بالآخرة في كلماتهم الجوفاء بعد عرض آيات الله العظيمة في السموات والأرض، وفي إختلاف الليل والنهار وسيحاججهم بعد قولهم هذا بما يلزمهم الحجة الدامغة ويدحض شبهاتهم الواهية ويحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ
لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ
وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾
قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾
بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ
وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِۚ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾

يقول الله تبارك لنبيه ﷺ قبل أن يوجه السؤال لهؤلاء المشركين ذوي العقول السخيفة الذين يناقضون الحقائق ويخالفون ضمائرهم في أشياء يعرفون فيها الحق ولا ينكرونه ولكنهم يكابرون وليُلزمهم الحجة يسألهم هذه السؤالات التالية:

﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ ـ قل لهؤلاء المشركين لمن

هذه الأرض الواسعة ومن فيها وما فيها؟

من خالقها ومالكها والمتصرف فيها وفي من فيها كما يشاء إن كنتم تعلمون، وهم يعلمون الجواب الحق في هذا السؤال الملقى عليهم ولذا أجاب الله تبارك وتعالى بما سيجيبون ولا يستطيعون إنكاره.

﴿**سيقولون لله**﴾- سيكون جوابهم الإعتراف بالحقيقة،سيقولون إن الأرض ومن فيها لله خلقا وملكا وتصرفا وهم لا ينكرون ربوبية الله ولكنهم يشركون به غيره في العبادة والدعاء وينكر الله عليهم ذلك.

﴿**قل اَفلا تتقون**﴾- قل لهم أفلا تتقون شؤم صنيعكم هذا، تعلمون أن الله يملك الأرض ومن فيها وتعبدون غيره، أفلا تتقون سخطه وعقابه وتكذبون أنبياءه ورسله وكتبه ألا تخافون انتقامه وعذابه ثم يأمره أن يلقي عليهم السؤال الثاني.

﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم**﴾.

قل لهم يا محمد: من رب السموات السبع الطباق التي هي أعظم من أرضكم هذه التي أنتم عليها، وما الأرض في السماء إلا كذرة في أعظم جبل، من رب هذه السموات السبع ومن فيهن، من خالقهن ومالكهن وممسكهن ورافعهن والمتصرف فيهن وفي كل من فيهن؟

سيقولون لله، أي ملكهن وأمر التصرف فيهن وفيمن فيهن لله، وقل لهم من رب العرش العظيم، هذا الخلق العظيم الذي هو مصدر كل أمر حكيم من لدن رب العرش العظيم، وهو أعظم من السموات والارض ويكفيه عظمة هذه الإضافة: ﴿**رب العرش العظيم**﴾ هذا جواب الله عنهم لأنه يعلم أنهم يعتقدون ذلك وسيجيبون بهذا الجواب ولذلك لم ينكروا الجواب بعد ما نزل عليهم.

﴿قل أفلا تذكرون﴾ـ قل لهم: إذا كنتم تعلمون ذلك وتعترفون به ولا تنكرونه أفلا تذكرون، أفلا تعتبرون، مالكم تخالفون عقولكم، ألا يكون خالق السموات والأرض المتصرف فيهن أحق بالعبادة وحده فمالكم تعبدون غيره وترجون غيره، أفلا تراجعون عقولكم فما لكم تنسون الحق أو تتناسونه وتتجاهلونه، ثم أمر الله نبيّه أن يلقي عليهم السؤال الثالث وقد سلك في هذه الأسئلة سبيل الترقي فكل سؤال أعظم من الذي قبله.

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾ـ

قل لهم يا محمد: من بيده ملكوت كل شيء، من هو مالك الملك والملكوت، والملكوت أبلغ من الملك وهو مختص بالله ولا يصح أن يوصف به غيره، واليد هنا لا تفسر على ظاهرها لأن ذلك يوهم التشبيه وتعالى الله عن ذلك، وإنما تؤوَّل بمعنى الملك والقدرة والتصرف المطلق من ذي القوة المتين، قل لهم من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، أي يدخل في جواره من يشاء فيمنعه ولا يقدر عليه أحد ولا يجار عليه أي لا يخرق أحد مهما كان قويا جوار الله فإن جوار الله حرز متين وحصن حصين لا يقوى أهل السموات والأرض ولو اجتمعوا على اقتحامه ونيل من فيه بضر ومن الذي يقحم جوار الله؟

﴿سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ـ تولى الله تعالى الجواب عنهم لأنه يعلم ما في قلوبهم ولا يكون جوابهم إلا كذلك، سيقولون لله ملكوت كل شيء ولله الجوار المنيع وجار الله عزيز لا يضام ولن يجار على الله أحد، سيعترفون بذلك وعندئذ قل لهم.

﴿فأنى تسحرون﴾ـ أنى تصرفون كيف تسحرون والسحر هو اعتقاد

الباطل واستبداله بالحق أي ما هذا الذي سَحِر عقولكم وصرفها عن الحق فتاهت في الضلال؟

ألا تتقون؟ ألا تذكرون مالكم كيف تحكمون، هكذا يلزمهم الله الحجة عند كل سؤال ولله الحجة البالغة وفي نهاية هذه المحاجة التي تظهر عليهم سلطان الحق القوي يقرر الله حكمه وهو أحكم الحاكمين.

فيقول جل من قائل:- ﴿**بل اَتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون**﴾.

بل أتيناهم بالحق الصريح الذي لا مرية فيه ولكن أكثرهم للحق كارهون، وإنهم لكاذبون في إنكارهم الحق وتسفيههم أهل الحق أنبياء الله ورسله، ويؤكد الله الحكم عليهم بمؤكدين بعد إلزامهم الحجة وإفحامهم، إن نفوسهم تدرك هذا الحق ولكنهم يجحدونه ظلما وعلوا فلم يبق إلا الإعراض عن ترهاتهم وتقرير الحق من قبل منزل الحق إلاه الحق والذين أنكروا الحق هم الكاذبون المكذبون الظالمون.

﴿**فمن اَظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين**﴾- الزمر ٣٢ -

ثم ينفي الله عن نفسه ما خرقوا له من الأولاد والبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلاه إذا لذهب كل إلاه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**﴾.

إن هؤلاء الكفار أشركوا بالله غيره ونسبوا له الأولاد بغير علم وقالوا

في الملائكة هم بنات الله فرد الله عليهم في غير موضع من القرآن وهنا يرد عليهم بالبرهان الساطع المبين.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾.

ينفي الله عن نفسه الولد والشريك بصيغة تؤذن بالعموم المستغرق وهي النكرة بعد النفي ويؤكده بمن الزائدة ثم يضرب الله المثل فيقول:

﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾.

إذلو اتخذ الله ولداً أو شريكا لفسد نظام الكون، ولا يمكن حينئذ أن يسير على نسق واحد خاضعا لتقدير العزيز العليم إذ لو كان هناك شركاء لكان لكل شريك رأي وإرادة فإما أن تنقسم المملكة فيذهب كل بنصيبه الذي خلقه أو يعلو القوي على الذي دونه فحينئذ تقع حرب كونية يكون فيها الغالب والمغلوب ولا يمكن أن يكون المغلوب إلاها لأن الغالبية من صفات الإلاه اللازمة.

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ـ الأنبياء ٢٢ ـ وهذا مثل تفهمه كل العقول السليمة وتقره فما دام هذا الكون مستقرا على سير واحد ونظام واحد وجاذبية واحدة تمسك سماواته وأفلاكها، وأرضه وبحارها وجبالها وأجواءها فمدبرها واحد ومسيرها واحد وخالقها هو الله الواحد القهار، ويوم يشاء هذا الرب الواحد أن يقيم الساعة فيكور الشمس ويكدر النجوم وينثرها ويسجر البحار ويبسّ الجبال بساً ويبدل الأرض غير الأرض والسموات، وقد ضرب لذلك أجلا محدودا وأخفاه عن جميع مخلوقاته ملائكتها وإنسها وجنها.

﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ ـ لقمان ـ ٣٤ ـ

فتعالى الله علوا كبيرا عما يحاول هؤلاء الكفار أن يلصقوه به من الشركاء والأولاد.

﴿ماتخذ صاحبة ولا ولدا﴾ - الجن ٣ - وليس الملائكة بنات الله.

﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ - الأنبياء ٢٦ -

﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد﴾ - الإخلاص ١-٤

﴿وقل الحمد الله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾ - الإسراء ١١١ -

ولله الحجة البالغة يحق الحق بكلماته ويبين للناس آياته وما يتذكر إلا من ينيب.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا
يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا
عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي
أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن
وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى نبيّه أن يدعوه أن يقيه شر العواقب التي يتعرض لها القوم بكفرهم وطغيانهم، وفي الآية تخويف لهم ليتعظ من أراد الله به خيرا فيرجع إلى الطريق الراشد قبل فوات الأوان، وفي تصريف القول مزدجر لمن فيه بقية عقل وإن لبلاغة القرآن لسلطانا على القلوب إلا من طبع الله على قلوبهم فهم لا يرجعون.

﴿قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾.

قل يا محمد يارب إن كنت قدرت عذاب القوم على مشهد ومرأى، والأمر إليك فلا تهلكني، فلا تجعلني مع القوم الظالمين رب نجني من سوء مصيرهم، ذلك لأن عذاب الدنيا قد يعم، ولكن حاشا لله أن يعم أنبياءه ورسله المبشرين والمنذرين بما يهلك به القوم الظالمين، ولو لا أن الله قدر سلامته ما أرشده إلى هذا الدعاء، وقد يقول قائل: فاذا كان الله قد قدر سلامته ففيم الدعاء إذن، كلا بل يأمر الله عباده بالدعاء حتى في الأمور المضمونة كالرزق مثلا.

﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ ـ المائدة ١١٤ ـ وقد ضمن الله الجنة لأولياءه وأمرهم بطلب الجنة والاستعاذة من النار، ذلك لأن الدعاء مخ العبادة ويحب الله أن يسمع تضرع عبيده ودعاءهم ويرفع الله لهم بذلك درجاتهم ويستجيب لهم، وفي الدعاء إظهار الافتقار وشدة الحاجة إلى الله وذلك هو مخ العبودية ووصف الله أنبيائه في القرآن الكريم بقوله فيهم.

﴿إنهم كانو يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ ـ الأنبياء ٩٠ ـ

كذلك أمر الله نبيّه أن يدعو ربه أن يقيه مصيرهم الوخيم ودعاؤه من تمام

عبادته لله، وفي ذلك إرشاد لنا أن ندعو الله أن يجنبنا مصير الظالمين والله على كل شيء قدير.

ويقص الله علينا في القرآن كيف كان ينجي أوليائه عندما ينزل العذاب على أعدائه وقد يرشدهم إلى اتخاذ أسباب النجاة قبل مجئ العذاب، كما أمر عبده نوحا بصنع السفينة قبل الطوفان، وأمر عبده لوطا بمغادرة البلاد ليلا قبل تدميرها وغيرهم، وغيرهم وكذلك ينجي الله الذين ينهون عن السوء ويأخذ الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون ولله في أوليائه وأعدائه سنن لا تبديل لها ولا تحويل ثم يخاطب الله نبيّه بخطاب يبين له ولنا فيه كمال قدرته وإن هؤلاء الكفرة الظالمين لا يعجزون الله ولكن الله يمهل ولا يهمل فيقول تعالى:

﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ ـ إنهم لا يسبقوننا وإنا لقادرون على إهلاكهم وإنزال العذاب عليهم على مرأى منك ومسمع وماهم بمعجزين، إن لهم أجلا لن يفلتوه والأمر إلينا لا إليك وقد قال له في غير هذه الآية:

﴿فإما أن نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ ـ الزخرف ٤٢ ـ

وفي هذه الآية وأمثالها لأكبر دليل على أن الكلام هو كلام جبار السموات والأرض الفعال لما يريد، وما محمد إلا رسول، وليس عليه إلا البلاغ فليس له من الأمر شيء والأمر كله لله، والقرآن وحي من الله تظهر فيه عظمة المتكلم وجلاله، يقول الله تعالى لنبيّه وإنا لقادرون على أن نريك ما نعدهم من العذاب وقد أراه يوم بدر ما تقربه عينه وكذلك يوم الفتح ولكن

الله يدفع بالتي هي أحسن فـآثر العفـو عنهم إلا قليـلا منهم،واسـتجـاب الله دعاءه فيـهم بالقحط سنين، حتى توسلوا به أن يدعوا لهم بـالغيث بعد هلاك الخف والحافر وبعد أن مـسهم الجوع فدعا لهم واستـجيب دعاؤه ويرشد الله نبيّه أن يسلك معهم سبيل الصفح والعفو ومكافئتهم بالحسن فيقول له:

﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾.

في هذه الآية تربية للنبيﷺ تربية عاليـة تتناسب ومقام النبوءة الرفيع، يأمـر الله أن يدفع إسـاءة هؤلاء الكفار الجاحـدين بالتي هي أحـسن، إنه لم يأمره بالصـفح فحـسب بل أمره زيادة على الصـفح أن يكافئ الشر بالخـير، بالخـصلة التي هي أحسن، وهذا أسـمى مـا يصل إليه الإنسـان الذي أدبه الله فأحسن تأديبه، يقول الله لنبيّه، إن أمـرهم إلينا فإن لهم موعدا لن يخلفوه، أما أنت فـعاملهم بالحـسنى وفي هذا إرشـاد لنبيّـه ولنا جـميـعا وكـذلك تخلق صحـابة النبيﷺ وسلف هذه الأمـة إقتداء بـنبيهم حـتى كان الواحـد منهم يجيب الذي أمعن في سبه وشتمه بهذا الجواب العجيب.

«إن كنت صادقا فغفر الله لي وإن كنت كاذبا فغفر الله لك»

ويقول الله تعالى:

﴿نحن أعلم بما يصفـون﴾ـ إنهم يصفون رسول الله بالإفـتراء وبالسحر وبالجنون ويقولون إنه أبتر ويصفـون الله بالولد والشريك وبه يعدلون ويقول الله تعالى: أنا أعلم بما يقولون وأنا الذي أجـازيهم أو أتوب عليهم أما أنت يا محمد فليس لك من أمرهم شيء فادفع سيئاتهم بالتي هي أحسن وإن عاقبت فعـاقب بمثل ما عوقـبت به ولا تترك للشيـطان سبيلا إلـى قلبك ولا تطاوعه، واسأل الله أن يحفظك من شياطين الجن والإنس ومن نفخهم ونفتهم.

﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾- أستعذ بالله وقل يا رب أعذني من همزات الشياطين كلهم إنسهم وجنهم وأعذني يارب أن يحضرون، ذلك لأن للشياطين مع إبن آدم حالتان:

حالة نزغ وهمز ونفث وحالة حضور لإفساد العمل الصالح، إنهم يهمزون الإنسان يأمرونه بالمعاصي الموبقات ويأمرونه بالبخل ويعدونه الفقر ويأمرونه بالفحشاء والإجرام، ويزينون له قبائح الأعمال وسيئات الأخلاق ويخذلونه عن أداء الفرائض والواجبات وعمارة المساجد ومجالس العلم وعن فعل الحسنات، فلا معصوم منهم حينئذ إلا من عصمه الله، وللشياطين حالة حضور عندما يريد الإنسان فعل الخير فيفسدون نيته فينقلب الخير شرا، ويشوبون إيمانه بظلم، وعبادته بشرك، فيقطعون عليه الطريق فلا يصل، ولا معصوم منهم حينئذ إلا من عصمه الله، وقد يحضرون عند أكله وشربه ونومه وجماعه فيفسدون عليه أمره ولذلك أرشدنا الله أن نقول:

﴿رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك أن يحضرون﴾.

وعلمنا على لسان نبيّه أدعية وأذكارا نقولها عند إرادة الأكل والشرب والنوم والجماع وعند الخروج عن بيوتنا وعند دخول المساجد والخروج منها وعند كل أمر ذي بال وفي الحديث الشريف:

«كل أمر ذي بال لم يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» وما داخلت الشياطين أمر إلا أفسدته، وهي رواد الشر نسأل الله أن يعيذنا شرها ونعوذ بكلمات الله التامات العامات من شر غضبه وعقابه ومن شر عذابه ومن همزات الشياطين وأن يحضرونا، ونعوذ بالله من سيئات الأحلام في النوم

ومن عمل الشيطان، ونعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ونعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه.

ونقرأ سورة الإستعاذة من الوسواس الخناس تعوذا بالله من شره.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس ملك الناس إلاه الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ـ الناس ١ـ ٦

﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورآئهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

أما هؤلاء المكذبون الضالون فلا يزالون ممعنين في غيهم وضلالهم حتى إذا جاء أحدهم الموت طلب من الله الرجعة حين يرى العذاب فيقول:

رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت، يطلب الرجعة ليعمل صالحا وقد علم حينئذ إنه كان من الغاوين وإنه مقبل على عقاب الله على كفره وظلمه ولن يجيره من الله أحد، يطلب من الله وحده أن يرجعه إلى الصحة والحياة وقد غابت عنه آلهته التي كان يدعوها من دون الله وعلم أنها لن تغني عنه من الله شيئا ولكن هيهات ولات مندم.

﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورآئهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿كلا﴾ـ وهي حرف ردع ونفي وزجر **﴿كلا لا وزر﴾**ـ القيامة ١١ ـ لن يستجاب لطلبه ولن يقبل إعتذاره.

﴿**إنها كلمة هو قائلها**﴾ - هو لابد قائلها ولا تغني عنه شيئا وقد فات الأوان. ﴿**يوم ياتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا**﴾ - الأنعام ١٥٨ -

لقد كان كافرا وضيع الصلاة والصوم وترك ما كلف أن يعمل به، فهو الآن يسأل الرجوع ليعمل صالحا فيما تركه وضيعه ولكن الله لم يقم وزنا لكلامه ولم يجبه على طلبه حتى ولو بالطرد والنفي، بل سلك في الخطاب سبيل الإلتفات فهو يتكلم عنه بصيغة الغائب لهوانه على الله ولكونه ليس أهلا للخطاب بعد إعراضه عن آيات الله وتكذيبه برسله وكتبه، إنها مجرد كلمة يقولها ولا تنفعه ومن وراء هؤلاء أي أمامهم برزخ هم مقبلون عليه سيذوقون فيه العذاب ويعرضون على النار غدوا وعشيا والبرزخ هو الحياة بين الحياتين بين الحياة الدنيا وعذاب الآخرة في النار أبدا الآبدين ونهاية البرزخ بداية البعث، قال تعالى:

﴿**إلى يوم يبعثون**﴾ - هذا البعث الذي أنكروه وكذبوا به يقرره الله تعالى في هذه الآية إنه الحق الذي لا ريب فيه.

﴿**فويل يومئذ للمكذبين**﴾ - الطور ١١ - هذه نهايتهم وهذا مصيرهم الذي ينتظرهم ولا مناص لهم منه فليعتبر المعتبرين وليتعظ المتعظون وليستعدوا لهذا اليوم قبل مجيئه، فإن المستعدين له بالإيمان والعمل الصالح لا يطلبون الرجعة إلى الدنيا لأنهم يتلقون البشارات وتتلقاهم ملائكة الرحمة بالروح والريحان فينصرفون من الدنيا وهم يحبون لقاء الله وكذلك يحب الله لقاءهم، ولو عرض عليهم الرجوع إلى الدنيا لأبوه وآثروا القدوم على روح وريحان ورب راض غير غضبان ففي الآية موعظة بليغة وتذكرة

لأولي الألباب وما يتذكر إلا أولوا الألباب نسأل الله أن ينفعنا بها وبأمثالها ويعيدنا من هول المطلع ويجعلنا من أهل البشارات الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾
أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا
فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ
رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم
مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ
هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ
سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا
لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

النفخ في الصور حق وله أجل معلوم عند الله لا يتقدم ولا يتأخر والايمان به واجب وكيفية النفح يعلمه الله وقد روى أن إسرافيل عليه السلام قد التقم القرن الذي هو الصور، وهو ينتظر الأمر من الله بالنفخ ويقولون أن الصور فيه ثقوب بعدد أرواح الإنس والجن ويوم ينفخ فيه الملك ترجع الأرواح إلى أجسادها وتلك هي نفخة البعث والنشور.

﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾.

إذا حان موعد النفخ في الصور وأمر الله إسرافيل بالنفخ فنفخ وطارت الأرواح ورجعت إلى أجسادها فهبت من رقادها وخرجت من أجداثها فحينئذ لا أنساب بينهم ولا يتساءلون، لا تنفعهم أنسابهم.

﴿يوم يفر المرء من اَخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرءٍ يومئذ شأن يغنيه﴾ ـ عبس ٣٤ ـ ٣٧

تتقطع بهم الأسباب وتتلاشى الأنساب يومئذ يضع الله أنساب العباد ويرفع نسبه الذي به يكرم من يشاء من عباده وهو نسب التقوى.

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ـ الحجرات ١٣ ـ فمن شاء الكرم يومئذ فليتمسك بالتقوى، أما أنساب القرابة والدم فهم لا يتساءلون بها يوم القيامة بل ينكرونها ويفر بعضهم من بعض، لألا يحمل بعضهم بعضا من وزره، فلكل واحد منهم حمله وشأنه، قد شغلته نفسه عن من سواه من الناس ولو كانوا أولي قربى.

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والاَمر يومئذ لله﴾ ـ الإنفطار ١٩ ـ

ذلك يوم القيامة الهائل الرهيب يوم تنصب الموازين القسط فلا تظلم نفس شيئا.

﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾.

فمن ثقلت موازينه لثقل أعماله الصالحة ونياته الحسنة الخالصة ولثقل الحق الذي آثره وتمسك به فأولئك هم المفلحون، ولم يذكر الله هنا نوع الفلاح لأنه قد ذكره في أول السورة حيث قال تعالى:

﴿قد أفلح المؤمنون﴾- وبعد أن ذكر أهم صفات المؤمنين وأعمالهم بين نوع هذا الفلاح فقال:

﴿أولائك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾.

فالفلاح يومئذ هو الخلود في جنات النعيم والفوز برضوان الله تعالى ورضوان الله أكبر جعلنا الله من المفلحين.

﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾- أما الذين خفت موازينهم لخفة الأعمال التافهة فيها وخفة المعاصي ولإيثارهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ولخفة نياتهم الباطلة والفاسدة ولاتباعهم للشهوات وطاعتهم للشيطان فأولئك هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم، وخسارة النفس أعظم خسارة، إذ ربما يخسر المرء ماله وأهله ومن عز عليه فيعزيه الناس ويصبرونه، لكن الذي خسر نفسه وعرضها لعذاب الله وسخطه فتلك الخسارة العظمى ليس كمثلها خسارة ومصيره يومئذ نار جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما.

﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾- تلفح النار بشرة وجوههم فتراها سوداء بلفح النار وسمومها وهم فيها كالحون أي سود الوجوه من

شدة الحر والعطش والبكاء والحزن، ومن ضربات مقامع الزبانية على وجوههم نعوذ بالله من مصيرهم إنه لبئس المصير تلك وجوه طالما تكبرت وأعرضت عن الحق وانفت من السجود لله في دار الدنيا، فلفحها الله بحر النار فهي فيها كالحة آيسة من كل خير ومن كل تخفيف أو نجاة، عليها آثار الخزي والهوان بادية، تعرض الآية الكريمة حالة أهل النار نعوذ بالله منها ثم تعرض مناقشة الله إياهم وهم في أطباق النيران ليكون للمشهد تأثيره ووقعه على المتعظين.

﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾.

استفهام تقريري من الله لهؤلاء المكذبين فيه تبكيت لهم وتنديد بتكذيبهم وإعراضهم وبيان لسوء عاقبتهم وأنهم لا ينفعهم الندم يومئذ، يقول الله لهم موبخا لهم.

﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾.

ألم أرسل إليكم رسلا يتلون عليكم آياتنا وينذرونكم لقاء يومكم هذا ولكنكم كنتم تكذبون الرسل، وتعرضون عن آيات الله، ولا تؤمنون باليوم الآخر وتكذبون بآيات الله التي كانت تتلى عليكم، إنهم يجيبون ولا مناص من الجواب الذي هو الإعتراف.

﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ ـ يفهم اعترافهم ضمنيا من هذا الكلام الذي هو كله إعتذار ويليه تضرع ودعاء وما دعاء الكافرين إلا في ضلال، إنهم أناس

غلبتهم نفوسهم وأهواؤهم وغرتهم شياطينهم فهم يعترفون أنهم غلبت عليهم شقوتهم وأنهم كانوا ضالين بتكذيبهم، والتكذيب على نوعين تكذيب بالجحود وتكذيب بالمخالفة في الأفعال والكل ضلال.

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ ـ النساء ١٤٠ ـ

والنفاق على نوعين: نفاق خيانة، ونفاق تحليل وتحريم، إن النطق بكلمة الشهادة وحدها لا تكفي إذا كان الناطق بها يرتكب الكبائر ويضيع الصلوات ومن مات مصرا على كبائره فقد اتخذ إلهه هواه، أولئك يطلبون الرجعة عند الممات فلا يسعفون بها، ويطلبون الخروج من النار ولا سبيل إلى الخروج.

﴿إنها عليهم موصدة في عمد ممددة﴾ ـ الهمزة ٩ ـ وهناك من يتعلق بالأوهام ويقول: إن هذه الآية خاصة بالمشركين، لا بل إنها لكل كافر ومنافق مكذب بقوله أو عمله، إنها لعامة الأشقياء الذين غلبت عليهم شهواتهم فلا هم لهم إلا بطونهم وفروجهم وأمر دنياهم، وهي موعظة لنا حتى نقاوم دواعي الهوى والشهوات وحب المال وحب الرئاسة والشرف، فإذا تمكنت هذه الأشياء في نفس إنسان فلا ينفع فيه وعظ ولا إنذار، ويا خيبة من تمسكوا بالأماني الفارغة نعوذ بالله من سوابق الشقاء إنهم يقولون.

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾.

يطلبون الخروج من النار ويقطعون على أنفسهم العهود أنهم لن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي ويقولون.

﴿فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ ـ إنكم كنتم ظالمين وإن تخرجوا فإنكم ستعودون إلى ظلمكم ومعاصيكم. قال تعالى:

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ـ الأنعام ٢٨ ـ هذا كلام علام الغيوب الذي يعلم طبائع نفوسهم ودخائل ضمائرهم، إنهم أناس لا يستحقون الرحمة وليسوا أهلا لها وسيذكر في الآية التالية أقبح وأشنع ما وصلوا إليه من الخصال وهو الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين وإيذاؤهم وهذه حالة من أوبقته ذنوبه واستحوذ عليه الشيطان، إنهم يصرخون في النار ولا يجيبهم الله بهذا الجواب الغليظ إلا بعد مدة طويلة قيل بعد ألف عام يقول الله لهم. ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾.

والخسء هو نهاية المذلة والحقارة والهوان، ولا تقال هذه الكلمة إلا للكلاب عندما يرجمون بالحجارة وقد قالها تعالى في الذين مسخوا قردة قال تعالي:

﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ـ الأعراف ١٦٦ ـ أي أذلاء ملعونين.

﴿اخسئوا فيها﴾ـ أي في النار أبدا ﴿ولا تكلمون﴾.

وهذا أمر قدري، إنهم بعدها خرس لا ينطقون ولا يقدرون على الكلام فلا يبقى إلا الشهيق والزفير في أجوافهم، وهذا وعيد ترتعد منه الفرائص نعوذ بالله من مصيرهم وبئس المصير.

ثم يقول الله لهم:

﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾.

هذه الآية بقية جواب الله لهم ثم يسألهم فيجيبون، فجيبهم على جوابهم

بما يلزمهم الحجة ويخزيهم ثم لا يسمعون منه كلاما ولا يطمعون في مخاطبتهم، بل إن الله يبكتهم بهذا الكلام يقول لهم:

إنه كان فريق من عبادي الذين أحبوني وأحببتهم يعبدونني لا يشركون بي شيئا يتضرعون إليّ بالدعاء يقولون ربنا إننا آمنا بك وبكتابك وبرسولك واتبعنا فاغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا واغفر لنا تقصيرنا في حقك وارحمنا يا ربنا وأنت خير الراحمين، أكتب لنا رحمتك الدائمة يا خير الراحمين، كانوا يجتهدون في العبادة والدعاء وكنتم تسخرون منهم وتضحكون عليهم وكذلك يفعل المجرمون في كل زمان.

﴿**إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون**﴾- المطففين ٢٩ - ٣٠ ...ألخ الآيات.

كنتم في مجالسكم تتندرون وتتفكهون بهم حتى أنساكم ذلك ذكري وكذلك من استحوذ عليهم الشيطان ينسيهم ذكر الله ﴿**أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾- المجادلة ١٩ - .

وقلوب العباد على أصناف متباينة منها الذي يلين للحق وتذكره مجالسة الصالحين ورؤيتهم، ومنها الذي ينبو عن الحق ويزداد كفرا وطغيانا برؤية الصالحين ويضحك منهم ويتخذهم سخريا، وسيجزي الله يوم القيامة كلا على حسب عمله، وفي الآية بيان ذلك وفيها إرشاد لما يجب أن يكون عليه المؤمنون المخلصون من التضرع والإبتهال إلى الله والتوسل إليه بالإيمان والدعاء إليه أن يغفر لهم ويرحمهم إنه خير الراحمين، ولا أحد يسلم من الذنوب والمخالفات ولذا يتوب المؤمنون كلهم إلى الله ويطلبون مغفرته ورحمته، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾.

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى بشأنه مع أولياءه المتقين بصيغة الماضي لتحقق وقوع جزائه الحسن بهم، كما يتحقق جزاء المسيئين فكأن القيامة قد قامت وكأن أهل النار يتضاغون فيها وكأن أهل الجنة يتنعمون في الجنة برحمة الله، يقول الله تعالى:

﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ـ أي بصبرهم على طاعة الله جزاهم الله بالفوز في النعيم المقيم وقد زحزحهم الله عن النار.

﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ـ آل عمران ١٨٥ ـ

ذلك هو الفوز العظيم، يخاطب الله أهل النار بهذا الخطاب ليزداد شقاؤهم وحسراتهم في النار، وليعظم تدمهم على ما فرطوا وفي هذا موعظة لمن أراد الله به خيرا فيتذكر ويخشى، ثم يسألهم سؤالا آخر فيه تبكيت لهم وبيان لسفه عقولهم وعظم خسارتهم وغبنهم في صفقتهم الخاسرة حين آثروا ما يفنى، على ما يبقى وباعوا الآخرة بالدنيا فأصبحوا على ما فعلوا نادمين.

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

هكذا جاء السؤال سؤال تبكيت.

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ـ كم لبثتم في الدنيا من السنين وكم تمتعتم في تلك السنين، وكم أصبتم فيها من اللذات، وهل أغناكم ذلك وهل زحزح عنكم العذاب، وقد مضت تلك السنون سراعا وانتهى كل

شيء فما نسبتها لعذاب الأبد، إنها لا شيء لما رأوا العذاب الأليم وصاروا في وسطه وقيل إنكم فيه خالدون لذلك كان جوابهم.

﴿**لبثنا يوما أو بعض يوم**﴾.

نظروا إلى نعيم الدنيا الزائل ولذاتها الفانية فإذا هي لاشيء وما هي إلا يوم أو بعض يوم، تقاصرت المدة وتضاءلت الأيام في ذلك الخلود الهائل، غاب عنهم حسابها فقالوا يوما أو بعض يوم، والغرض من السؤال والجواب الأعتبار وليس الغرض تحديد الحساب.

﴿**فاسئل العادين**﴾ـ جهلوا وضاع عنهم الحساب فقالوا فسأل العدادين فأجابهم الله.

﴿**قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون**﴾.

أقرهم الله على تقليل مدة لبثهم في الدنيا، قال ما لبثتم فيها إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون هذا من قبل وإذن لنفعكم علمكم، ولكنكم علمتم اليوم وعلمكم لا ينفعكم وهذا من الله تبكيت لهم وتوبيخ وإنذار لمن لا يزال في أيام الدنيا ليغتنم منها البر قبل أن تفنى، وليتقي شهواتها فإنها تذهب وشيكا ويبقى العذاب الخالد، فطوبى لمن علّم العلم النافع وطوبى لمن عمل بما علم وطوبى لمن أخذ من حياته قبل مماته وبادر هذا العمر قبل فواته، ثم إن رب العزة القاهر فوق عباده يخاطبهم ليزيد تبكيتهم وإظهار جهلهم وخطئهم وضلالهم فيقول لهم:

﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعلى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم**﴾.

في هذا الإستفهام التعجبي يسخر الله تعالى من فلسفات الكفار الوجوديين المنكرين للبعث بعد الموت الظانين بالله ظن السوء، يظنون أن الله خلق هذا الإنسان عبثا، لا لشيء إلا ليأكل ويتمتع ويلهو ويطغى ويظلم ثم لا يبعثه ولا يحاسبه ولا يجازيه على أعماله خيرا أو شرا، هذا الإنسان الذي كرمه ربه وفضله على سائر المخلوقات بنور العقل وعلمه من العلم ما لم يعلم، وسخر له ما في الأرض، وذلل له الأنعام ومكنه من استخراج كنوز الأرض، ويظن بعد هذا أن يكون مآله كمآل البهائم التي لا تعي ولا تعقل، ثم لا يرجع إلى الله يوم القيامة ليحاسبه على ما قدم من الأعمال.

﴿فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾.

تعالى الله عن العبث واللعب علوا كبيرا وهو الحكيم العليم، وهو الملك الحق الذي ملكه دائم وحق، وكل ملك سواه باطل وزائل، ووعده حق ولقاؤه حق والجنة حق والنار حق والساعة آتية لا ريب فيها والله يبعث من في القبور لا إله إلا هو، لا معبود بحق إلا هو وهو الله في السموات وفي الأرض وفي الدنيا وفي الآخرة رب العرش الكريم، عرشه العظيم مصدر حكمه وأوامره ومصدر رحمته وكرمه وبره، والعرش الكريم، هو العرش العظيم الجامع لأوصاف المجد والكرم منه تنزل الرحمات والكرامات ومنه ينزل كل أمر سلام، ومنه يفرق كل أمر حكيم، وبه يحف الملائكة المقربون يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ونسبة الرب إلى العرش تشرفه وتعظمه وتكرمه وتخصصه بما يمتاز به عن سائر المخلوقات والآية هي أفضل أنواع الذكر.

﴿فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾.

نثني على ربنا بما أثنى هو على نفسه ونعبده وحده ولا نشرك بعبادة ربنا أحدا.

وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ
لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يختم الله هذه السورة بمثل ما بدأ هابه لتكون كالحلقة الموصولة الطرفين في هذه السلسلة الذهبية فقد استهل السورة بإثبات الفلاح وتحقيقه للمؤمنين، ثم بين أوصافهم وأخلاقهم وأفعالهم التي كانت سببا لإرثهم الفردوس وخلودهم فيها، وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين بسبب كفرهم بربهم واتخاذهم آلهة من دون الله بعد أن بين عاقبتهم السيئة وخلودهم في النار، وخزيهم وحقارتهم ومهانتهم فيها ويأسهم من رحمة الله، وفي أثناء السورة يأتي الكلام طويلا في وصف المؤمنين وجزائهم عند ربهم وفي وصف الكافرين ومحاورتهم وإقامة الحجة عليهم، وهنا في آخر السورة تأتي المقارنة بين فريق الكفار وفريق المؤمنين، وبيان البون الشاسع بين عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويأتي حكم الله في المشركين بكل أنواع الشرك جلية وخفية فيقول جل من قائل.

﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرين﴾ ـ والدعاء هو العبادة، ومن يعبد مع الله إلها آخر يرجو نفعه

ويخشى ضـره ويدعوه من دون الله ولا برهان له على عبادته، إنما يعـبد هواه في تقليد الآباء والأجداد فـيه، ويعبدون الشيطان في تزيـينه لهم عبادتهم من دون الله، وقـد عبـد الناس الأوثان وعبـدوا شيـاطين الإنس والجن، وعبـدوا الهوى ومن يدع مع الله إلهـا آخر فإنما حـسابه عند ربه، إنهم يحسـبون أنهم يحسنون صنعا ويظنون أن شفعـاءهم يقربونهم إلى الله زلفى وقد قال الله في حق هؤلاء.

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾- النور ٣٩ -

إنما حساب هؤلاء المشركين عند ربهم سيـوفيهم حسابهم، يقول الله هذا لنبيه ولنا تسليـة لقلب نبيـه ولقلوبنا حتى إذا رأينا نعـمة الله في الدنيـا على هؤلاء الكفـرة لا تضـيق قلوبنا ولا نشك فـي صواب مـا عندنا وضـلال مـا عندهم وقد قال الله في مثل هذا المعنى.

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾- آل عمران ١٩٦ -

وليبين الله نوع هذا الحساب قال: **﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾**.

إن الحقيـقة والشأن أن الكفار لا مطمع لهم في الفـلاح إن مآلهم الدمار والخسـران كما بينته الآيات السـابقة، فليس متـاع الدنيا دليل على محـبة الله وليس نزول المصائب والبـلايا دليلا على سخطه وبغضه فـإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن يبغض وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان وقد قال الله تعالى:

﴿أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ ـ القصص ٦١ ـ

ثم علمنا الله في ختام هذه السورة دعاء ينفعنا ولا يستغني عنه أحد من الناس مهما كان برا ومستقيما وهو طلب المغفرة والرحمة.

﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾.

دعاء عظيم ونافع علمه الله نبيه ولنا جميعا أن نقول رب اغفر لنا ذنوبنا وللمؤمنين والمؤمنات وارحم المتقدمين منا والمتأخرين، ولا تؤاخذنا بالتقصير في حقك وأنت خير الغافرين، تغفر الذنب العظيم وأنت خير الراحمين، رحمتك وسعت كل شيء، أنت أرحم بعبدك من الأم بولدها، علمنا هذا الدعاء واطلق الفعلين ولم يسندهما إلى معمولهما ليدلا على العموم، فنحن نستغفره لنا وللمؤمنين والمؤمنات، ونسأل رحمته لنا وللمؤمنين والمؤمنات، إنه خير الغافرين وأرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين.

وليجتهد المسلم بالتضرع والدعاء إلى الله دبر كل صلاة ودبر كل عمل صالح من أداء الفرائض والسنن والنوافل آناء الليل وأطراف النهار، والدعاء مخ العبادة ومنا الدعاء ومن الله الإجابة والحمد لله رب العالمين.

ـ تم تفسير سورة المؤمنون ـ

تفسير سورة النـــور

ســـورة النـــور

مدنيــة وآياتهــا ٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

السورة تسمى سورة النور ـ كمـا هو معروف لأن الله تبارك وتعالى قال فيها: ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح**﴾ ... الآية .. وسـميت أيضـاً باسم النور لأن في مطـاويهـا ما يـنيـر قلب المسلم بالآداب التي تطهر النفـوس وتزكيها وتنـير القلوب وتجعل الإنسان المسـتنير بها يمشي فـي نور الله، فطوبى لمن عمل بالآداب والأخـلاق المذكورة في هذه السورة! إنها النور حقاً .

بدأها الله تبـارك وتعالى بمقدمـة فريدة في القـرآن، فلا تجد سـورة طويلة مثلهـا ولا قصيـرة بدئت بما بدئت به هذه السورة : أنزل الله في أولهـا ما هو كمـقدمة للأحكـام والآداب والأخلاق المفصلة في سـائرها، وهذا النمط من التقديم تمتاز به هذه السورة من بين سائر سور القرآن ولهذا بدئت هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿**سـورة انزلـناها وفـرضناها وأنزلنا فـيهـا آيات بينات لعلكم تذكرون**﴾ .. وتوضيحهـا هكذا: هذه سورة من القرآن أنزلناها كما أنزلنا غيـرها من السور، وشاء الله أن ينص على إنزالها تنصيـصاً خاصاً وبضمير العظمة ـ نا ـ وهذا يشعر بما لهذه السورة من مزيد العناية والاهتمام من منزلها العظـيم، وإذا كان المنزل عظيم فالمنزل كـذلك بالمنزلة العظمى. ثم قال: ﴿**وفرضناها**﴾ الفرض كما هو معروف يطلق ويستعمل في الإيجاب

للأمر الذي يجب تنفيذه، ولا عذر في التهاون به أو تركه كما هو معروف في سائر الفرائض والواجبات، وقال الفقهاء : إن كلمة فرض أعظم من كلمة واجب، فالحنفية يفسرون الفرض بالأمر الواجب بنص قطعي من كتاب الله تعالى أو بدليل يقيني من السنة، أما ما ثبت بدليل ظني فيطلقون عليه واجباً. وعند بعض الفقهاء يسوون بين الفرض والواجب في المعنى ويطلقون أحدهما بدلاً من الآخر، ومهما يكن فالفرض في الشريعة يطلق على الواجبات المفروضة القطعية، لا عذر لأحد في تضييعها، فمعنى ما تقدم : سورة أنزلناها وفرضنا أحكامها التي تشتمل على حدود وأوامر ونواه فاستمسكوا بأحكامها واعملوا بها ترشدوا.

ثم قال: ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ : أنزلنا في هذه السورة آيات بينا فيها ما يجب بيانه من الآداب والأحكام، والحدود والمعالم مما لا شبهة فيه ولا اختلاف. وفي الآيات متشابه يحتمل معاني يختلف العلماء في تأويلها وتبيينها على المذاهب. وفيها محكمات مبينات قطعية في موضوعها ومدلولها لا تحتمل التأويل ولا الشك ولا الاختلاف، وتلك هي الآيات البينات لأن البين هو الواضح الذي لا شبهة فيه ولا جدال ولا ينبغي فيه الإختلاف.

ثم قال: ﴿لعلكم تذكرون﴾ - كل ذلك لعلكم تتبصرون وتتبينون طريق الآخرة الواضح تتبعونه - ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه﴾ - الأنعام ١٥٣ - ومن رأى بعين بصيرته استبصر وتذكر ولم تذهب به الغفلات والشبه بعيداً عن الصواب، والمرء قد يؤتى من جهله وقد يؤتى من غفلته، وقد يؤتى من نسيانه وأي عاقل لا يهفو ولا ينسى، فهذه الآيات البينات توقظكم من غفلتكم وتذكركم إذا نسيتم، وتعلمكم أحكام الله فتدركون الحكمة من تشريعه فتتبعون هذا الصراط المستقيم، ثم بعد البيان ليحيا من حيي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، يقيم الله الحجة على عباده ويقطع الأعذار ومن أنذر فقد أعذر.

فـالإشارة إلى مـوضوع السـورة بما تقدم يدل عـلى أهميـتهـا العظيمـة ومقامها في الإسلام، فهي تربينا علـى مكارم الأخلاق، التربية الحسنة، العفة والطهـارة، وكرامـة النفس والنبل والشـرف، فـمن كان على هذه الأخـلاق العظيمـة فهـو بالمنزلة العظمى عند ربه ـ وسنرى في مطاوي هذه السـورة ما فـيهـا من أسس التـربيـة الإسـلاميـة الصـحـيحـة، وأصل الأخـلاق الكريمة والسلوك الطيب الذي به تزكـو نفس المسلم رجـلاً كان أو امـرأة .. في هذه السورة مزيد الإعتناء بتربية الأسـرة المسلمة التي هي الخلية الأولى لهذه الأمة الكبيرة، والأمة كما تعلمون مجموعة أسر وعائلات، وكل عائلة تتركب من رجل وامرأة وما ولد، فهي اللبنة الأولى فـي بنيان هذا الصرح العظيم .. فإذا بنيت الأسـرة على الطهـارة والعفـة من رجل وامرأة عـفـيفين اتصـلا بنكاح صحـيح لم يمزج بشيء من سفاح أو ريبـة، نشأ الأولاد على العفـة والطهارة والنقاء، وإذا طهـرت البيـوت، فبالتـالي يطهر المجـتمع ويكون نظيـفاً مهـما كانت خـلاياه نظيفـة، فينبغي الاعـتناء الكامل بهذه الخـلايا التي هي أصول الأمة الإسلامية ولا يصلح بالأفراد والأسر إلا ما شرعه خالق الأفراد والأسر مما فصله لنا في هذه السورة من الأسس والـقواعد والطرق التي إن سلكناها حافظنا على أصول المجتمع النقي السعيد.

من المعلوم أن الفسـاد قد عم دنيانا .. في زماننا هذا بنسـبة تسعين إن لـم نقل تسعـة وتسعين بالمئـة، وكل هذا بسبب انحراف الـعلاقات الجنسـية بين الرجـال والنسـاء وانتـشـار الفـواحش والموبقـات الذي هو سـبب الخـراب والدمار، وما يقع في ديار الخنا والقمار والسهـرات الحمراء وحانات الخمور من القتـل والضرب والسرقـات أكبـر دليل على ما نقول، ولـن يكن صلاح العالم إلا بالرجوع إلى التربية القرآنـية القويمة. ففي هذه السورة سورة النور

أنواع الأحكام والآداب، والردع من الوقوع في الفواحش والموبقات والمنع من الوقوع قبل التردي، والحكماء يقولون : الوقاية خير من العلاج، فلنا كثير من الأوامر والنواهي في هذه السورة إذا تتبعناها نحمي إيماننا من الكدر ومجتمعاتنا من الأمراض الفتاكة التي تخرب المدائن والقرى، ولنا كثير من أنواع العلاج في حالات الإصابات بشيء من هذه القاذورات التي تلوث المجتمعات إذا ظهرت فيها، ولم تعالج بما يزيلها قبل الاستشراء والتمكن أعطانا الله تبارك وتعالى أسباب الوقاية وفي حال الإصابة أرشدنا إلى أسباب العلاج بما وضع من الحدود التي أمر بإقامتها في غير ما رأفة ولا هوادة، بدأ بحد عقوبة الزنا لخطره الكبير على نفس الفرد وعلى بنيان المجتمع فصدع بحده هكذا بدون مقدمة ليكون أشد وقعاً في النفوس، ثم أمر بإبعاد الزناة عن المجتمع المسلم حتى لا يتلوث فقال: ﴿**الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المومنين**﴾.

ثم شدد في ظروف إقامة الحد، فأمر بشهود جماعة المؤمنين للعظة والاعتبار، وخزي المحدود فقال: ﴿**وليشهد عذابهما طائفة من المومنين**﴾ ثم ثنى بعد ذلك بحد القذف والتشديد فيه حتى لا تنتشر الفاحشة في المجتمع النظيف، وحتى تصان أعراض المسلمات والمسلمين ولا شيء يشيع الفساد وينشر الفواحش، كشيوع التهم وانتشار الكلام في الناس، فهو الذي يهيج الشهوات في نفوس مرضى القلوب الذين يتشممون الجيف ويتحسسون الريب ومواطنها. فالقذف لا يقل خطراً عن الزنا ولذلك أمر بإقامة الحدود على كل من يقذف بريئة أو بريئاً كما تقام على الزناة أنفسهم، ثم أمر المسلمين المؤمنين أن يحسنوا الظن بأنفسهم وإذا ظن الجار خيراً بجارته لا يخطر بباله أن يتعرض لها ولو بالإشارة والغمز، إنما يكون ذلك

إذا ظن سوءاً فيطمع أن توافقه على قصده الخبيث أو يوافقها هي على ما تطمع منه، كل ذلك يكون عند شيوع الفساد، فالأوساط التي يتعرض فيها الشبان للفتيات على أبواب المدارس أو يطرقون عليهن أبوابهن أو يتعرضون لهن في الطرقات، أوساط موبوءة شاعت فيها قالة السوء وظن السوء، لذلك يأمر الله تبارك وتعالى المؤمنين والمؤمنات أن يظن بعضهم ببعض خيراً وينفوا عن قلوبهم الوساوس والهواجس السيئة ـ ﴿**لولا إذ سمعتوه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيراً**﴾ ـ كما سيأتي الكلام في قصة الإفك .

يأمرنا الله تعالى أن نشيع بيننا حسن الظن وليس رد التهم هو الرضى بوقوع الفاحشة، كما أن سوء الظن وشيوع التهم ليس هو قمعاً للفواحش بل هو إشاعة لها، فإن كثيراً ممن يشيعون التهم هم المتهمون بحب الفواحش لا تحملهم الغيرة على ذلك كما يتوهم البسطاء من الناس، بل يشيعون التهم لمرض في قلوبهم فهي تهوى الكلام في الفواحش كما يعترف الكثير منهم بتصريحات فيها خبث وريبة، فالذي يحملهم على الولوغ في أعراض المحصنات هو الحقد عليهن لتمسكهن بأهداب الفضيلة والستر والحياء، ولأغراض أخرى دنيئة في نفوسهم الخبيثة فنهى الله المؤمنين والمؤمنات عن الاستماع إليهم والإنخداع بترهاتهم وأمر برد أقوالهم، وحكم عليهم بالفسق والكذب، وأمر بجلدهم حد القذف كما سيأتي، ونهانا عن قبول شهادتهم وأخبر أنه أعد لهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، كل ذلك ليطهر المجتمعات المسلمة لتحصن الفروج وتغض الأبصار وتزكى ـ ﴿**قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها**﴾ ـ النور ٣١ ـ .. الآية .. وهذا كله سيأتي تفسيره إن شاء الله .

ويأمر الله النساء بالحجاب أمراً صريحاً ﴿**وليضربن بخمرهن على جيوبهن**﴾ والخمار معروف تسدله على وجهها وصدرها وعلى جسدها كله، وفصل في هذه السورة أصناف المحارم الذين يجوز للمرأة أن تبدي لهم زينتها ـ ثم أمر بالاستئذان في البيوت لأن البيوت لها كرامة وحرمة فلا يجوز دخولها ولو كانت أبوابها مفتحة ولا النظر إلى أجوافها من أي منفذ ولا الاقتراب إلا بالاستئذان والسلام، كل هذه الأحكام سيأتي ذكرها في محلها، ثم بين مواضع الاستئذان حتى أمر الأطفال الذين دون البلوغ بالاستئذان في بيوتهم على آبائهم وأمهاتهم في مخادعهم، وكذلك العبيد والإماء على مواليهم، وإذا بلغ الأطفال الحلم فليستأذنوا في كل وقت وفي كل موضع حتى على آبائهم وأمهاتهم لأن العورات تستر عن القريب والبعيد والكبير والصغير. وهكذا يسترسل في هذه الآداب العالية ويتخللها بالتذكير والوعظ والتخويف، كما هو أسلوب القرآن البديع. ثم يذكر أحكام القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً لكبرهن وعجزهن فيخص بأحكام فيها بعض التخفيف شرط أن لا يتبرجن بزينة غير أنه قال: بعد هذا الترخيص ﴿**وأن يستعففن خير لهن**﴾ ـ النور ٦٠ ـ فالستر خير لهن : ويذكر الله في مطاوي هذه السورة قصة الافك وما اتهمت به عائشة أم المؤمنين من طرف الذين يطلقون ألسنتهم قصد إحداث الفساد في المجتمع الإسلامي النظيف، لأن روح المجتمع وقوامه هو الفضيلة والنقاء والطهارة ولا يضره بعد ذلك أن يكون قليل العدد إذا كان أفراده يسود بينهم الصفاء والعفاف وحسن الظن وكرامة النفوس، ذلك هو المجتمع الصالح الذي يبلغ مأربه من خير الدنيا والآخرة ويبارك الله لهم وعليهم، غير أن المنافقين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان يتربصون الفرص، ويحاولون إفساد المجتمعات

الصالحة بما يلقون بين الحين والآخر من إشاعات سيئة يحاولون بها بلبلة أفكار الناس، فيتأثر بها ضعاف النفوس والقلوب، فيحذرنا الله تعالى من الاستماع إليهم التحذير الشديد كما سيأتي تفصيله في مواضعه .. يريد الله أن يطهر مجتمعات المسلمين والمسلمات من إشاعة الفاحشة حتى لا يطمع الذين في قلوبهم مرض.

ويباعد الله بين الطيبين من عباده والخبيثين فيقول تعالى: ﴿**الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون**﴾ ـ النور ٢٦ ـ .. الآية .

كل ينجذب إلى جنسه فالطيب لا يرغب إلا في الطيب، والخبيث لا يرغب إلا في الخبيث حتى يرضى الفاحشة في أهله فيكون ديوثاً وليس في الجنة ديوث.

هنالك ناس يسترزقون من أعراض بناتهم ولا يستحيون من ذلك يختالون في زينتهم غادين رائحين إلى دور البغاء يحصلون منها أرزاقاً من بناتهم البغايا ولا يبالون، يتعجب الواحد منا من هذا الحضيض الذي تردى فيه هؤلاء والعياذ بالله ولكن ينتفي العجب إذا عرف السبب، وهو أن هؤلاء الدياييث لم ينتهوا إلى ذلك المصير طفرة لكنهم تردوا إليه تدريجياً وفصموا عرى الأخلاق عروة عروة حتى أصبح المنكر عندهم معروفاً والعكس، فيؤدبنا الله ويطهر أنفسنا وينقيها من الدنس الذي قد يتمكن فيها على مر الأيام فتألف ما تنفر منه اليوم وذلك هو المسخ الحقيقي .. مسخ النفوس وعمى البصائر هؤلاء مسخوا قردة وخنازير، وكثير من العلماء فسر المسخ الوارد في القرآن إنما هو مسخ الطباع، حتى صاروا في التسافد، والفساد كالقردة والخنازير، يقضون شهواتهم أمام الناس ولا يبالون وأي مسخ أقبح

من هذا وفي الناس اليوم كثير من هذه الأصناف، ترددوا في مهاوي الشهوات الجنسية فصاروا قردة وخنازير، ولو شئنا لسمينا أناساً يشجعون أولادهم على الفسق ويضعون تحت تصرفهم أموالاً ويأمرونهم بذلك، هؤلاء ليسوا بمسلمين، ولا تكون عاقبتهم إلا وخيمة ومنهم من أرانا الله سوء عاقبته فمات غماً وحزناً بسبب فساد أولاده، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة وسينفذ حكم الله فيهم إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الصراط المستقيم: وهذا تمثيل جرته مناسبة الكلام في تقدمة تفسير هذه السورة العظيمة التي جمع فيها من الآداب والأحكام والحدود ما لم يجمع في غيرها من السور، وقد قدم الله تبارك وتعالى بهذه المقدمة الممتازة تنويهاً بشأنها وتنبيهاً لنا لنقرأها ونحفظها ونطبق ما فيها من أحكام وآداب على الأفراد والمجتمعات.

ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «حفظوا نساءكم سورة النور»، وورد حديث آخر: «علموا رجالكم سورة المائدة ونساءكم سورة النور». أما المائدة ولأنها أواخر ما نزل من القرآن : فيها أحكام كثيرة: فيها ستة عشر نداء بيا أيها الذين آمنوا، وفيها وفي سورتي النساء والأحزاب أحكام النساء، وأما النور فلما علمتم وستعلمون من توجيهاتها الرشيدة في تربية العائلات والأفراد .. وورد أن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يكتب لعماله يأمرهم أن يأمروا الناس أن من لم يستطع حفظ القرآن كله فليحفظ سورة النساء والنور والأحزاب، وما هذا إلا لأن سيدنا عمر يعلم أن فساد الدنيا من فساد العلاقات بين جنسي النساء والرجال. فلو استقامت وكانت كلها بطريق النكاح الصحيح والعفاف والتقوى لنقص أكثر ما في الدنيا من شرور وآفات ومحن.

وكان سيدنا عمر يأمر بتحفيظ النساء سورة النور وتعليمهن الغزل

ولزوم البيوت فإن ذلك أطهر لهن وللمجتمعات وأسلم من الشرور والإنحرافات. هكذا نرى حكم الله تعالى البالغة في تقدمة هذه السورة ثم يشرع لنا حد الزنا فيأمر المسلمين بإقامة الحد على الزناة بهذه الصيغة القاسية الجادة فيقول:

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

إختار الله تبارك وتعالى هذا الأسلوب من التعبير المصرح فيه بلفظ الزنا كما كرر هذا اللفظ في سورة النور. ومعلوم أن لفظ الزنا يدل على الفاحشة الكبرى الفظيعة حتى أصبح اللفظ نفسه وكأنه يستحيي من ذكره فقليلاً ما يصرح به إلا إذا اقتضاه المقام، والله تبارك وتعالى يكني ولا يصرح غالباً في الأمور التي تتعلق بالجنس، يعبر لها بتعابير لطيفة فيقول مثلاً في الجماع **﴿باشروهن﴾** ـ البقرة ١٨٧ ـ، **﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾** ـ النساء ٢١ ـ، **﴿أو لامستم النساء﴾** ـ المائدة ٦ ـ، **﴿ما لم تمسوهن﴾** ـ البقرة ٢٣٦ ـ يتخير العبارات اللطيفة الخفيفة ليس فيها تصريح بما يستحي الكريم من ذكره، ولا نجد التصريح بلفظ الزنا إلا قليلاً في القرآن فيقول مثلاً في باب النهي عنه: **﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾** ـ الإسراء ٣٢ ـ، والذين لا يزنون ويقرن الزنا بالشرك فيقول: **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾** ـ الفرقان ٦٨ ـ بينما يكني في آيات أخرى بحفظ الفرج: **﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾**. فتكرار هذه الكلمة ست مرات في هذه السورة يدل على نوع من التقبيح الشديد

والوصف الشنيع اللاصق بمرتكبي هذه الفاحشة. والابتداء بذكر لفظة الشنيع مقصود فلو شاء لقال: (يأيها الذين آمنوا اجلدوا الزانية والزاني مائة جلدة)، وإنما اقتضت حكمته أن يفاجئ السامعين بهاتين اللفظتين الشنيعتين مبالغة في التقبيح والتنفير، ثم يتركهم ينتظرون الخبر عن هذا الجرم الفظيع ما الحكم فيه؟ فيجيء الحكم له وقع في النفوس ويرتبط بالفاء إيذاناً بالعلية ﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾، ولكي ينصص على الحكم مفصلاً ويحققه جيداً ـ ذكر صفة المرأة وصفة الرجل، ولو شاء بصفة المذكر التي يطلق على كل من صدر منه الزنا رجلاً كان أو امرأة ولكنه صرح بذكرهما معاً حتى لا يبقى مطمع في نجاة أحدهما من العذاب، فهم في العقوبة سواء كلاهما مجرم سواء كان الإغراء من المرأة ثم استجاب الرجل أو كانت المطالبة من الرجل ثم طاوعت المرأة ما دام كلاهما مستجيب لداعي الشهوة البهيمة بطريق غير مشروع فيه هدم لبنيان المجتمع النزيه، وتدنيس لشرف البيوت والأسر.

﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ ـ الجلد هو الضرب بالسياط وهذا عقاب أليم فيه وجع شديد وإذلال وإهانة للمجلود، لأن الضرب إنما يقع على البهائم لا لبني آدم، ولما كان الزاني دنس نفسه وأنزلها في متابعة الشهوات منزلة البهائم صار مستحقاً لعقوبة البهائم جزاء وفاقاً، ولم يعد إنساناً يتحكم عقله في شهوته، والعقل موهبة اختص الله بها الإنسان فمن كفرها استحق العقوبة الصارمة بينما البهيمة الراتعة الغافلة غير مسؤولة ولا محاسبة لأنها ليست عاقلة، فالإنسان المتبع هواه شر منها وأضل، من أجل ذلك قال الله في مثل هؤلاء: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ ـ الفرقان ٤٤ ـ أشبهوا البهائم في الطباع ولكن دركتهم أسفل لأنهم اتبعوا شهواتهم وعصوا عقولهم.

وقيل فـي الحكم : «من غلب عقله على هواه فـقد نجـا، ومن غلب هواه على عقله فقـد ضل وغوى» .. فرض الله هذه العقوبة الصارمـة عقوبة الجلد على الزناة ﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ ـ حكم مقرر مضبوط: مائـة جلدة لا ينقص منها واحـدة، كمـا أنه لا يجوز أن يزاد علـيهـا واحدة، وحكم الله ليس فـيـه زيادة ولا نقص، وثبت في الحـديث عنه ﷺ قـال: «يؤتى يوم القـيامة بأحـد أقام الحـد ونقص سوطا فـيقول الله له: لـم نقصت سوطاً؟ فيقول: يا رب رأفة بعبادك فيجيبه الله تعالى: أأنت أرأف بعبادي مني إذ هبوا به إلى النار، ويؤتى بآخر زاد فيقول له: لم زدت فيقول يا رب ليرتدع عبـادك فيـقول الله له: أأنت أحكم مني، إذ هبـوا به إلى النار». ولذلك يطلق على هذه العـقـوبات حـدود لأنهـا محـدودة يجب الوقـوف عند شـرع الله الحكيم. ثم قال الله تعالى: ﴿ولا تاخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ ـ الحكم الثاني: لا تـأخذنا بالمحدود رأفـة، والرأفة هي الشـفقة والرقـة والحنان الذي يكون في القلب الذي ربما يحـمله على تخـفيف العـقوبة أو تخـفيض عـدد الجلد، فأراد الله تعالى أن ينفذ عليه العذاب كاملاً ليرتدع غيره، ولذلك قال: ﴿وليشـهـد عذابهـما طائفة من المومنين﴾ ـ وسمـاه عذاباً فلابد بتـشديد الضرب وإحداث الوجع لـيكون عذاباً ـ وهنا كما قالـت عائشة ﵂ تصف أميـر المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: «كـان عمر إذا مـشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع».

وقال تعالى: ﴿رأفة في دين الله﴾ ـ فبين بهذه العبـارة أن إقامة الحدود دين ندين الله به ونقيم شعـائره كما تقام الصلاة والصوم والزكـاة، وكما تقام شعـائر الحج ـ إن هؤلاء الفسـاق عبيـد آبقون عن ربهم هتكوا حـرمة الدين وفسادهم كـبير، فهم لا يستحـقون الرأفة ولا التخفيف، كـما أنهم لم يرأفوا

بالمجتمع حين ارتكبوا هذه الفاحشة التي تصدع أركانه وتهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، ثم زاد فقال: ﴿إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر﴾ ـ هذه من الآيات التي يستدل بها على أن سياسة الدولة ونظام الحكم، وتقنين القوانين يجب أن تكون مستمدة من كتاب الله، لا فرق في الإسلام بين الدين والدولة، والتفريق بينهما من خرافات النصارى الذين يقولون: الدين لله والوطن للجميع. يقصدون بهذا التفريق بين الدين والدولة، والله تعالى شرع لنا الإسلام ديناً كاملاً ينظم للفرد واجباته وأعماله وللدولة سياستها وأعمالها ونظام الحكم والطرق التي تساس بها الأمة، كل ذلك شرع متماسك آخذ بعضه ببعض إن كنتم مؤمنين الإيمان الحقيقي لا تأخذكم بهما رأفة، فتريدون من العقوبات غير ما أراد الله وشرع، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. وهذه الحدود مكلف بها أئمة المسلمين وحكامهم، فهم المخاطبون بهذه الآيات لا العوام والرعايا وفيها ما فيها من التعزير والزجر والآداب، وهذا باب واسع من الفقه له مواضعه لمن أراد التوسع في العلم.

ثم قال تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المومنين﴾ ـ الشهود هو الحضور، أمر الله أن يقام الحد على الزاني علناً لا سراً فليجهر به في ملأ من الناس ليحضروا ويشاهدوا ويعتبروا فيرتدعوا، ثم ليكون ذلك أخزى للمحدود وأظهر لفسقه حتى يجتنبه الناس ويبقى المنكر منكراً والمعروف معروفاً، وقد يرتدع الإنسان بالخوف أولاً ثم بعد ذلك يستقيم ويذوق حلاوة الإيمان، ويصير العفاف طبعاً فيه يجتنب المعاصي بغضاً لها وخوفاً من عقاب الله في الآخرة لا من الحد في الدنيا. فالإشهار في إقامة الحدود لفائدة الفرد والمجتمع حتى يبقى هذا المجتمع نظيفاً وبعيداً عن حمأة الفواحش

والمنكرات. فمعنا في هذه الآية أربعة أحكام: ﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ هذا حكم ـ والحكم الثاني ـ ﴿ولا تاخذكم بهم رأفة في دين الله﴾ ـ والحكم الثالث ـ ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المومنين﴾ ـ والحكم الرابع ـ أن هذه الطائفة من الفساق لا منزلة لها في المجتمع المسلم، ولا يصح نسبتها إلى عباد الله المؤمنين، بل هؤلاء فاسقون خارجون من حظيرة المجتمع النظيف، لا محل لهم فيه فإما أن يموتوا بإقامة الحد عليهم إن فعلوا ذلك بعد الإحصان، وإن فعلوه قبل الإحصان لا يعودون إلى حظيرة المسلمين إلا بعد أن يتطهروا بالتوبة والإنابة، ويطهروا بإقامة الحد عليهم إن أعلنوا فاحشتهم أو قام عليهم الشهود.

فرق الله بين الزناة وبين المؤمنين ونهى المسلمين عن الإقتراب منهم فقال:

ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

والحق أنه لا يرغب في نكاح المرأة المشهورة بالفساد إلا من هو فاسد مثلها، ولا ترغب في نكاح الرجل الفاسد إلا فاسدة مثله. وجعل الزاني في درجة المشرك وهذا إيذان من الله بالمقت لعمل هؤلاء، والمؤسف أن كثيراً من شبان المسلمين الذين طمست الشهوات بصائرهم يرغبون في الإقتران بالفواسق فلا يقر لهم قرار إلا إذا ذهبوا إلى بلاد الشرك فيرجعون منها متأبطين ليهوديات أو نصرانيات أو مشركات، ويرغبون عن العفيفات من بنات أوطانهم وهذا خطر كبير على المجتمع المسلم يجب درؤه ووضع حد لهذا العمل الخاطئ، وكثيرون منهم يختارون قريناتهم في الملاهي والمسارح

وفي الطرقات والشطوط يتبرجن ويبدين زينتهن ومفاتن أجسادهن ويتعرين ليصطدن قلوب المفتونين بالمظاهر، الغافلين عن الفضائل والأخلاق الإسلامية لخلو قلوبهم منها والحال أن المثل الحكيم يقول : إختر لك زوجة بسمعك لا ببصرك.

والحديث الشريف يقول : «فاظفر بذات الدين تربت يداك». وذات الدين هي العفيفة المحصنة المتسترة التي تغض بصرها وتحفظ فرجها ولا تقرب الزنا، فهي من المحصنات الغافلات المؤمنات اللاتي لا يحوم حولها الريب، وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية في حكم التزوج بامرأة كانت مبتلاة بالزنا ثم تابت واستقامت على توبتها، فهناك من يقول لا رغبة فيها ولا خير في الاقتراب منها ولا يجيز الاقتران بها، فليس من شأن المسلم العفيف أن يرضى بها زوجة ولا أماً لأولاده. ومنهم من يجيز نكاحها إذا تابت توبة نصوحاً، وظهر على مر الأيام صدق توبتها واستقامتها، وعلى هذا القول جمهور الأمة واستدلوا عليه بقوله تبارك وتعالى: ﴿**وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم**﴾ ـ النور ٣٢ ـ وببعض الأحاديث وبعض وقائع في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، إمرأة إبتليت ثم تابت واستقامت وساق الله لها من يسترها ويحصنها، وهذا أطهر لها وأزكى للمجتمع المسلم لأن بقاءها بدون زوج ربما يغريها أو يغري بعض فساق القلوب بمحاولة إغوائها فخير لها أن تتزوج.

أما ما يفعله بعض الفسقة يتصلون ببغي في دار الفساد ثم يختص بها ويذهب بعد ذلك يعقد عليها فحرام عليه ذلك، وقد ورد في الحديث الصحيح : «أيما رجل زنا بامرأة ثم تزوجها فهما زانيان إلى يوم القيامة»، لا يجوز بحال والحال هذه أن يفكر المؤمن في الاتصال بهذه الجيفة المنتنة وقد

يؤول الأمر أن يصير ديوثاً والعياذ بالله .. لكن إذا تابت بغي وظهر صدق توبتها وابتعدت عن مواطن الريبة فحينئذ رخص العلماء لمن لم يتصل بها بتاتاً أن يتزوج بها ويحصنها ففي ذلك إعانة لها على أمر صلاحها. ثم إلى جانب حكم الجلد المنصوص عليه في هذه الآية نجد حكم الرجم لمن سبق لهم الاحصان أي الزواج، نجد حكم الرجم ثابتاً بالسنة وبإجماع العلماء والأمة كلها ولا خلاف في ثبوته بين المذاهب والرجم هو أن يضرب الزاني رمياً بالحجارة حتى يموت، الرجل يحفر له إلى السرة والمرأة إلى الصدر، وبعض العلماء قالوا: لا لزوم لهذا الحفر، ثم يرمى بحجارة متوسطة مقدار قبضة اليد، هذا حكم كل زان أو زانية سبق لأحدهما الزواج ولو كان حال ارتكاب الفاحشة عزبا. وهناك حكم يضاف إلى المحدودين بالجلد وهو التغريب، فقد روي من طرق مختلفة وصحيحة، أن عليه الجلد مائة وتغريب عام، وعند بعض المذاهب الاكتفاء بالجلد وعندنا معشر الإباضية يرجع أمر التغريب إلى نظر الإمام إذا كان في التغريب مصلحة للمجتمع وزيادة زجر للمحدود غرب وهذا للرجال خاصة، وهذا حسب المصلحة لأن بعض الفجار قد لا يرتدعون بمجرد الجلد حتى يبعدوا عن موطن جريمتهم وجوها، فيكون ذلك عوناً لهم على السلو عنها واشتغالهم بما يفيدهم ويصلح حالهم، وهذه نظرية سديدة يمكننا الجمع بين ما جاء في القرآن وما ورد في السنة لأن أحوال الناس تتفاوت فليكن أمر النفي حسب ملاحظة الإمام لأحوالهم .

وأما كيفية الضرب وحجم العصا ونوعها ففي ذلك فقه أيضاً، فلا تكون غليظة كالهراوى ولا تكون لينة رخوة إنما تكون متوسطة في الطول والقصر وبين الغلظ واللين، وعند الجلد يتجنب الوجه والفرج والبطن ووضعية الجاني عنه الجلد يكتف أو يبطح أو لا يبطح ـ كل ذلك مبسوط في

كتب الفـقه من أراد مـعرفتـه فليقـصد مظانه ـ المهم أننا رأينا شـدة مقت الله تعالى لهذه الفاحشة بما شرع لأصحابها من عقوبات الرجم والجلد والتشهير وعدم الرأفة بهم، وفي هذا ما يكفي للاعتبـار والردع وهذه العقوبة مشروعة أيضاً في شـرائع من قبلنا كالتـوراة فيهـا الرجم، وذلك لأن طغيان شـهوات النفس شيء لا يخلو منه زمـان ومكان، وفـساد الزنا أمـر معلوم في الأفـراد والمجتـمعات فلا مـعنى لقول الطاغين من ملاحـدة المستشرقين وغـيرهم في عقوبة الرجم :

يقـولون هي عـقـوبة وحـشـيـة إذ الضـرب للبـهائـم والرجم للكلاب، وينسون الأضـرار والمصائب التي يحـدثونها بالمجتـمعات والـنسل بما يفوق العقوبـة التي يرونها وحشيـة، وسنتعرض لمطاعنهم إن شاء الله عندمـا نفصل أحكام العقوبات والفرق بينها ونشرح أضرار الزنا مفصلة ولنا في تشريع الله ثقة عظيـمة وتسليم كـامل : فالله يعلم وأنتم لا تعلمـون ـ الله تعالى أعلم بما يصلح أمر عباده وأرحم بهم من أنفسـهم، وهذا لا يشك فيه من في قلبه ذرة من إيمان .

﴿الزاني لا ينكح إلا زانيـة أو مـشـركـة والزانيـة لا يـنكحـهـا إلا زان أو مـشـرك وحـرم ذلك على المومنين﴾ ـ لا يزال الكلام طويلاً في تفسـير هذه الآيات، وفي قوله تعالى: **﴿وحـرم ذلك على المومنين﴾** ـ وقد تقدم الكلام في تحريم الزواج من امرأة معـروفة بالزنا كما أن المرأة العفيـفة المسلمة يحرم عليـها الزواج من رجل مـعروف بـالزنا ـ وحرم ذلك ـ الإشـارة إلى النكاح المذكور هنا، أما قبل التـوبة فالتحريم أجمعت عليه الأمـة كما هو منصوص عليـه هنا، وأفـتى كثـيـر من العلمـاء بأن على إمـام المسلمين أن يفـسخ هذا النكاح وللولي إذا تزوجـت وليتـه بفـاسق مشـهـور بالزنا أن يرد النكاح ولا

يمضيه، هذا الحكم قبل التـوبة، أما بعد توبتهما من الزنا فـلا بأس بإنكاحهما عند جـمهـور العلماء إذا صـدقت توبتـهمـا واستـقامـا، أما إنكاحـهمـا من بعضهما البعض فلا يجوز لا قـبل التوبة ولا بعدها عملاً بالحديث الصحيح المتقدم : «أيما رجل زنى بامرأة» ـ وهو القول الذي اعتـمدناه معشر الإباضية وبنينا حكمنا على الحديث.

إتفق علماء الإباضـية كلهم وكثير من علمـاء المذاهب الأخرى على أن نكاح مزنية الرجل حـرام عليه ولو اتصل بها مرة واحدة اتصالاً مـحرماً يتأبد تحريمهـا عليه، وجاء لفظ كتـاب النيل هكذا: حرم على الرجل نكاح مزنيـته وإن بكره أو بعد توبته، إعتمد صاحب النيل الـشيخ عبد العزيز الثميني على صاحب كتاب الإيضـاح الشيخ عامر الشماخي وعلى كـتاب النكاح للشيخ الخير يحـيى بن النفوسي ـ رحـمهـم الله ـ وهذا يبين ما عليـه أهل المذاهب، والكلام في الجبـر والكره مفـصل في كتب الفقـه المبسوطـة وقال في النيل : وبعد توبة، أي تحرم عليه ولو تابا وندما.

وروى شارح النيل الشيخ أطفيش ـ رحمه الله ـ عن الإمام جابر بن زيد ﷺ قال: «من زنى بامرأة فلا يتـزوجها وليجعل بينهما البـحر الأخضر وإن قدر أن لا ينظر إليها أبداً فليفعل»، ثم روى القطب أيضاً في شرح النيل قال: «سئل أحد الصحابة عن رجل زنى بامرأة وبعـد ذلك تزوجها فأجاب قائلاً: تزوجها شر من زناها، فاعتبـر الزواج بهذا امتداد لخط الزنا بينهما وكان هذا أشر من الزنا لأنه حـال الزنا أعتقد أنـه عاص وفي الزواج بها أعتـقد أنه في مباح حلال، وهذا أخطر من الأول وأبعد عن التوبة فكان شراً منه. فالواجب إبعادهما عن بعضهما البعض.

ثم روى الشيخ القطب ـ رحمه الله ـ في النيل قال : «سئلت عائشة ﵂

قالت: فكرهته أي حرمته»، والكراهية في عرفهم يومئذ التحريم، كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً. وروى حديثاً آخر عن النبي ﷺ قال: «لا نكاح بعد سفاح». ثم روى عن عائشة ﵂ أنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿وحرم ذلك على المومنين﴾ ـ فأجابت قائلة : حرام على أحد زنى بامرأة أن يتزوج بها بعد». قال الشيخ ـ رحمه الله ـ : وفي ذلك رد على كلام من قال من مخالفينا بتحليل نكاح الزاني بمزنيته ولو بعد التوبة. قال الشيخ معلقاً على كلام عائشة أم المؤمنين إنها لم تفت بهذه الفتوى إلا إعتماداً منها ﵂ على أدلة صحيحة لأن الأحكام التي لا يفتى فيها بالرأي لا يصرح بها مثل عائشة في ورعها إلا معتمداً على نص، فكلامها ـ رحمها الله ـ حكم الرفع ولو لم تصرح بالرفع لأن الصحابة ﵃ خاصة الفقهاء منهم أمثال عائشة وابن عباس وابن عمر وعبدالله بن مسعود والخلفاء الراشدين ومعاذ وأبي وزيد بن ثابت هؤلاء فقهاء الصحابة لفتاويهم اعتبار لا يكون لغيرهم فهم أهل الحديث وأهل الفتوى وأهل التحقيق كما قيل :

الدين قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس خلف فيه
ما الدين نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه

أما ما رووه عن ابن عباس من أنه أفتى في المسألة بالجواز قال: أوله سفاح وآخره نكاح ـ فلذلك تأويل عند أصحابنا، فقد حملوا كلام ابن عباس على ما إذا وقع الأمر في الشرك ثم دخلوا في الإسلام فلا صلة مطلقاً بين الهديين والإسلام جب لما قبله.

قال الله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ ـ الأنفال ٣٨ ـ وعلى هذا التأويل يحمل أيضاً ما رووه من حديث، من قال لا

إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق، أي في الشرك ثم دخل في الإسلام معلناً بكلمة التوحـيد فإنه يغفر له ما عمل من عهد الشـرك كائناً ما كان، أما في الإسلام لابد بالتـوبة النصوح كمـا هو مقرر في الـقرآن والسنة في آيات كثيرة وأحـاديث فلا نخطئ في التأويل ونتجرأ على الله ثم نتـمسك بالأماني فهي لا تغني شيئاً، أعفى الله الداخلين في الإسلام من تبعات الشرك وأعماله في الدنيا والآخرة تيسيراً لهم ليجلبهم إلى الإسـلام، ومراعاة لموقفهم الحميد فإن التـحول من دين وتقاليـد موروثة إلى دين جديد ليـس بالأمر الهين على النفس، لأن الخـارج من دين آبائه وأجداده وقـومه قـد حكم ضمناً بخطئـهم وضـلالهم وهذا أمـر عظيم ولا يقـوى عليـه إلا أولوا الصدق والـعزم. أمـا تناكحـهما بعد زناهمـا في الإسلام فحرام كمـا أفتى بذلك كثيـر من علماء الأمة وأجمع عليه علماء الإباضية.

وفي المذهب يقول الشيخ عبد العزيز في النيل: حرمت بالغة وما ولدها وما ولدت على ناظر فـرجها وإن خـطأ على الأشهر، وشـدد في فرج صبـية بعـمد وكـذا حكم ناظرة عـورة رجل، هذه عـبـارة النيل وهو المعـتمـد عند الإباضية ـ وهذا باب واسع من الفقه وفيه أحكام كثيرة، وكذلك حكموا في المس كالنظر، إذا مس رجل فرج امرأة تحرم عليـه إلا إذا كان لتنجية أو علاج وبدون شهوة فلا بأس حينئذ ولا تحـرم، وكذلك الشأن في امرأة مست عورة رجل بالغ. إذا كـان هذا الحكم في النـظر والمس فكيف بالمبـاشـرة، هذا عند الإباضية ومن قال بقولهم من علماء المذاهب الأخرى ولهم أدلتهم في ذلك.

أما جـمهـور علمـاء المذاهب الأربعة فـيجـيزونه بعـد التوبة النـصوح والتكفيـر والاستـغفار، ولنبـحث الآن فيمـا يقع في هذا العصـر حتى ندرك كيف يتـرجح المصير إلى قول الإباضـية في هذه المسألة وهي الحكم بتـحريم

مزنية الرجل عليه مطلقاً طال الزمان أو قصر. لنفهم النكتة جيداً، كي ندرك أن الزمان له دخل كبير في تبيين الحق في اختلاف الأقوال والمذاهب. فتطورات الأمور وما يحدث من أنواع الفجور يكون سبباً في إحداث أقضية أو ترجيح أقوال كانت مرجوحة لعلاج ما يقع فيه الناس من انحرافات وأمراض.

واليوم في هذا العصر الذي اختلط فيه الجنسان واتصل الرجال بالنساء كل يعاشر الآخر مدة طويلة في الملاعب والملاهي والسينماءات والسهرات والشطوط.. وغير ذلك من أنواع التسكعات والخلوات فلا يذهبون إلى عقد النكاح إلا بعد أن يشبع بعضهما من بعض، وقد يوجد من بينهما أولاد فيذهبون إلى التعاقد بعد عشْرَة سنة أو سنين، وهذه فكرة شائعة عند الكفار فأصابتنا العدوى من الاختلاط بهم وتعلقوا بفتوى الجواز بل أجبرهم القضاء على الزواج بمزنياتهم بدعوى أن أولى الناس بها من أفسدها، وتضاءل عندهم شرط التوبة الذي اشترطه المجيزون حتى اختفى تماماً فتسبب عن ذلك أن أجبروا على الاقتران بمن لا يرغبون فيهن لأن الزنا مفسد للحب مذهب للثقة من القلوب، فنشأ عن ذلك أضراراً ومآس كثيرة وانتشرت أنواع القتل والانتحارات المادية والمعنوية، وارتمى الشباب والشواب بين أحضان الجرائم والفجور واختلطت الأنساب، والكتب والمجلات والجرائد ملأى بالقصص المبكية المضحكة، ولا نحب الآن أن ندخل في الحديث عن أضرار الزنا فله مواضعه ولكن نتكلم الآن عن نكاح المزنية والاعتماد على هذه الفتوى، ومن غير قيد ولا شرط أباحوه وألزموهما بذلك، فنزعت القيود الرادعة وارتكبت الفواحش وتعديت الحدود ووقع الناس في الحرام، ولو صاروا إلى فتوى المانعين لكان ذلك أكبر معين على ردع النفوس عن

الزنا، لأنه طالما يعلم أن اتصاله بمن يهوى يمنعه من الاقتران بها فهو يصبر، يستعصم حتى يسعفه الحظ من الاتصال بها حلالاً وشرعاً. ولا يقترب منها في حرام أبداً إذا كان يعلم أن ذلك يؤبد عليه تحريمها، ومتى رغب فيها وأعجبته ذهب إلى أوليائها يخطبها، وكذلك هي إذا رغبت فيه وأحبته فإنها تمنعه من الاتصال بها في حرام وترشده إلى الطريق الحلال لأن اتصالهما في حرام يمنعهما من الاقتران الذي يرغبان فيه.

فانظروا ما في فتح هذا الباب من البلايا وما في سده من الحكم والعصمة والابتعاد عن الحرام، على أنه الحق الذي يتعين المصير إليه للحديث الصحيح المتقدم الذي فيه أن نكاح المزنية زنا وهو حرام، ولقولهم يجعل البحر الأخضر بينهما، وقول جابر: إن استطعت أن لا تنظر إليها أبداً فافعل. وقد تكلمت مع بعض علماء المسلمين في هذه القضية : فأيدني واقتنع بصواب فتوى الإباضية في الموضوع بعد أن أحس ولمس أخطار الفتوى بالجواز فليس فيها ردع عن فاحشة الزنا كما هي في فتوى المنع، واليوم أصبحت المرأة كأنها متاع أو فاكهة في حانوت بقال من أراد أن يشتري يذوق أولاً، فانظروا إلى أي حد من الإهانة والإبتذال صارت المرأة متاعاً في الأسواق، والحال أنها إنسان مكرم معزز صيانته في ستره وعفافه فلو أن الحكومات الإسلامية أخذت قوانينها من الشريعة الإسلامية ومنعت كل من زنا بامرأة من الاتصال بها لأقامت بذلك سوراً منيعاً متيناً بين الفتيان والفتيات، فلا يقترب بعضهم من بعض إلا بعد الخطبة ثم بعد العقد الشرعي الصحيح، أما النظر فلا بأس به، وأهم من ذلك السماع تسمع عن أخلاقها وأوصافها وتصرفاتها فإذا أعجبتك فاذهب إلى وليها فاخطبها منه إن اطمأنت نفسك إلى أهلها وديانتهم .

هذه هي الطريقة السليمة إلى الاتصال الشرعي المباح والعلماء الذين أفتوا بجواز نكاح المزنية قالوا إذا كانت قد تابت وأنابت وواظبت على أسباب الطهر والعفاف، فجاءت مناسبة في يوم من الأيام فخطبها بعد كل هذه الشروط وليست هذه الطريقة تتبع اليوم، بل يسافح اليوم لينكح غداً، ولا يمكن أن يفتى مسلم بهذا، ولسنا نرجح هذه الفتوى تعصباً لمذهبنا إنما أدركنا رجحانها بحوادث الزمان وشيوع الفساد، فرأينا فيها علاجاً وردعاً وطريقاً سليماً لإصلاح المجتمع الإسلامي وصونه من الإنحدار والإنهماك، ثم لصحة سند الحديث الذي اعتمدنا عليه، فهو السور المتين الذي يمكن أن يحجز بين الفتيان والفتيات ويمنعهم من التشبه بأعمال أهل الشرك في أوروبا وأمريكا وجهات أخرى ـ وما يجري اليوم من اتصال بين الشباب والفتيات في المدارس والجامعات أمر منكر ومعصية ظاهرة، ولكن ما دام لم يصل إلى الإتصال الجنسي والزنا الحقيقي فلا تحرم.

هذه هي الفتوى الراجحة فإذا وقع الإتصال فلا نكاح، فنكاحه حينئذ شر من سفاحه. ثم إننا ننبه بهذه المناسبة على عدوى أصابت شبابنا من دول الغرب وهو عزوف شبابنا معشر المسلمين عن البنات المسلمات المتحجبات العفيفات، وميلهم إلى الفتيات المتفرنجات العاريات يقترنون بهن ويخاللونهن في الشوارع والملاهي والمسابح، هؤلاء الفاتنات المفتونات اللائي ظاهرهن أنيق وباطنهن خبيث، بل حتى الظاهر من أعمالهن وأقوالهن وطباعهن قبيح، لا خير فيه، فهن يعرضن أنفسهن للخلان عرضاً رخيصاً ولا يرددن يد لامس .. فالعجب كل العجب من هؤلاء الأغرار المفتونين، يتركون بنات أعمامهم النشئا على الأخلاق والطهر والعفاف والدين ويميلون إلى أولئك الشيطانات اللائي ليس فيهن رائحة دين ولا حياء

ولا عفاف، ولا ينفع قرينهن إن كن يحملن شهادات ودكتورات ما دام المطلوب من المرأة الدين والستر والأخلاق، فهي أسباب سعادتها وسعادة زوجها لا ما تحمل من شهادات مع خلوها من الدين والفضيلة، ثم بعد ذلك لا تمكث في بيت زوجها بل تكون موظفة في مكتب أو مصلحة أو مستشفى، ولا حظ لزوجها منها ولا لأبنائها ما دامت هذه عاقبتها وغايتها التي تصبو إليها، والناس كلهم يعرفون حياة موظفات المكاتب حيث الاتصالات بين الموظفين والموظفات والمواعيد المضروبة ولو دخلنا هذا الميدان لغرقنا فيه وطال بنا الكلام وتشعب، ولم يعد سراً ما يحدث في ملتقيات الشباب ورحلاتهم واتصالاتهم والعجب ممن يزعم أن حرية المرأة هي فسقها وتبرجها وتسكعها وكونها متاعاً يلتهي به العابثون السفهاء من الناس، ولا يعلم أن الحرية الحقيقية والكرامة الإنسانية هو ما منحها أياه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً فهي لا تتزوج إلا بمن ترغب وترضى، ولا تحرم من حظها المعلوم من الميراث ولا تمنع من التصرف في مالها.

﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ ـ البقرة ٢٢٨ ـ وهذه الدرجة تقتضيها طبيعة فضل الرجال على النساء وهي لازمة لصلاح المجتمع واستقرار نظام البيوت والأسر السعيدة، فمن الخير لكم ولمستقبلكم أيها الشباب أن ترغبوا في الإتصال بالمتدينات العفيفات كما قال نبيكم ﷺ : «تنكح المرأة لجمالها وحسبها ومالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» ـ هذا حق لأن كل هذه الأشياء المرغوبة في المرأة إذا تجردت من الدين كانت وبالاً في المرأة على الرجل، وإذا وجدت إلى جانب الدين كانت زيادة خير وكمال، والكمال منشود وليس له على الحقيقة وجود إلا لله، وكل نقص في هذه الأشياء مع حصول الدين فمحتمل ومقبول

مرجو العوض في الآخرة مع السكون والطمأنينة وحسن العشرة في الدنيا وهي السعادة التي ينشدها الإنسان في هذه الدنيا.

أما اقترانك بامرأة غير متدينة لا تصلي مثلاً فهو شقاء إلا إن كانت لك قدرة على تعليمها الصلاة وحملها على ذلك حملاً حقيقياً فيكون لك أجر لهدايتها .. أما ما يفعله شبابنا من الاتصال بفتيات لا يعرفن التدين ولا الصلاة فليس هذا من شأن المسلمين، ولا تكون عاقبة هؤلاء إلا وخيمة، فكيف يرضى المسلم أن يقترن بمن لا يصلي، وكيف يرضاها أما لأولاده وليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة كما جاء في الحديث الصحيح: «فمن تركها تهاوناً فهو كافر كفر نعمة، ومن أنكر فرضيتها فهو مشرك مرتد عن دينه» - فكيف يقترن المسلم بالكافر وكيف ينشأ أولادك من أم كافرة والله تعالى يقول: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ - التحريم ٦ - ... الآية - إنه والله لمما يدعو إلى العجب والأسف الشديد أن يرضى مسلم بخبيثة لا تصلي، يرضى بها زوجة ويزول العجب إذا ألفينا أن هؤلاء هم مثلهن لا يصلون ولا يتقون فهم بطبيعتهم الخبيثة يميلون إلى الخبيثات مثلهم - وصدق الله العظيم - ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾ فلولا فساد في نفوسهم وأخلاقهم ما كانوا يميلون إلى الفاسدات، وكل يميل إلى جنسه، ثم لا تسل عن الذرية التي تنشأ في حجور هؤلاء الكافرات، وكيف يفلح من لا يرى مفلحاً، إننا في حرج مع هؤلاء الآباء الذين يأتوننا بأولاد كبار فوق سن البلوغ وهم لم يعلموا من أمر الصلاة شيئاً ومنهم من لا يحسن حتى النطق باللغة ولا الكتابة بها فاضطررنا أن نكتب ألفاظ الصلاة بحروف لاتينية مع ثقل في النطق وصعوبة في التهجي وفي العربية حروف لا توجد في اللاتينية، فلا يتعلمون

صور الصلاة القصيرة إلا بعد جهد جهيد، وهم من أمور الدين الضرورية أفرغ من فؤاد أم موسى، فاحذروا هذه العواقب قبل أن يقترن أحدكم يفكر في الأولاد فهناك ناس يبكون الدم على أولادهم ولا يجدون من يمسح دموعهم ويقال لهؤلاء: يداك أوكتا وفوك نفخ، وبنات هؤلاء أغيظ لهم ولنا من أبنائهم، لا حجاب ولا حشمة ولا دين .

ومن يرغب فيهن إلا أمثالهن .. أليس الحزم والحكمة أن نبتعد من أول مرة عن الإقتران بالخبيثات ونبحث عن ذوات الدين. فنصيحتنا إلى شبابنا المسلم في كل مكان أن يجنبوا أنفسهم ويريحونا من هذه العواقب السيئة فلا يتورطوا في هذه المهاوي التي لا قعر لها ولا نجاة منها فلا بارك الله لهم في هذه الاتصالات الفاجرة، ولا بورك لهم في السافرات المتبرجات العاريات، ألا يشفقون على جيوبهم إن لم يشفقوا على دينهم وأولادهم، إن هؤلاء يكلفن أزواجهن مصاريف باهظة لأن كل همهن هو أن يتمتعن ويتنزهن مهما بلغت التكاليف ولا شفقة لهن ولا رحمة على الأزواج فقلوبهن في هذه الناحية من حديد، وربما لآن الحديد ولا تلين، فإذا كنا مع بنات بلادنا المقتصدات المتقشفات نشكو الغلاء والمصاريف فكيف مع هؤلاء المسرفات المبذرات.

فاربئوا بأنفسكم واشفقوا على دينكم ثم على دنياكم أيها الشباب، ولا يفتننكم الجمال الموهوم المموه فإن وراءه الحسرات الطويلة والندامات ولات مندم.

وبعد ففيما ذكرت عبرة للمعتبرين، ولا نشك في حكمة تحريم الله نكاح المزنية ـ ﴿وحرم ذلك على المومنين﴾ ـ لا سيما وقد رأينا ولمسنا آثار كل نكاح لم يؤسس على تقوى من الله ورضوان، ولم يقترن بذوات الدين. فما

أحرى بالمؤمن البصير أن يبتعد عن هـذه المهاوي ولا يغره البهرجة والتهاويل فالأمر خطير، والعاقل من اتعظ بغـيره ومن أراد بدافع الغيرة أن يأتي ببعض بنات هؤلاء قصـد إنقاذهن فبـشرط أن يتعاهدوا باتـباع طريق المسلمين، من الحجاب الشـرعي وإقامة الصلوات وفرائض الدين، وإلا فـاتركوا البلاء ولا تأتوا بالعـدوى إلى بيـوتكم فـعدواهن أخطر مـن كل عدوى في الأمـراض البدنية، فتخيروا لنطفكم فـإن العرق دساس، كما ورد في الحديث الشريف: «وإياكم أن تضـعـوا بذوركم إلا في الأرض الطيـبـة وتفكروا قـبل الإقـدام وإياكم وموارد الندامة» وقانا الله وإياكم وهيأ لنا من أمرنا السلامة والرشد .

ولنرجع إلى تفصيل أحكام العقوبات والفـرق بين عقوبة المحصن وغير المحصن فنقول: في الآية عقوبة الجلد وليس فيها ذكر الرجم، فالرجم لم يرد به نص الآية غير أنه ثبت بالسنة الصحيحـة المطبقة بالفعل، وأجمع المسلمون على صـحة ذلك وتواتر نقله جـيلاً بعـد جيل، ومـثل هذا الأثر لا ينكره إلا جاهل مكابر لا وزن لإنكاره ولا عبرة بخلافـه، فالزاني الذي لم يحصن بعد يأمر الإمـام بجلده ثم ينفيه إذا اقتـضت الحكمة ذلك كأن يكون كـرر العمل فيبعد عن الجو الذي استمرأ فـيه المعصية إلى جو آخر حتى يسلوها ولا يفكر في الإتصال الحرام مرة أخرى. والزاني المحصن يرجم بالحجارة حتى يموت، وقد أقـيم هذا الحد غـير مرة في زمـان الرسول ﷺ على الرجـال والنساء وفي زمان الخلفاء الراشدين وأئمـة المسلمين بعدهم. والزنا يتفرع إلى أنواع، يتعلق بكل نوع حكم خاص، هناك الزنا بمعناه الحـقيقي، وهو اتصال الرجل بامرأة أجنبية إتصالاً غير شرعي فهذا هو الزنا المراد في الآية والذي يقام عليه الحد بإجـماع المسلمين، وهناك إتصال الرجل بمحرمـة من ذوات المحارم ولو بعقـد فهنا الحكم فيـه أنهم يقتلان وتصـادر أموالهمـا، وترجع إلى بيت مال المسلمين.

وهناك نوع آخر من الزنا وهو عمل قوم لوط، أدخله بعض العلماء في حكم الزنا: الجلد لغير المحصن والرجم للمحصن، ولكن وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»، وفي رواية : «واقتلوا الأعلى والأسفل محصناً أو غير محصن» .. ثم اختلف العلماء في نوع القتل فبعضهم قال: يقتل بالسيف تقطع رقبته كما يقتل المرتدون، وبعضهم قال: يرجم كما يرجم الزاني. أما مذهب أبي بكر والإمام علي وجماعة من الصحابة والتابعين فهو أنه يقتل بالسيف ثم يحرق في نعشه ولا يدفن كما يدفن المسلمون، ويرى بعض الصحابة أنه يجعل في دار عتيقة ويهدم عليه البناء حتى يموت بذلك، وبعض يرى أنه يلقى من جبل شاهق أو بناء عال يلقى على أم رأسه فإن مات بذلك وإلا أعيد إلقاؤه حتى يموت، وهؤلاء استنبطوا الحكم من عقاب الله تعالى لقوم لوط، هذا كله بعد اتفاقهم على قتله وسواء أحصن أو لم يحصن هذا إذا كان بالغاً، أما إذا كان دون البلوغ فيعاقب حسب نظر الإمام بما يؤدبه هذا إذا كان مختاراً غير مكره. أما إذا أكره فلا عقوبة على مكره والله أعلم .

وهناك نوع آخر من الزنا وهو إتيان البهائم وقد ورد في الحديث : «ملعون من أتى بهيمة»، وفي الحديث: «اقتلوه واقتلوا البهيمة» ـ ولا تذبح ذبحاً لأكل لحمها فإنها لا تؤكل إنما هي جيفة تدفن ـ ثم اختلفوا هل يغرم الآكل قيمتها إن لم تكن ملكاً له؟ .

أما السحاق الذي يقع بين النساء فعقوبته التعزير وهو الجلد دون الحد، وكذلك كل إتصال بين الرجل والنساء لم يصل حد الزنا الحقيقي كالمعانقة والتقبيل والمباشرة دون الإيلاج والحكم فيه التعزير تأديباً لفاعله، وكل هذه

العقوبات لا تقع إلا بعد التثبت وقيام الحجة بالطريقة الشرعية كما سيأتي بيانه في الآية التالية .

إما إقرار أربع مرات، وإما الشهود الأمناء بعد التثبت والرؤية للعمل الحقيقي للزنا، ثم يصل الأمر إلى الحاكم فيقيم الحد عليهما ولا يمكن أن يقر الزاني بمزنيته حتى تعترف هي بنفسها فيقام عليها الحد، هذا ما وقع في زمن النبي ﷺ وبأمره وحكمه في قصة ماعز : وهو شاب من شباب الصحابة ابتلاه الله فارتكب فاحشة الزنا بعد إحصانه فأرشده أحد الصحابة أن يذهب إلى النبي ﷺ ليستغفر له فذهب إليه واعترف بين يديه بفاحشته في المسجد بعد الصلاة فأعرض عنه النبي ﷺ حتى كرر إقراره أربع مرات وفي كل ذلك يعرض عنه، ثم قال له لعلك قبلت لعلك عانقت، كل ذلك لعله يذهب فيتوب إلى ربه فيتوب الله عليه، ثم اتجه النبي إلى الصحابة فقال: أبه جنون؟ قالوا لا يا رسول الله فقال: لعله شرب خمراً فقام إليه أحدهم فشمه فلم يجد فيه أثراً للخمر، فأمر النبي ﷺ به فرجم غير أنه قال للذي جاء به لو سترته بثوبك لكان خيراً لك لأن النبي ﷺ لم يكن حريصاً على التجسس وكان يقول؛ من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فإن الستر والحياء من الإيمان. ويقول: من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله، والقاعدة العامة في الشريعة الإسلامية أن هذه الجرائم التي فيها الحد كالزنا والسرقة وأمثالها إذا ارتكب أحد منها شيئاً فما دام أمره لم يصل إلى الإمام أو الحكام فاستتبته فتاب ورد المظالم يمكن العفو والإعفاء لكن إذا وصل أمره إلى الإمام فلا عفو ولا إعفاء ولابد حينئذ من إقامة الحد ولو تاب توبة نصوحاً فإن توبته بين يدي الإمام لا ترفع عنه الحد، ولم يكن النبي ﷺ حريصاً على البحث عن الموجبات لأن ظهورها ظهور للفواحش،

ولأن المجتمع الإسلامي لا يصلحه ذلك ولا خير في شيوع الفاحشة، فشيوعها هبوط للقيم المعنوية والخلقية في المجتمع.

فلنفهم السر في قوله ﷺ للذي جاء به: «لو سترته بثوبك لكان خيراً لك» فلو أنه تاب واستغفر وستر ذنبه لغفر الله له أما وقد أظهر أمره فلابد بإقامة الحد وتوبته تنفعه في الآخرة ترفع عنه عذاب الآخرة، وقد شهد له النبي ﷺ بصدق التوبة فقال فيه : لقد تاب توبة لو وزعت على أمة لوسعتهم، وقال: إنه لفي أنهار الجنة ينغمس فيها كما قال في الغامدية التي أقيم عليها الحد بعد توبتها: لقد تابت توبة لو أنها وزعت على أهل المدينة لوسعتهم، ولولا صدق توبتها لما ذهبا بأنفسهما إلى النبي ﷺ يلحان عليه أن يطهرهما بإقامة الحد عليهما. ثم بعد إقامة الحد على المحدود التائب يصلى عليه ويتمتع بجميع حقوق المسلمين من الولاية والدعاء وغيرهما، وفي المرأة إذا ظهر أنها مجبورة على الزنا لا يقام عليها الحد وإنما يؤخذ لها العقر من مجبرها وهو عشر الدية إذا كانت بكراً، أما الثيب فلها نصف العقر والصبية دون البلوغ لها عقرها ولا عبرة برضاها أو سخطها فتعتبر مجبورة مهما كان حالها، وكذلك الصبي له مثل ذلك إذا فعل له ولا ينفع رضاه، وإذا أجبر بعد البلوغ فله نصف العقر كالثيب. أما إذا وافق فلا شيء له وعليه الحد واللعنة إذا لم يتب، هذه هي الأحكام التي تتعلق بالموضوع فلابد بمعرفتها، ثم باب التوبة بعد هذا مفتوح فمن ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليبادر بالتوبة النصوح قبل الفوات، وأداء ما لزم عليه من الكفارات وعلى كل فاحشة من هذه الفواحش كفارة مغلظة نسأل الله العصمة، ومن ابتلي من هذا ثم تاب توبة نصوحاً نسأل له التوبة والمغفرة حتى يموت على حسن الخاتمة.

ثم إن الله تعالى لما حرم الزنى سماه فاحشة ونهى عن الاقتراب منه فقال جل من قائل: ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ - الإسراء ٣٢ - والفاحشة في عرف القرآن تستعمل في الذنب الكبير الذي عظم ضرره واتسع خطره، لأن الفحش في اللغة فيه معنى الاتساع ما كان ضرره يمس جهات مختلفة وكثيرة فكبائر الذنوب تسمى في عرف القرآن فواحش - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش - ثم زاد فقال الله في حقه وساء سبيلاً وقرر له أحكامه السابقة، الحدود في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة وإنما يقوم بإقامة الحدود أئمة العدل فإن لم يكونوا وأمكن جماعة المسلمين أن يقيموها فذلك وإلا فما أمكنهم من النكال والتعزيز والتأديب. وكذلك جميع الشرائع السابقة قررت عقوبة الزناة، ففي التوراة الرجم فعند كل الأمم أن الزنى رذيلة من أعظم الرذائل وعار يلوث المجتمع، كما أن العفة فضيلة من أعظم أنواع الفضائل، وذلك شيء فطرت عليه النفوس، ولا عبرة بما ابتلي به كثيرمن ملاحدة هذا العصر وغيرهم ممن مسخوا فلم يعودوا كالبشر، مسخت عقولهم وقلوبهم فأصبحت ترى المنكر معروفاً والمعروف منكراً فرؤوسهم منكسة، أما وضعها فعلى أجسامهم ولكنهم على الحقيقة منكسون فهم على غير الوضع السليم، طمست عقولهم وردت وجوههم على أدبارهم فهم لا يرون في الزنى عيباً وهؤلاء اتخذوا مذهب العرى مذهباً فهم يمشون عراة كما خلقهم الله ولا يستترون بشيء ويتسافدون على مرأى ومسمع من الناس، فلا حياء عندهم ولا فضيلة وهذا هو المسخ الوارد في القرآن في أمثالهم من كل زمان ومكان .

﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن**

سواء السبيل﴾ ـ المائدة ٦٠ ـ فهم يتسافدون كما تتسافد القردة والخنازير في غير حياء ولا خجل وهم كذلك مثل الخنازير لا غيرة لهم على أنثاهم ـ فهذا هو المسخ الذي ليس فوقه مسخ، ووجود هؤلاء في كل زمان لا ينقض القاعدة العامة التي تقررت في الفطر السليمة، ونزلت بها الشرائع وهي أن الزنى رذيلة من أعظم الرذائل، واتفقت القوانين في القديم والحديث أن الزنى جريمة تستحق العقوبة، ثم اختلفت قوانينهم في تحديد نوع العقوبة ومقدارها واتفقوا على تقبيح هذه الجريمة لأنها لو فتح بابها لتهدم المجتمع وأتى على بنيان الحضارة الإنسانية من قواعده فينهدم ولا تقوم له قائمة فلا يمكن لذرية آدم حينئذ أن تعمر الأرض ولا أن تقوم بخلافة الله فيها كما يجب؛ لأن عمارة الأرض لا تقوم إلا على مجتمعات متماسكة ومتصلة بعضها ببعض اتصالات منتظمة بطريق تأسيس عائلات وأسر وشعوب وقبائل، بينهما حقوق وواجبات متبادلة بينهم، تعاطف وتعاون وتناصح، والإنسان كما هو معلوم مدني بالطبع لم يخلق للغابات والجبال والبراري إنما خلق ليكوّن أمماً تسودها قوانين وشرائع، فلا يمكن لنوع الإنسان أن يعيش إلا كذلك، والخلية الأولى لتكوين الأمة هي الأسرة تتكون أولاً من زوج وزوجة مرتبطين ارتباطاً شرعياً ثم ينشأ بينهما أولاد شرعيون يحوطانهم بعنايتهما.

﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ ـ الروم ٢١ ـ وهذه المودة والرحمة لا توجد إلا في بيوت أسست على التقوى من أول يوم، أما الذان يتعارفان في الشارع ويتصلان اتصالاً عابراً يقضيان فيه شهوتيهما ثم يفترقان كالبهائم فلا يكوّن اتصالهما أسرة ولا عائلة، ولا يتقدم بهذا النوع عمران ولا حضارة ولا مدنية، وفي الدنيا ملايين وملايين من الحيوانات والبهائم، وهل تقدم بها

عمران أو حضارة! كلا لا تجد الحيوانات اليوم إلا كحيوانات أبينا آدم وأبينا نوح التي حمل منها في سفينته، هي ملهمة بما يحفظ عليها عيشها ونسلها غير أن إلهامها محدود، ولذلك تراها تعيش قطعاناً ليس بينها نسب معلوم ولا قرابة محفوظة وطبيعة وجودها ما دامت مملوكة لا مالكة ومسوقة لا سائقة ومسخرة، فطبيعة وجودها لا تقتضي أكثر من ذلك، فلا ضرورة تقتضي انتظامها أسراً وعائلات وانقسامها شعوباً وقبائل.

أما الإنسان فلابد من عقد بينه وبين أنثاه ويختص بها وتختص به، ثم ينسلان نسلاً خاصاً بهما ويرتبط ذلك النسل برابطة النسب ثم تتشعب الروابط وتكثر الوشائج والصلات.

﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ - الروم ٢١ - هذا ما يحدث بين الزوجين الشرعيين - أما الزنى فلا يحدث بين الزناة مودة ولا رحمة، إن هي إلا الشهوة البهيمية يقضيانها ثم يفترقان، ولعل أحداً يخطئ أو يعتبر بالألفاظ التي تتبادل بين أبناء الهوى من الحب والغرام فليست إلا فوران الشهوة لا غير، ثم تنتهي عند قضاء الشهوة فلا تدوم، ولا دوام إلا لرباط حلال مقدس سماه الله تعالى ميثاقاً غليظاً:

﴿**وقد افضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ - النساء ٢١ - فلا يجوز أن يفصم هذا الميثاق إلا لضرورة معتبرة شرعاً، كأن يكون أحدهما لا يطيق الآخر بغضاً فيخاف من بقائهما ألا يقيما حدود الله فحينئذ يباح ما كان ممنوعاً وهو الطلاق على الطريق الشرعي المعروف، على هذا الأساس المتين تنشأ الذرية الطيبة، بينما الزاني لا يعترف بالأولاد ولا يلتصقون به والزانية لا تكون في قلبها الرحمة لأنها ترى الولد سبب

فضيحتها، فربما تتخلص منه بقتله أو نبذه بعيداً عنها أو إسقاطه وإفساده قبل أن يعلق، وعادة ما يفسد ما في أرحام العواهر باختلاط المياه وتنشأ هناك الأمراض والأوبئة الفتاكة مثل الطاعون وذلك لاختلاط المياه العفنة التي تسري منها العدوى.

وفي الحديث الصحيح : «وما انتشرت فاحشة الزنى في قوم إلا ابتلاهم الله بالطاعون» ـ ومن المؤسف أنه فشت في شباب العالم اليوم الرغبة عن الزواج مطلقاً أو تأجيله إلى سن متأخرة فراراً من تحمل مسؤولية العائلة والأولاد، إنتشرت هذه الفكرة في أوروبا وأمريكا ومنها فشت في الشباب العربي وانتشرت انتشاراً غريباً .. كل يكره ويقول لا أتحمل في عنقي مسؤولية عائلة أنفق عليها إنما أقضي لباناتي في ليلة أو ليلتين في الأسبوع ثم أذهب لحال سبيلي، وكذلك النساء يعتقدن هذا، فانتشر العزاب وكثر الفساد وكثر أولاد الزنى، فتجد رجالاً ذوي مناصب علماء ووزراء ورؤساء جمهوريات عزاباً، وبعضهم يكره الزواج لأنه لم تعد له ثقة في الكاسيات العاريات الفاسقات، فهو لا يحب أن يقترن بمن يعرف فسقهن وفجورهن ولو استقاموا لرغب بعضهم في بعض، وبعضهم لا يرغب في الزواج حتى يجمع المال فيتأخر إلى بعد الأربعين والخمسين وهذه الظاهرة من فقدان التوكل على الله الذي يقول :

﴿**وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**﴾ ـ النور ٣٢ ـ ويزعمون أن الأرض لم تعد تكفي لتموين العدد الذي عليها من الفقراء ومن البشر فتراهم حتى بعد زواجهم يحددون النسل خوفاً من الفقر وهذا ينافي الإيمان. وإنتشرت هذه الفكرة في الأوساط المنتسبة للعلم، حتى اهتمت جمعيات التغذية بعدد سكان الأرض

بعد ستمائة عام فقالوا : لا تكفي الأرض لإيواء هذا العدد الضخم فيصبح لكل فرد على الأرض (ياردة) مربعة ونسوا أن هذا التقدير للعزيز العليم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، وليس إليهم تقدير الأرزاق والإسكان ولا يعلمون من شأن الغد القريب شيئاً فكيف بالمستقبل وهو بين الله تعالى:

﴿وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ - هود ٦ - وبعضهم لا يرغب في الزواج خوفاً من تكاليفه وتكاليف الحمل والرضاع والتربية وما يستتبعها من المصاريف، فتراه ميالاً إلى الراحة وحب الذات يتهرب من هذا الواجب الثقيل ويلجأ إلى الفسق والزنى ينال منه لذته المحرمة وذلك لقلة الإيمان فلا دين يردع ولا رقيب من تقوى، ومن ذا الذي يستعصم مع الشباب وتوفر الأسباب، ولذلك أمر الشرع الشباب على الأخص بالزواج ورغب فيه بقدر ما حذر من الزنى، لأن شهوة الجنس إن لم تجد لها متنفساً ذهبت تفتش يميناً وشمالاً فلا تجد وراء ذلك إلا الحرام.

جاء في الأثر الصحيح : «العازب شيطان»، وجاء في الحديث الصحيح: «وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» - وهذه الآثار وأمثالها علاج للفرد والمجتمع وحماية من آفات الزنى وأسبابه، ورغبنا الشرع في الزواج الباكر حتى ورد في الحديث الشريف : «من كان عنده بنت وبلغت الثانية عشر ووجد لها زوجاً فلم يزوجها وارتكبت إثماً فإنه شريكها في الدين» - إنه لا حفظ لنوع الإنسان الذي به عمارة الأرض إلا برباط الزواج المقدس فهو وحده الذي تنشأ به الأسرة، لأن نوع الإنسان لا يصلح بقاؤه إلا بتعاون الزوجين زمناً طويلاً على تربية أولادهما، فليس كالبهائم التي تتسافد وتذهب لحالها ولا تمكث طويلاً فتفطم رضيعها ثم يستغني عنها

ويذهب لحاله وينساها وتنساه فالويل للعالم، والخراب والدمار إذا انصرف الناس عن الزواج، فلا تربية ولا عناية ولا مودة ولا رحمة ـ فإما عقم وفساد الأرحام باختلاط المياه، وإما أولاد الزنى الذين بدأوا يكثرون تحتار فيهم الدول، فهم ينشؤون كالبهائم لا عواطف ولا أخلاق وهم أولاد الملاجيء والتجمعات التربوية، وويل للأمة التي تسند أمورها إلى أولاد الزنى فهم خراب العالم لم ينشأوا في أحضان الدين، فهم قساة القلوب لا شفقة لهم ولا رحمة وفاقد الشيء لا يعطيه، وهم جراثيم الفساد وآفة الأخلاق بين الناس هذا هو السبب الذي من أجله اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بفاحشة الزنى فشدد فيها وقال :

﴿ولا تقربوا الزنى﴾ ـ الإسراء ٣٢ ـ وعالج شهوات الشباب بالأمر المؤكد بالزواج ورغب فيه ترغيباً لا مزيد عليه حتى وعد على الاغتسال من الجنابة الحلال على كل شعرة حسنة والحسنة بعشر أمثالها، وقال ﷺ : «وفي بضع أحدكم صدقة. فقالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته فيكون له أجر. فقال لهم: أرأيتم لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر. فقالوا: نعم. فقال: فذلك كذلك»، وللمبالغة في الابتعاد عن الزنى نهانا عن كشف العورات، وأمرنا أن نفصل بين الأولاد في المضاجع إذا بلغوا سبعاً، وأمرنا بغض البصر، وأمر النساء بإخفاء زينتهن حتى التي تسمع منها ولا ترى كالخلاخيل، لأن صوتها ربما يفتن ونهيت المرأة أن تتعطر وتخرج فذلك نوع من الإغراء، كل هذه سدود وأسوار تحجز الإنسان عن الاقتراب من الزنى وسنمر على الايات التي هي نص في الموضوع في أثناء تفسيرنا السورة إن شاء الله، وقد يهتم الأطباء إذا أحسوا بخطر وباء من الأوبئة مثل الكوليرا فيلقحون الناس بما يقاومها ويمنع من انتشارها إشفاقاً من الخطر، والزنى

أخطر من الكوليرا، ومن كل وباء فتاك، فنرى كم جاء في سورة النور وسورة النساء وسورة الأحزاب وسورة الطلاق من التطعيمات والوقايات التي إذا استعملناها أمنا الخطر واتقيناه، وفيما إذا لم ينجح الدواء والوقاية في بعض الأشخاص فآخر الدواء الكي، فحينئذ تنفذ فيهم الحدود حتى يوقى المجتمع من خطرهم فيرجم الزاني المحصن ويجلد الذي لم يحصن ويغرب، إن اقتضت الحكمة تغريبه، عاماً كاملاً فبقدر ما أحيطت هذه الفاحشة به من الأسوار المتينة ندرك خطرها على البشرية ـ وقانا الله شرها ـ ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ ـ البقرة ٢١٦ ـ البقرة ٢٣٢ ـ آل عمران ٦٦ ـ النور ١٩ ـ .

والخلاصة أن الإسلام اعتبر فاحشة الزنا من أخطر الفواحش واتخذ جميع الوقايات منها، واعتبرها فاحشة يتضرر منها المجتمع ولذلك حد فيها حداً، وأمر أن يشهده طائفة من المؤمنين للتشنيع بفاعلها وليعتبر به غيره، ولم يفرق فيه بين طبقة وطبقة كما هو في تشريع مانو عند الهنود، فإنهم فرقوا بين الطبقات طبقة شريفة وطبقة منبوذة، فعندهم إذا زنى رجل من المنبوذين بامرأة شريفة فجزاؤه أنهم يقطعون مذاكيره، وفي بعض الشرائع يربطونه بسرير من حديد ويحرقونه، وإذا زنت امرأة شريفة برجل منبوذ يحرقونها، أما إذا زنى رجل بامرأة من طبقته أو ممن هي دونه في الشرف فلا عقوبة عليه، وهذه انحرافات كما هو عند جاهلية العرب يبيحون الزنى بالإماء ويحرمونه على الحرائر، فجاء الإسلام فرفع نظام الطبقات لا فرق بين طبقة وأخرى يعاقب الزانيان مهما اختلفت منزلتهما ولا فرق إلا بين متزوج وعازب ـ كما تقدم ـ.

واليوم في قوانين أوروبا وأمريكا لا يعتبرون الزنى جريمة يعاقب عليها القانون إلا في بعض الصور، كاعتباره خيانة أحد الزوجين للآخر فإذا تسامحا وتواطئا على ذلك فالأمر مباح لا عقاب عليه قانوناً، وفي صورة ما

إذا تعدى الرجل على امرأة وأكرهها على الزنى تطبق عليه العقوبة، أما إذا تراضيا عليه فلا دخل حينئذ للقانون ولا لأي كان، وفي صورة ما إذا وقع الزنى بزوجة الغير وطالب بحقه يعتبرونها جريمة تعدية، أما إذا رضي الزوج فلا جريمة ولا عقاب، وهذه كلها انحرافات لا تطهر المجتمع من آفة الزنى وآثاره الوبيئة على النسل وعلى المجتمع كله. والشذوذ الجنسي وهو عمل قوم لوط أصبح عندهم أمراً عادياً لا يعتبرونه جريمة يعاقب عليها القانون ولا يطرد أصحابه من المجالس العليا للدولة مثل مجلس البرلمان والوزراء وهذا انحطاط كبير وتردي إلى هوة سحيقة من الخبائث .

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ ـ المائدة ٤٧ ـ هذا وبقيت مسألة تتصل بموضوع الزنا وهو إتيان المرأة من دبرها، جاءتني أسئلة في الموضوع فالجواب كما يلي :

روي عن النبي ﷺ قال: «ملعون من أتى امرأة في دبرها وذكر سبعة أصناف لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وذكر منهم من أتى امرأة في دبرها» ـ والقول المشهور عندنا معشر الإباضية أنها تحرم عليه بذلك كما هو مقرر في كتاب النيل أنها تحرم بتأبيد، ورخص بعضهم أنها لا تحرم عليه ولكن يتوبان إلى الله ويعطيان كل واحد منهما خمسة دنانير، وفي الحديث الشريف: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، فهي على كل تأويل فاحشة من أكبر الفواحش التي تجب فيها كفارة غليظة وتوبة نصوح. ثم إن العلماء اختلفوا: هل على كل فاحشة كفارة واحدة ولو تعددت المرات أو على كل مرة كفارة، ولعله يكفي مع التوبة النصوح كفارة واحدة لكل نوع ولو تكرر، كالذي ترك صلوات كثيرة عليه كفارة واحدة إلا إذا عاد إلى الذنب بعد التكفير فحينئذ تجب عليه كفارة جديدة.

ثم تأتينا مسألة تتصل بموضوع الزنى وهي الإستمناء باليد وهو محرم باتفاق جمهور علماء الأمة وهو زنى اليد وهو ناكح يده، عليه وعيد شديد صح به الأثر وهو من العادين :

﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ - المؤمنون ٧ - المعارج ٣١ - وصح النهي عن النبي ﷺ وتكلم الأطباء كثيراً في الأمراض التي تخلفها هذه العادة الخبيثة في الجهاز التناسلي وقد تبلغ بصاحبها حد الجنون والموت في بعض الأحيان، وتنتهي بصاحبها إلى العنة فلا يستطيع أن يأتي زوجته ويظن بالناس الظنون ويلجأ إلى أنواع الخرافات لقصد العلاج وهو الذي تسبب في ذلك بانحرافاته وشذوذه الجنسي أو ألفه لهذه العادة السرية الخبيثة .. فليحذر الشباب وليقلع الذين ابتلوا بها لعل الله يتوب عليهم ويفرج على المصابين منهم. وكثيراً ما يؤدي الأمر أخيراً إلى الطلاق من أجل تهم باطلة تسببت في الفراق، وكثيراً ما ترفع إليّ قضايا من هؤلاء الشباب فأتفاوض معهم وأعظهم وأنصحهم بالتوبة والإقلاع، فاتقوا الله أيها الشباب واحذروا هذا العمل الخطير فإنه خطير حقاً على دينكم ودنياكم .. وقاكم الله وهداك .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

هذا نوع من الأدب الرباني العالي الذي يراد به تطهير المسلم، ثم تطهير المجتمع الإسلامي كله من شيوع الفاحشة ومن وقعها، فالزجر الأول إنما كان بإقامة الحد على فاحشة الزنى، والزجر الثاني وفيه حفظ أعراض المسلمات والمسلمين وهو المبالغة في أخذ القاذفين بعقوبة الجلد في الدنيا، وتخويفهم

بعذاب الله في الآخرة، فهذان الحكمان مع ما سيأتي في السورة من أحكام وأوامر ونواه وآداب يكون مجموعها خطة منظمة محكمة كاملة، إذا اتبعها أئمة المسلمين فنفذوا أحكامها واتبعها الناس فأتمروا بأوامرها وانتهوا بنواهيها وتأدبوا بآدابها ووقفوا عند حدودها ومعالمها خرجت منهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس، طاهرة نقية عفيفة تقل فيها العداوات والإعتداءات وتسلم من عواقب السوء كلها. وعند تأمل مقدار هذه العقوبة الغليظة يتعجب الإنسان بادئ الرأي من شدتها، فهي تقرب من عقوبة الزنى نفسها وليس بينهما إلا فرق يسير في العدد .. نعم تستحق هذه الجريمة كل هذه العقوبة لأنها لا تقل كثيراً عن فاحشة الزنى في إفساد المجتمع وإشاعة الفاحشة، مع الإضرار بالمحصنات وهتك أعراضهن وتكوين جو موبوء وبيئة فاجرة لا تتفق وتعاليم الإسلام ونقاوة مجتمعاته.

جعل الله القذف منكراً وبهتاناً من القول يستحق مرتكبها عقوبات متنوعة ـ ﴿**فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون**﴾ ـ ثلاثة أنواع من العقوبات : العقوبة الأولى هي الجلد ثمانين جلدة للرجال والنساء وفيه ما فيه من الإيلام والإهانة، العقوبة الثانية رد شهادتهم فلا تقبل أبداً وسيأتي الكلام في هذا التأبيد وحكمه، العقوبة الثالثة إعتبارهم فاسقين أي خارجين عن طريق الإسلام وعن مجتمع المسلمين، ولم ترد هذه العقوبات فيمن اتهم أحداً بالخمر والسرقة وترك الصلاة مثلاً وما ذلك إلا لغلظ هذه الفاحشة وقبحها والعار الذي يلتصق بصاحبها، على أن التهم كلها محرمة وعلى إمام المسلمين تعزير الذين يتهمون الناس ويكذبون عليهم بما يراه رادعاً لهم ولغيرهم، أما تأديب القاذفين بفاحشة الزنى فلم يكل تحديده إلى نبيء مرسل ولا إلى إجتهاد إمام أو قاض، حتى

حدده في كتابه الكريم، وشدد في تنويع العقوبة ورفع عدد الشهود إلى أربعة بينما جميع الشهادات الأخرى يكفي فيها رجلان أو رجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء وقلما يتوفر هذا، ومن الصعب جداً أن يرى أربعة رجال وقوع فاحشة الزنى بين رجل وامرأة فهذا شيء نادر الوقوع، اللهم إلا في مجتمع متهتك تعرى رجاله ونساؤه من الثياب والآداب فلم تعد فاحشة الزنى عندهم عاراً فهم يرتكبونها جهاراً.

أما ما يجري على ألسنة الناس من التهم فلا يبلغ حد التحقيق ولا يكفي لإثبات التهمة، وأكثر ما يشيع من التهم باطل من القول وزور، فيجب نفي مثل هذا الكلام وإلغاؤه ورفع مقام المؤمنين والمؤمنات عن لوثة التهم.

﴿لولا إذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذلم ياتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ - تبدأ القالة تهمة تحوطها خيالات وظنون ثم تصبح حقيقة، ثم تتسع وتكبر على تعدد الألسن التي تحكيها، فأمرنا الله أن ننفيها ونطفئها ولا ننعشها بالإشاعة على الألسنة الكاذبة والآذان الفاسقة والقلوب الفاجرة التي قد يتظاهر أصحابها بالغيرة وهم يحبون الفاحشة ويغيظهم العفاف والطهر، فهم يبحثون عن الأحاديث الفاجرة ويتشممون عن الجيف كما تتشمم الكلاب في المزابل، أو كالجعل يتلذذ بالنتن ويتضرر بالطيب وللناس في البهائم والحشرات أشباه وأشكال فهم لا يتلذذون في مجالسهم إلا بأعراض الأبرياء والبريئات، ومن ألف شيئاً يحن إليه حتى إذا لم يتمكن من إتيانه تسلى بالأحاديث في مواضيعه والذنب يجر إلى الذنب ونعوذ بالله من مكره.

أمـا أعفـاء النفـوس الكرام فلهم عـن هذا ترفع وإعراض ولا يـحبـون سمـاع هذه الأخبـار، إلا إذا عناهم منهـا أمر مـتحقق فـحينـئذ يتصـدون له للإصـلاح والتقـويم، والناس مخـتلفون وسـعيـهم شتى وقـد كتب علـماء الأخلاق وطبائع النفوس الشيء الكثير في هذا الباب .

أما هذه الأحـاديث فكثيراً مـا أحدثت وساوس في قلوب كـانت غافلة بريئة وللنفس حظها، والنفـس أمارة بالسوء وللشيطان وسائله وحبـائله فهو دومـاً يلقي بهـا ليـصطاد ضـعـاف الإيمان نعـوذ بالله من كـيده ووسـاوسـه. فالواجب عليك أيها المؤمن إذا سمـعت شيئاً متحققـاً من شهود أربعة عدول أن تذهب إلى من بيده الأمر حـتى يقيم الحد، وإذا لم يتمكن الحـد فما أمكن من التعـزير والتأديب، وإياك أن تذكره لغـير هذا الغرض وبغيـر هذا الشرط وإلا فأنت الفاسق المفتري الكاذب الذي لا تقبل شهادته أبداً وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

هذا هو حكم الله وتأديبه لنا والله يعلم ما يصلح بالمؤمنين والمؤمنات والله أغير على دينه منا وقد نخطئ في تقـديرنا فنظن الصلاح فساداً والعكس والله عليم بذات الصـدور، يعلم ما نخفي ومـا نعلن ثم يجازي كـلاً على حسب نيتـه جزاء عـادلاً وفاقاً، فـانظروا إلى حكمة الله الـبالغة في أحكامـه التي لو اتبعناها لتكونت منا معـشر المسلمين أمة طاهرة نظيفة هي خـير أمة أخرجت للناس، وهي تدابيـر ربانية مـحكمة مـفصلة في هذه السـورة التي هي النور يضيء الطريق للمجتمع الصالح الرشيد.

﴿مـا يريد الله ليـجعل عليكم من حـرج ولكن يـريد ليطهـركم وليـتم نعـمـتـه عـليكم لعلكم تشكرون﴾ ـ المائدة ٦ ـ كل مـا من شـأنه أن يلوث المجتمعات الإسـلامية أو يحدث فيها بلبلة يحذرنا الله منه ويـتوعد عليه أشد

الوعيد حتى تبقى مجتمعاتنا بريئة نظيفة متماسكة على العفاف والطهر والإحترام المتبادل، فلا عدوان بالقول ولا بالسمع ولا بالنظر وأي اعتداء من هذا القبيل فهو رمي لا يقل خطراً عن الرمي بالسهام والرصاص، والذين يرمون المحصنات ـ فهو رمي لا مجرد كلام يذهب مع الريح فلنحذر الرمي بالكلام كما لا نترامى بالنار لأنه مثلها أو أشد منها مفعولاً في مجتمعاتنا والمحصنات في عرف القرآن لفظة يراد بها أحد معنيين، إما الزواج وهو المراد في سورة النساء في الحديث عن المحرمات منهم ـ والمحصنات من النساء ـ أي المتزوجات، حرم على الرجل خطبتهن ونكاحهن وقوله تعالى: ﴿**فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات**﴾ ـ النساء ٢٥ ـ فالمحصنات هن العفيفات الطاهرات، ومنه وصف مريم العذراء عليها السلام بالإحصان وذلك حيث يقول تبارك وتعالى :

﴿**ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾ ـ التحريم ١٢ ـ فمريم لم تتزوج وإنما هي محصنة بمعنى عفيفة وذلك نظير قول الشاعر: «حصان رزان ما تزن بريبة» ـ وهذا المعنى الثاني هو المراد هنا في هذه الآية الشريفة ـ ﴿**والذين يرمون المحصنات**﴾ ـ أي العفيفات البريئات، متزوجات أو غير متزوجات، يرمونهن بالزنى كما يدل عليه سياق الآية ما قبل وما بعد، وهو المعنى المراد بإجماع بإجماع أهل التفسير والفقه وقاسوا على المحصنات من النساء المحصنين من الرجال لحرمة عرض المسلم من حيث هو مسلم لا فرق فيه بين ذكر وأنثى، والحكمة في ذكر النساء هنا لأن تضررهن بالرمي أبلغ، والعار يتعدى إلى ذويهن، وفي مواضع أخرى كثيرة يدخلن مع الرجال بالتغليب حيث يرد الأمر والنهي أو الحكم على صيغة المذكر فيدخلن في الخطاب ما لم يقم دليل على تخصيص أحد الجنسين دون

الآخر فعلى إمام المسلمين إقامة هذا الحـد على القاذفين والقاذفات كما فعل النبي ﷺ بحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ﷺ أقام عليـهم الحد ثمـانين جلدة على كل واحـد منهم واسـتغفـروا وتابوا تاب الله عليهم. وفي عهد خلافة عمر بن الخطاب وجهت التهمة إلى المغيرة بن شعبة فجلد الذين قذفـوه الحد كاملاً على كل واحد من الـثلاثة، وأعفى الرابع من العقـوبة لأنه شهد بما رأى ولـم يحقـق جريمة الزنى، وعليه أجمـعت الأمة أن من اتهم رجلاً بريئاً يقام عليه الحد كاملاً كمن اتهم بريئة.

وقال فريق من العلماء: المراد بالمحصنات النفوس المؤمنة العفيفة فيدخل الرجال بالنص لا بالقياس والله أعلم. ولم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين أن الحكم خاص بالـنساء دون الرجال ثم أن القـذف ما يكون بالتـصريح أو بالتعريض الواضح الذي يكاد يكون تصريحاً كأن يقول للولد: هو ابن الزنى أو بنت زنى أو ابن الحرام ولا مـعنى لهذا، إلا إتهام أبويه بالزنى غـير أن هذا يعزر ولا يقـام عليه الحد كامـلاً ما لم يكن تصريحاً بتـحقيق فاحـشة الزنى، وهو الذي تنطبق علـيه العـقوبـات الثلاث المذكـورة هنا على القـاذفين ومن التعريض ما يكون من جنس ما وقع في زمان الخليفة عمر ﷺ فقد جمع وجوه الصحابة يستشيرهم في أمر وقع فـي زمانه وهو أنه تساب رجلان فقال أحدهما للآخر: لم يكن أبي زانياً ولا أمي كانت بغياً، فـفيه تعريض بأخيه أن أباه وأمه كانـا زانيين فشكاه إلى أمـير المؤمنين عـمر بن الخطاب ﷺ فـتداولـوا وجوه الرأي فقال أحدهـم: هذا رجل مدح أبويه وليس فيه تصريح باتهام غيرهما.

وقال آخرون : أليس له صـيغة لمدحهمـا إلا هذه الصيغة التي ليس فـيها إلا اتهام الطرف الثاني من السـباب. وهذا ما أخذ به عمـر بن الخطاب فأقام عليه الحد ووافقـه بقيتهم على ذلك، وهذا أشبه بالصـواب لأن المستمع لهذا

السباب لا يفهم إلا أن أبوي الثاني زانيان، فالمضرة حاصلة للمسبوب ومن أجلها شرع الحد والله أعلم.

ثم إن الكلام في هذه الأحكام واسع لتعدد كيفيات القذف فقد يكون الرامي سكراناً وقد يكون صبياً وقد يكون مجنوناً، وهل إذا رمى مسلم ذمياً يقام عليه الحد؟ في المسألة خلاف وهذا بعد اتفاقهم أنه ذنب كبير وفرقوا في تهمة صبي دون البلوغ، فأوجبوا الحد على من اتهم صبية مراهقة لأن ذلك يفسد عرضها وعرض ذويها ولم يوجبوه على من اتهم صبياً وهذا فرق معقول، وفي المسألة أحكام فقهية تطلب في المطولات كل هذا إذا لم يعف المتهم قبل أن يصل الأمر إلى الحاكم أما إذا عفا قبل ذلك فلا عقوبة كل هذا مبسوط في كتب الأحكام لمن أراد التفقه، ثم بعد هذا الحد الغليظ الذي يقرب من حد الزنى يحكم الله تعالى على القاذف بحكم آخر قاس وذلك حيث يقول جل من قائل :

﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً**﴾ - ما دام حياً ما دامت الدنيا لا تقبل شهادة القاذفين المفترين على الناس في بيع ولا رهن ولا وصية ولا عقد من العقود مطلقاً فهو مردود أبداً لأنه ظهر زيفه وكذبه في هذه القضية فلا يؤمن في غيرها، لا في معاملات ولا في عبادات - ثم حكم عليه بالفسق فقال:

﴿**فأولئك هم الفاسقون**﴾ - ومن المعلوم أن وصف الفسق لا يستعمل إلا في الكبيرة المخرجة عن طريق الإسلام وهذان الحكمان يسقطانه عن مركزه في الهيئة الإجتماعية، وهذا يشبه ما يعبر عنه اليوم بإسقاط الحقوق المدنية وهو نوع من العقوبات المقررة في القوانين الحديثة. والمؤمنون عدول، شهادتهم تقبل على بعضهم البعض ولكن هذا المجلود الفاسق تسقط شهادته عن حد الإعتبار فهي مردودة غير مقبولة ثم تكلم أهل التفسير والعلم في الإستثناء الوارد بعد هذه الأحكام هل يرجع إليها كلها أو إلى بعضها.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ ـ فهل هؤلاء التائبون يعفون من الجلد وتقبل شهادتهم وينجون من عذاب الآخرة ومن وصف الفسق، أو يعود إلى الجملة الأخيرة فقط يرفع عنهم وصف الفسق وآثاره ولا يرفع عنهم الحد ولا تقبل شهادتهم، والخلاف مبسوط في كتب الفقه والأحكام، ونرى حصر الخلاف في الجملة الوسطى فقط، لأن الأمة أجمعت على أن التوبة لا ترفع الحد عن المحدود وأجمع العلماء أن الاستثناء يتناول الأخيرة من الجمل وإلا فلا يكون لوروده معنى فهو يرفع وصف الفسق وآثاره عن المحدود، فيبقى الخلاف محصوراً في قبول شهادته بعد صدق توبته فقال بعض الفقهاء : تقبل إذا تاب واستقام على توبته وظهر صدقه وصلاحه، ولكن الجمهور أجمع على أن شهادته لا تقبل أبداً وهو القول الذي نميل إليه ونرجحه لوجوه :

أولاً : لذكر التأبيد في المسألة فهو يقتضي مدة أطول من المدة التي بين القذف والتوبة وقد تكون قصيرة.

ثانياً: إذا كان الاستثناء يتعدى الحكم الأخير فما الذي يقصره على الحكم الوسط دون الأول، وهو قطعاً غير داخل كما بينا وذكرنا أن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين جلدوا ورجموا ولم يعطلوا الحدود بعد التوبة، وفي نفس قضية القذف جلد القاذفون بعد ثبوت توبتهم فالتوبة إذا لا تسقط الحكم إنما هي تنفع لرفع عقوبة الآخرة متى صدقت.

ثالثاً : والنظر الأخير الذي يرجح ما ذهبنا إليه كما أشار إليه بعض المحققين هو أن هذه الأحكام الثلاثة جاءت على ثلاث صيغ : الأولى أمر ـ ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ ـ الثانية نهي ـ ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ ـ الثالثة إخبار ـ ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾ ـ فجاء الحكم الأخير مخالفاً في

أسلوبه للحكمين السابقين فلم يقل احكموا عليهم بالفسق وإنما حكم عليهم بأنهم فساق، وقال بعد : ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ - ولم يقل - فاعفوا عنهم - فلما كان هذا الحكم الأخير من خصوصيات الله وهو تبارك وتعالى وحده يعلم حقيقة توبتهم وإصلاحهم فيدل هذا أن مرد الإستثناء إلى الحكم الأخير وحده، وهو يعلم التائبين من الفاسقين، وتذييله بأن الله غفور رحيم يزيد الأمر ترجيحاً أن المراد مغفرة ذنبهم ورفع عقوبة الفسق عنهم، وهذا جواب لسؤال ينشأ عن الحكمين السابقين فكأن قائلاً يقول: أرأيت إن جلدناهم وأسقطنا شهادتهم عقوبة لهم ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فماذا يكون مصيرهم عندك يا رب؟ فأجابنا بأن مصيرهم بعد توبتهم مغفرة الله ورحمته التي هي مصير التائبين جميعاً، ويزيد المعنى وضوحاً عطفه بالفاء التفريعية - ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ - هذا ما نلحظه في هذا المبحث ونرجحه والله أعلم.

ثم يأتينا سؤال في الموضوع وهو ما موقف من رأى شيئاً من هذه الفواحش تؤتى ماذا يصنع؟ وهو بين أمرين إما أن يتوفر له ثلاثة شهود هو رابعهم شاهدوا الفاحشة جميعهم شهوداً لا لبس فيه، فحينئذ يبلغون الحاكم ليقيم الحد على الزانيين، وإما أن لا يتوفر له هذا العدد فيسكت ويستر الأمر ولا يعرض نفسه لهذه الأحكام القاسية التي لا يعفيه منها كونه صادقاً عند الله، فهذا حكم الله لأنه إذا نطق فقد أشاع الفاحشة بصورة لم يأذن بها الشرع وتكلم بعض فقال: كيف يحكم عليه بالكذب ويمكن أن يكون شاهداً ورأى حقاً، ويتعجبون من هذا الحكم وهل لأجل غياب الشهود يسمى كاذباً - هكذا أراد الله أن تكتم وتستر ما لم يتوفر الشهود، فلا تخالف أمر الله لأنك إذا نطقت بالتهمة فقد أشعت الفاحشة في مجتمع طاهر نظيف، فإما أن تأتي

بالشهود فيقام الحد، فهو العلاج لقطع الداء الذي هو خطر على المجتمع وإما أن لا يتوفر الشهود فتشيع الفاحشة بصورة لا تكفي لإقامة الحد على المتهم، فلابد بعلاج يقطع هذا الوباء المنتشر، فالدواء حينئذ أن نرجع بالعقوبة على باعث هذا الوباء وهو الذي نطق بالفاحشة وأشاعها بغير سلطان من الله، فهو الفاسق الكاذب الجاني على الفرد والمجتمع، والأحكام تتعلق بالبيانات والبينات إنما تثبت على توفر الجهود ولا طريق لثبوتها إلا ذلك فمن خالف الحكم الظاهر فهو الكاذب، وربما يثير البعض شبهة وهي أننا إن سكتنا على مثل هذا تقع المضرة ويتجرأ العاصي، والجواب عنها أن إشاعتها مع عدم إمكان إقامة الحد أوسع ضرراً وأعظم خطراً على المجتمع ففي كتمانها ضرر على العاصي وحده مع إمكان نصحه ووعظه وتخويفه، وفي إظهارها خطر على المجتمع كله، فالواجب علينا أن نتأدب بآداب الله العالية ونكف ألسنتا ونتق الله، وكل من أتى ما يوجب الحد فإما يقام عليه في الدنيا، وإما أن يقتص منه في الآخرة، ورحم الله أمرئ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم وقانا الله عثرات اللسان .

والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم
فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين (٦)
والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين (٧) ويدرؤا
عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين (٨)
والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين (٩) ولولا
فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم (١٠)

هذا حكم آخر من أحكام الله تبارك وتعالى فيما يتعلق بهذه الفاحشة الكبرى والقذف بها، وقد تقدم حكم رمي المحصنات عموماً لا فرق بين أن يكون الرامي زوجاً أو غيره، وهذه الآية تضع حكماً خاصاً إذا كان الزوج هو الرامي وهو فرق معقول جداً إذ لا يمكن للزوج أن يرى الفاحشة في زوجه ثم يسكت فيصبح ديوثاً، ولما نزل حكم القذف العام كبر الأمر على الصحابة فيما يتعلق بالزوجة حتى اندفع سعد بن عبادة سيد الأنصار فقال للنبي ﷺ : أهكذا أنزلت؟ وجعل يرددها على النبي ﷺ حتى تأثر رسول الله ﷺ فقال للأنصار الحاضرين: يا معشر الأنصار أتسمعون ما يقول سيدكم. فأجابه الأنصار قالوا: لا تلمه يا رسول الله فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، والله ما طلق امرأة قط فاجترأ أحد منا أن يتزوجها لشدة غيرته. ثم إن سعداً قال يا رسول الله والله إني لأعلم أنها لحق وأنها من الله ولكن عجبت أني إذا وجدت لكاعاً تفخذها رجل لا يكون لي أن أحركه وأهيجه حتى آتى بأربعة شهداء، والله لا آتي بهم حتى يكون قد قضى حاجته ـ كبرت هذه الآية على الصحابة ﷺ واشتد الأمر على النبي ﷺ حتى جاء عويمر العجلاني فقال: يا رسول الله : إذا وجد أحد منا رجلاً مع امرأته فإن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه وإن سكت سكت على غيظ. يبتلغ جمراً في قلبه ويموت بالغيظ، كيف يفعل يا رسول الله. فقال النبي ﷺ : اللهم أحكم ـ فلم تمض إلا أيام قليلة فإذا بهلال بن أمية من الأنصار جاء يسعى إلى النبي ﷺ قال له: يا رسول الله جئت عشاء إلى أهلي ووجدت رجلاً مع امرأتي رأت عيناي وسمعت أذناي. فقال له: إتق الله يا هلال. فقال: يا رسول الله والله إني لصادق. فاشتد الأمر على النبي ﷺ فقال هلال: والله إني لصادق والله لم أزد ولم أنقص. فقال له النبي ﷺ : البينة أوحد في ظهرك، فشق الأمر على النبي ﷺ وضاق الأمر

على الناس وقال هلال: والله لأرجو أن يجعل الله لي من أمري مخرجاً. فقال النبي ﷺ : حكم الله البينة أو الجلد فكاد يجلده لولا أن لطف الله به فنزل الوحي، فلما سري عن النبي قال ﷺ : أبشر يا هلال قد جعل الله لك مخرجاً وقرأ عليه الآية :

﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين﴾ ـ الآيات ـ :

يشهد الرجل أربع شهادات بأنه صادق في إتهام زوجته والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ينادي القاضي المرأة أن تشهد أربع شهادات بالله إنه كذاب والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. فنادى هلالاً وبعث للمرأة فجاءت فقال لها: الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل فيكما من تائب، وأعاد عليهما ثلاث مرات ووعظهما وقال لهما : لعذاب في الدنيا أيسر من عذاب الآخرة فتمسك كل منهما بقوله، فبدأ بالزوج فوجه التهمة إلى زوجته ويقول: أشهد بالله إني لصادق فلما كررها أربع مرات. قال له النبي ﷺ : اتق الله يا هلال. فقال: يا رسول الله إني لصادق، ثم أردف أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم التفت النبي ﷺ إلى المرأة فشهدت أربع شهادات تقول: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين وقبل أن تشهد الخامسة خوفها النبي ﷺ وقال: توبي إلى الله، لعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وقال إنها الموجبة فتلكأت المرأة ساعة حتى كادت تعترف ثم قالت: والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة. قالت: غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق بينهما رسول الله ﷺ . وأفتى أهل العلم أنها تحرم عليه بتأبيد ويلحق الولد بأمه، وبعضهم قال يكفي اللعان واشترط البعض لفظ الطلاق للتفريق بينهما أو بلفظ القاضي: ـ

فرقت بينكما ـ وفي هذا الحكم لطف من الله تبارك وتعالى :

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ ـ هذا شرط ولا جواب له وقدر له بعض أهل التفسير جواباً وهو نحو: لجعل لكم حكماً آخر ـ ولكن الله يعلم ضعف نفوسكم ويعلم الحالة التي تصيب الزوج إذا شاهد بعينه، وأن حالة الزوج ليست حينئذ كأي شخص آخر فالعلاقة متينة بين الزوج وزوجه والغيرة شديدة فكيف يمكن أن يرى ويسكت ويبعد في التقدير أن يتهم الزوج زوجته لغير شيء لأنه حينئذ يطعن صدره بخنجر، ويشكك الناس في أولاده إلا إذا كان فاجراً ممسوخاً يريد أن يتنصل من زوجته ولو بالتهمة الباطلة، فشرع الله لها أن تدافع حينئذ عن نفسها بشهاداتها ولا يصح لها والحالة هذه أن تبقى معه كما لا يصح له أن يبقى معها متى كان صالحاً وكانت فاسقة. هذا حكم الله في اللعان لمن شاهد ورأى وكذلك قاسوا عليه من قدم من سفر ووجد زوجته حاملاً بجنين محقق أو ولدت وهو بعيد عهد بها فيلاعنها حينئذ لينفي الولد ويفارقها.

وقد كانوا في الجاهلية لا ينتظرون هذه الحالة إلا أن يقتلوا المرأة والرجل، فلما جاء الإسلام وهو دين العدل والرحمة شرع هذا الحكم العادل حفاظاً على المرأة الضعيفة أن تكون متهمة أو مقتولة لسبب آخر ثم تلصق بها التهمة، فشرع الله هذا الحكم ولم ينزل إلا بعد حدوث الواقعة حتى يكون أوقع في النفوس فتقبله المسلمون بقلوب مسلمة منشرحة وأغلب الأحكام تنزل بعد حدوث الأسباب، وفي ذلك ما فيه من الحكمة البالغة ونذكر منها حديث الإفك الذي سيأتينا قريباً ويريد الله أن يجعل ضحيته زوج النبي ﷺ لحكمة يعلمها والله عليم حكيم. ولو شاء الله لنزل الحكم مع الحكم العام قبل أن تقع هذه الحادثة ولا حديث الإفك، وللعلماء في هذا

كلام طويل في الحكم والعبر التي تستنبط من هذا الواقع، وفي شرع الله تعالى لنا تطهير وتأديب لمجتمعاتنا ورجالنا ونسائنا، وضل قوم يزعمون أن أحكامهم الوضعية أنسب وأليق من أحكام القرآن والسنة إن هؤلاء ليسوا مؤمنين.

﴿فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ ـ النساء ٦٥ ـ والذي أنزله الله كله هو النور لنا ومن سار على النور لا يضل، وفي النساء متاهات ضل فيها القدامى والمحدثون فجاءت هذه السورة التي هي سورة النور فوضعت الحدود وفصلت الأحكام وأزالت الشبه ورفعت الحيرة، فهي هدى ونور في أعظم قضية شغلت أفكار العالم قديماً وحديثاً ولم يهتدوا ولن يهتدوا إلا إذا اتبعوا هدي القرآن ومشوا على نوره المبين، فلله ما أعظم نعمة الإسلام وأشمل بركته في الدنيا والآخرة على من اتبع هداه ـ

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ ـ الأنعام ١٢٢ ـ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو
بِالِافْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
إِمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا اَكْتَسَبَ مِنَ ٱلِاثْمِ وَالذِے تَوَلّ۪يٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ
فَإِذْ لَمْ يَاتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٣ وَلَوْلَا

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم
مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا
بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

هذه عشر آيات مفصلات في حق عائشة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها إتهمها المنافقون لعنهم الله، وهي الطاهرة البريئة، أطلقوا ألسنتهم في عرضها شهراً كاملاً، وأرجأ الله تعالى إنزال هذه الآيات وهو يعلم براءتها لحكمة هو بالغها ولنرو قصتها كما روتها هي عن نفسها :

تجهز النبي ﷺ ومعه بعض الصحابة لغزو بني المصطلق قوم ينزلون على ماء يسمى المريسيع على ساحل البحر (بين رابغ وجدة)، فأقرع بين نسائه فخرجت القرعة لعائشة فخرجت معه فجعل لها هودجا على جمل خاص، وفي بعض منازل الطريق عند رجوعهم من الغزوة ظافرين نزلوا ليلاً فذهبت عائشة لقضاء حاجتها، وبعد رجوعها أحست بضياع عقدها فذهبت

تبحث عنه فلم تجده إلا بعد وقت طويل، فلما رجعت إلى المعسكر إذا بهم قد ارتحلوا فلا داعي ولا مجيب فلزمت مكانها، حتى إذا رجعوا إليها وجدوها وبينما هي متلحفة في خمارها تنتظر إذا بأحد الصحابة وكان تخلف عن الركب لبعض الأسباب فلحق، وهو الصحابي البدري العفيف صفوان بن المعطل السلمي ﷺ، فلما رأى هذه المتلفعة، عرفها عائشة فحوقل وأناخ جمله ولم يكلمها، فركبت وقاد الجمل ولما لحق بالقوم وكان فيهم منافقون فلما مر على عبدالله بن أبي قال ـ لعنه الله ـ: والله ما نجت منه ولا نجا منها، امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى الصباح فجاء يقودها، ثم إن الكلمة شاعت بين المنافقين ولم يسلم منها ضعفاء المؤمنين. قالت عائشة: ولم أنتبه لشيء مما وقع فيه الناس، ثم إنها مرضت بالحمى واشتد مرضها قالت: ولم يبلغني ما يخوض فيه الناس من الإفك إلا أني رأيت ازوراراً في معاملة النبي إياي، فقد كان يهتم لمرضي ويسليني ويجلس طويلاً غير أن هذه المرة فقدت عطفه القديم فكان لا يزيد إذا دخل أن يقول: كيف آتيكم، قالت: فتعجبت من هذه المعاملة فاستأذنته أن أقضي أيام المرض عند والدي فأذن لي، فذهبت ومضت علينا بضع وعشرون ليلة وما شعرت بشيء من حديث الإفك، وبينما هي في ليلة من الليالي خارجة لقضاء حاجتها معتمدة على ممرضتها أم مسطح عثرت أم مسطح في لحافها فقالت تعس مسطح، فقالت عائشة: بئس ما قلت، أحد من المسلمين شهد بدراً، فقالت ألم تسمعي ألم يبلغك ما يقول الناس عنك؟ فحينئذ قصت عليها الخبر كما هو واقع، فاشتد الأمر على عائشة ولاذت بالبكاء ثم أنها عاتبت أمها أنها لم تخبرها بما وقع فقالت لها: أي بنية خفضي عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها، فهوني عليك فسيجعل الله لك مخرجاً إن كنت صادقة. فاستمرت في بكائها

طوال الليل حتى قالت: ظننت أن البكاء فالق كبدي ومضت عليها ليلتان قالت: لم أذق طعم المنام قالت: فلما أصبحت جاءها أبو بكر وأمها أم رومان فجلسا معها وهي غارقة في البكاء وجاءت امرأة من جيرانها فجعلت تبكي معها قالت: فبينما نحن كذلك دخل علينا رسول الله ﷺ وهو في قلق شديد، إنه ينتظر الوحي في كل ساعة ولكن لكل أجل كتاب، وقد كان قبل ذلك سأل أهل البيت ومولاه أسامة وجاريته ولم يقولوا إلا خيراً. ثم إنه تشهد وخاطب عائشة قائلاً: إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله. قالت عائشة: فجف دمعي فقلت لأبي أجب عني رسول الله فقال: والله لا أدري ما أقول. فالتفتت إلى أمها فقالت مثل ذلك ثم التفتت عائشة إلى النبي ﷺ فقالت: والله إني أعلم أني إذا قلت فعلت والله يعلم أني بريئة تصدقونني، وإذا صدقت تكذبونني، ولكني أقول كما قال أبو يوسف عليهما السلام ـ ﴿**فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾ ـ يوسف ١٨ ـ قالت فتلفعت في لحافي ونمت وتركتهم حيارى، قالت: فوالله لم يتحرك أحد من مكانه حتى نزل الوحي على رسول الله ﷺ فلما سري عنه تهلل وجهه وهو يبتسم فأول كلمة قالها: أبشري يا عائشة فقد برأك الله. فقالت لها أمها: قومي إلى رسول الله فقبلي رأسه. فقالت عائشة: والله لا أحمد إلا الله فهو الذي برأني بعد أن شككتم، ثم تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه الآيات العشر :

﴿**إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم**﴾ .. الآيات ـ فسري عن عائشة رضي الله عنها عند سماعها هذه الآيات وشفيت من مرضها، ورجعت منزلتها عند زوجها النبي ﷺ أرفع مما كانت، ثم أنه أقام الحد على القاذفين الذين صرحوا بتحقيق التهمة وهم ثلاثة: مسطح بن أثاثة الكلبي، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش وتابوا رضي الله عنهم .

أما بعض كبار المنافقين الذين خاضوا في الإفك مثل عبدالله بن أبي ورفاعة أحد منافقي اليهود فلم يحدهم لحكمة رآها النبي ﷺ ، وقال البعض لأنهم لم يصرحوا بما يؤخذون به، ثم إن أبا بكر ﷺ غضب على مسطح وهو ابن خالته وكان يحسن إليه ويؤتيه حق القرابة لفقره وقرابته فحلف أن لا ينفق عليه بعد الذي صدر منه من الزور والبهتان، فلم يوافقه الله على هذا الحلف فأنزل قرآناً في حقه :

﴿ولا ياتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يوتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا﴾ ـ النور ٢٢ ـ .. الآية ـ فتاب أبو بكر ﷺ وكفر عن يمينه ورجع إلى إحسانه إلى مسطح كعادته وسيأتي الكلام على الآية عند تفسيرها.

ولنعد إلى تفصيل معاني الآيات العشر النازلة في موضوع الإفك. قال الله تعالى : **﴿إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾** ـ تدل الآية أول ما تدل أن الذين جاءوا بالإفك جماعة من الناس لا واحد وليس أهل المدينة كلهم، فالمهاجرون الأولون والأنصارالمؤمنون لم يتورطوا في هذه الفاحشة، ولم يطعنوا في النبي ولا في زوجه، أولئك عصمهم إيمانهم، إنما الذين تكلموا بالإفك عصبة قليلون أوقعوا الشك بكلامهم هذا في القلوب البريئة المؤمنة، ولم يسلم منه حتى قلب النبي ﷺ ، والإفك ليس كلمة مرادفة للكذب فحسب، بل الإفك نوع خاص من الكذب يبلغ درجة قصوى من الفظاعة والظلم ينشأ عنه ضرر كبير، فيه كذب وزور وبهتان وظلم، مجموع هذه الأشياء يعبر عنه بالافك، والعصبة الجماعة المتفقة على شيء يجمع بينها هدف وغرض

يسعون لتحقيقه، ولذلك يطلق على جماعات اللصوص والإجرام عصابات، لهم خطط يتفقون على رسمها وتنفيذها، فجماعة الإفك عصبة متآمرة متفقة على الطعن في نبي الإسلام وفي أهله، وهذا طعن في الوحي والرسالة بطريق غير مباشر وليس هو مجرد حديث عابر. ثم قال تعالى ـ منكم ـ وليس القصد أنهم من المؤمنين الصادقين إنما هم من جماعة المسلمين في الظاهر، يصلون في مساجدهم ويدفنون في مقابرهم، نطقوا بكلمة الإسلام مجرد نطق بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، إنما صرحوا بها إتقاء على دمائهم وأموالهم، لما عجزوا عن مقاومة الإسلام بالقوة ثم يكيدون للإسلام متواطئين في الكيد مع اليهود وأعداء الإسلام المشركين، جمعت بينهم عداوة الرسول ﷺ والمسلمين معه فهم لا يفتئون يكيدون ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

﴿**لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم**﴾ ـ هذه تسلية من الله للمؤمنين ونبيهم، لا تظنوا هذا البلاء الذي ابتليتم به شراً ومضرة بل هو خير لكم، وكان يمكن نفي الشر كافياً لثبوت الخير ولكن الله تعالى أراد أن يؤكد الأمر باثبات الخيرية، وهنا يجب الوقوف في قوله تعالى: ﴿**بل هو خير لكم**﴾، كيف هذا الخير، وأما نفي الشر فقد رجع على أهله :

﴿**لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم**﴾ ـ كل واحد منهم يجازيه الله على قدر خوضه في الإفك، والله حكمه عدل لا يجور، وهؤلاء نواياهم وأقوالهم كلها محسوبة مضبوطة وسيجازون عليها، والذي تولى كبر القضية رفع رايتها وهو رئيسهم دولاب الفتنة له عذاب عظيم، والذي عظمه الله لا يحيط بوصفه إلا الله، فويل لهم ويل لرأسهم عبدالله بن أبي.

ولنرجع إلى الخيرية التي أثبتها الله تعالى للمؤمنين، وهي خيرية عظيمة وواسعة وممتدة إلى زماننا هذا وإلى قيام الساعة ما دام القرآن يتلى فالمسلمون يمشون في هذا النور الذي كان مشرقه عليهم، هذه الحادثة التي علمتنا كيف نعالج الأحداث مثلها، ولا يخلوا منها زمان ولا مكان فالخير أولاً في الكشف عن هذه العصابة التي جمعها الكيد للإسلام والمسلمين وكشف أمرهم، وهي عصابة تكونت في المدينة لما قوي أمر المسلمين وبتأثير مجاورة اليهود أهل الكيد والعداوة للإسلام والمسلمين، فلابد بحادث يفضح أمر هذه العصابة حتى يحذرها المسلمون أهل النوايا الطيبة، والفتنة خطيرة إذا كانت من الداخل، ثم تتالت بعد ذلك أحداث زادت لأمرهم كشفاً وفضيحة كما وقعت في غزوة الأحزاب والخندق ويوم تبوك، وتكلموا في قصة زيد وزينت، وفي تحويل القبلة وفي تقسيم الغنائم، وبنوا مسجد الضرار، وفي كل ذلك يفضح الله أمرهم ويحذر المؤمنين من كيدهم وفتنتهم، وهذا طبع خبيث مركب في نفوس اللئام والمنافقين لا يخلوا منهم زمان، يغيظهم أن يشهدوا جماعة من الأطهار من أهل زمانهم في مستوى عال من البر والعفاف وهم في مستوى منحط من الفجور واللؤم والرذيلة فيؤذيهم هذا الفرق الشاسع بينهم، إذ به يظهر نقصهم وانحطاطهم فيحاولون جاهدين الطعن عليهم حتى يتضاءل هذا الفرق، وهم يزعمون أنهم بذلك يغطون على نقصهم وفجورهم فيضيفون بذلك نقصاً إلى نقصهم وآثاماً إلى آثامهم، وليتهم اقتصروا على ذنوبهم الأولى فلم يضيفوا إليها ذنوب الطعن والحسد والنفاق .

﴿ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ ـ النساء ١١٢ ـ والله يعاقب على الذنب بذنب أعظم منه ونعوذ بالله من مكرهم، وليتهم إذ قصروا وأذنبوا سألوا الله العفو ولم يعادوا

الصالحين ويطعنوا عليهم ولم يضيفوا إلى ذنوبهم ذنوباً أعظم منها، وهذا هو الضلال الذي يصير أهله إلى الدرك الأسفل من النار فلنحذر من معاداة الأولياء الصالحين، ونعوذ بالله من شر النفاق والمنافقين ومن شر حاسداً إذا حسد - هؤلاء المنافقون لم ينفعهم وجودهم في خير القرون، ولم تفدهم عشرة خير أهل الأرض، بل ازدادوا بذلك سقوطاً وتردياً أسفل سافلين فصاروا بعداوتهم لهم والطعن فيهم شر أهل الأرض، أخر الله تعالى إنزال آية البراءة شهراً كاملاً حتى يظهر كيد المنافقين، ويعلمهم الناس ليميز الله الخبيث من الطيب، ويمحص الله المؤمنين ويمحق الكافرين، وهذا بعض الخيرية المشار إليها أول الآية، فمن الخير أن يكشف الله أمر هذه العصابة لنتقي شرها ولا نستمع إلى كيدهم وافترائهم، ولم يكن النبي في هذه المدة يشك أن الله يتركه في هذه الحيرة دون أن يبين له جلية الأمر، وكذلك كانت عائشة ﵂ تقول: إني مطمئنة أن الله سيبرئني ولكن لم أكن أظن أن قيمتي عند الله تبلغ أن ينزل في قرآنا يتلى. فالخيرية هي إظهار المؤمنين الصادقين وتمييزهم من المنافقين الكاذبين، وتربية الله للمؤمنين كيف يكون موقفهم من هذه التهم والإرجافات.

﴿لولا إذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيراً﴾ - فينبغي أن يكون ضمير المؤمن طيباً وظنه بأخيه حسناً، بهذا تتكون الجماعة المسلمة وتلتحم على النقاء والطهر والوئام لأنها أعدت لمسؤولية ضخمة وأمانة عظمى، لا يتأتى لها القيام بها إلا إذا هذبت ونقيت نفوسها والتحمت على الحب والاحترام المتبادل.

إن هذه الخيرية لا يمكن حصرها ولا عدها بواحد واثنين ولكن هذا يوجد في مطاوي تفسير الآية واستجلاء الحكم والعبر منها، فهي أوسع من أن يأتي عليها حصر .

﴿**لولا إذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيراً**﴾ ـ يجب أن يكون للمؤمن ضمير يستفتيه عند سماع الشبه والتهم، ويجب أن يكون ضمير المؤمن طاهراً نقياً، ولا ينتظر في كل شبهة وحياً لأنه سيمضي زمان الوحي ويبقى رصيد الإيمان في قلب المؤمن يرجع إليه عند إنتشار الشبهات وذيوع الأراجيف. وقد يعترض بعض البلاء فيقولون: ترى لماذا أمرنا أن نسارع إلى نفي الخبر ونبادر إلى التكذيب فنقول: هذا إفك مبين، هذا بهتان عظيم. أليس الأولى أن يأمرنا بالتحقيق والتثبت وسنجيب على هذا الإعتراض .

أولاً : قال الله تعالى: ﴿**ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيراً**﴾ ـ فالظن الحسن والضمير النقي وسلامة الصدر مقدمة على كل خبر ينال من عرض المسلم والمسلمة، لا سيما بيت النبي الذي هو أطهر بيت في الأرض ويليه بيت أبي بكر الصديق الذي نشأت فيه عائشة البريئة الطاهرة، والموقف دقيق، فيه تهذيب وتربية إلهية عالية، والتعبير بأنفسهم فيه نكتة عجيبة وذلك أن نفس أخيك هي نفسك ونفسك نفسه فالذي يؤذيه يؤذيك، والمفروض أن تكون نفوس المؤمنين والمؤمنات على مستوى رفيع من النقاء والطهر والعفاف، بحيث لا تحوم حولها الريب ولا تقترب منها الشبه، فلا يستقر فيها إلا الخير والظن الحسن لا سيما وجماعة المهاجرين والأنصار أول جماعة طهرها الله ونقاها وأسسها على التقوى من أول يوم، فهم خير أمة أخرجت للناس، وهم صفوة هذه الأمة وزبدتها، فكيف يمكن لمنافق أو شيطان أن يخلص إلى هذه الجماعة النقية ويبث فيها وساوسه في أطهر بيت، وفي عائشة المحصنة المؤمنة الغافلة عن الفحشاء، وكيف تفكر في هذا وهي النقية العفيفة وعندها رسول الله ﷺ الذي جمله الله وكمله ثم كيف يتهم صفوان بن المعطل السلمي الأنصاري المؤمن الذي أدار ظهره عند

ركوبها، وقاد المطية ولم يسقها ولم يكلمها ولا حتى كلمة لفرط حيائه وعفافه واحترامه لزوج النبي ، ألا يظهر بعد هذا أن الأمر بهتان عظيم وإفك مبين .

ولنأخذ للتفكير السليم والضمير النقي محاورة أبي أيوب الأنصاري لزوجته رضي الله عنها فهي أحسن مثل لما يجب أن ينطوي عليه ضمير المسلم نحو أخيه. قال أبو أيوب لزوجته: أتسمعين ما يقول الناس؟ قالت: سمعت ووالله إنه لكذب وقالت له لو كنت مكان صفوان أكان يخطر ببالك شيء؟ قال لا والله، ثم قالت: ولو كنت مكان عائشة أتحدثني نفسي أن أخون النبي ﷺ لا والله ثم قالت: صفوان خير منك وعائشة خير مني.

هذا هو التفكير الرائع السليم، وصفوان هذا من السابقين إلى الإسلام ومن الذين شهدوا بدراً وقال عن نفسه: والله ما كشفت عن أنثى قط في الجاهلية فكيف وقد أكرمني الله بالإسلام! هذا هو المقياس الذي أرادنا الله تبارك وتعالى أن نرجع إليه إذا سمعنا مثل هذه الأخبار، وهذا هو الحكم الذي ترتاح إليه النفوس المؤمنة التي لا تفتأ أن تقول هذا إفك مبين، سبحانك هذا بهتان عظيم. فالمؤمن بنور الله يبصر، وويل لمن عميت بصيرته بعد هذا النور المبين. ثم نكتة أخرى وهي أنه لو كان في الأمر شبهة فهل يبلغ صفوان من الوقاحة أن يأتي بالظعينة في وضح النهار يقودها وسط المئات من الناس! هذا ما لا يقول به عاقل. ثم إن الزنى للحرة كان عندهم حينئذ عار وأي عار، فهذه هند بنت عتبة لما كانت تبايع رسول الله ﷺ مع النساء فلما بلغت عند قوله - ﴿ولا يزنين﴾ - قالت أو تزني الحرة يا رسول الله! وكانوا يتكرمون في جاهليتهم عن التعرض لامرأة الجار ويتمدحون بهذه المكرمة يقول شاعرهم :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

كانوا يتنزهون حتى عن النظر إلى نساء الجار تكرماً. فكيف يتهم مثل صفوان المؤمن المسلم مع عائشة النقية الطاهرة: فلا مجال لسوء الظن مطلقاً ولا نملك إلا أن نقول عند سماع الخبر: سبحانك هذا بهتان عظيم وهذا ما نقرره من النزاهة يزيده جو الحادثة وضوحاً فالمقام مقام رحمة وعطف، حيث تجد امرأة ضعيفة تائهة تخلفت عن ركبها فهي عرضة للهلاك فكيف تفكر حينئذ في التعرض لها، لا يخطر ببالك لا سيما وهي امرأة نبيئك رسول رب العالمين، هذا ما لا يخطر ببال عاقل، إنما هي مطاعن المنافقين :

﴿**يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين**﴾ ـ إن الله يعظنا ويحذرنا أن نفتتن بأقوال المرجفين فما يكون لنا معشر المسلمين أن نتكلم بكلام أهل الكذب والزور، والذين يقولون بغير علم ولا هدى، فالأساس الذي نبني عليه ظننا هو النقاء والطهر في أعراض المسلمين، وكل تهمة فهي باطل ينفى ولا يقبل ولا ينبغي أن نتكلم بها، وليس الأساس هو التهمة فنطلب التحقيق فلنفهم هذا المعنى جيداً، وليس خاصاً بعائشة وحدها بل هو قانون عام نعامل به الطيبات والطيبين المبرئين.

﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيها أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**﴾ ـ يقول الله تعالى: لولا أن الله أراد بكم خيراً ليهديكم وليمحصكم ويعلمكم بما ينزل في الحادثة من أحكام، لولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم عذاب عظيم عقوبة لكم على ما أفضت فيه وخضتم في باطله من القول والزور ـ ﴿**إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم**﴾ ـ كان هذا الكلام يجري على الألسنة من غير أن يستقر في القلوب

ويقال بالأفواه من غير علم، ولم يكونوا يعتقدون ما يقولونه حقاً إلا كلاماً لا أصل له من الصحة، فلم يحققه من المؤمنين أحد إلا الثلاثة الذين أقيم عليهم الحد وتابوا، ولكن الله وبخهم على الخوض في أمر باطل ونهاهم أن يعودوا مرة أخرى لمثل هذه الإشاعات التي تعكر على المجتمع النقي وتؤذي البريئات منهم والبريئين.

لم ينزل الله العذاب عليهم لطفاً بهم ورحمة، ولأن أحكام الله لم يتم نزولها بعد فكان بعض العذر قائماً يقتضي اللطف والتخفيف فينقلب العذاب عتاباً وتخويفاً.

﴿**يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مومنين**﴾ ـ إياكم أن تسقطوا مرة أخرى في هذه الورطة فلا تعودوا لمثلها أبداً ما دامت السماوات والأرض، وما دام القرآن يتلى على المؤمنين في كل زمان ومكان. يجب على المؤمنين أن يثق بعضهم في بعض، فمن قال غير ذلك وأساء ظنه في المحصنات فهو الملعون المنافق. وقد يقول قائل: ولم أمسك النبي ﷺ عن الحكم ولم يبادر إلى التكذيب من أول يوم، وهو يعلم عفة زوجته وكذلك أبو بكر ﵁ وهو الذي ربى بناته على العفاف! الجواب معروف وهو أنه ماذا عساه يقول الزوج وماذا عساه يقول الأب وهما أقرب الناس وأمس رحماً بالمتهمة، فلا ينفع دفاعهم عن المتهمة وسوف يلج المنافقون في طعنهم، ويقولون في الزوج أنه يدافع عن زوجته لأنها زوجته وفي الأب أنها ابنته، وربما تروج هذه المقالة مرة أخرى على ضعفاء المؤمنين فكان العلاج الناجع غير هذا، وكانت الحكمة أن ينتظر أمر الله والله يدافع عن الذين آمنوا، وهذا هو المعنى الذي شعر به النبي ﷺ يوم قال لعائشة: إن كنت بريئة فسيبرئك الله ؛ وما كان النبي ليقطع أمراً في مثل هذا الموقف الدقيق إلا بوحي من الله،

فكان ينتظر الوحي يوماً بعد يوم، حتى أشرق كفلق الصبح يزيل ظلمات الشكوك والشبهات، وهو النور وأي نور! ثم إنه ما من بلاء إلا ويقترن به لطف من الله بالمؤمن المبتلى. فلم تسمع المتهمة بهذه التهمة العظيمة إلا في أيامها الأخيرة قبيل انجلائها ووقعت التهمة في أعلى بيت من المسلمين لطفاً بهم، لأنها حينئذ تضعف ويبعد احتمال وقوعها وأين تبلغ خشاخش الأرض من دؤابة، وما عساه ينال من القمر من راح يوجه إليه الشتم والبصاق، وكذلك ليرفع الله درجات من يشاء، ويكون لنا في ذلك تشريع وأحكام وحكم كثيرة ولنستمع إلى بقيتها فيما يلي :

﴿إن الذين يحبون أن نشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾.

هذا حكم قاس ووعيد شديد يقرره الله تعالى في هذه الآيات على الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، والفاحشة مأخوذة من كلمة فحش أي ما اتسع خطره وعظم ضرره وتأتي في القرآن مقترنة بالكبائر :

﴿الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش﴾ ـ النجم ٣٢ ـ ومرة تقترن بالمنكر ـ **﴿أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** ـ العنكبوت ٤٥ ـ هؤلاء المنافقون الذين ينشرون هذه التهم والأراجيف فضحهم الله تعالى، إنهم إنما يريدون بذلك الطعن على نبيء المسلمين والنيل من كرامة صديقه الأول، والطعن على مجتمع المسلمين الطاهر، وليس قصدهم الغيرة على الدين، فما أبعدهم على الدين، ثم إن هؤلاء موجودون في كل زمان ولهم مظاهر كثيرة لإشاعة الفاحشة، فالذين ينشرون الصور العارية في الصحف والمجلات وغيرها والذين يدعون إلى فتح دور البغاء السري والعلني،

والذين يربطون بين الرجال والنساء الفواسق، والذين يفتحون ديار الرقص والغناء ويغشونها، وأنواع التمثيل والسينما يعرضون الصور العارية، تحت عنوان الفن، كل هؤلاء وأمثالهم تتناولهم هذه الآية بالوعيد، لأنهم بذلك يلوثون المجتمع الإسلامي النظيف ويدنسون صفوه بما يثيرون من الغرائز ويجرئون الشياطين والشيطانات بعملهم هذا، وحتى القلوب التي فيها الطهر قد تفسدها، فمن تدبر الاية وخاصة قوله تعالى:

﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ - تفتح له باب واسع من العلم في الموضوع لأن الذي خلق النفوس وركب فيها الطبائع والغرائز هو أعلم بما خلق أم نحن، فكثير من الأشياء نحسبها هينة وهي عظيمة لها تأثير عجيب في النفوس لا سيما نفوس الشباب، فحذرنا الله تعالى منها ليبقى مجتمعنا طاهراً نظيفاً، وتوعد ذلك بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، أما عذاب الآخرة فالخلود في جهنم أعاذنا الله منها.

وأما عذاب الدنيا فنوعان: نوع ينزله الله وقد يعم به أهل القرى إذا عمهم الفسق وشاعت بينهم الفواحش، وذلك بأنواع الهلاك مثل الزلازل والخسف والعواصف وأنواع الأوبئة الفتاكة، وقد يذيق بعضهم بأس بعض فتنتشب بينهم الحروب التي تبيدهم والتاريخ مشحون بالعبر. والنوع الثاني من العذاب مكلف به أئمة المسلمين أن ينزلوه بأهله كل على حسب ذنبه من أنواع التأديب والتعزير والتنكيل كما هو مفصل في كتب الفقه، ويدخل في عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده» الحديث - وقد أهلك الله أمة كبيرة قال فيهم: ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ - المائدة ٧٩ - .

فلنتق الله ولنحذر هذه الصور العارية والشعر الإباحي والأدب المكشوف، فإن هؤلاء جميعاً يدخلون في وعيد الآية ولا ينجو من الوعيد حتى الذين يرجون هذه الأشياء يبيعونها في محلاتهم لأنهم يتسببون في إشاعة الفاحشة فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾ ـ لم يذكر جواب الشرط في هذه الآية، تركه لتقديرنا وذلك أروع وأبلغ في التأثير، فالله قادر أن يأخذ هؤلاء أخذ عزيز مقتدر، وما هم بمعجزيه ولكن الله يمهلهم ويعظهم ويحذرهم ليتوبوا قبل الأوان .

يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟
أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟
وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يحذرنا ربنا تبارك وتعالى من إتباع خطوات الشيطان، ويبين لنا أن إشاعة الفواحش وإتيانها من وسواس الشيطان، يناديكم فتجيبونه ويشير لكم فتتبعونه، ومن يتبعه فإنه ضال متبع للمنكر مرتكب له، والشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ويقودهم إليها خطوة خطوة، فإياكم أن

تتبعوه في خطوة من خطواته فإن بعضها يجر إلى بعض، والشر يدعو إلى الشر، والمصير النار وبئس المصير، ولا تطيعوه أبداً ولو في محقرات الأعمال، وسيتبرأ من حزبه يوم القيامة إذ يقول لهم :

﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ - إبراهيم ٢٢ - هنالك يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواهم النار ومالهم من ناصرين، هكذا يمتن الله علينا بفضله ورحمته وتزكيته لمن يشاء من عباده فيقول جل من قائل :

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ - لولا أن الله تعالى يزكيكم ويطهركم بما ينزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به. ويزكي من يشاء يأخذ بأيديهم ويغلبهم على الشيطان وربما يخطئ أحد في المشيئة، وربما يغره الشيطان يقول له: أرسل نفسك على سجيتها تفعل ما تشاء، ومتى أراد الله هدايتك فإنه يهديك، هذا تغرير من اللعين ولا ينفع، وقد بين الله أن هدايته إنما هي لمن جاهد في عبادته :

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ - العنكبوت ٦٩ - كلا ليس الأمر كما يزعم أولياء الشيطان الذين قالوا: **﴿لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا﴾** - الأنعام ١٤٨ - إعتماداً منهم على القدر وتواكلاً من أنفسهم الخبيثة، وهم أبعد الناس عن الإيمان. فالمشيئة حق والقدر حق ولكنهم هم الكاذبون المغترون، وقد كلفهم الله بالإيمان والعمل ويسر لهم السبل إلى ذلك ووعدهم العون والتيسير متى صدقت عزائمهم وسلكوا الطريق -

﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ ـ الليل ٥ـ٧ . ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ ـ محمد ٣٧ ـ إن الله تعالى جعل في قلب ابن آدم ملكاً يلهمه وشيطاناً يوسوسه، وأرسل إليه النذر تبين له طريق الخير، ومكنه من الاختيار، وإذا علم الله من عبده صدق النية والعزيمة فإنه يأخذ بيده ويهديه هداية إيصال ويحفظه من إتباع خطوات الشيطان، ولابد بالمجاهدة، والزكاة هنا في الآية الطهارة من أدناس الشك والمعاصي، تطهير النفس ـ ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ـ الشمس ٩ ـ وتطهير القلب، وإذا طهر القلب طهرت الجوارح، فلا ترتكب المخالفات. يريد الله أن يزكي أنفسنا ويطهرنا بما أرشد إليه من أسباب التزكية والتوبة بعد الوقوع، والله سميع عليم، يسمع ما تقولون ويعلم ما في ضمائركم فاحذروه أن يسمع منكم ما يكره أو يعلم منكم ما لا يرضاه، فتوبوا إليه فإنه يسمع تضرعات التوابين، ويعلم نوايا المخلصين ويقبلهم ويجزيهم على الصالحات خير جزاء.

﴿ولا ياتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يوتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ ـ هذا أدب آخر يؤدبنا به ربنا تبارك وتعالى وذلك أنه إذا تفضل على أحد منا بنعمة الرزق فليس من الشكر أن يحرم أقاربه الفقراء من خيره لأجل خطأ ارتكبه أحدهم في حقه فيغضب ويقسم أن يقطع عنه خيره، ولا يأتل: لا يحلف والإيلاء هو الحلف، وهذه الآية نزلت في حق سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ وذلك أنه غضب على ابن خالته المهاجر الفقير مسطح بن أثاثة الكلبي ﷺ، كان أبو بكر ينفق عليه ويحسن إليه بحكم قرابته منه، وما كان ينبغي لمسطح وهو يعرف مقام عائشة منه

ﷺ ومن أبي بكر وحصانتها، وبيت أبي بكر وأم رومان وحصانته، ما كان ينبغي لك يا مسطح أن تنخذع، ما كان ينبغي لك يا مسطح أن تنحدر فتطلق لسانك في الحصان الرزان المؤمنة المحصنة الغافلة، لقد تكلمت ببهتان عظيم، ولولا فضل الله عليك ورحـمته لمسـك فيمـا أفضت فيـه عذاب عظيـم ولكن مسطح تاب وندم، وجلد الحـد ثمانين جلدة، فما كـان لأبي بكر بعد هذا أن يستمر في حرده عليه.

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفـور رحـيم**﴾ ـ هذا تنظيـر له مقـام وجلال وله تأثيـر في القلوب غريب، لا أريد منكم يا عبـادي المؤمنين أن تكونوا ممن يكافئ الشر بالشر إنما أريدكم أن تكونوا أبراراً تكافئون من أساء إلـيكم بالإحسان إليه، أريد منكم أن تعفوا وتصـفحوا كما تحـبون أن أعاملكم، تعصوننـي وأعفو عنكم وأنعم عليكم، تذنبـون وأقبل التوبة منكم، ولو أني سـددت باب التوبة والعـفو في وجوهكم مـا نجا منكم أحد، فكما أنـكم تعصونني وتحبـون أن أغفر فليغـفر بعضكم لبعض، وليعفوا وليصفحوا، ولا أرضى لأحد منكم أن يحلف على أن يقطع خيره عن أخيه وقريبه المهاجر الفقير .

هكذا نزلت هذه الآية العظيمـة في حق العفو، فـما إن سمعـها أبو بكر رضي الله عنه حـتى سارع إلى الإمـتثـال فكفـر عن يمينه ورجع إلى إحـسانه أحـسن رجـوع، وقال يا رب إني أحب أن تغـفر لـي، وحلف أن لا يقطع خيـره عن مـسطح أبداً مـا دام حيـاً. هكذا كـان امتـثـال أبي بكر الصديـق وأمثـاله من الصحـابة الكرام لأوامر الله تبارك وتعـالى، فيـا ترى لو امتحن أحـد منا بهذا الإمتحان ماذا يكون موقـفه؟ يجب علينا أن نتذكر ونتعظ بآيات الله وبمواقف الصحابة الذين تلقـوها بالقبول والمسارعة بالإمتثـال، وإلا فمن منا يقول: أنا

لا أحتاج إلى عفو الله وصفحه، كلا فمن منا معصوم، ولنا حاجة شديدة إلى عفو الله وصفحه ومغفرته للتائبين.

﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ ـ طه ٨٢ ـ في هذه الآية الكريمة توجيه لنا وإرشاد إلى معاملة ذوي القربى من أهل الإسلام بعضهم لبعض، وتحذير من القطيعة وتبيين أن اليمين فيها محرم ممقوت فيجب التكفير والرجوع إلى الصلة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حلف أحدكم يميناً فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير».

قال بعض الفقهاء: لا كفارة عليه وإنما يرجع لعمل الخير فذلك كفارته تمسكاً ببعض الروايات التي فيها زيادة ـ فذلك كفارة ـ ولكن يرد عليهم قوله في الحديث ـ فليكفر عن يمينه ـ أما قوله في بعض رواياتهم فذلك كفارة فرأينا فيه أن الحلف على القطيعة ذنب مضاعف فيه كفارتان: الكفارة الأولى كفارة اليمين والكفارة الثانية على استعمال اسم الله العظيم في القطيعة ـ فهذا ذنب عظيم يحتاج إلى التكفير فكان الرجوع إلى الصلة كفارة له فهناك يمين وذنب عظيم فلابد بكفارة اليمين، ولابد بالتكفير على الذنب هذا هو الراجح عندنا في المذهب، ونرجو أن يكون صواباً والله أعلم وآيات الله في كفارة الأيمان محكمة :

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ ـ التحريم ٢ ـ هذا ما فتح الله لنا به في تفسير هذه الآيات نرجو أن نعتبر بها، ولا نكون من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ولا من الذين يشاركون في إشاعتها ونرجو أن نكون من الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل بالعفو والصفح، لا بالقساوة والقطيعة والحمد لله رب العالمين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

بعد كل ما تقدم من الآيات المحكمة في قصة الإفك وهي محكمة وعامة، والعبرة كما يقول العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وحتى لا يظن ظان أن كل هذا التشديد والتعظيم إنما هو في حق عائشة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وبنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى لا يظن ظان أن كل هذا في حق عائشة فقط، اقتضت حكمة الله تعالى أن يصدر حكماً آخر عاماً في الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات حتى يتيقن الناس بعمومه وشموله في حق المؤمنات والمؤمنين إلى يوم القيامة ولا يتوهموا خصوصيته في حق عائشة وحدها فقال:

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ - فالآية محكمة وعامة وعبر ربنا تبارك وتعالى بالرمي حتى يتبين فظاعة الكلام في أعراض المحصنات أنه لا يقل فظاعة من الرمي بالصخور المحطمة والقاتلة، غير أن الصخور المرمية تحطم الأجساد، وكلمات الإفك والبهتان تحطم الأعراض وتشيع الفاحشة فهي إذن أشد وأشد من الصخور. وكم يدرك قارئ الآية بإمعان وتدبر ما فيها من

تأثير وقوة، بدأها بالتأكيد بإن ثم التعبير بالرمي وما فيه من الفظاعة ثم التوعد باللعنة وهو الطرد من رحمة الله، ثم التخويف بالعذاب ووصفه بالعظيم وكونه في الدنيا والآخرة، ثم عرض مشهد يوم القيامة العظيم، وما فيه من الخزي لهم حين يحاولون الإنكار ويحلفون على الكذب لما رأوا العذاب العظيم :

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ - والرمي هو التكلم بالبهتان في النساء العفيفات مثل عائشة أم المؤمنين والرجال الأعفاء، مثل صفوان بن المعطل الذي قال عن نفسه: ما كشفت كتف امرأة قط - ما أروع التعبير القرآني:

﴿المحصنات الغافلات المومنات﴾ - هو تبرئة لأم المؤمنين عائشة ووصف لها بأعظم أوصاف العفاف، وهو في نفس الوقت إرشاد لما يجب أن تكون عليه كل مؤمنة: أن تكون محصنة عفيفة وغافلة لا يخطر الفحشاء ببالها ولا يجري ذكرها في خلدها لشدة كراهيتها لها وبعدها عنها وعن أهلها، فهذا وصف جميل وطيب لحالة المؤمنات المحصنات اللواتي ينشأن في بيوت دين وعفاف وحصانة، لا يخطر ببالهن الشر ولا يعرفن الزنى والفواسق، فهن عنه غافلات لا غفلة جهل وبلادة، وإنما هي غفلة عفاف وإعراض، وفي هذا المقام الذي هو مقام الكلام عن الحصانة ناسب أن يقدم وصف الحصانة والغفلة عن وصف الإيمان وإن كانت الحصانة ثمرة الإيمان، لكن البلاغة القرآنية لها إيقاعات خاصة ومؤثرة :

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ - النساء ٨٢ - ولا ننس كذلك أن الحصانة والعفاف هي أخلاق المرأة الحرة العربية قبل أن تعرف الإيمان، فكن يرين من العار الفاضح أن تزني الحرة، فلما جاء الإسلام

أكد فيهن هذا الطبع النبيل فجعله ديناً لا خلقاً وعادة فقط، لأن الأخلاق والعادات كثيراً ما يطرأ عليها التغيير كما هو واقع في عصرنا في أكثر بلاد الدنيا.

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ - حكم الله عليهم باللعنة في الدنيا والآخرة فكأنه قطع عنهم طريق التوبة والإنابة، لأن رمي المحصنات طبعهم ودأبهم فالتعبير جاء بصيغة المضارع - يرمون - فهم متمادون على الكذب والبهتان وإشاعة الفاحشة، وليس الأمر فلتة كما وقع لمسطح ثم تاب فأولئك الذين ليس من طبعهم هذا، قريبون من التوبة ورحمة الله قريبة منهم، أما المصرون والمتمادون لا سيما إذا كانت اللاتي يرمونهن محصنات غافلات مؤمنات إجتمعت فيهن هذه الأوصاف الثلاثة فيا ويلهم من وعيد الله الشديد فهم في لعنة الله في الدنيا والآخرة، وهؤلاء قليلاً ما يتوبون وقليلاً ما يذكرون، أنى لهم ذلك وفي نفوسهم طبع خبيث، وهو حبهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا يعمدون إلى المجتمعات المؤمنة الطاهرة البريئة فيلقون فيها جرثومة سوء، فيلقون فيها كلمة الفاحشة في أوساطها النقية، فتكون كجرثومة الوباء إن لم تقاوم ويقض عليها ربما ينتشر وباؤها، ولذلك سميت الفاحشة فاحشة وهي التي يتسع ضررها ويعم خطرها، فهم يخلقون بكلامهم هذا جواً من الفاحشة ربما أثر على بعض القلوب المريضة، وإذا كان الله تبارك وتعالى ينزل هذه الآية في خير القرون فيقول جل من قائل :

﴿ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ - الأحزاب ٣٢ - يخاطب بذلك زوجات النبي ﷺ ونساء المؤمنين، إذا كان هذا الخطاب في ذلك القرن فكيف بقروننا هذه، ومرضى القلوب هو ميلها إلى الفاحشة

وهذه سرعان ما تتأثر بمخاطبة النساء إذا كان فيها تغنج وأنوثة، أما القلوب الطاهرة البريئة فلا يؤثر فيها ذلك ولو طال الخطاب ورق الكلام ولان، وبما أن الناس فيهم الطيب السليم والدنيء المريض القلب، فالمرأة المؤمنة مكلفة إذا دعتها حاجة إلى مخاطبة الرجال أن تتكلم بكلام قوي ليس فيه تكسر وخضوع، وهذا كله حرصاً على سلامة المجتمعات الإسلامية من شيوع الفاحشة حتى تظل سليمة ونظيفة، والبيئة متى كانت نقية فهي الضمان لسلامة الناشئين فيها والعائشين في كنفها، فالذين يطلقون التهم في البيئات الإسلامية النظيفة يرتكبون أعظم الإجرام، لأنهم يخلقون نتناكنتن الجيف يجرؤ كلاب السوء على التطواف وراء الفاحشة وما كانت هذه الكلاب لتطوف لولا وجود هذه الإشاعات، فحرام علينا التكلم بهذا ولو على فرض وقوع شيء منها، يجب على المؤمن المشفق على سلامة بيئته أن لا يتكلم به بل يسعى في العلاج والقمع، وعند الظهور يجب إقامة الحد حتى يكون ردعاً للآخرين، ثم بعد الحد لا يباح الكلام حتى في عرض المحدودين إذا أظهروا التوبة والندم وهذا كله حفاظاً على أعراض المؤمنات والمؤمنين وعلى مجتمعاتهم أن لا يقع فيها ما يعكر صفوها ويخدش سلامتها وطهارتها. بهذا النظام العجيب وبهذا الأدب الذي أدبنا به ربنا تبارك وتعالى يبقى مجتمعنا طاهراً يعيش الرجل فيه دهراً طويلاً. ولا يحدث نفسه بشيء، وتعيش المرأة طول عمرها ولا يمر بخاطرها أن تخون زوجها أبداً، هذا ما نعتقده في أمهاتنا وزوجاتنا وبناتنا، وهؤلاء هن المحصنات الغافلات المؤمنات اللاتي يتوعد الله الذين يرمونهن بالعذاب العظيم ويقول في شأنهم :

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ - يقول القائل: هذه الألسنة تشهد على الكلام فما بال الأيدي والأرجل، ذلك

أن من ابتلي بهذا الداء تراه ينتقل من مكان إلى مكان ينشر خبر الفاحشة ويشير بيديه وعينيه فهو يستعمل هذه الجوارح في إشاعة الفاحشة، لذا فهي تشهد عليه يوم القيامة فما أبلغ التعبير القرآني، وهؤلاء لا يقر لهم قرار حين يسمعون خبراً من النوع، فهم لا يزالون في اضطراب وتنقل حتى يذيعوا الخبر، وقد يتظاهرون بالغيرة ولا تكون أعمالهم في الغالب إلا قبيحة.

﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ - يومئذ : اليوم الذي يقومون فيه لرب العالمين يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ويوفيهم الله دينهم الحق، الدين هنا بمعنى الجزاء، يوفيهم الله ما يستحقون من الجزاء ولا يخفف عنهم ولا ينقص منه شيء، هذا الوعيد الشديد في حق هؤلاء يدل على عظم حرمة أعراض المؤمنين والمؤمنات وعلى محبة الله لأوليائه، فهو شديد الإنتقام ممن يتعرض لأعراضهم، وكرامة المرأة المؤمنة أعظم، وتأثير البهتان عليها أعظم بكثير من الرجال فالويل لمن مسها بسوء وويل له من عذاب أليم، وكذلك الرجل المؤمن حرام عرضه ودمه وماله، والعرض والشرف أعظم حرمة من المال ولذلك شدد الله في الوعيد وذكر فيه أنواعاً من العذاب، ولا يزال الكلام في معرض الوعيد فيقول :

﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾ - نبهنا الله تبارك وتعالى إلى سنة من سننه في هذا الكون في المجتمع الإنساني، وهي السنة التي دل عليها واقع قانون الله تعالى في بني آدم: الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والكلام دائماً مداره على المرأة وهي القارورة التي عرضها وشرفها أدق من عرض الرجل، يبدأ الكلام بها ثم

يثني بالرجل، وينبهنا أن الناس طبقات شتى وبين هذه الطبقات تجاذب فالمفسدات يملن إلى أجناس من المفسدين، والمفسدون يقعون على أجناسهم من المفسدات، والطيبات لا يملن إلا إلى الطيبين والطيبون لا يرضون إلا بالطيبات، وفي هذا إشارة إلى قضية الإفك فكأنه يقول: أتظنون أن رسول الله ﷺ النقي الطاهر النسب الذي ليس فيه شبهة سفاح أتظنون أنه يتصل بامرأة غير طيبة، وكذلك أبو بكر الصديق النقي النسب أتظنون أن تخرج من بيته الشريف لوثة في عرض أو شرف! كلا إنها عناصر طيبة نقية بعضها لبعض كفاء، وهل يرضى الله لنبيئه إلا الطيبات العفيفات. عائشة البريئة ما عرفت غير الطهر والعفاف منذ نشأتها، وهي التي خطبها النبي ﷺ وهي بنت ست سنوات، وعقد عليها وهي بنت سبع، ودخل عليها وهي بنت تسع، فكيف يمكن لهذه البنت التي ملأ الله قلبها وسمعها وبصرها بنبيئه الذي كمل خلقه وخلقه، كيف يمكن لمثل هذه أن يخطر ببالها سوء أو ميل إلى أحد غير زوجها الذي عقدت عليه شغاف قلبها منذ صباها فالأرواح الطيبة بينها تجاذب في المعاشرة والمصاهرة، والخبيثة كذلك يسوق الله بعضها إلى بعض ففي هذه الآية تنبيه لعقولنا فكأن الله يقول لنا: كان ينبغي أن توازنوا بين عناصر الناس ولا تنخدعوا بمقالة المنافقين أمثال عبدالله بن أبي وأصحابه فهل يستقيم في العقل أن تروج مقالة السوء في أهل بيت رسول الله ﷺ وفي صفوان، وهو من يعرف الناس حصانته وطهارته منذ الجاهلية، كان ينبغي لكم يا أهل العقول السليمة أن تدركوا خطر هذه الكذبة على مجتمع طاهر ونظيف وفظاعة هذا البهتان العظيم، فما أبعد الفاحشة عن الطيبات والطيبين! أولئك مرءون مما يقول المنافقون الذين يظنون بالمؤمنين ما بأنفسهم من فسق وما في قلوبهم من مرض.

ويروي بعض أصحاب الحديث عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة». فليتق الله الذين يرتعون في أعراض أولياء الله الذين برأ الله ساحتهم وطهرهم، وسيعلمون جزاءهم في اليوم الذي يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين، إن الله هو الحق ويقول الحق ويحكم بالحق، أما هؤلاء الذين يتجرءون على الله في أوليائه فلو كانوا يؤمنون بالله الحق وجزائه الحق لأقصروا عن غيهم، ولوقفوا عند حدود الله لا يتعدونها، ثم إن الله تبارك وتعالى وعد هؤلاء الطيبين المبرئين بقوله: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ - وذلك جزاء ما مسهم من الابتلاء وربما بدرت منهم بعض البوادر فيكون هذا البلاء مغفرة لذنوبهم، ورفعاً لدرجاتهم عند الله في جنات تجري عليهم فيها رزق كريم، وهذا مقابل العذاب الأليم الذي أعده الله للذين يرمون بالبهتان في دار الدنيا، ففي جزاء هؤلاء وهؤلاء ذكرى للذاكرين وعبرة للمعتبرين والحمد لله رب العالمين.

يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ
وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى عقوبة مرتكبي فاحشة الزنى في الدنيا والآخرة، وبين عقوبة القاذفين يعمد إلى الطريق التي تؤدي إلى الفاحشة فيسدها وينهانا عن الاقتراب منها ويهذبنا ويؤدبنا بأدبه العالي، فينهانا عن الإقتراب من ساحتها فلا يكتفي بالنهي عن الزنى فحسب، بل ينهانا عن القرب فيقول ـ ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ ـ الإسراء ٣٢ ـ وكل كلمة في القرآن لها نورها، وكل حرف له وقعه وربما نغفل عن هذه الأسرار، وعند التدبر والتأمل ندركها، وبالمثال يتضح الحال. فكثيراً ما نحذر أولادنا عن الأشياء المخوفة فنقول : لا تقربوا النار لأنا نعلم أنهم عند الإقتراب منها تلهب ثيابهم ولا يشعرون.

يؤدبنا الله في مجتمعاتنا السكنية بآداب هي الحضارة وهي التعايش السلمي، آداباً تبعدنا عن الخيانة والفسوق والأذى، فينهانا أن ندخل بيوتاً غير بيوتنا حتى نستأنس ونسلم على أهلها، والإستئناس هو إدخال الأنس على أهل البيت وإشعارهم بالإقتراب والرغبة في الدخول. من حق كل إنسان رجلاً أو امرأة أن يكون له مسكن يختص به ولا يرضى أبداً أن يدخله أحد إلا بإذنه وهذا من حقوق الإنسان التي جاء الإسلام لإثباتها وتكوين مجتمع هو المدينة الفاضلة التي طالما حلم بها الفلاسفة الأقدمون.

من حق كل إنسان رجل أو امرأة أن يكون له محل يختص به يخلو فيه بنفسه أو مع أهله، وحتى الحيوانات تتخذ لها أوكاراً تسكن فيها، والطيور لها أعشاشها، ولا حق لأحد أن يقتحم على أحد وكره إلا بإذنه، لا أمير ولا وزير وهذا حق مقرر في جميع قوانين الدول وسبق إليه الإسلام، فنرى القرآن يخاطبنا بخطاب طويل في حرمة المنازل ومشروعية الاستئذان لغير أهل البيت، وحتى لأهل البيت بعضهم على بعض في أوقات خاصة يبينها

القرآن بياناً واضحاً، ويقرن الإستئذان بالسلام على أهلها ليزيد في أنسهم ويدخل الطمأنينة والأمن على نفوسهم، والسنة أن تبدأ بالتسليم ثم تستأذن في الدخول تقول: السلام عليكم آأدخل؟ ولابد بالسلام فقد روي أن النبي ﷺ أمر أحداً بالرجوع لأنه لم يسلم، ولا يكفي أبداً أن توضع كلمة عوضاً عن السلام لأن القرآن عبر بالسلام والسنة علمتنا السلام.

﴿ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون﴾ - أي تسليمكم خير لكم وأحسن عاقبة وأطيب أثراً في نفوسكم ومجتمعاتكم، لعلكم تذكرون أي تفقهون حكمة الباري في تشريعه لكم ما يفيدكم ويوثق الصلات بينكم، وهذا الحكم عام حتى بين الأقارب وبين الأولاد وآبائهم وأمهاتهم.

روي أن أحد الصحابة رضي الله عنهم سأل النبي ﷺ قال: إن لي أماً تسكن وحدها في بيت ولا خادم لها غيري أفأدخل عليها بغير إذن؟ فقال له النبي ﷺ استأذن عليها، فقال له الرجل ليس معها في الدار أحد، فقال له النبي ﷺ أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا. قال له: إستأذن. هذا أدب النبي ﷺ وكذلك سأله ابن عباس رضي الله عنه قال: أخواتي أدخل عليهن بغير إذن. قال له: إستأذن والبيوت لها حرمة ولو لم يكن فيها أصحابها لأنها ربما تكون على حالة لا يرضون أن يطلع عليها الناس، وكلنا يشعر بذلك إذا إستأذن علينا أحد في بيوتنا نستصلح أولاً من شؤوننا قبل أن نأذن له، وقد يكون لرب البيت محل يخلو فيه بنفسه لا يرضى أن يدخل عليه فيه أحد من أهل بيته إلا بإذن، وإختار لنا كلمة السلام لأنه إسم من أسمائه فيه معنى السلامة والأمن والعافية، ومن سلم على أهل بيت فقد أمنهم من شره، والإستئذان ثلاث مرات قال النبي ﷺ : الإستئذان ثلاث: الأول: يستنصتون، والثاني: يستصلحون، والثالث: يأذنون أو يردون.

أنظروا إلى هذا الأدب النبوي العالي، ثم إن بعض الناس عندما يسألهم أهل البيت من؟ يجيبون: أنا ومن أنا هذا؟ وفي هذا يروي جابر بن عبدالله ﷺ قال: إستأذنت على النبي ﷺ فقال: من؟ فقلت: أنا. فسمعت النبي ﷺ يقول: أنا أنا أنا. يكررها ويستنكرها: من أنا؟ وكل الناس يقول: أنا. فهذه الكلمة لا تعرفك أيها المستأذن. أما سيدنا عمر ﷺ فكان إذا إستأذن على النبي ، يسلم ويقول أيدخل عمر فيسمي نفسه بإسمه. هذا أدب الصحابة مع النبي ﷺ فلم لا نتأدب به.

وروي أن النبي ﷺ زار مرة سعد بن عبادة فقال كعادته: السلام عليكم أأدخل فرد عليه سعد رداً خفيفاً لا يسمعه النبي ﷺ فكرر عليه السلام ثلاث مرات ثم رجع، فلحق به سعد ﷺ فقال: يا رسول الله كنت أسمعك وأرد عليك السلام رداً خفيفاً ولكن أريد البركة أن تكرر علينا السلام مرات، وكانوا شديدي الرغبة في بركة النبي ﷺ يستكثرون منها كلما سنحت لهم الفرصة.

والإستئذان كما صحت به الرواية ثلاث مرات فإن لم يأذنوا لك فانصرف، وإن قيل لك ارجع فارجع هو أزكى لك كما عبر به الأدب القرآني العالي من غير أن تتأثر أو تغضب، لأن أهل الدار ربما يكونون في شغل لا يسمح لهم بالإذن لأحد، ومن من الناس يقول أنا مستعد أن آذن للناس في كل حين وإن أكثروا.

قال العلماء: لا يسوغ لك أن تزيد على ثلاث مرات أو تبقى بباب دارهم حتى يأذنوا لك، وإنما أبدل وقتاً بآخر، ولو شعرت أن صاحب البيت فيه ولا يرغب في الإذن فاذهب ولا تلح في الإذن أو تلج في البقاء، فإن الأمور لا تعالج باللجاج إنما تدرك الحاجات بالرفق والأدب، والله يقول:

﴿هو أزكى لكم﴾ - أي أطهر لقلوبكم وقلوب أهل البيت، وأبقى للعلاقات الطيبة بينكم، وكل تصرف يخالف هذا الأدب الزكي تصرف أخرق يفسد القلوب ويوهن العلاقات، أما الترتيب الوارد في السنة وهو البدأ بالسلام فهذا ربما يتعذر في ديارنا لأن بيوتنا في مداخلها منعرجات وفيها طبقات فربما وغالباً ما يكون أهل البيت بحيث لا يسمعون من يسلم خارج البيت أو يظنون يقصد جاراً من الجيران القريبة، ولذلك ناسب أن نبدأ بالطرق للأبواب والنداء إذا استأذنا بما يسمع أهل البيت، سلمنا ودخلنا ولعل في التعبير القرآني ما يساعدنا على ما تدعونا إليه ضرورة أوضاعنا فالدين يسر والحمد لله، وأما ما يفعله بعض الناس من إبدال تحية السلام الطيبة المباركة ببعض ألفاظ أخرى، مثل: صباح الخير ومساء الخير فهذا لا نقرهم ولا نرضى بالسلام بديلاً، وهو التحية التي اختارها لنا معاشر المسلمين فيما بيننا في الدنيا، واختارها لملائكته وتحية أهل الجنة فيما بينهم وتحية الله لهم: سلام قولاً من رب رحيم - ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ - يونس ١٠ - إنها من بقايا الجاهلية أن يستبدل أحدهم بها تحية أخرى بدلاً منها، فيجب على المسلمين أن يفشوا السلام بينهم ويعلموه أبناءهم منذ الصغر، كما يعلمونهم الإستئذان حتى ينشأوا على أدب الإسلام العالي.

وأيضاً كما حرم الدخول بغير إذن كذلك النظر، وإنما جعل الإستئذان من أجل النظر كما ورد في الحديث، ولا يرضى أحد أن يشرف عليه أحد أو يطل عليه من كوة أو شق جدار أو من خصاص الباب وهو في بيته، وإن رماه بشيء فأعطبه فلا أرش عليه لأن هذا من أقبح أنواع الظلم يقاوم بما أمكن.

كما روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ عمد بمشقص كان في يده أهوى به ليفقأ عين أحد أطل عليه من خصاص الباب، وكان يأمر الذين يأتونه أن يقفوا عن يمين الباب أو شماله ولا يقفوا تجاه الباب، وهذا من

الأدب النبوي الكريم، إن من أكبر الكبائر الإطلاع على بيوت الناس من حيث لا يشعرون أو يشعرون، والإستماع إلى أسرارهم وشؤونهم كالنظر فهؤلاء ظلمة لا يبرؤهم إلا أن يتوبوا ويتحللوا من الذين ظلموهم، إنه ظلم وإن من استمع أو أطلع كأنما دخل، وهذا التشديد في حرمة البيوت فيه ما فيه من حفظ الأعراض لأن النظر بريد الزنى ورب نظرة زرعت شهوة.

وبعد فهذه الآداب العالية التي شرعها الله لنا تأديباً لمجتمعنا الإسلامي حفاظاً على سلامته ونقائه، وذلك يتجلى في إتباع سنة نبيه ﷺ وهديه الأغر نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه والحمد لله رب العالمين.

﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ ـ بعد أن بين الله تبارك وتعالى حرمة البيوت وحرمة ساكنيها، وأدبنا بذلك الأدب العالي في الإستئناس والتسليم، بين لنا في هذه الآية رحمة بنا وتيسيراً بعض الحالات الخاصة التي ندخل فيها بعض البيوت بغير إستئذان، وهي البيوت الغير المسكونة فما هي هذه البيوت التي ليس فيها سكان وفيها متاع لنا ويجوز دخولنا بغير إذن، وما هو هذا المتاع؟ هذا شيء معروف وموجود في كل زمان ومكان وقد ذكر المفسرون لذلك أمثلة كثيرة منها دكاكين التجارة والصناعة والحمامات وخانات النزول للمسافرين، ويعبر عنها اليوم بالفنادق، وتكون في المدن والقرى وفي منازل الطرق والأسفار، يدخلها المسافرون ويستريحون فيها لقضاء حاجاتهم والوضوء والصلاة والأكل والشرب والمقيل والمبيت.

هذا هو المتاع وهذه البيوت عرفها الناس من قديم وفي عصرنا هذا وهذا المتاع ليس هو الأثاث والإناء بل هو المنفعة والإستظلال والراحة ونحوها، هذه البيوت يدخلها الناس بغير إستئذان وقد اعتادوا ذلك منذ القديم.

روى أبو بكر ﷺ : سأل رسول الله ﷺ لما نزل قوله تعالى ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ الآية، قال: يا رسول الله أرأيت بيوت التجار ومنازل الطرقات للمسافرين؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح﴾ - الآية - ومن هذا القبيل في عصرنا هذا قصور الحكومات وديار البلديات ومصالح الإدارات وديار القضاء والنيابات، فهذه ونحوها هي البيوت التي فيها متاع لنا ندخلها بغير إذن، وقد تقتضي بعض الضرورات أن تتخذ الدول لديارها حجاباً وحراساً ينظمون دخول الناس فيها وهذا أمر تدعو إليه بعض الظروف.

﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ - كثيراً ما يعقب الله تبارك وتعالى آيات الأحكام والتشريع بآيات مثل هذه تذكرنا بإحاطة علمه جل وعلا بسرنا وعلانيتنا، حتى يغرس في قلوبنا طبيعة الإيمان بالله ومراقبته فيما نأتي ونذر، وقانون التشريع في كتاب الله بدع من القوانين يعقب التقنين بالتخويف من إطلاع الله على ما نكتم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون. فإذا تمكنت في ضمائرنا مراقبة الله فذلك ضمان لنا على إحترام قوانين التشريع القرآني وآدابه الحكيمة ويملأ قلوبنا ثقة بحكمه. تشريع ربنا الذي يعلم ما نبدي ونكتم من أمورنا، ولا يشرع علام الغيوب وخبايا القلوب إلا ما يصلح بعاجلنا وآجلنا والحمد لله رب العالمين.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

قل للمؤمنين أي مرهم وذكرهم ونبههم أن يغضوا أبصارهم، فلا

يمدونها إلى مـا لا يجوز ولا ينظرون بهـا نظر شهـوة وأن يحفظوا فـروجهم بسترها وتحصينها، ذلك أزكى لهم وأطهر وأنقى لقلوبهم ومجتمعاتهم، علم الله أن الأبصــار هي التي تـكون السـبب إلى التطـلع لما وراء الحـجب من العورات والشهوات فسد طريق النظر الموصل إلى الفاحشة الكبرى حتى لا تقترب منها فأمرنا أن نغض من هذه الأبصار.

قال المحققـون من أهل التفسير: أمـرنا أن نغض من أبصارنا لا الأبصار كلها، حتى لا نمشي كالعميان في الطرقات لا نقفل عيوننا بل نغض منها فلا ننظر نظرة الفضول، وإنما هي نعمة من الله تعالى لننظر بها منافعنا ومصالحنا، وننظر بها إلى آيات الله في الأرض والسموات ـ غض من بصرك أيها المؤمن أنظر إلى ما ينفعك، وغـضها عما يضـرك أنظر نظرة عبرة وانتفاع واسـتفادة بمباح. وقد تكلم العلماء والحكمـاء في القديم والحديث عن النظر وما يجره من ضـرر للإنسان، حـتى قالوا : كل مـا يتعـرض له الإنسان إنما هو بسـبب فضـول النظر وفضول الطعام وفـضول الكلام وفضـول اللباس، «رب نظرة أورثت حسرة بل حسرات».

قال النبي ﷺ : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها مخافة الله أورثه الله إيماناً يجد حـلاوته في قلبه. النظر سـبب الإفتـتان ولا أدل على هذا من الواقع، وأعظم أنواع الفـسـاد الواقع اليوم في بلاد الـدنيا إنما سـببه النساء الكاسيات العاريات المائلات المميـلات، يكشفن عن زينتهن ويتعرين ويتبـرجن ليـدخلن إلى قلوب الرجـال من كل طـريق، وأوسع هذه الطرق النظر وهو بداية الخطر يقول الشاعر :

نظـرة فـابتـسـامـة فـسـلام   فـكلام فـمـوعـد فلقـاء

علم الله طبـائع بني آدم فبدأ في تأديـبهم بالأمر بغض النـظر وذلك سداً

لباب الفتنة، فإذا نجح أحد في غض البصر فقد سد باب الفتنة عن نفسه. وروي عن النبي ، قال: يخاطب الإمام علياً: لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والثانية عليك، والأولى هي التي تأتيك فجأة من غير قصد، والثانية هي التي تتعمدها ولو بالإستمرار والتمادي على النظر الأول، وفي خطر النظر يقول الشاعر الحكيم :

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها — فعل السهام بلا قوس ولا وتر

وسر ناظره ماضر خاطره — لا مرحبا بسرور عاد بالخطر

فرحت أيها الناظر عندما نظرت إلى صورة جميلة سربها خاطرك ولكنها أشعلت في قلبك ناراً، فلا مرحباً بسرور يجلب لك الخطر، فأنت بين نارين إما أن تتبع ما رأيت فتضر دينك، وإما أن تكبت عواطفك فيطول تفكيرك وغمك، كأنك تتقلب على الجمر وما كان أغناك عن هذا لو غضضت بصرك والمثل العامي يقول: عين لا شافت قلب لا وجع. وشياطين الجن والإنس يجرون الناس إلى النظر ويهونون لهم من خطره وهم يعلمون أنه عظيم وأنه لا سلامة لهم بعد النظر، كثير من الناس ذهبوا إلى أماكن المعصية لمجرد النظر فوقعوا في شراك البلاء فهم معذبون، وقد كانوا يظنون أنهم يسلمون فمن أراد الله به خيراً يقويه على غض البصر.

هذا ما أمكننا شرحه من هذا الأدب العالي الذي أدبنا به ربنا تبارك وتعالى ثم زاد فقال عز وجل: ﴿ويحفظوا فرجهم﴾ - وحفظ الفرج إنما يكون بسترها وحفظها عن استعمالها في الحرام ومنعها من ارتكاب الفاحشة، حرم الله كشف العورات والنظر إليها، والنبي ﷺ أمر بالتستر حتى في الخلوة ونهى عن التعري إلا للإغتسال. روى عنه أنه قال: تستروا فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط أو عند ما يفضي أحدكم إلى أهله،

والمراد الحفظة الكرام من الملائكة.

وفي حـديث آخر: لا يكشف أحـدكم عورته إلا لزوجـته أو مـا ملكت يمينه. فقال له أحد الصحابة: وإذا كـان أحدنا خالياً فقال النبي ﷺ : إن الله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه.

وقال الله تعالى: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ ـ أي أطهر وأنقى لنفوسهم وقلوبهم ـ ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ ـ وهذا تعقيب آخر من تعقيبات الله الحكيمة يذيل الله بها أوامره ونواهيـه وتشريعاته حتى يذكرنـا بإطلاع الله على أعمالنا وخبرته المحيطة بما يصنع عباده المكلفون فليـتقوه وليراقبوه في نظراتهم وميل قلوبهم وأعمالهم كلهـا، فلا يأتوا منها إلا ما أذن الله به وليجـاهدوا نفوسهم وفي ذلك سـلامتـهم وسلامـة عواقـبـهم، والله ولي المؤمنين والحمـد لله رب العـالمين ـ ثم يوجـه الله الخطاب إلى المؤمنات بلـهجـة خـاصـة بهن لأن هذا الخطر يهدد هن كما يهدد الرجال بل هو في حقهن أعظم وأفحش فيقول :

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ
إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ
أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

في هذه الآيات البينات الواضحات يأمر الله تبارك وتعالى النساء بغض أبصارهن وحفظ فروجهن، وأن يستترن ولا يبدين زينتهن إلا لرجال مخصوصين حددتهم الآية تحديداً واضحاً، وبينتهم بياناً ما عليه من مزيد، هذه الآيات والآيات التي في سورة الأحزاب والتي في سورة النساء يبين التشريع القرآني الحكيم الحدود التي تنتهي إليها المرأة المؤمنة ولا تتعداها وينهاها عن التبرج الجاهلي الأثيم الذي تورط فيه نساء اليوم، وزينه لها السفهاء الفاسقون أبناء الهوى، وادعوا في وقاحة وصفاقة أن الإسلام لم يحرم السفور، وأنه لا اتصال بين الحجاب والفضيلة والعفاف وأن أحدهما منفصل عن الآخر، وقالوا إفكاً وزوراً أن الحجاب عادة من عادات الجاهلية وأن التشديد فيه من تقاليد القرون الوسطى، وهذا كله افتراء على الله وإنكار لما ورد بيانه في القرآن وليت هؤلاء الناس الذين غلبتهم أهواؤهم وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم، ليتهم إذ غلبوا على أمرهم لم يفتروا على الله ولم يتجرءوا على إنكار ما علم من الدين بالضرورة، واستمر عليه العمل قروناً من الزمن، حتى جاءت هذه الفتن الأوروبية الذي سماها الناس حضارة وتقدما وافتتنوا بها، ليت هؤلاء المفتونين اعترفوا بذنوبهم ولم يفتروا على الإسلام فإن افتراءهم هذا أعظم من سفورهم وتبرج نسائهم، وما ذنبهم هذا بهين، ولكن الافتراء والإنكار أعظم من معاصي الأفعال، فتنوا الناس بما كتبوا ونشروا وصوروا وأذاعوا به مما يهذون من افتراءاتهم وادعاءاتهم، وأحكام الإسلام محكمة وصريحة .

﴿وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن﴾ ـ المؤمنات لهن أحكام خاصة بهن، وقد كن يدخلن في الخطاب مع الرجال بالتبع، ولكن لخطورة هذه المسألة وجه لهن الخطاب لأن الأمر آكد في حقهن وفتنتهن أعظم من الرجال وما افتتن الرجل بفتنة أعظم من فتنة النساء.

أمر النساء أن يغضضن من الأبصار غضاً خالصاً، ليس كغض الرجال، لأن المرأة عورة لا يحل للرجل النظر إليها مطلقاً، أما الرجل فليس بعورة ولا يحرم على المرأة أن تراه لكن المحرم عليها أن تنظر إليه بشهوة أو تملأ به عينها وتتأمل حسنه وجماله، فقد روي في الآثار أن المرأة التي تملأ عينيها بغير زوجها ملعونة وهذه فاسقة النظر ونظر العينين بشهوة زنى، فقد روي في الحديث: العين تزني والأذن تزني والرجل تزني والفرج يصدق أو يكذب ـ وهذا الفرق بين الرجال والنساء في النظر الظاهري، أما النظر إلى العورات فحرام مطلقاً سواء بين الرجال أو بين النساء ملعون فيها الناظر والمنظور إليه كما ثبت في الحديث .

وكذلك يكون غض الأبصار في النساء أزكى لهن كما قيل في الرجال فهو أسلم لقلوبهن، وكثيراً ما يسبب النظر مرضاً في قلوب النساء كما يقع للرجال، ترى المرأة رجلاً يعجبها فتكره زوجها ويسمج في نظرها فتزور عنه، وربما يؤدي ذلك إلى الفراق، وكثيراً ما تفرك نساء أزواجهن ويطلبن الفراق، وربما يرجع ذلك إلى فضول النظر، وقد لا نشعر بالسبب والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وسيجازى كلاً على نيته وعمله فليتق الله النساء اللائي يسرحن أبصارهن في الرجال وليقصرنها على أزواجهن، فذلك أزكى لهن وأطهر لقلوبهن وأبقى لرباط الزوجية المقدس، وليسترن زينتهن كما أمرن ولو على العميان، فقد روي عنه ﷺ ، كان يوماً مع

زوجيه أم سلـمة وميمونة ﷺ فـاستأذن عليه عـبدالله بن أم مكتوم فـأمرهما بالقيام فقالتا إنه أعمى فقال: أعميـاوان أنتما؟ فأمرهما بالاختباء، فعلمنا من هذه السنة القائمـة أن المرأة لا يجوز لها أن تنكشف للأعـمى ولا تجلس إليه، لأن مجرد شـعور الرجل بدنو المرأة وجلوسها إليـه فتنة له لا سيما العـميان، فإنهـم أدق الناس إحسـاساً بمحاسن الـنساء وأصواتهـن ووسوسة علـيهن، وهذا شاعرهم بشـار بن برد يقول: ـ والأذن تعشق قبل الـعين أحياناً ـ وهذا من حكمة الله ولطفه بخلقه إذا نزع من أحد حاسة من حواسه عوضه بما يسد مسدها من حواسه الأخرى، فقد يكون في إرهاف السمع وإحساس الشم ما يذكي الشهـوات الكامنة فتتحـرك، فلتحتجب المرأة إذن عن الأعـمى وليمنع العميان من الدخول على النساء كما يمنع البصراء .

﴿ويحـفظن فـروجـهن﴾ ـ وحـفظ فروجـهن سـترها عن الإنكشـاف وعدم اسـتعمالهـا فيمـا لا يجوز ولا يحل، من الزنى والسحـاق ونحو ذلك وغض البصر وحـفظ الفروج أمر مشترك بـين الرجال والنساء، وإبداء الزينة النهي فيه خاص بالنساء والمرأة كلها عورة إلا وجهها وكفيها وقدميها.

﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ ـ لا يبدين لا يظهرن بل يخفين زينتهن، فمـا هي هذه الزينة التي يجب إخفاؤها ويحرم إظهـارها إلا ما ظهر منها ومـا هو هذا الظاهر المستثنـى؟ من المعلوم أن الزينة هنا تطلق على ثلاثة أنواع: زينة الحلـل مـا تلبســه المرأة من ألوان اللبـاس وزيـنة الحلي وهي مـا تتحلى به من حلية الذهب والفضة وأنواع الجواهر، وزينة الجسم وما تزينه به من الأصـباغ كـالحناء والكحل في العـينين، وصبـغ الشفـاه وأنواع الماكيـاج وإبراز بعض المفاتن، وهذا كله حرام إبداؤه لغـير الأزواج وذوي المحارم مع مراعـاة نوع من الحشـمة والأدب مع ذوي المحـارم، فإذا دعتـها الحـاجة إلى

الخروج فلتستر بثوب سميك فضفاض لا شفاف ولا وصاف، فإذا عمدت إلى لحافها فزينته وطرزته أو كان في نفسه براقاً أو شفافاً ككثير من لحف نساء عصرنا فهو الآخر زينة يحرم إبداؤها، فهي فيه عاصية كاسية عارية، وكان نساء النبي ﷺ ونساء الصحابة يتلحفن في مروط غليظة ساترة.

وروي أن النبي ﷺ جاءه قباطي وهو ثوب رقيق من بعض الغنائم فأعطى منه دحية بن خليفة الكلبي ﷺ وأمره أن يتخذ بعضه قميصاً ويستر بالباقي بعض نسائه، فلما أدبر دحية ناداه وقال له لتتخذ المرأة تحته ثوباً غليظاً يسترها. قال له ذلك لأنه شفاف وحتى لا يتخذ من إهداء النبي إياه حجة على جواز الالتحاف بثوب رقيق يشف عما تحته.

أما زينة الحلي التي تحلي بها المرأة مواضع كثيرة من جسدها، كالعقود في النحور والأقراط في الآذان والخواتم والأسورة والخلاخيل فحرام أن تظهر مواضعها من الجسد، وحرام رؤية هذا الحلي في هذه المواضع أو التسمع إلى وسوستها، وقد نهى الله النساء ذوات الحجول والخلاخيل عن ضرب الأرجل حتى لا تسمع أصواتها فقال تعالى :

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ ـ ثم قال تعالى: **﴿إلا ما ظهر منها﴾** ـ وللعلماء أقوال في هذا الاستثناء أشهرها قولهم: إلا ما ظهر منها من غير قصد إظهاره، كالريح ترفع بعض جوانب الثوب وكسقوط الخمار من غير قصد، ونحو ذلك كما يحصل عند الركوب والنزول والأخذ والعطاء ومباشرة بعض الأعمال الضرورية.

وقال آخرون وذلك أيضاً كظهور اللحاف الذي تلتحف به المرأة قد تكون فيه بعض الرسوم، وقد لا يكون للمرأة غيره وهي لا تقصد به التزين طبعاً إنما تدثرت به للاحتجاب.

وقال آخرون: وذلك كظهور الوجه خالياً من الزينة عند تحمل الشهادة أو أدائها، أو ظهور القدمين عند المشي وظهور الكفين عند مباشرة الأعمال التي تضطر الحاجة إلى مباشرتها كالسقي والاحتطاب وحمل الأشياء ووضعها، وهو قول ابن عباس ومن قال بقوله من العلماء، أما عملنا نحن فعلى ما ثبت في الأثر أن نساء النبي ﷺ ونساء المهاجرين والأنصار أنهن كن يتلفعن بمروطهن ولا يظهر منهن إلا عين واحدة، وذلك أنه لما نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المومنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يوذين**﴾ - الأحزاب ٥٩ - الآية.

قالت عائشة ﵂: يرحم الله نساء الأنصار لما نزلت الآية تجلبن ولم يظهرن شيئاً من زينتهن كأنهن على رؤوسهن الغربان، هذه هي الطريقة التي نتمسك بها، وهو حجاب أمهات المؤمنين ونساء الصحابة ﵃ ولا نزال عليها حتى نلقى الله تعالى، ولا نبدل ولا نغير إن شاء الله، وهي الأسلم والأحوط وهي التي دل عليها لفظ إدناء الجلابيب.

أما العجائز من النساء القواعد فقد رخص الله لهن أن يضعن هذه الحجب السميكة والثقيلة رفقاً بهن، ولا يتبرجن بزينة كما تصنع نساء النصارى، يعوضن ما غيره الكبر بالأصباغ والتكلف وما أقبح التبرج بالعجائز وصدق الذي قال: ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر - وبعد هذا الترخيص في حقهن يقول الله تعالى: ﴿**وأن يستعففن خير لهن**﴾ - فأمر المؤمنات مبني على الاحتياط على العفة والمبالغة في الحجاب والتكتم والله أعلم.

﴿**وليضربن بخمرهن على جيوبهن**﴾ - الخمر جمع خمار وهو ما

تخمر به المرأة رأسها وسائر بدنها أي تغطيه، يقول الله تبارك وتعالى ـ ﴿**وليضربن بخمرهن على جيوبهن**﴾ ـ أي ينزلن الخمار على الجيب ويشددنه على صدورهن، والجيب هو شق القميص والدرع هو مخرج الرأس من الثوب، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿**أدخل يدك في جيبك**﴾ ـ النمل ١٢ ـ الآية.

وفي سورة الأحزاب يقول تعالى: ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن**﴾ ـ الأحزاب ٥٩ ـ والجلباب هو الخمار الذي كانت المرأة العربية ترتديه، أمرت المرأة المسلمة أن تدنيه عليها والإدناء هو الإرسال على الوجه والصدر وسائر البدن بكيفية تستر كل زينة ويؤكد ذلك بقوله: ﴿**ولا يبدين زينتهن**﴾ ـ مكرراً هذه العبارة مرتين، فلا يبدو شعر ولا نحر ولا قرط ولا عقد ولا سوار ولا خلخال، والآية التي تأتي بعد تبين البيان الشافي أن الخلخال وموضعه أيضاً داخل في الستر وذلك حيث يقول تعالى: ﴿**ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن**﴾ ـ وسيأتي تفسيرها، وقوله تعالى: ﴿**إلا ما ظهر منها**﴾ ـ أي إلا ما ظهر من غير قصد إظهاره، وما لابد من إظهاره حين يضطرها العمل في شؤون الكسب من إظهار الوجه خالياً من الزينة والكفين كذلك، وهو ما ذهب إليه بعض الصحابة والتابعين وبعض أئمة المذاهب والفقه وهذا يقتضيه يسر الإسلام وسماحة الدين.

﴿**ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو ابائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء**﴾ ـ أذن الله للمرأة أن تبدي زينتها

لهؤلاء المذكورين في الآية وفي مقدمتهم بعلها وهو الزوج، وأولى الناس بالنظر إلى زينة المرأة زوجها، لا تستر عنه شيئاً من بدنها إلا ما تقتضيه الكرامة والحياء على وجه الاستحباب لا الوجوب، كما حدثت عائشة ﵂ وهي أحظى أزواج النبي ﷺ عنده قالت: ما رأيت منه وما رأى مني، تريد بذلك العورة المغلظة، هذه همة وكرامة ودرجة من الحياء لا يصلها إلا الأنبياء والصديقون، وليس عامة المؤمنين مكلفين بذلك إذ لا يحرم على أحد الزوجين إبداء موضع من بدن الآخر،وأما الذين يرد ذكرهم بعد الأزواج فهم بعدهم وليسوا في رتبتهم من النظر إلى زينة المرأة والتمتع بها وهم أقاربها ومحارمها، ولم يذكر الأخوال والأعمام في جواز النظر إليها، وقد ذكروا في جملة المحارم وثبت جواز النظر بطريق السنة الصحيحة والسنة مبينة للقرآن.

كان لعائشة ﵂ عم من الرضاعة وأسمه أفلح أبو القعيس، فأذن لها النبي ﷺ أن يدخل عليها ولا تحجب منه، فإذا كان هذا في الرضاعة فالنسب أولى، فلا اعتبار لبعض الشواذ الذين منعوا العم والخال لعدم ورودهما في هذه الآية، فقولهم من الخلاف المتروك الذي لا اعتبار له.

هذا ما يتعلق بالمحارم ومع هذا ينبغي للمرأة أن تكون في هيئة الاحتشام وبقدر ما تستر وتحتشم تكون ألزم بالعفاف وأخلاق الإسلام - ﴿أو **نسائهن**﴾ - ما المقصود بهذه الإضافة إضافة النساء إلى النساء؟ هل هي مراعاة لهذه الفواصل وأجراس الكلمات، أو مقصود بها نوع من التخصيص، وهو ما وقع فيه الخلاف بين العلماء، فقال بعضهم هذه الإضافة مقصودة بها كل النساء اللاتي هن مثلهن في الأنوثة سواء في ذلك المسلمات وغير المسلمات الكتابيات منهن والوثنيات، وقال البعض:

المقصود بالإضافة المسلمات مثلهن، وهؤلاء منعوا المرأة أن تنكشف للكوافر الكتابيات والوثنيات لأنهن لسن من نسائهن المؤمنات، والبعض من العلماء أول الآية بتأويل آخر فقالوا: أو نسائهن أي النساء اللاتي يشبهن المسلمات في الحصانة والعفاف ولا يتهمن بالزنى ولا يتصفن بأوصاف البغايا، أما الخبيثات والعواهر فلا يجوز للمسلمة أن تنكشف لهن، ولعل هذا القول أقرب إلى الاعتبار لأن المرأة الفاسقة لا تؤمن على المرأة العفيفة أن تسعى في إفسادها، وقد تصفها للرجال كما لو كانوا يرونها أو تصورها من حيث لا تشعر، ثم تعرض صورتها من غير مبالاة طعناً في سترها وعفافها وكثيراً ما انجر الفساد إلى العفيفات بسبب تردد الفواجر عليهن يغرينهن بالفجور، فالستر والإبتعاد للمسلمة العفيفة أسلم لها، فمن واجبها إذن أن تمنع غيرها ممن نشأ على الفساد والإنحراف من الدخول عليها، فما أحسن تفسير من فسر الآية بالطيبات العفيفات اللاتي يؤمن جانبهن ولا يخاف منهن على المسلمات سواء بدخولهن عليهن ولو كن يهوديات أو نصرانيات.

أما الفواسق فلا يدخلن على المسلمات ولو نسبن إلى الإسلام نسبة تقليدية جغرافية، وهذا تفسير مهم للآية يتمشى مع حرص الإسلام على طهارة المسلمة وحصانتها ويتمشى مع الواقع، وكثيراً ما تضطر المسلمة إلى معاملة غير المسلمات من النساء وهو ما كان جارياً في مدينة الرسول ﷺ وفي عصره حيث يوجد اليهود، وما سمعنا أن نساء الرسول والمؤمنين أمرن بالحجاب عندما يدخل عليهن الكتابيات لبعض حاجاتهن ولو كان ذلك مشروعاً لزخرت به كتب السيرة التي لا تهمل أدنى من ذلك.

﴿أو ما ملكت ايمانهن﴾ - أي عبيدهن أباح الله لهن ألا يحتجبن عنهم رفقاً بهن لشدة الحاجة إلى خدماتهم وكثرة ترددهم على البيوت، ويبدو أنه

لا حاجة لنا إلى إطالة الكلام في حقهم لانتهاء أمر العبودية في عصرنا، وقد كان الإسلام حريصاً على تحرير العبيد ففتح أبواب التحرير وضيق باب الاسترقاق وشدد فيه فلا يحل إلا في حرب مقدسة بين المسلمين والكفار.

﴿أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال﴾ - هؤلاء الصنف من الناس هيئتهم كهيئة الرجال ولا رغبة لهم في النساء مطلقاً ويوجدون في كل زمان، يتبع الواحد منهم أهل بيت ويخدمهم، ولا رغبة له في شيء إلا في ملء بطنه وستر بدنه، فهو لا يشعر بالشهوة الجنسية ولا يتكلمون في وصف محاسن النساء ولو فعلوا ذلك لطردوا من البيوت كما طرد النبي ﷺ واحداً منهم حيث وصف له حسن نساء الطائف، طرده وأمر أن لا يدخل على النساء.

﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ - الأطفال الذين لما تنتبه فيهم القوة الجنسية فهي لا تزال خامدة، ولعل تفسير هذا وغايته هو بلوغ الحكم لقوله تعالى: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ - والقرآن يفسر بعضه بعضاً والحالة هذه لمجموع الأطفال الغير البالغين وقد يخصص العموم، فلو أن طفلاً مراهقاً ظهر منه ميل إلى النساء والرغبة في الإتصال الجنسي لمنع من الدخول عليهن، فإن هذا الميل الجنسي هو الظهور على عورات النساء والاحتياط في هذه الأمور أولى بأهل الغيرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ - أي لا يضربن رجلاً برجل ضرباً تسمع به رنة الخلاخيل لأن وسوسة الحلي عورة وهي فتنة للرجال، فيحرم ضرب الرجل بالأخرى أو بالأرض لقصد إثارة هذه الفتنة الخفية، وفي الآية دليل على وجوب إخفاء موضع الخلخال من الرجل فالمرأة كلها عورة إلا وجهها وكفيها وقدميها أسفل الكعبين.

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المومنون لعلكم تفلحون﴾ - هذه آداب القرآن العالية وفي السنة أيضاً ما يقويها فقد صح عن النبي ﷺ أنه كان ينهي النساء المتعطرات عن الخروج ولو إلى المساجد، بل لم يثبت عنه أنه رغب في خروج النساء إلى المسجد مطلقاً إنما نهى الرجال أن يمنعوهن من الذهاب إليها فقال: «لا تمنعوا إماء الله بيوت الله». فكل ما في الأمر هو النهي عن المنع لا الترغيب في الخروج، فقد روي أن امرأة من الأنصار قالت له: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك، فقال لها لقد علمت أنك تحبين الصلاة معي غير أن صلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي هذا، وفي رواية قال: في المسجد الجامع وهذا منه ﷺ مبالغة في حب التستر والحصانة ورغبهن إذا صلين في المساجد أن يتأخرن ويبتعدن عن صفوف الرجال فقال: خير صفوف الرجال المقدم وخير صفوف النساء المؤخر، والذي يروى في السير أن نساء الصحابة كن يذهبن إلى المساجد في صلوات الليل المغرب والعشاء والفجر متلفعات بمروطهن، وما نعلم أنهن يذهبن إليها في الظهر والعصر، وكان النبي ﷺ ينتظر بالمصلين حتى يخرج النساء لكيلا تزدحم أبواب المساجد بهم جميعاً ونحن اليوم نفعل ذلك بعد الدرس حتى لا تزدحم الشوارع، أما أبواب المساجد فقد خصصنا أبواباً يدخلن ويخرجن منها.

وكان النبي ﷺ يأمر النساء أن يلزمن جانب الطريق، فقد روي عنه أنه خرج يوماً فرأى بعض النساء في وسط الطريق فقال لهن: ليس لكن الحق في وسط الطريق فلينتبه نساؤنا، لا سيما وبعضهن يشغلن الطريق كله ويتكلمن وهن ماشيات فليتقين الله وليلزمن الآداب النبوية وقد شدد فريق

من العلماء في صوت المرأة، ونحن نذهب إلى جواز المقدار الضروري من الكلام الذي تضطر المرأة إليه في قضاء حاجاتها إذا كان خالياً من الخضوع الذي تنهى عنه الآية في قوله تعالى:

﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾ - الأحزاب ٣٢ - أي مقتصداً على قدر الحاجة لا هذراً ولا هزلاً ولا تغنجاً يطمع الذي في قلبه مرض. هذا تأديب الله لنا فيما يتعلق بشؤون النساء وموضوعهن أخطر الموضوعات، وبعد هذا يأمرنا بالتوبة جميعاً فقال: **﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المومنون لعلكم تفلحون﴾** - أي مما عساكم أن تكونوا خالفتم به هذه الآداب أو يكون فلت منكم من خائنة الأعين أو خواطر الأنفس عند الرؤية والسماع أو الشم، والله يعلم ضعفنا وميل نفوسنا وغلبة الأهواء عليها فأمرنا جميعاً بالتوبة دائماً وفتح لنا باب مغفرته ورحمته، وعلق أمر فلاحنا بالتوبة التي هي من صفات المؤمنين والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ
إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ
فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

يرشدنا الله تبارك وتعالى إلى الآداب التي تطهرنا وتزكينا أفراداً ومجتمعات وتحصن العائلات والأسر من أسباب الإنحراف، لأن الأسرة هي الخلية التي بصلاحها يصلح هذا النوع الإنساني لعمارة الأرض، وبفسادها يحق الهلاك للجميع، ويشرع الله لنا من الشرائع ما يتمشى مع غرائز الإنسان التي جعلها الله سبباً لبقاء النوع البشري، ومن المعلوم أن حكمة الله اقتضت أن يجعل ذرية آدم خلائف في الأرض تنشأ أجيال وتفنى أجيال، يخلف بعضها بعضاً في إظهار أسرار الله تبارك وتعالى في هذا الكون مما أراد أن أن يظهر على أيديهم، ينقل الأواخر ما خلفه الأوائل من العلوم وهكذا يتعاقبون حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

فنحن اليوم ننعم بحضارة ما كان يحلم بها أجدادنا ويتنبأ الناس اليوم بما سوف تئول إليه الحضارة في تمام هذا القرن وبعده، وكل شيء في تطور ولا يعلم عواقب الأمور إلا الله، وما توصل إليه المخترعون اليوم لا يرجع إليهم الفضل وحدهم بل يشترك في ذلك الأوائل والأواخر وبنيان الحضارة لا يزال لم يتم، كل جيل يضع فيه لبنة فيذهب ويأتي من بعده فيزيد فيه والله يعلم من يبلغ نهايته، فلأجل هذا التعاون البشري ركز الله غريزة الجنس في الذكر والأنثى لبقاء النوع، ووضع الله لهذه الغرائز حدوداً حتى لا تطغى فتنقلب إلى الضد فيكون الهلاك عوض البقاء، يأمرنا الله بما فيه صلاح الدين والدنيا، فما علينا إلا أن نطيع أمره ولا يجوز بحال أن نكبت هذه الغرائز

أونعطلها ونعطل مفعولها بمعالجات وعقاقير إلا لضرورة يحددها الشرع، لأن تعطيلها وتعقيمها ينافي حكمة الله في استمرارية عمران الأرض، وبقدر ما يشدد الله في وعيد الزنى والانحرافات الجنسية بقدر ما يرغب في النكاح ويعد على السير في خطه والتعاون على إتمامه واستمراره أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً.

يقول الرسول ﷺ : «وفي بضع أحدكم صدقة» - ويعدنا على كل شعرة في الجسد يرويها ماء الغسل من الجنابة حسنة والحسنة بعشر أمثالها، وفي الزواج الحلال استجابة طبيعية وسليمة لفطرة الإنسان بنوعيه، وفي هذه الآية يتوجه الأمر إلى الجماعة المسلمة والقائمين على أمورها خاصة بإنكاح الأيامى من المسلمين والمسلمات والصالحين من العبيد والإماء، لأن المطلب جبلي لا يختص بالأحرار دون العبيد، والكل إخوة في الدين يتعاونون على البر والتقوى ويسعون في حماية مجتمعهم من الفاحشة، حتى يبقى مجتمعاً نظيفاً يقوم بمهمته أحسن قيام ويؤدي رسالته أحسن أداء.

﴿**وانكحوا الأيامى منكم**﴾ - الأيامى جمع أيم وهو الرجل والمرأة غير متزوجين، أمر الله بإنكاحهما وإنكاح العبيد الصالحين والإماء الصالحات، وربما يوجد من العبيد أو الإماء غير صالحين، لا تتوفر فيهم كفاءة الزواج ويعرون عن الأوصاف التي يجب أن يتحلى بها رب الأسرة أو ربة البيت وأم الأولاد، والناس حديثوا عهد بجاهلية وقد نشأ إماء الجاهلية وعبيدها على إباحية تصرفات يمتنع عنها الأحرار المتحصنون، وقد ظل الإسلام حريصاً على تطهير مجتمع الرق من تلك العادات القبيحة، ورفع معنوياتهم وتقويم أخلاقهم حتى تساوى الأحرار، وظل حريصاً على تحريرهم وتخليص الناس من استعباد بني آدم بكل الوسائل، حتى ينهض الجنس البشري كله لتحقيق خلافة الله في الأرض، فليس الرق وإن ظل موجوداً

بمانع من ابتلي به من حقوقه الإنسانية، كـالزواج مثلاً وليس التخويف وإقامة الحدود بكافيين في تطهير المجتمع من الفواحش حتى يلبي مطلب الغريزة في الجنسين بتعـميم النكاح في مخـتلف الطبقات، لا فـرق في ذلك بين أعلاها وأدناها، إن الله لـم يرض لنا أن يعـيش في المجـتمـع المسلم عزاب وعـوازب يغدون ويروحون لا إلى صُـمام يسكنون إليه ويتعففـون بوجوده عن الحرام، فأمر القـائمين وأولياء الأمور بالسعي في إحصـان عزابهم بالزواج المشروع، لا يمنعـهم من ذلك فـقرهم فـالله مغـنيهم من فـضله الواسع الذي لا يضـيق بمخلوقاته كلها، فلا يقم الفقـر مانعاً هؤلاء الفقراء من طلب الزوجات، ولا مانعاً أولياء النساء من تزويجهم مـخافة فقرهم فإن الله الذي لا يخلف وعده قد وعـدهم أن يغنيهم من فضله، فليـثق هؤلاء وهؤلاء بوعد الله وليتـعاونوا على تنفيذ ما يأمرهم به الله لصلاح دينهم ودنياهم ولله عاقبة الأمور.

﴿**إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله**﴾ ـ في الآية وعد من الله صادق وفي مطاويها نكتة لطيفة تنبـهنا إلى لطف الله الخفي في مخلوقاته، وذلك هو سر تولد شـيء أو أشياء من وصل شـيئين بعـضهـما إلى بعض ولهـذا أمثلة كثيرة في خلق الله أليس الله تبارك وتعالى يقول:

﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكـرون**﴾ ـ الذاريات ٤٩ ـ في أمثـالها من الآيات فـالزوجان همـا شيئـان متـفقـان في النوع مختـلفان في الخصـائص، وهما قوتان باجتـماعهـما تتولد القوة الثـالثة التي تنطوي فيـها أسرار ومنافع، فـمثلاً الكهـرباء تتولد من قوتين أحـدهما موجبـة والأخرى سالبة، ولابد من هذا الفرق بينهما فكان أحدهما ذكرا والأخرى أنثى، وحين يتصل بعضـها ببعض تتولد من بينهـما أسرار وعجـائب، وكذلك الشأن في اتصال الذكـر والأنثى بالكيفـية المشـروعة، تتولد منـه لا الأولاد فقط بل مع ذلك أســراراً وبركــات وقــد لا يكـون أولاد، ولكن تكون مـنافع وأرزاق

وبركات، وقد يكون حظ كل من الرجل والمرأة على انفرادها ضئيلاً ضعيفاً لا يسمن ولا يغني من جوع غير أنه بعد إتصالها يتولد حظ آخر جديد وطالع سعيد نتيجة اقترانهما وهنا واقع مشاهد لا مراء فيه وهو ما تصرح به الآية الشريفة :

﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ - فاعتبروا يا أولي الأبصار وثقوا بوعد الله، فليست حالة الزوجين مقترنين كحالتهما قبل اقترانهما، وسنة الله في مخلوقاته لا تتبدل وحكمته لا تختلف، والنبي ﷺ يقول: «إلتمسوا الرزق في النكاح» - وهو أسوتنا في إمتثال أوامر الله فقد ظل حريصاً على تزويج الفقراء من أمته حتى زوج أحد أصحابه امرأة بما معه من القرآن لسور معدودات بعد أن لم يجد معه ولو خاتماً من حديد، فأنكحها إياه على فقره ثقة بوعد الله، وإمتثالاً لأمره ورفعاً لمقام القرآن، ويقول خليفته الأول أبو بكر الصديق ﵁ - أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الرزق - ثم يتلو قوله تعالى:

﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ - وشكا رجل من الصحابة فقره للنبي ﷺ فقال له - تزوج - فالزواج علاج ناجع لمشكلة الفقر، فلنمتثل أمر الله واثقين بوعد الله، محسنين الظن به، ولا بأس بتحمل الدين من أجل الإحصان، فإن الله سيعينه على قضائه ما دام يريد ذلك، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ - ثلاثة حق على الله أن يعينهم: الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله - أي يرزقهم ويعينهم على قضاء ديونهم، فالعجب من الشباب الذين يصدون عن الزواج مخافة العجز عن القيام بتكاليفه، فيبقى الكثيرون عزاباً حتى يطعنوا في سن الكهولة، وكثير منهم أساتذة يتقاضون مرتبات تمكنهم من القيام بالإنفاق

على العيال، ما بال هؤلاء هل يستعفون حتى يجدوا النكاح أم يشكون في وعد الله أم ماذا يصنعون! أين هؤلاء من قول النبي ﷺ مخاطباً الشباب بقوله: معاشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحصن لفرجه وأغض لبصره ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء. أي يصومون ليكفهم الصوم عن الوقوع في الحرام! إنهم واقعون في فلسفة عقيمة فاسدة، فلسفة الملاحدة الماديين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يصل أحدهم إلى مناصب عالية في وظائف الدولة وربما يكون أحدهم رئيس حكومة وهو أعزب، أين هؤلاء من أوامر ربهم وسنة نبيئهم الذي يقول: «وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» ـ هذه محادة منهم لأوامر الله وسنة رسوله وسيرة المؤمنين الصالحين.

﴿**وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله**﴾ ـ هؤلاء الذين لا يتيسر لهم النكاح أمرهم الله أن يستعينوا بالصبر والعفة حتى يرزقهم الله من فضله بما يمكنهم من الزواج الحلال، فلا يجوز لهم أن ينفسوا غرائزهم في الحرام، ولا يكفي عدم وجودهم النكاح عذراً من الوقوع في الفاحشة فإن هم فعلوا الفاحشة حق عليهم عقوبة الله في الآخرة، وأقيمت عليهم الحدود في الدنيا، وإن هم لاذوا بالصبر وتسربلوا بالعفاف أخلف الله عليهم ورزقهم ما يمتعهم المتعة الحلال والعاقبة للمتقين، ولا يزال سياق هذه الآية في هذا الموضوع المهم مستمراً في معالجة المجتمع وحمايته من الإنحراف بمختلف أنواع الوقايات، فلا يغفل جانب الرقيق الذين هم الآخرون بشر لهم رغبات البشر وشهواتهم الجبلية فيقول تعالى مرشداً وموجهاً عباده المؤمنين إلى إعانتهم على التحرر، وفي تحررهم رفع لمستواهم الخلقي والإجتماعي.

يقول الله تعالى: ﴿**والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم**

إن علمـتم فـيـهم خـيـراً وآتوهم من مـال الله الذي آتاكم﴾ - هؤلاء العبـيد والإمـاء الذين يرغبـون في فك رقـابهم من غل العـبودية ويـسعـون في نيل بغيـتهم من التحـرر، أعينوهم على بلوغ هذا المطلب النـبيل إن علمتم فـيهم خيـراً وساعدوهم على المكاتبة، والمكـاتب هو الذي يشتري نفسـه من مولاه بمبلغ مؤجـل آجال معـينة ثم على أقسـاط، يسعى في الكسب المشـروع حتى يتحصل على تلك المبالغ قبل آجالها، وربما يشق عليـه الحصول عليها فيأمرنا الله تعـالى أن ندفع لهم من مـال الله، وهو مـا يجمع مـن الزكوات والخـراج وسائر الصـدقات حتى يتمكنوا من قـضاء ديونهم ويخرجـوا من ظلمة الرق إلى نور الحـرية، هذا إن علمنا فيـهم خيـراً، يعني إن رأينا فـيهم الإسـتقـامة والصلاح وحـسن التدبيـر، وسائر الطبـاع السليمـة التي تمكنهم من السلوك القويم بعد تحررهم، سلوكـاً يجعلهم سعداء بعيشهم الجـديد في عهد الحرية ويجعل المجتمع سعيداً بهم.

أما إذا كان المجتـمع يشقى بهم أو يتجرع الغصص بانحرافـاتهم الخلقية التي قد تخلفـها رواسب العبـودية فيهـم، أو يَشْقَوْنَ هم لعـدم قدرتهم على الكسب، فبـقاؤهم في كنف مواليهم أرفق بهم وبالنـاس، والإسلام حريص على مصلحـة الجميع وقد يراد بالخـيرية الوفاء، والمعاني تتـزاحم، الوفاء في قيامـهم بتحصيل مـا عليهم من المبالغ التي في ذمتـهم ودفعها في مـواعيدها المضـبوطة، إذا توسـمنا فيـهم القـدرة على الكسب وصدق الوفـاء واحتـرام المواعيد ساعـدناهم على نيل حريتهم، والحرية عبأ لا يقوى على تحـمله كثير من الضـعفاء من العـبيـد والضعـيفـات من الإماء، فـهناك آلاف من العبـيد والإماء طلـبوا البقـاء عند مواليـهم لما صدر قـانون إبراهيم لنكولن بتـحرير العبـيد، إمتنع كـثيـر من العبيـد الزنوج في أمريكا من الإنصـراف من بيوت مواليـهم ووجدوا أن في بقائهم معـهم راحة لهم، وآثروا البقاء في العـبودية ووقع أن كثيراً من العبيد الذين تحرروا ذهبوا ضحية الضياع وراحوا يتكففون

الناس، وإماء كثيرات ذهبن يلتمسن العيش بفرجهن ميلاً إلى الراحة وانسياقاً مع الهوى والشيطان.

ففي هذا التقييد في الآية الشريفة حكمة بليغة والله عليم حكيم، فلنتدبر آيات الله ولنع ما ينطوي عليه كلامه العظيم من فقه فيه عواقبنا الحسنى في الدنيا والآخرة، وفي سياق تحصين المجتمع وتقويم النفوس بالآداب الإسلامية العالية ينزل الوحي بما يلي :

﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ - هذا نهي من الله تعالى وتحريم أن يكره الناس إماءهم على احتراف الزنى ليكتسبوا من ذلك عرضاً دنيئاً قذراً ما أقبحه من كسب، والمقصود بالفتيات هنا الإماء وهو تعبير قرآني رشيد، وقد ورد النهي في الحديث أن يسمى المالك مملوكه بإضافته إليه: عبدي أو أمتي، إن هذه الإضافة فيها نوع من التعاظم لا ينبغي أن يكون إلا لله تبارك وتعالى الذي هو ربنا حقاً ومالكنا ونحن عبيده، وعبوديتنا له شرف لنا، ومن أبرز الأوصاف لنبيئنا ﷺ : وأن محمدا عبده ورسوله، وهذه النسبة تكررت في القرآن هبة من الله وحناناً لأنبيائه وأوليائه الصالحين، والكل عبيد لله وإماء خاضعون لسلطانه، ماض فينا حكمه عدل فينا قضاؤه فسبحان ربنا العلي الأعلى، يريد الله أن يطهرنا من قاذورات الجاهلية الأولى: كان الواحد منهم يتخذ من فتياته بغايا وقد يشتريهن لهذا الغرض، يخصص لهن بيوتاً للبغاء العلني ينصب عليهن رايات إشهار لهذا العمل القبيح الذي لم يكن عندهم عيباً لانحراف موازين القيم فكأن الإماء بهائم لا أناسي، فلا غضاضة في إكراههن على الفاحشة في حالة ما إذا أردن طهارة وتحصناً، فلا قيمة ولا اعتبار لإرادتهن، وذلك لهوانهن على الناس فبينما يكون زنى المرأة الحرة عيباً من أكبر العيوب عندهم، يكون توظيف النساء المملوكات لهذا الغرض أمراً عادياً لا غضاضة فيه بل هو تجارة

يتعاطاها علية القوم، فجاء القرآن بالحق مبيناً للناس أنه لا فرق في قيم الأخلاق ونظافة الأعراض بين الحرائر والإماء، وإنكم إنما ملكتم من العبيد والإماء خدماتهم، لا ذممهم وعقائدهم وأعراضهم ثم إن الله تبارك وتعالى تكرم بعفوه على ما سلف من عباده في هذا الموضوع كسائر المواضيع التي كانت شائعة في الجاهلية فجاء الإسلام بتشريعاته جباً لها وتطهيراً للمجتمع الجديد من أرجاسها وأدناسها.

وكان من أسباب نزول هذه الآية أن جارية لعبدالله بن أبي إسمها معاذة كرهت هذا العمل وأرادت الطهور والعفاف فهربت منه والتجأت إلى أبي بكر الصديق ﵁ فأخبر النبي ﷺ بأمرها فأمره أن يمسكها عنده ولا يردها إلى مولاها، فلما علم بذلك استشاط غضباً وجعل يطعن في النبي ﷺ وصاحبه كيف يحبسان عن الناس أموالهم، والطعن دأب أهل النفاق ومرضى القلوب فكبته الله وإخوانه المنافقين بهذه الآية التي قطعت عليهم هذه السنة، وردت على جنس الإنسان كرامته كإنسان يريد أن يعيش طاهراً نظيفاً، هذا بعد أن سن سنة الزواج وأمر بإنكاح الإماء والعبيد حتى يتم بنيان الأسر على دعائم الطهر والعفاف ويتجه الناس كلهم وجهة البر والتقوى والصلاح فلا حيف ولا ظلم ولا إنحراف .

﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ - يكرر الله هذه الصيغة : إنزال الله آيات بينات ومبينات ثلاث مرات: في أول السورة وفي وسطها وفي أواخرها، وذلك لما تشتمل عليه السورة من تبيين الله فيها سنن الهدى، وضرب الأمثال من الأمم السالفة ومواقفها من أنبيائه ورسله، وبيان عاقبة الذين خلوا ممن كذب بآيات الله ولم يتبع رسله، هؤلاء الذين وضعوا لهم شرائع جائرة أملتها عليهم أهواؤهم وأربابهم من دون الله: أحبارهم ورهبانهم وكبراؤهم يحرمون ويحللون لهم ما لم يأذن به الله، فبين الله كيف كانت عواقب هؤلاء الأمم سيئة، وكم كان

مصيرهم وبيلاً بعنادهم ومحاداتهم لله ورسله وفي أخبارهم عبرة للمعتبرين وموعظة للمتقين، فيجنبون أنفسهم تلك العواقب ويتبعون أنبياء الله ورسله ويسيرون على نهجهم القويم، مقتدين بهداهم معرضين عن وساوس الكافرين والمنافقين فاعتبروا واتعظوا بآيات الله المبينات لعلكم تتقون.

وبقدر ما كانت عواقب المكذبين وخيمة، بقدر ما كانت عواقب الصابرين المهتدين بهدي الله حسنة، وقد فصل الله ذلك في كتابه تفصيلاً فما علينا إلا أن نتعظ بآيات الله ففيها الهداية الكاملة للمتقين.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ
كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ
وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ
نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾

أي نور يقارب نور الله الذي ينير لنا طريق السعادة الأبدية! النور الذي ينظم علاقات الناس ويضع أصول الحضارة البشرية والمدنية الحق ويبنى بناء الأسرة المسلمة على أساس من العفة والحصانة، فالعائلة المصونة هي النواة الصالحة للمجتمع الصالح النظيف، المجتمع الذي يستنير بنور الله ويصنع مقاييس الحضارة على موازين الله التي لا تحيف ولا تجور، فيجمع بين حضارتي الروح والمادة فلا يضخم جانباً على حساب الجانب الآخر، لا كحضارة هذا العصر الجوفاء الخالية من الروح والقيم الإنسانية حضارة المتع واللذات البهيمية والتكالب على طلب العلو وجمع المال.

لقد تفنن إنسان هذا العصر في إختراع وسائل التدمير والوحشية والتخريب، واستعمل العقل والعلم في أسباب الفتك بأخيه الإنسان ففاق بذلك جميع الوحوش المفترسة فانطبقت عليه الآية ـ ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ ـ فقد تردى بحضارته المادية في أسفل دركات التسلط واتباع الشهوات، وهو دوماً يكفر في الهبوط لا في الصعود، وصدق الذي قال معلقاً على صعودهم في الفضاء ـ لأن يمشي الناس في الأرض وهم أطهار خير لهم من أن يطيروا إلى السماء وهم فجار ـ إن إنسان هذا العصر المتجرد من الدين المتفنن في حضارة الظلم والدمار يفوق شياطين الجن في التمرد على الله والمكر والكيد فكان على حد القائل :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى	**بي الأمر حتى صار إبليس من جندي**
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده	**طرائق فسق ليس يحسنها بعدي**

ومن أبرز سمات هذا العصر ترديه في الميدان الجنسي، فقد هوى في القرار الأسفل، وانتكس في حمأة الفساد الخلقي، فسدت العلاقات الجنسية غاية الفساد وانتشر العري والإختلاط، ومات الشرف ودفنت الفضيلة وكثر أولاد الزنى، وفساد هذا العالم بفساد المرأة فقد انسلخت من آخر بقايا الفضيلة وتجردت من ثياب الحياء والدين، فهن الكاسيات العاريات المائلات المميلات، وانفرطت عقود الأسر والعائلات وهي الطامة الكبرى، ولعل الله يحدث في ملكه ما يريده فيوجه عباده إلى ما يخلصهم من هذه الهاوية، فيرجعون في النظر في ما يصلح أمرهم ويقوم اعوجاجهم ويملأ الفراغ الروحي الذي خلفته الحضارة الخاوية، وقد بدأت تظهر البشائر وشعر الناس بحاجتهم إلى الدين، فهو وحده الذي إن راجعوه وجدوا فيه سفاء صدورهم، وغذاء عقولهم وقلوبهم وصلاح جميع أمورهم، ولا يزال كتاب

الله محكماً مسايراً للعقل والتطورات العلمية، ولن يزال كذلك صالحاً لكل زمان ومكان، كيف لا وهو النور النازل من الله نور السماوات والأرض فمن اهتدى به فهو على نور من ربه، ويوم القيامة يسعى نوره بين يديه وعن يمينه، ومن ابتغى الهدى في غيره فهو في ضلالة وظلام وشقاء، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ولو اتبع الناس الآيات البينات من سورة النور لاستنارت قلوبهم وعقولهم واستقامت أمورهم في هذه الدنيا ويوم القيامة. الله نور السماوات والأرض، النور إسم من أسماء الله الحسنى نؤمن به ونعلم أثره في المخلوقات، ولا نعلم حقيقته كما لا نعلم حقيقة الذات العلية الواجب الوجود، وهكذا جميع أسماء الله الحسنى ندعو الله بها ونؤمن بكمالاتها ولا نخوض في حقيقتها، فالخوض في إدراكه إشراك والعجز عن إدراكه إدراك.

والنور هو الضوء، شيء يضيء في نفسه ويضيء غيره فالعين الباصرة لا تبصر إلا بالنور، فلولا النور ما أبصرت عين، فالكون ظلام لولا نور الله، فالله نور السماوات والأرض، والسماوات كل ما فوق رؤوسنا، والأرض ما تحت أرجلنا، فالتعبير بالسماوات والأرض كلما ورد في القرآن يراد به الكون كله علويه وسفليه، وقد توسع العلم في تفسير النور وأصبح في إمكان العلماء أن ينقلوا الصور والأصوات، ويستعملوا القوى الهائلة في هذا الكون بعد أن تتحول إلى أشعة فكأن كل ما في هذا الكون حقيقة النور، طالما أن قواه العلوية والسفلية تؤثر فيها الأشعة وتنقلب إلى أضواء، فسبحان خالق النور والظلمة والكل من نور الله.

﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد

زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ - مثل نوره الذي يفيضه على قلوب المؤمنين ويريهم به طريق الهدى، كمشكاة فيها مصباح والمشكاة موضع المصباح في بناء مرتفع ثابت، والزجاجة تعكس ضوء المصباح وتقيه الرياح والأمطار، وكل ما يكون سبباً في إطفائه وقديماً صنع الناس الزجاج وانتفعوا به في شتى أغراضهم، ووصف الزجاجة بالإشراق والصفاء كأنها كوكب دري نسبة إلى الدر لقوة إشراقه ولمعانه، فهو كوكب ممتاز في إشراقه ولمعانه بين النجوم، ثم وصف مادة هذا المصباح أنها زيت جيد صاف من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية تشرق عليها الشمس من جميع جهاتها فهي شجرة مباركة الثمار نقية الزيت حتى أنه ليكاد يضيء بذاته قبل اشتعال النار فيه -

ضرب الله المثل بمصباح الزيت لأن الناس كانوا يستصبحون بالزيت، وجعله في زجاجة، فجميع أنواع المصابيح في الزجاج فهو الذي يحمي المصباح ويعكس النور، وقد تطورت المصابيح ولم يستغن الناس عن الزجاج، والمشكاة تحصر النور وتعكسه فهو نور على نور، نور المصباح عكسته المشكاة وجلته الزجاجة وحمته من تأثير الرياح فهو نور ثابت مضيء دائم الإشراق مستمره، وكذلك نور الله في قلب المؤمن، بينما قلب الكافر في ظلام، وقلب المنافق متقلب لا يظهر فيه النور إلا لمحات سرعان ما تطغى ظلمات الشهوات والريب فيختفي، فالكافر في ضلال والمنافقون في حيرة وشك والمؤمنون على هدى من ربهم ويقين .

﴿يهدي الله بنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ - يقذف الله من نوره في قلب من يشاء من عباده، وهو الشرح المعبر به في آية الزمر - **﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من**

ربه﴾ ـ الزمر ٢٢ ـ تلك هداية التوفيق والإيصال، يجعلها الله هبة منه للمؤمنين الذين استنارت قلوبهم بالإيمان الصادق ولم تعتمها ظلمة الشهوات والمخالفات، ولم يصبها النفاق، فهي قلوب مشرقة زهراء عليها من الله حافظ يحفظها من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. فقلب المؤمن مشكاة لنور الله، وجاء التعبير بهذا المعنى متكرراً في القرآن:

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ ـ الأنعام ١٢٢ ـ **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾** ـ المائدة ١٥ ـ **﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾** ـ الأعراف ١٥٧ ـ **﴿ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾** ـ التحريم ٨ ـ وهذا الدعاء في الدنيا وذلك أن المؤمنين لما ذاقوا حلاوة النور ونعموا بهدايته أشفقوا أن ينتزع منهم، فهم يدعون ربهم أن يتمه عليهم ويديمه في قلوبهم، ويغفر لهم ما قد يكون سبباً في النيل منه أو إطفائه، لأن الذنوب ظلمات ونكت سوداء تطفئ النور إذا لم يغفرها الله فلقننا الله هذا الدعاء حتى نحافظ على هذا النور الموهوب من جنابه الكريم، وأرشدنا إلى منابع هذا النور ومطالعه وهو في بيوته في الأرض التي هي المساجد فقال تعالى:

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ
وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

ـ في بيوت ـ أي توجد هذه القلوب وتشحن في بيوت أذن الله أن ترفع، أمر الله أن ترفع أبنيتها وتطهر من الأرجاس والأنجاس، وترفع منزلتها عند الله والملائكة والمؤمنين وترفع منها الصلوات والذكر والدعوات وسائر القربات، فهي مرفوعة وما فيها مرفوع بإذن الله تعالى لا يلغى فيها ولا يدعى إلى شر، وإنما يسبح الله فيها بالغدو والآصال، رجال قلوبهم متعلقة بالمساجد منذ خرجوا منها حتى يعودوا إليها، فهم دائماً يحنون إليها، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، رجال لهم بيوع وتجارات وأعمال غير أنها لا تصرفهم عن ذكر الله، وعن السعي إلى المساجد إذا نودي إلى الصلوات وقبل أن ينادى إليها، فهم يهرعون إليها ويسرعون كما يسرع الظمآن إلى الماء في يوم صائف لا يجدون سكينة قلوبهم إلا في مناجاة الله وذكره فيها بالغدو والآصال في جميع أوقات الصلوات بالليل والنهار.

فالمؤمن في المسجد كالحوت في الماء، والمنافق كأنه في سجن مضيق يتمنى الخروج منه، فشتان بين الفريقين، فكأن المسجد مشكاة والمؤمن فيها مصباح يزهر، وقد ورد في الأثر أن المساجد التي يذكر فيها الله يراها أهل السماء مضيئة كالنجوم.

يقسم ابن عباس ترجمان القرآن أنه ليس هؤلاء الناس فارغين من التجارة والبيع بل لهم تجارات وأعمال، والإنسان لابد له من كسب يطلب به الرزق الحلال ـ ﴿**وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله**﴾ ـ المزمل ٢٠ ـ وهذا الطلب عبادة ونوع من الجهاد متى كان جميلاً، ومن طرق مشروعة، ومتى كان لا يلهي صاحبه عن ذكر الله، وذكر الله أعم من الذهاب

إلى هذه البيوت، لأن ذكر الله رفيق المؤمن في بيعه وشرائه ووزنه وكيله وجميع معاملاته ليس فقط في وقت الذهاب إلى المسجد، فهو المهيمن عليه في جميع تصرفاته كالأستاذ الجاثم في قلبه يوجهه من الداخل فهو على نور من ربه.

﴿**يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ ـ هذا الخوف الذي سكن قلوبهم هو الذي سددهم وقوم جميع أعمالهم، فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويعمرون بيوت الله ويذكرون الله ولا ينسونه، ويحاسبون أنفسهم لأنهم يخافون يوماً عظيماً، يوم يقوم الناس لرب العالمين يوماً تتقلب فيه القلوب وتضطرب من هول الموقف، وتزيغ الأبصار لما تشاهد من الأمور العظام والأهوال الجسام، وهو تعبير رائع يصور لنا مشهداً من مشاهد الحشر أجلى تصوير، فلا أدل على شدة الهول وخوف العقاب من تقلب القلوب والأبصار.

﴿**ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ ـ إن أولياء الله يرجون رحمة الله فهم يجتهدون في طاعته طمعاً في حسن جزائه، وهم يحسنون الظن ويحسنون العمل، وجزاء الله الأوفى للعاملين يجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله كما قال في آية أخرى :

﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ ـ يونس ٢٦ ـ وفضل الله عظيم والله يرزق من يشاء بغير حساب ـ وكثيراً ما ورد هذا التعبير في القرآن والمراد به الوفرة الوافرة والدوام، وإلا فكل شيء محسوب عند الله مقدور كل شيء يقع وفق إرادته ومشيئته، هداهم ووفقهم بمشيئته ثم يجزيهم بمشيئته أحسن جزاء فلله الحمد أولاً وآخراً، والذي تقرره الآية أن العمل هو مناط الجزاء، لا الأقوال الجوفاء والأماني الفارغة فأما الذين تخالف أعمالهم أقوالهم فهم في ضلال بعيد، وكذلك الذين تخلو أعمالهم من الإيمان والنيات وسيأتي الكلام عليهم في قوله تعالى.

وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

والقرآن ميزان الله عادل لا يجور ولا يحيف، وقد بين طريق النجاة من الخسران في الإيمان والعمل الصالح، وأنه ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب فالإسلام إذن حقيقة لا مجرد ادعاء، وسيقال يوم القيامة للمفرطين المتمسكين بالأماني الفارغة للذين يبقون في الظلام يقال لهم ﴿**أرجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً**﴾ - الحديد ١٣ - ولا ينفعهم وجودهم مع العاملين وهم لا يعملون، فإنهم ينادونهم ألم نكن معكم فيجيبونهم - ﴿**بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور**﴾ - الحديد ١٤ - فلنتدبر كل كلمة في كتاب الله فإن فيها دلالة واضحة على الحق. ﴿**يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفياه حسابه والله سريع الحساب**﴾ - يضرب الله تعالى مثلين لأعمال الكفار التي لا تزن عند الله شيئاً لخلو قلوبهم من الإيمان، يعمل الكفار أعمالاً فيها ما يعتبر من الخير، ولكنها لا تقبل منهم لخلوها من الإيمان وكثيراً ما يعملون لخير الدنيا ورغد العيش أعمالاً كبيرة يظنون أنها تنفعهم ولكنها لا تنفعهم، وقد يصيرون إلى الضد مما كانوا يتوقعون كما قال الله تعالى في حقهم: ينفقون أموالهم لأغراضهم الخبيثة - ﴿**فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون**﴾ - الأنفال ٣٦ - فمثلهم في خيبة أملهم وخسارة مستقبلهم كمثل من تراءى له سراب في قيعة من الأرض يحسبه

الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فاشتدت حسرته وعظم حزبه، ولقي في نهاية أمره جزاء الله العادل خلاف ما كان يأمل، فما أعظم خيبته وما أشد خسارته، وكذلك مصير أعداء الله الذين يحادون الله ورسوله ويحاربون أوليائه وما ظلمهم الله، إن هو إلا حسابهم يوفيهم الله إياه والله سريع الحساب، وكذلك من تنكب طريق الله المستقيم وسلك طريق الشياطين ظاناً أن فيها السعادة، لا ينتهي أمره إلا إلى شر العواقب، ولا يلقى إلا ما يلقى الظمآن من السراب الذي تراءى له من بعيد بقيعة من الأرض، والسراب لمعان قاع من الأرض لا نبات فيه يتراءى بانعكاس أشعة الشمس فيه كأنه ماء ولا ماء، وكثيراً ما يخدع السائرين في البيد فضربه الله مثلاً مطابقاً لسعي الكفار وراء غرور شياطين الجن والإنس، ثم ضرب لهم مثلاً آخر زيادة في توضيح ما يؤول إليه أمر الأفاكين الكافرين فقال تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

وفي الآيات مقابلة بين حالة وحالة، فبينما يقول في وصف المؤمنين نور على نور، إذ به يقول في مثل الكافرين ظلمات بعضها فوق بعض، وبين الحالتين من البعد والتباين ما بين الظلمات والنور، فأعمال الكفار والمشركين في فسادها وضلالتها وسوء عاقبتها كظلمات متراكمة في بحر لجي بعيد القعر كثير الأمواج، تتعالى أمواجه في عنان السماء يركب بعضها بعضاً، وفوقها سحب وغيوم تحجب نور الشمس كما تحجب الشكوك والشهوات والأهواء نور الحق عن قلوب الكفار فتعمى بصائرهم فلا ترى شيئاً.

كـذلك الحال في هذا البـحـر اللجي، ظلمات بـعضـها فـوق بعض إذا أخرج الراكب فيه يده لم يكد يراها، أي لم يقـترب من رؤيتها لتراكم الظلام حـيث ينقلب النهـار ليلاً وهذه حـالة لا يتـصورها إلا من سـافـر عبـر هذه المحيطات، وقد كانت هذه الآية سبباً في إيمان أحد ربابنة البحار حين قرأها وهو في حالة من هذه الحالات، فتعجب من هذا الوصف الدقيق لهذه الحالة بكلمات قليلة يعجز أمثاله الذين عاشوا في البحار عن وصفها بكلام مسهب طويل، فكيف يصـفـهـا مـحمـد ﷺ بهـذا الوصف العـجـيب في أسلوب عجيب، وهو لم يركب البـحر ولم يشهد هذه البحار اللجـية فأيقن أن هذا من كلام خـالق البحار لا من كـلام محمـد الذي نشأ وعاش في الصـحـراء - وفي هذه الحالة تصويـر دقيق لإحداق الخطر وقرب الهلاك لمن هذه حـالته، فكذلك الكفـار أمرهـم في بوار وعاقـبـتهم الدمـار أضلتـهم أهواؤهم وطغت عليـهم شهواتهم، فهم في ظلماتهم يعمهون يجرون وراء السراب يطلبون السعادة في طرق الشقاء، ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾ - ما أقساه من حكـم تحكم به هذه الآيات، حكمها على هؤلاء العمي الصم البكـم الذين يبتغون الهدى في غيـر كتاب الله أضلهم الله ولم يجـعل لهم نوراً يبصرون به النور، فـالأمر كله راجع إليه تـعالى ربنا يهدي من يشـاء ويضل من يشاء، ومـا ظلمهم الله ولكن صرفوا فصـرف الله قلوبهم، هؤلاء يبتغون الهداية في كـتب الفلاسفة الأقدمين والمحدثين ويصدفون عن كتاب رب العالمين، فالويل لهم ولكل من يصدف عن آيات الله ويتخذها وراءه ظهرياً، أنى له أن يهتدي أو يبصر النور، ما له من نور ولو بصيصاً من النور، فالتعـبير بالنكرة في سياق النفي يقتضي العـموم ويتـأكد العـمـوم بإدخال - من - فـلا مطمع لهم مطلقـاً ولا أمل في

النجاة، ولا وزن لأعمالهم يوم القيامة، ساءت عاقبتهم وساء مصيرهم، فالمتأمل في هذين المثالين الحكيمين تنفتح له آفاق من الاعتبار ويدرك الفارق الكبير بين من يهتدي بنور الله ومن يتبع الهوى ويؤثر الشهوات، وشتان بين الفريقين، ويا بعد ما بين العاقبتين والمؤسف أن الناس لا يعتبرون ولا يتدبرون لا سيما أهل زماننا فقد تفننوا في الكفر وتمردوا على الأديان وراحوا يخترعون فنون الفجور والعري حتى تجاوزوا كل حد وتنكروا للقيم الأخلاقية وانسلخوا من بقايا الحياء حتى انتهوا إلى الدرك الأسفل مما لم يبلغه أسلافهم، فقد أبيح الزنى في كثير من بلاد الدنيا ودعت إليه مئات الجرائد والمجلات، حتى في البلاد التي كانت تعتبر متحفظة، وانتشرت بين الشباب مذاهب شيطانية تدعو إلى التحلل والتخنث والانتحار الخلقي، وتجاوزت البلاد الأوروبية إلى البلاد الإسلامية، وأعيى أمرهم الآباء والمرشدين وأعجز الملوك والرؤساء، وما هذا إلا نذير الفناء والهلاك ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

كل شيء في هذا الكون الواسع يدل على وجود الله وعظمته وشمول علمه وقدرته وكمال حكمته، ينبهنا تبارك وتعالى بصيغة الاستفهام التي يراد بها تقرير المعنى، ينبهنا لنتأمل ويخبرنا أن جميع مخلوقاته في سماواته وأرضه تسبح له تسبيحاً حقيقياً يعلمه هو، وتصلي له صلاة يدركها، وهو الذي أرشدها وهداها إلى ذلك التسبيح وتلك الصلاة، ثم يخصص من بينها

الطير بالذكر لعموم مشاهدتها يراها الناس كلهم تسرح في الجو ناشرة أجنحتها وهي تطير في فضاء الله الواسع لاهجة بأصواتها المختلفة لا يعلم تسبيحها إلا خالقها، مصلية لله ساجدة له سجوداً يعلمه وفي صلاتها وتسبيحها لخالقها شكر منها لنعمة الخلق والرزق والحياة، وفي طيرانها وهي صافات أجنحتها أو قابضات أحياناً آيات بينات للمتفكرين، ألم تروا أيها الغافلون وتعتبروا بها وبتسبيح ما في السماوات والأرض من المخلوقات، وعلم الله بأفعالها وحركاتها وسكناتها أليس في هذا ما يهديكم للحق فتعلموا أن الله لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وأن الله لم يخلق الإنس والجن عبثاً، تعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم.

وفي الآية يرد التعبير بمن التي للعقلاء وهذا إما تغليباً لأن في المسبحين عقلاء كالملائكة والإنس والجن، وفيه أيضاً إشارة إلى رفع المسبحين إلى مقام العقلاء لما كان التسبيح من أعمال العقلاء ولا ينكر أحد أن في الحيوانات نوعاً من وعي وإلهام تقوم به بمهماتها التي تتحقق بها حكمة وجودها.

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ - الأنعام ٣٨ - وهذه الأمم لها لغات تتفاهم وتتخاطب بها، وفي سورة النمل وحديث سليمان عليه السلام للهدهد وحديث الهدهد له بخبر صادق وعقيدة خالصة لله وفيها قول الله تعالى:

﴿وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين﴾ - النمل ١٦ - وفي سورة فاطر يأمر الله الطير والجبال أن ترجع تسبيح نبيء الله داوود عليه السلام ففي المخلوقات وعي وتعبير وأسرار دلت عليها آيات الله البينات لا ينكرها إلا مكابر، وقد توصل العلم الحديث إلى بعض هذه الحقائق في عالم الحيوان مثل ممالك النمل والنحل وغيرها.

وفي السيرة النبوية أن نبيئنا محمداً ﷺ كان يسمع تحية السلام من بعض مخلوقات الله من الأشجار والأحجار والحيوانات، وسمع تسبيح الحصاة في يديه وتحت قدميه فسبحان من بيده كل شيء.

﴿ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير﴾ ـ لله ملك السماوات وملك الأرضين، وإليه مرجع الخلق يوم القيامة فيحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم الجزاء الأوفى وإليه مصير الأمور كلها مبتدؤها منه ومآلها إليه، فتأملوا أيها العقلاء في هذا الملك الواسع الذي بني على نظام دقيق ليس فيه تفاوت كل شيء فيه بمقدار وميزان وسير مطرد ملايين وملايين السنين، وفي هذا دلالة على وحدانية رب السماوات والأرض.

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ـ الأنبياء ٢٢ ـ ولا يزال العلماء الباحثون في الكون يعثرون على أسرار وعجائب تهديهم إلى الإيمان وتزيد المؤمنين إيماناً، ومن أحب الله أحب أن يطلع على آياته. يريد الله أن ننظر ماذا في السماوات والأرض ومن آيات وعبر هي مجلى عظمته ووحدانيته وحكمته في خلقه، ويريد منا أن نعلم أن الملك له وحده لا شريك له في الملك ولا ولي له من الذل، فنعبده وحده ونسجد له وحده، ونعمل ليوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله، فهو ملك يوم الدين إليه مصائر الأمور كلها وإليها المرجع وإليه المآب .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ
بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ

وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ
يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

يذكرنا الله تبارك وتعالى بهذه المشاهد العظمى التي تمر علينا مراراً وتكراراً وهي تدل على الله وترشد إليه، ولكن الإلف والعادة حاجبان يحجبان الغافلين عن التأمل والتفكر في صنع الله، ولو كانت هذه الأشياء قليلة الوقوع لا تحدث إلا مرة في عدة سنوات مثلاً لكان الناس يحتفلون لها ويخرجون من دورهم يترقبون مرور هذا المشهد العجيب، وكذلك آيات الله في الأفلاك فهم يترقبون الكسوف، ويسافرون له إلى بلاد بعيدة بينما المطالع تمر بنا آياتها كل يوم ونحن غافلون، وما ذلك إلا لتبلد فكر الإنسان بالإلف والعادة، وما كان ينبغي للإنسان أن يغفل عن آيات الله في الأرض والسماء، فهذه السحب المتراكمة بين السماء والأرض وما يحدث فيها من بروق ورعود وما ينزل منها من أمطار وبرد، وهذه الدواب التي تدب على أرض الله بمختلف أنواعها آيات تدل دلالة واضحة على عظمة خالقها وقدرته وعلمه ووحدانيته ورحمته بخلقه.

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً﴾ - ألم تروا جميعاً أيها العقلاء رؤية تدبر وتفكر واعتبار أن الله يسوق السحب الثقال، بينما تكون السماء صاحية إذا بقطعة من سحاب تتكون أو تطل من

الأفق، ثم تتسع وتعرض ثم تنضم إليها سحائب أخرى فإذا بها ركام متداخل بعضه في بعض كأنها جبال تسيرها القدرة الإلهية بين السماء والأرض تحمل آلاف آلاف من أطنان المياه تسوقها الرياح المسخرة إلى حيث يريد الله، ووصف السحاب بالجبال أمر عجيب فيه معجزة لا تقل عن المعجزة التي مرت بنا في وصف البحر اللجي، تدل أن هذا الكلام ليس من عند محمد ﷺ إنما هو من عند الله خالق السحاب فما كان البشر يطيرون في الفضاء ليشاهدوا قمم السحب من فوق، واليوم تجلت هذه الحقائق حين طار الناس فوق السحب فإذا بهم يشاهدون كل يوم هذه الجبال المتراكمة من السحب لها قمم كقمم الجبال الشامخة تسير في فضاء الله العريض.

﴿**فترى الودق يخرج من خلاله**﴾ ـ ترى المطر يتكون قطره من خلال السحب وينزل وابلاً أو طلا، وفي نزول المطر من السماء آيات تدل المفكرين وحتى الغافلين، تنبههم على عظمة الله وقدرته ورحمته التي تعم مخلوقاته، وقد ينزل البرد عقاباً على الناس الذين يكفرون بنعمة الله ويحادون الله ورسله بارتكاب المناهي وترك المأمورات، وفي تكوين البرد وتجمد الماء في السحاب إلى قطع مستديرة صغيرة أو كبيرة وإصابتها أرضاً دون أرض وقوماً دون قوم آيات بينات على قدرة الله وحكمته، وأن الأمور تجري بتقديره وعلمه وأن كل شيء بإرادته، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه، فعال لما يريد إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، يخلق السحب ويؤلف بينها ويغرق البلاد في ساعة من نهار.

﴿**وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**﴾ ـ يتحدث أهل العلم بظاهر الحياة عن هذه الأمور، بالظواهر الطبيعية التي يشاهدونها من تبخر السحب من مياه البحر ومهاب الرياح وأسبابها، وسوقها للسحب واستحالة

البحار إلى ماء سائل ومتجمد عندما يمر على طبقة باردة من الجو ثم ينزل مطراً أو برداً أو ثلجاً. نعم هذا صحيح وهل هذا التفسير يغض من قدرة الله وآياته في الكون؟ كلا بل يزيد المؤمن إيماناً، فمن الذي خلق البحار وأحال الماء بخاراً وأنشأ الرياح اللواقح، وجعل من البحار مطراً وبرداً وأنزل الماء بقدر معلوم وعزل عنصراً من عنصر، والهواء عناصر والماء عناصر، فسبحان من صنع وأتقن كل شيء صنعاً، وسبحان من يصيب من يشاء برحمته أو نقمته ويصرفها عمن يشاء، لا يملك البشر ذلك بقوتهم ولا بعلومهم لا دفعاً ولا نفعاً فتراهم ينظرون، ولا يملكون من الأمر شيئاً والأمر كله لله، وفي هذا ما يكفي للاعتبار ويدعو إلى توحيد الواحد القهار.

﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ ـ أضواء البروق تلمع من خلال السحب تقوى أحياناً، حتى لتكاد تخطف أبصار الناس بشدة لمعانها، وقد وقع فعلاً أن عميت أبصار الناس بسنا برق خاطف قوي كما وقع أن صرع أناس برعود قاصفة، وما ذلك إلا لقوة ما هنالك من شحنات كهربائية عظيمة هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء، والفرق بين المؤمنين والكافرين أن المؤمنين يردون الأسباب إلى مسبب الأسباب، ولا يزيدهم إطلاعهم عليها إلا إيماناً بربهم، أما الكافرون فيقفون عند الأسباب ويغفلون عن مسببها ويكفرون بربهم وخالقهم، وقد مطر الناس في زمان النبي ﷺ فلما أصبح الصباح قال لهم: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قال: أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب. فهذا الحديث إرشاد للمؤمنين أن لا يعلقوا الأشياء بأسبابها غافلين عن خالق الأسباب والمسببات كما هو شأن الكفار والملاحدة.

نعم ينبغي أن نتعلم ونطلع على أسرار الله في الكون فإن العلم ينفي

الخرافات عن عقولنا ومداركنا، ولكن لا يجوز أن تنقص هذه المعارف من روعة آيات الله حين نشاهدها، فهذا خطر على إيماننا يجب أن نأخذ حذرنا منه. فالعلم الصحيح من شأنه أن يدعو إلى الإيمان ويزيد المؤمن إيماناً وخشية وصدق الله العظيم.

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ـ فاطر ٢٨ ـ **﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾** ـ هذا مشهد من المشاهد الكونية العجيبة والعميمة يتكرر على جميع سكان المعمورة دائماً يشملهم كلهم فلا يخرج أحدهم من الليل أو النهار، فهما يتعاقبان يطلب أحدهما الآخر طلباً حثيثاً وفي تقلبهما عبرة عظيمة لأولي الأبصار، الذين ينظرون ببصائرهم إلى آيات الله في أرضه وسمائه ولا يمرون عليها صماً وعمياناً. فسبحان من جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد خشوعاً، يقلب الليل والنهار تقلباً رفيقاً بالتدريج لا بالطفرة رفقاً بعباده فينقص ضوء النهار شيئاً فشيئاً وتنزل ظلمة الليل شيئاً فشيئاً، وهو معنى الإيلاج الذي ورد في غير موضع في القرآن.

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ ـ وفي ذلك التدريج رفق بمخلوقاته إذ لو نزل أحدهما نزولاً مفاجئاً لغشيت الأبصار وربما عميت، فسبحان الذي وسعت رحمته مخلوقاته، فما على العاقل إلا أن يتأمل مشرق الشمس ومغربها والفجر الذي يسبقها والشفق الذي يعقبها فسبحان رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، وفي ذلك ما يكفي عبرة لأهل الإعتبار، والذي يقلب الليل والنهار هو الذي يقلب قلوب عباده فبعضها كالليل وبعضها كالنهار وبعضها متقلب، وكان من دعاء النبي ﷺ : اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك.

وفي تقليب الليل والنهار عبرة أخرى ألا وهي مرور أعمارنا سريعة، أليس الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود! هذه عبرة وذكرى لنا حتى نبادر آجالنا قبل حضورنا باغتنام أيامنا وليالينا المقبلة بفعل الطاعات وترك المحرمات والتوبة من الخطيئات قبل الفوات، وكل ما هو آت آت فأيامنا مطايانا وهي تجري بنا جري الخيول الراكضات فمن لم يغتنمها كانت عاقبته الحسرات وهيهات هيهات، وفي تقليب الليل والنهار نعمة من الله على عباده لينتفعوا بهما جميعهما، فأحدهما للسكون والراحة، والآخر للكسب والحركة والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، ولولا هذا التناوب بين الليل والنهار لضاعت هذه المصالح الضرورية ولهلك كثير من مخلوقات الله حيواناتها ونباتها وغير ذلك مما نعلم ومما لا نعلم وصدق الله القائل:

﴿قل ارايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله ياتيكم بضياء افلا تسمعون قل ارايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ ـ القصص ٧١ ـ ٧٢ . يأتي هذا التعبير على طريق اللف والنشر المرتب أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار، فلولا تعاقب الليل والنهار لما صلحت الحياة على الأرض، فظلام الليل وبرده له دخل كبير في تكون المخلوقات وعيشها وتطورها على ظهر وفي باطن الأرض وفي وسط البحار وقاعها، وكذلك ضوء النهار وحرارته، وللشمس وأشعتها، والقمر وضيائه والنجوم تأثير كبير في الحيوان والنبات

والجماد على الأرض وعلى سائر الكواكب التي هي من جنس الأرض وفي الأجواء التي بينهما، ففي تقلب الليل والنهار منافع وحكم وأسرار وبتقلبهما يتكون الزمن ليعلم الناس عدد السنين والحساب، وكذلك في تقلبهما من قصر إلى طول واعتدال واختلاف ذلك في أقاليم الأرض منافع للناس والحيوان وأسرار لا يعلم كنهها إلا خالقها، وقد نبهنا الله إلى تدبر ذلك في غير موضع من كتابه الكريم:

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ ـ آل عمران ١٩٠ ـ الآيات ـ ولا يزال علماء الطبيعة يعثرون في بحثهم المستمر على كنوز وأسرار تكمن وراء هذا التقلب، وهذا الإختلاف، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار، في تقلب الليل والنهار عبرة ومنفعة للعمال وللعباد فالعامل يستنفد طاقته في ضوء النهار في جلب ما ينفعه وينفع الناس من فضل الله، ويسعى في مناكب الأرض وفي بطون البحار وفي طبقات الجو، فإذا جاء الليل وأخذ قسطه من النوم استرجع طاقته بتلك الراحة فينهض صحيحاً كأن لم يتعب، والعابد يغتنم تقلب الليل والنهار فيقوم الليل يناجي ربه في سكون الليل، ويصوم النهار فيأخذ حظه منهما جميعاً، فسبحان من يقلب الليل والنهار، وما أعظم آلاء الله في تقلبها ولله في خلقه عبر وأسرار وصدق القائل :

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

﴿الله نور السماوات والأرض﴾ - إنكم أيها الناس لا تدركون نور الله في ذاته فتأملوه في مخلوقاته، فهذه مشاهد أربعة من أعظم مشاهد الكون تقدم منها ثلاثة ثم يعقبها المشهد الرابع، وقبل أن نتعرض لتفسير المشهد الرابع نستعرض هذه المشاهد المتقدمة:

المشهد الأول ينبئنا أن كل شيء في الكون يسبح لله ويصلي له، ويلفتنا إلى هذه الطيور التي تسبح في الفضاء وهي الأخرى تسبح لله وتصلي له.

المشهد الثاني يدعونا إلى التأمل في السحب وتكونها والأمطار ونزولها، وفي ذلك آيات للعالمين.

المشهد الثالث يحدثنا عن تقلب الليل والنهار وما فيهما من المنافع والعبر، وكل هذه المشاهد الأربعة: ما مضى وما يأتي تتكرر في جميع جهات المعمورة لا تختص منها جهة دون جهة فهي على سمع جميع الناس وبصرهم وجميع مداركهم، فما عليهم إلا أن يتأملوا ويعتبروا فإذا بهم يبصرون نور الله في السماوات والأرض، فالتأمل والإعتبار إذن هو المدد لنور قلوب المؤمنين أولي الأبصار، وهو الزيت الذي يمد مصابيحها بالضوء الدائم فلا تزال زاهرة مبصرة، وهذه التأملات في مخلوقات الله بالإضافة إلى ما وقر فيها من إيمان وحب لله نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، فهنيئاً للعارفين الذين متعهم الله بالنور وأروى ضمائرهم من سلسبيل معرفته فهم الرواء وغيرهم الظماء .

﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله

على كل شيء قدير لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ـ هذا هو المشهد الرابع من مشاهد الخلق التي يلفت الله أنظارنا إليها، والمشهد هو عملية خلق الأحياء وأصل مادتها واختلاف أجناسها وأنواعها، ودلالة وجودها على قدرة الواحد القهار.

الدابة كل ما يدب على الأرض وفي الكهوف والمغارات وفي قيعان البحار والمحيطات ومنها قوله تعالى: **﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾** ـ هود ٦ ـ ومن أول ما يدخل ضمن هذه الدواب نحن معاشر بني آدم وكل هذه الدواب مخلوقة من ماء، ترى هل هذا الماء هو الأصل الأول الذي منه هذه الدواب، أو الثاني الذي تتكون منه هذه الدابة بطريق اللقاح بين ماء الذكر وماء الأنثى أو كلاهما، وفي كل ذلك آيات تدل على الخلاق العليم، ولا يزال العلماء حيارى أمام معجزة الخلق معترفين بعجزهم جميعاً عن خلق خلية الحياة في الأحياء، وقليل من التدبر في المخلوقات يهديك إلى كثرة نشوء الحياة فيما دق وجل من الأحياء، وتكررها في ملايين وملايين الصور في كل لحظة فعجباً بعد هذا لمن يغفل ولا يعتبر، وسبحان الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي . فما هي الحياة وما هو الروح؟ هذا ما عجز عن إدراكه العلماء ولن يدركوا حقيقته حتى تقوم الساعة.

﴿قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ ـ الإسراء ٨٥ ـ ثم ألفت الله أنظارنا إلى أشكال وأنواع المخلوقات لنتدبر في ذلك ونتفكر ولا نغفل فقال:

﴿فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من

يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ ـ من الدواب من يمشي على بطنه، وهي جميع الزواحف في الأرض والحيتان في قيعان البحار ومنها من يمشي على رجلين وهم بنو آدم والطيور، ومنها من يمشي على أربع وهي الأنعام التي فيها منافع بني آدم وهي الأزواج الثمانية، ومنها الدواب التي منها ركوبهم وحمولتهم في حال ظعنهم وإقامتهم، وفي حال حربهم وأمنهم، وهي الخيل والبغال والحمير وغير ذلك كثير، كالغزلان والوحوش والسباع والكلاب والسنانير، كل حيوان صوره الله على الصورة التي تليق وعلى الشكل الذي يساعده على القيام بمهمته أحسن قيام، وميز الإنسان من بينها بهذه الصورة الجميلة يمشي على رجلين ويبطش بيدين وأصابع متفرقة ورأسه مرفوعة، لأنه الحاكم الآمر الناهي المتصرف بإذن ربه في غيره من المخلوقات التي سخرها الله وذللها له وخلقها من أجله ولخدمته، خاضعة راكعة أمامه حانية ظهورها ليركبها ويحمل عليها أثقاله ويرتفق منها، فهي مسخرة له لينتفع منها ويشكر الله على ذلك ويتفكر في صنعها لعل التفكر يهديه إلى توحيد الله وتعظيمه، وليس ذكر ما تقدم على سبيل الحصر بل على سبيل التنبيه والتذكير، وإلا ففي أرض الله برها وبحرها آلاف من الدواب تمشي على أكثر من أربع كهذه الحشرات التي نشاهدها وكثير من الحيتان في البحار، وإنما ذكرنا الله تعالى بالأنواع التي نحن من جملتها، والأنواع التي نرتفق بها ولا نفارقها، فالاعتبار بها ألزم والنظر إليها أقرب والنعمة في وجودها أعظم.

﴿وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا

وما كناله مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ ـ الزخرف ١٢ـ١٣ . **﴿يخلق الله ما يشـــاء إن الله على كل شيء قـــدير﴾** ـ إن الله ينشـيء الخلق ويصـــور المخلوقـات كمـا يشـاء ويريد، لا على نمط سـابق ولا بتصـمـيم مصـمم بل المصمـمون والمهندسون يـقلدون صنع الله، فيصنعـون الطائرات على أشكال الطيور، ويصنعـون السفن على أشكال الأسماك، ومـا ذلك إلا لكمال صنع الله ـ **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** ـ يذيل هذه المشـاهد الأربعة بالتـأكيـد على عمـوم قدرة الله على كل شيء لا يعجـزه شيء مطلقاً شأنه عـجيب هو الخلاق العليم ـ **﴿لقد انزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** ـ يذكرنا الله ربنا وينبهنا من غفـلاتنا بآياته المبينات الجليات المتلوه في كتابه المنزل، ويذكـرنا بآياته المبينات المجلوة في الأكوان، في الأرض، في السماء، كما يعبر القرآن كثيراً بعد مثل هذا العرض بقوله :

﴿إن في ذلك لآيات لقـوم يتـفكرون﴾ ﴿لقـوم يعـقلون﴾ ﴿أفـلا تتفكرون﴾ ﴿أفلا تـذكرون﴾ ﴿أفلا تعقلون﴾ ـ تنبيهات وتحريضات وهي كلهـا دلالة وهداية بيـان لجـميع الناس ثم يخـتم السـياق بهـداية التـوفيق والإيصال وهي خاصة للسعداء من عباده فيقول :

﴿والله يهدي من يشـاء إلى صراط مـستقيم﴾ ـ من يرد الله أن يهديه يشرح صـدره للإسلام، والصراط المسـتقيم هو طريق الحق المؤدي إلى رضى الله وهو طريق التـفكر والاعتـبار، والـعمل أثر ذلك بآيات الله الهـاديات إلى صراط مستقيم، فأوليـاء الله ينظرون ويتفكرون ثم يسعون ويعقلون فهم على نور من ربهم، وغيرهم ينظرون ولا يبصـرون ولا يسمعون ولا يعقلون، ولو

علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون، فعلينا أن نتفكر ونجتهد في الطاعة ونتضرع إلى الله، ولا يشغلن أحد منا وسواس الجبرية فإن الله أقام الحجج الواضحات على خلقه، ولم يجبر أحداً على معصية ولا صرف أحداً عن طاعته إلا إن أبى وانصرف بنفسه بمحض إختياره فلولا الإختيار ما استحق أحد المصير إلى الجنة ولا إلى النار، وفي هذا المعنى يقول الله في شأن النفس :

﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ ـ البقرة ٢٨٦ ـ فلنقف عند هذا الحد ولا نخوض في ظلمات الجبريين والقدريين، ولا نكون كأصحاب الأهواء الذين يتبعون الهوى ويلقون التبعة على القدر كذلك كذبوا على الله وكذب الذين من قبلهم، فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم ننتقل مع سياق الآيات إلى الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم فنرى كيف أخبر الله عن حالهم وماذا حكم عليهم :

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ
أُوْلَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ
مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

سبق أن تحدثنا عن آيات الله المبينات التي يهدي بها الله من يشاء إلى صراط مستقيم، وهم المؤمنون الذين شرح الله صدورهم لنوره فهم خاضعون لأحكام الله ورسوله، مسلمون بها تسليماً، لأنهم يوقنون بما فيها من حكمة بالغة فهي نازلة من لدن حكيم عليم، وهناك فريق من الناس على خلاف ذلك: يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولون بعد ذلك، لمرض في قلوبهم وريب في حكم الله الحكيم العادل، أولئك نفى الله عنهم الإيمان ووصفهم بأنهم هم الظالمون يتبعون أهواءهم آلهة من دون الله فهم لا يؤمنون بالله، ولو نطقت ألسنتهم بألفاظ الإيمان، لأن حقيقة الإيمان هو الإذعان والتسليم المطلق وحسن الظن بأحكام الله ورسوله والطاعة الكاملة في المنشط والمكره.

أولئك قوم منافقون مرضى القلوب يدعون الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لهما، وباطلة دعواهم لأنها مجرد كلام تخالفه الحقائق والأعمال وجاءت الإشارة إليهم بأولئك لبعدهم عن طبيعة المؤمنين الصادقين لا يمتون إليهم بصلة فحق أن يبعدوا عن جماعتهم، وفي هذه الآية باب كبير من فقه العقيدة يبين أن الإيمان إنما هو قول وعمل وطاعة وسلوك، وأن مجرد الدعوى لا يكفي عند الله، بل هناك ميزان عادل تعرض عليه أحوال الناس وأعمالهم ونياتهم، فما زكاه ميزان الله فهو الزكي وما زيفه فلا شيء.

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكون لهم الحق ياتوا إليه مذعنين﴾ ـ إذا دعا هؤلاء المنافقون ومرضى القلوب إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، أفرد الضمير هنا ولم يثن لأن حكم رسول الله هو حكم الله، فالحاكم هو الله والرسول ﷺ ما هو إلا منفذ، إذا دعا هؤلاء إلى حكم الله إذا فريق منهم معرضون لا يقبلون حكم الله ورسوله

لأنهم يعلمون أنهم ظالمون، وأن الحق ليس إلى جانبهم ويعلمون أن رسول الله ﷺ سيحكم بالحق، فلا رشوة ولا محسوبية ولا حيف، ولو كانوا يعلمون أن شيئاً من ذلك واقع لأقبلوا مسرعين مستعملين الرشوة والجاه كما تعود ذلك الظالمون عند القضاة الجورة. أما رسول الله ﷺ فلا يجدون عنده إلا العدل، وإن يكن لهم يقبلون مذعنين إلى حكم الله ورسوله، ذلك لأنهم يعلمون أن رسول الله ﷺ لا يحكم إلا بالحق كما أمره الله فلا تحمله عداوة أهل النفاق والكفر على أن لا يعدل، وهم يعلمون في أنفسهم إذا كانوا ظالمين أو مظلومين وقل أن يتخاصم اثنان إلا ويعلم كل منهما نصيبه من الحق أو الظلم، ولكن الظالم يعول على الفجور في الخصومة وذلك شأن المنافق - «إذا خاصم فجر» - فإذعان هؤلاء النمط من الناس لحكم الله ورسوله حين يعلمون أن الحق لهم لا مزية لهم فيه ولا يعتبر لهم طاعة ومبرة إنما هو بدافع الهوى وميل النفس فهو وعدمه سواء ما داموا لا يذعنون دائماً لحكم الله ورسوله كما يذعن المؤمن الذي كتب الله في قلبه الإيمان، وهذا منه في جميع القضايا الخاصة والعامة، وما كان بين شخص وآخر وما كان بين جماعة وأخرى وبين قبيلة وأخرى.

﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون﴾ - هذا إستفهام تعجب من حال هؤلاء الذين إن دل إعراضهم على شيء فعلى أحد ثلاثة أسباب: في قلوبهم مرض وهذا المرض هو النفاق الذي هو إضمار الشرك وظن السوء بالله ورسوله كما عبر الله عن هؤلاء في سورة البقرة في قوله تعالى: **﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾** - البقرة ١٠ - والسبب الثاني هو الشك والإرتياب - **﴿أم ارتابوا﴾** - فهم في إيمانهم

الضـعيف المتـردد في شك من عدالة حكم الله، إيمانهم غـير ثابت لم تخـالط قلوبهم بشـاشة الإيمان كالمؤمنين الصـادقين، والسبب الثـالث هو الخوف من الحيف في حكم الله، كـأن هؤلاء يخافـون أن يظلمهم الله بحكمـه عليهم بل هم الظالمون الجائرون، وأشـار إليهم بإشـارة البعد، لبـعد هؤلاء الظانين ظن السوء والظالمين عـن زمرة المؤمنين المذعنين لأحكام الله ورسـوله، فأحكام الله وأحكام رسـوله عادلة مـا أبعدها عن الحـيف والجور وكتب الـسيرة النـبوية مليئـة بما يؤكد ذلك ففي فـتح مكة مثلاً شـاهد كبيـر وذلك أنه ، لما فتح مكة واستلم مفاتيح الكعبة أبى إلا أن يسلمها لسدنتها الأصليين ولو كان غيره لما ردها إليهم بعـد الذي صدر من المشركين ولكن رسـول الله ﷺ رد الأمانة إلى أهلها كما أمره الله في كتابه المنزل :

﴿إن الله يـامركم أن تؤدوا الأمـانات إلى أهلهـا وإذا حكمتم بين الناس أن تحكمـوا بالعـدل إن الله نعمـا يعظكم به إن الله كـان سـميـعاً بصيـراً﴾ ـ النساء ٥٨ ـ فمن كان في قلبـه شك في أحكام الله وأحكام الرسول أن يكون فيها حيف وظلم فـليس بمؤمن ولو ادعى الإيمان ونطق بكلمة الشهادة، وهذا الصنف من الناس موجودون في كل زمان لا سيما في زماننا، ما أكثر هؤلاء الذين يطعنون في حـدود الله وأحكامـه ويتهـمونهـا بالظلم ـ ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ ـ نفـوسهم خـبيـثة منحـرفة ألـفت الظلم وعافت الحق والعـدل وطبائع النفـوس كطبائع أجسـادها إذا مرضت أنكرت الطيب من الأطعـمة والعذب من الأشربة فوجدته مُراً في مذاقها السقيم.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد　　　وينكر الفم طعم الماء من سقم

هؤلاء قوم ابتلوا بكراهية الحق والميل إلى الظلم، طغت عليهم شهواتهم وتمكن حب الدنيا من نفوسـهم، فحب الشهوات أعماهم وأصـمهم فلا هم

لهم إلا الجري وراء المال والعلو واتباع الشهوات، يسقط الواحد في جهنم من أجل مال حرام يناله أو فرج حرام ينكحه، أو منصب يجري وراءه بسفك الدماء وظلم الأبرياء - ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ - هذا الإضراب ببل وهذا التأكيد بتعريف الخبر والإتيان بضمير الفصل ضغط على هذه النقطة، وبيان أن هذا هو السبب الوحيد الذي أرداهم في هذه الهوة السحيقة، فما كان نفاقهم وشكهم وارتيابهم إلا انعكاساً لهذا الطبع الخبيث المتمكن في قلوبهم، تسلطت عليهم شهواتهم حتى أوصلتهم إلى كراهية وبغض حكم الله ورسوله - ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ - ظلموا أنفسهم باتباع الشهوات وظلموا غيرهم بأنواع الظلم، وظلموا حكم الله ورسوله باتهامه بالحيف والشك في عدالته فهم بهذه الأنواع من الظلم بلغوا أحط الدركات.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية أن يهودياً ومنافقاً تخاصما فقال اليهودي للمنافق: نتحاكم إلى رسول الله ﷺ . فقال المنافق: بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف. فغلب اليهودي فذهبا إلى النبي ﷺ فحكم النبي لليهودي، فخرج المنافق غاضباً لم يرض بحكم النبي ﷺ فطلب من اليهودي أن يذهبا إلى عمر بن الخطاب ﷺ فذهبا إليه وتحاكما إليه، فأخبره اليهودي أنهما قد تحاكما إلى النبي ﷺ ولكن بشرا صاحبه لم يرض بحكم النبي ﷺ فقال له عمر هكذا يا بشر؟ فقال نعم. فقال عمر مكانكما حتى أجيئكما، فدخل عمر وجاء بسيفه وضرب عنق المنافق وقال هكذا أحكم لمن لم يرض بحكم النبي ﷺ .

ثم إن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال له إن عمر فرق بين الحق والباطل، ومنذ ذلك اليوم سمي عمر بالفاروق لهذا العمل وغيره وحق له أن يسمى الفاروق، ثم إن الله تعالى أثنى على المؤمنين الذين يذعنون لحكم الله ورسوله ويسمعون ويطيعون فأخبرهم أنهم هم المفلحون فقال :

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ
الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

هذه تبين حـقـيقـة المؤمنين الصـادقين أنهم هم الـذين يذعنون لحكم الله ورسوله، ويستجيبون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ويقولون سمعنا وأطعنا، لأنهم يعلمون أن العدالة في حكم الله والرسول، وكل حكم خلاف ذلك هو الطاغوت وهم قد كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله إيماناً راسخاً متمكناً في قلوبهم، والله تبارك وتعالى لم يدع شأناً من شؤون الحياة الخاصة والعامة إلا ووضع لها مـوازين وقنن لها قـوانين، لم يترك الناس همـلاً بل نظم لهم سيرهم في دينهم ودنياهم، وحد لهم حـدوداً لا يتعدونها ووضع لهم معالم ينتهـون إليهـا، وسن لهم أحكاماً يحـتكمون إليهـا، في جميـع شؤونهم في السياسـة في الإقتصاد في الـعلاقات الخاصة والعـامة في جميع المـعاملات، حتى معـاملاتهم مع أعدائهم بينها وفصلهـا تفصيلاً، وشرع إقامـة العقوبات والحدود على أهل المعـاصي والظلم لردع الناس وزجرهم وشرع القـصاص في القتل وفيما دون القتل وقال:

﴿ولكم في القصاص حياة﴾ ـ البقرة ١٧٩ ـ ورغب في العفـو على من يصلحه الـعفو ولا يجـرئه على الظلم والمعاصي، وأمـر بالعدل والإحـسان. فأحـكام الله عادلة وشـاملة لجمـيع شؤون الحيـاة، مسـائرة لتطورات جمـيع العصـور لأن مشـرعها عـالم الغيب والشـهادة لا يعـزب عنه مثـقال ذرة في الأرض ولا في السـمـاء ـ ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمـون﴾ ـ فـأنى للبـشـر

الضعاف الذين تتحكم فيهم الشهوات والأهواء، وتطغى عليهم العادات والتقاليد ولا يعلمون عواقب الأمور أنى لهم أن يستقلوا بوضع الأحكام والقوانين أو يعارضوا حكماً من أحكام الله، وهم الجاهلون القاصرون المختلفون المتنازعون المفتونون، وقد حذر الله نبيئه أن يفتتن عما أنزله الله أو بعضه بفتنتهم فخاطبه والخطاب لجميع الحكام فقال :

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ - المائدة ٤٩ - الآية - فما علينا إلا أن نثقف نفوسنا بالثقافة الشرعية، ونسيرها في الإسلام المستقيم لا نحيد ولا نميل مع الأهواء، ولا نقع فيما وقع فيه كثير من أهل عصرنا ممن تثقفوا بالثقافة الغربية، فأخذوا في هدم ما لا يوافقهم من الشريعة الإسلامية، فشرعوا في تحريف الكلم عن مواضعه وأخذوا في تأويلات تتنافى مع روح الشريعة ويأباها السياق القرآني، وأنكروا الأحاديث الصحيحة لأنها لا توافق هواهم.

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ - المومنون ٧١ - **﴿إنما كان قول المومنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾** - يؤكد الله الخبر بإنما ليبين أن المؤمنين الحقيقيين لا قول لهم إلا التسليم المطلق والسمع والطاعة، ثم يؤكد الحكم عليهم بالفلاح وهم وحدهم المفلحون. فتعريف الخبر بالألف واللام وضمير الفصل، كل ذلك تأكيد لهذا الحكم ولهذه الخصوصية بالفلاح لمن سمع وأطاع وأذعن لحكم الله ورسوله، لا يجد في ذلك أدنى حرج بل يسلم الأمر لله تسليماً، ثم يصدر الله حكماً آخر بالفوز لأهل السمع والطاعة والخشية والتقى ويخصص هذا الفوز لهم وحدهم دون غيرهم فيقول :

﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ -

الطاعة هي الإذعان والقبول واتباع الأوامر بطواعية واختيار واجتناب النواهي كذلك، والخشية فيها معنى الخوف والهيبة، والتقوى هي مراقبة الله في كل لحظة، وطلب رضاه بإتيان ما يرضيه واجتناب سخطه، بالابتعاد عما يسخطه، والخشية تتضمن مع الخوف المحبة والتقدير ليس مجرد الخوف، لأنك قد تقول أخاف الأسد ولكنك لا تحبه، وتقول أخاف العقرب ولا تحترمها ولا تهابها، وهذه المعاني الثلاثة: الطاعة والخشية والتقوى هي عمارة قلوب السعداء في الدنيا وهي التي يستحقون بها الفوز والظفر يوم القيامة، يزحزحون عن النار وينعمون بالدرجات العلا في الفردوس وأولئك هم الفائزون، لا الذين ينعمون في الدنيا بأنواع النعيم ثم ينقلبون يوم القيامة إلى عذاب الجحيم، وربما يزعم زاعم أن طاعة الرسول ﷺ والاحتكام إليه إنما كان ذلك مفروضاً في زمانه، أما اليوم فأين رسول الله وهذا تمحل وتعنت وجدال بالباطل، فإن طاعته والاحتكام إليه هي إتباع ما ترك لنا من سنة والاحتكام إلى أحكامه وهو القائل:

تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي ـ ويقول الله تعالى ـ ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**﴾ ـ آل عمران ١٤٤ ـ ولا يزال كتاب الله ولن يزال محفوظاً، ولن تزال سنة الله محفوظة مدونة مشروحة، وقد ضمن الله بقاءهما لنا حتى نرجع إليهما في جميع أمورنا ونحتكم إليهما في خصوماتنا.

قيض الله لشريعته جهابذة العلماء فقاموا بخدمتها تدويناً وتنقيحاً وتعديلاً لرواتها وتجريحاً، ضبطوا أحوالهم وأخلاقهم وتصرفاتهم، وإذا شكوا في راو من الرواة أو جهلوه طرحوا حديثه وروايته، فهم لا يقبلون إلا

روايات العدول المعروفين بالصلاح والنزاهة والصدق، ولا يوجد هذا في سائر الشرائع والكتب، فلم تسلم التوراة ولا الإنجيل من التحريف والتبديل لأن هذه الشريعة هي الشريعة الخالدة الباقية ما بقيت الدنيا، والناسخة لجميع الشرائع قبلها وليس بعدها شريعة ولا نبيٌ حتى تقوم الساعة، ولو بعث نبيٌ من أنبياء الله ما وسعه إلا إتباع نبيئنا محمد ﷺ .

وهكذا روينا واعتقدنا، ومن اعتقد غير هذا فهو ضال غاو، والله ربنا ومحمد نبيئنا والقرآن إمامنا والكعبة قبلتنا وشريعة الإسلام هي شريعتنا، ما جاءنا فيها فعلى الرأس والعين، وما كان من وضع الطاغوت فنحن به كافرون والحمد لله رب العالمين.

وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

سياق الآية إلى الكلام على المنافقين لتبرز الفرق بين طبيعة المؤمنين الخلص، وطبيعة المنافقين، ويتقابل الضدان وكم يزاوج القرآن بين الأصناف من الناس لتظهر الفوارق بين أولياء الله وأولياء الشيطان، ويظهر البعد بين هؤلاء وهؤلاء وهذا أدعى للإعتبار والإنزجار .

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن﴾ - حلفوا بأيمان

مغلظة وبالغوا في القسم أقصى ما تكون المبالغة ليخرجن إذا أمرهم الرسول ﷺ بالخروج إلى القتال ـ ﴿قل لا تقسموا﴾ ـ لا تحلفوا فحلفكم باطل كما تعودتم، تحلفون على الكذب فأيمانكم واهية هي وعدمها سواء ـ ﴿طاعة معروفة﴾ ـ طاعتكم طاعة معروفة فهي باللسان، لا بالقلب ولا بالعمل، تحاولون أن تستروا نفاقكم بالإيمان وأمركم مفضوح معروف طاعة باللسان تسفر عن عصيان وتمرد وخروج عن عهدة الأمر.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ ـ إن الله بصير بنواياكم ودخائل قلوبكم، لا يخفى عنه نفاقكم، فأنتم تحاولون ستره بالأيمان الكاذبة، والله يفضحكم وقد فضحهم الله في مواضع كثيرة من القرآن، ومن ذلك ما أخبر الله عنهم في سورة البقرة وسورة التوبة وسورة الأحزاب وسورة الفتح، وأفرد لهم سورة في القرآن تسمى باسمهم، وما ذلك إلا تبصرة للمؤمنين الخلص حتى لا ينخدعوا بكذبهم ولو حلفوا عليه بأغلظ الأيمان .

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ ـ أحسن لكم وأسلم عاقبة أن تطيعوا الله وتطيعوا الرسول طاعة خالصة كطاعة المؤمنين الصادقين، يمتثلون الأوامر ويجتنبون النواهي ويذعنون للأحكام لا يبغون بها بديلاً.

﴿فإن تولوا﴾ ـ الفعل مضارع حذفت منه أحد التائين للتخفيف وهو خطاب لهم ـ ﴿فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ ـ يظن هؤلاء المتمردون أنهم بعصيانهم وتمردهم يمكرون بالنبي ﷺ ويضرونه بذلك، فبين الله لهم أن عصيانهم وتمردهم عائد عليهم ولا يحيف مكرهم إلا بهم، أما رسول الله ﷺ فإنما عليه التبليغ ولا عليه بعد ذلك تبعة شخص عصاه وخالف أمره، عليه ما حمل من أمانة التبليغ وقد أداها كما أمره الله وعليكم ما حملتم من القبول والإمتثال فإن عصيتم وخالفتم فإثمكم عائد عليكم.

﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ - وإن تطيعوا رسول الله تكونوا مهتدين سائرين على طريق الفلاح والفوز .

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ - الرسول ما هو إلا مبلغ إنما هو مذكر ليس عليكم بمسيطر، إنما بعث إليكم ليذكركم وليبلغ إليكم ما أرسل به إليكم بلاغاً واضحاً مبيناً لا لبس فيه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ثم إن سياق الآيات يرجع إلى الحديث عن المؤمنين فهم العنصر الخير الذي يستحق الإهتمام، وهو الذي ينتفع بالخطاب ويصدق بالحسنى فبرقت بشائر النصر والعز لهم.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

عهد قطعه الله على نفسه لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ولن يخلف الله عهده ووعده. وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، والاستخلاف السيادة والتمكن كما استخلف الذين من قبلهم من الذين وفوا الله ما كلفهم به، فوفى الله لهم ما وعدهم به والله لا يخلف الميعاد، والخطاب أولاً وبالذات

للرعيل الأول من المهاجرين والأنصار، ثم يعم بعدهم جميع المؤمنين في كل عصر ومصر، وقد علم الله أن فيهم من لا ينتفع بالخطاب وهم المنافقون فقال: منكم ليستخلص المؤمنين الصادقين الذين حققوا إيمانهم الصادق بالعمل الصالح. فالعمل الصالح مكمل للإيمان دلت على ذلك آيات كثيرة من القرآن الكريم فلا إيمان بدون عمل، والعمل الصالح يشمل الفعل والترك. فمن أتى بالمأمورات واجتنب المنهيات فذلك هو المؤمن الذي يفوز بحسن العواقب في الدنيا وفي الآخرة.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ ـ الرعد ٢٩ ـ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بثلاثة وعود ضمن لهم تحقيقها في الدنيا قبل الآخرة، وهي كلها عون لهم على إصلاح أمر دينهم وعبادتهم: الوعد الأول، التمكين والاستخلاف في الأرض وهو السيادة فيها والسلطة حتى يتمكنوا من إعزاز دين الله ونشره وقهر كل معارض له يفتن الناس، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وقد استخلف الله قبلهم من أهل الشرائع الماضية أمماً أعزها الله بعز الدين، وأدال لهم من أعدائهم، فنشروا العدل في الأرض وأقاموا الأمانة، فلتكن لهذه الأمة أسوة بهؤلاء الذين أعزوا أمر الله ونصروا أنبياء الله فأعزهم الله ونصرهم الله.

﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ ـ الحج ٤٠ ـ الوعد الثاني تمكينهم من إظهار دينهم الذي ارتضاه لهم وهي أمنية كل مسلم، أن يمكنه الله من إظهار دينه وإعلاء كلمة الله، وعدهم الله التمكين ـ وهذه اللفظة أصلها من المكان ومعناها تثبيت الشيء في موضعه حتى يستقر، وعدهم الله أن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهنا ثلاث إضافات: أولها إضافة التمكين لهم لأنه لصالحهم وحسن عاقبتهم. ثانيها إضافة الدين لهم فكأنه جزء منهم

وهم جزء منه، فهو روحهم الذي به حياتهم الأبدية، وفي هذا ما فيه من إثارة الغيرة في قلوبهم على نصر هذا الدين الذي هو دينهم وبه قوام أمرهم. الإضافة الثالثة: إضافة الارتضاء لهم فهو الذي ارتضاه واختاره لهم، كما قال في موضع آخر من القرآن - ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ - المائدة ٣ - رضينا يا ربنا بما ارتضيته لنا، وما اخترته لنا خير مما نختاره لأنفسنا، وأنت تعلم عاقبة أمرنا وما فيه سعادتنا وفوزنا، وما نيل رضاك إلا فيما ارتضيته أنت لنا فلك الحمد على نعمة الإسلام.

﴿وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾ - وهو الوعد الثالث لهذه الأمة التي تقف مع نبيئها وتتحمل في سبيل نصرته ونصرة دينه ما تتحمل من الإرهاق والتذليل والتعذيب، تحملوا ذلك يوم كانوا ضعافاً في مكة يتلقون من طغاة المشركين ما يتلقونه من المعارضة والأذى حتى مات منهم من مات في العذاب، وهاجر منهم من هاجرة الهجرة الأولى إلى الحبشة خائفين من ملاحقة المشركين، وقد استمر هذا الخوف مدة طويلة قبل الهجرة إلى المدينة، وبعدها بسنوات كما وقع يوم تحزب عليهم الأحزاب .

﴿وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المومنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ - الأحزاب ١٠ -١١. ثم فرج الله عنهم وحقق لهم ما وعدهم به من النصر وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً ونصرهم بالرعب مسيرة شهر، وقد حقق الله لنبيئه كل هذه الوعود في حياته فكان يقيم شعائر الإسلام وحدوده ويغزو ولا يغزى، ويكاتب الملوك في الجزيرة وحولها يدعوهم إلى الإسلام ليسلموا أو يحملهم إثم رعاياهم إذا هم لم يستجيبوا، ثم إن الله حقق الفتوحات الواسعة في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ولا يزال وعد الله قائماً لمن حقق الإيمان والعمل الصالح ونصر دين الله.

وقد شاهد المسلمون تحقيق وعد الله في فترات من التاريخ رجعوا فيها إلى نصرة دينه وشريعته فنصرهم الله وأدال لهم من أعدائهم وأعداء الإسلام، ثم إن هذا النصر وهذا التمكين يبقى قائماً مستمراً ما وفى المؤمنون بأسبابه وشروط بقائه، وهو عبادة ربهم لا يشركون به شيئاً ولا يميلون مع الأهواء ولا تفتنهم الدنيا بفتنة الملك وحب التسلط وجمع المال. فمن فتن منهم بذلك فقد فسق عن أمر ربه، ولم يعد محل وعده فقال تعالى مبيناً ومحذراً :

﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ ـ إن هؤلاء الذين تتحقق لهم هذه الوعود الثلاثة لا يشركون بالله صنماً ولا هوى، فهم يعبدون الله وحده ويسيرون على الخط الذي رسمه لهم يخلصون العبادة لله وحده لا يشركون بعبادة ربهم أحداً، لا يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يحللون ويحرمون ويشرعون لهم كما فعلت اليهود والنصارى، ولا يعبدون الأهواء كما يفعل كثير من الناس، يتبعون أهواءهم ويتخذونها آلهة من دون الله والتأليه الطاعة والخضوع والاتباع فمن نبذ كلام الله وسنة رسوله، واتبع هواه فقد عبد الهوى، واتخذه إلهاً من دون الله، ومن تمسك بما وجد عليه آباءه ونبذ ما جاء به كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقد اتخذ الهوى إلهاً من دون الله وأشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

فالشرك ليس مقصوراً على عبادة الأوثان فقط، بل هو أوسع من ذلك ومن الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل، فلنحذر جميع أنواعه الجلي منها والخفي، ولنخلص عبادتنا لربنا وحده، ولنتبع الحق الذي جاءنا في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ .

﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ ـ من استحب الكفر على الإيمان والضلال على الهدى بعد هذه الوعود الربانية، واستحب الحياة الدنيا على الآخرة فأولئك هم الفاسقون، هم الخارجون عن ملة الإسلام، وهذا

تحذير كبير وإنذار من الله لعباده أن تلهيهم مفاتن الحياة الدنيا فيفتتنوا بزهرتها عن دين الله الذي ارتضى لهم، وهذا ما وقع للمسلمين، فتح الله عليهم الدنيا فافتتنوا بها فكان ذلك سبب هلاكهم وانتقال الدولة من أديهم إلى أعدائهم، وما كان ينبغي لهم بعد الذي رأوه من تحقيق وعد الله لهم وبعد تحذير نبيئهم إياهم من الإفتتان بزهرة الدنيا ما كان ينبغي لهم أن يصيروا إلى ما صاروا إليه، وفي الآية تأكيد الحكم بالفسق وحصره في الكافرين بعد الإيمان وبعد الذي تقدم من التحذير والبيان وذلك يظهر في تعريف الخبر بالألف واللام والإتيان بضمير الفصل قبله.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ - يكرر الله تبارك وتعالى أمره بهذين الركنين العظيمين من الدين ويقرنهما معاً في نسق واحد في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وما ذلك إلا لأنهما الدعامتان القويتان اللتان ينبني عليهما بنيان الإسلام، فلا إسلام يتحقق بدون الصلاة والزكاة، والنبي ﷺ يؤكد الأمر بذلك فهو يأمرنا أن نأمر أولادنا بالصلاة لسبع ونضربهم عليها لعشر، ويأمرنا بإخراج الزكاة حتى من الأولاد اليتامى وأن نتجر فيها حتى لا تأكلها الزكاة فهما الركنان اللذان يلزمان الموحد منذ صغره، وفي حداثة سنه، فلا إيمان ولا إسلام بدون صلاة وزكاة وإن ادعاه كثير من الناس، وممن يتخذون الصلاة هزؤا والزكاة مغرماً فهم لا يعرفون الصلاة ولا الزكاة، وكثير منهم ما ركع لله ركعة ولا سجد سجدة ويدعون الإسلام فأنى لهم ما يدعون، وهم للصلاة تاركون وللزكاة مانعون، يخبرنا الله أن رحمته في الدنيا والآخرة إنما هي للمصلين الذين يقيمون صلاتهم ويؤدون زكاتهم كما علمهم الله.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة لعلكم ترحمون﴾ - يأمرنا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكيفية ذلك مبسوط مبين في مواضعه، فإننا متى فعلنا

ذلك رجونا رحمته، ورحمته وإن عمت الخلق في الدنيا ولكنها في الآخرة تخص أهل طاعته كما قال :

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة﴾ ـ الأعراف ١٥٦ ـ الآية ـ فهم وحدهم يستحقون رحمة الله الدائمة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ ـ نزلت هذه الآية والذين كفروا يومئذ أقوياء، فربما يخامر الشك بعض ضعفاء القلوب كيف يتحقق وعد الله وكيف يدال للمسلمين عليهم فثبت الله عباده المؤمنين، وأخبرهم أن الكفار لا يعجزون الله في أرضه فهم لا يزنون جناح بعوضة في قدرة الله، ولكن الله يبلو المؤمنين بهم ليتخذ منهم شهداء وليمحص الله الصادقين منهم، ويبلو الكافرين بالمؤمنين ليستحقوا مصيرهم من النار ولبئس المصير، فهم يوم يصيرون إلى عذاب الله لا ينفعهم ما كانوا تمتعوا به في دار الدنيا من الغلبة والسلطان وما جمعوه من أموال يؤكد الله بؤس هذا المصير تخويفاً للمؤمنين أن يصيروا إليه إن هم تركوا ما أمرهم الله به أو ارتكبوا ما نهاهم عنه، ولا يزال ربهم يعلمهم ويرشدهم إلى ما فيه صلاح مجتمعهم وصونه من اللوث والفساد لأن الله يريد أن يخرج منهم خير أمة أخرجت للناس، وفي الآية تثبيت للمؤمنين أن أقيموا شعائر دينكم، ولا يمنعكم الكفرة من إقامتها والله معكم وهم لا يعجزون الله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ
وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ
صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ
بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا

عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا
اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ
اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ
ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

بعد أن ذكرنا الله تعالى بما ذكرنا به ووعدنا بما وعدنا به إن نحن أقمنا شعائر الله ابتغاء وجه الله يرجع بنا إلى بقية الأحكام التي تتعلق بصيانة الأسر وتأديبها بآداب الإسلام العالي، وهذه طريقة القرآن البديعة، فهو بدع من الكتب يحلل الأحكام والقوانين بالوعظ حتى يمكن بذلك في قلوب المؤمنين خلق المراقبة والتقوى فيطبقون هذه الأحكام خوفاً من الذي لا تخفى عنه خافية وطمعاً في رضاه وجنته، أما كتب القوانين فهي تسردها سرداً جافا لا يتخللها شيء من التذكير معتمدة في ذلك على زجر الناس بسياط الحكام وسيوف الجلادين وشتان بين الطريقتين ويا بعد ما بين الفريقين، ولما كان المؤمنون يراقبون الله فيما يفعلون، ويذرون يسيرهم إيمانهم الذي تمكن في قلوبهم ناداهم الله باسم هذا الإيمان فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا

الحلم منكم ثلاث مرات﴾ ـ يوجه الله الأمر إلينا لأن أمر عبيدنا وأولادنا قبل بلوغهم يتعلق بنا فنحن المسؤولون عليهم وهم رعيتنا وكل راع مسؤول عن رعيته، وهؤلاء العبيد والإماء خدم في البيوت، وكذلك الأولاد فهم يترددون عليها دخولاً وخروجاً، فوضع الله لدخولهم علينا حدوداً وآداباً لابد بمراعاتها لأن الأوقات تختلف فهنالك ساعات لا يكون في دخولهم بغير إذن حرج، وهنالك ساعات لا يليق فيها ذلك فبين الله العليم الخبير هذه الأوقات التي تأمرهم فيها بالإستئذان قبل الدخول علينا وإن كانوا من أهل بيوتنا وذلك في ثلاثة أوقات .

﴿من قبل صلاة الفجر﴾ ـ حدد الوقت بالصلاة لأن المؤمن طبعه وديدنه يقوم عند الفجر للصلاة ولا يعقل أن يتركها ومن يتركها ليس بمؤمن ولا ينتفع بالخطاب، فالمؤمن يقوم للصلاة وبعد ما يؤديها يتشمر للعمل والكد ولا يرجع إلى حالة الاسترخاء بعدها.

﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ ـ وكذلك اعتاد الناس أن يدخلوا إلى مضاجعهم بعد منتصف النهار يأخذون قسطاً من الراحة لا سيما في البلاد الحارة يقيلون ثم ينهضون بعدها ليستأنفوا أعمالهم في المساء بعد صلاة العصر .

﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾ ـ ويحدد هذا الوقت أيضاً بصلاة العشاء لأن المؤمن لا ينام قبل تأديتها، وقد صح الحديث بالنهي عن النوم قبل صلاة العشاء والسهر بعدها، هذه أوقات خاصة نكون فيها على حالات خاصة، فالواحد منا إذا خلا في مضجعه ومع زوجته يتخفف في لباسه فهو في مخدعه في حالة غير الحالة التي هو فيها خارجه وقد عبر القرآن بهذا فقال:

﴿وحين تضعون ثيابكم﴾ ـ فالواحد منا إذاك يضع ثيابه ولا يترك إلا

ثوب النوم الخفيف الذي لا يرضى أن يراه فيه أحد إلا زوجته، وهي الأخرى كذلك تكون في مثل حالته، وهي أوقات النوم والنائم يكون في أوضاع غير عادية فربما يتقلب في فراشه فتنكشف عورته، ولذلك عبر القرآن عن هذه الأحوال بالعورات، فلا يليق بأحد منا أن يدخل عليه أحد ولو ولد صغير وهو في تلك الحالة المكشوفة أو في وضع لا يليق فهي إذن عورات والعورات يحرم النظر إليها، فلا يجوز الدخول حينئذ إلا بإذن، أما في غيرها من الأوقات فجائز للعبيد والأولاد الذين يسعون في خدمة شؤون البيت.

﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ - لا حرج عليكم ولا عليهم في غير هذه الحالات أن يدخل عليكم من يسعى في خدمة البيت من العبيد والإماء والأولاد والحفدة، لأن المرأة في البيت تكون في لباسها الساتر وفي مزاولة خدماتها البيتية، والرجل إما يكون خارج البيت أو داخله في لباسه الساتر وهيئته العادية، فلا حرج حينئذ عليه ولا على الداخل من فتيانه وأولاده، بل الحرج في تكرير الاستئذان في كل مرة من المرات الكثيرة التي يترددون فيها على شؤون الخدمة داخل البيت وخارجه.

﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ - هؤلاء الخدم والأولاد يطوفون عليكم في خدمة ما تكلفونهم به من الأعمال والخدمات، فلا يضيق عليهم في غير هذه الأوقات الخاصة والله عليم بغرائز النفوس وطبائع القلوب، وما يصلحها وما يفسدها حكيم يضع الأشياء في مواضعها ويضع قواعد الآداب وأسس الأخلاق الكريمة التي تنبت نباتاً في نفوس الأولاد منذ صغرهم وتصلح الكبار، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، فالخير كل الخير في إتباع أوامره واجتناب نواهيه والشر كل الشر في المخالفة والعصيان.

﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم. كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ ـ وعند بلوغ الأطفال الحلم يفرض عليهم الإستئذان دائماً وفي كل وقت عند الدخول، ولو على آبائهم وأمهاتهم كما فرض على الذين من قبلهم ممن ورد حكمه في الآيات السابقة، وهي آيات الإستئذان، وبلوغ الحلم يكون بعلامات البلوغ وهي نبات الشعر من ثلاث مصاعد في العانة أو في الإبط وخروج المني بالاحتلام أو غيره، وتكعب الثدي في الأنثى خاصة، ويكون البلوغ بالسنين كما هو مبسوط في كتب الفقه في مواضعه، وعند البلوغ يتحمل الإبن أو البنت جميع تكاليف العبادة، ويحرم التفريط في أمر الصلاة والصوم، وقد أمرنا النبي ﷺ أن نأمرهم بالصلاة في سن مبكرة فقال: مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم ـ وهم لعشر.

هذه أحكام الله مبسوطة في آياته فلا يحيد عنها إلا ظالم أعمى الله بصيرته ولم يرد هدايته، والله عليم بمن هو للإهتداء يقف عند حدوده لا يتعداها، عليم بما يصلح الفرد والجماعة، عليم بنوازع النفوس وميول الأهواء، حكيم يشرع من الأحكام ما يصلح به أمر دينكم ودنياكم، وما إن اتبعتموه كنتم على نور من ربكم، خير أمة أخرجت للناس لا تضل ولا تشقى.

﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾ ـ في الآية حكم خاص بقواعد النساء وهن اللاتي أيسن من المحيض في سن الستين، رخص الله لهن أن يضعن جلابيبهن ويبقين في ثياب ساترة محتشمة وهن غير متبرجات بزينة لا يلبسن اللباس الواصف والمشمر والكاشف، ولا يتزين بأنواع الزينة التي يتزين بها النساء عادة كالحلي والحناء والزعفران وغير ذلك مما يظهر زينة المرأة ويفتن الرجل.

رخص الله لهن أن يضعن عنهن الجلابيب التي ربما تثقل عليهن، أو يتعثرن بها وهن ضعيفات لكبرهن وعزجهن. وبعد هذا الترخيص الذي تقتضيه رحمة الله بالضعفاء رغبهن في التستر والحجاب لأنه خير لهن وأسلم للرجال من فتنتهن لأنه كما قيل: لكل ساقطة لاقطة - فربما تبقى مسحة جمال على بعضهن فتتحرك بها بعض النفوس المريضة فإن استطعن وخف عليهن الحجاب فهو خير لهن وأقرب إلى العفاف.

﴿**والله سميع عليم**﴾ - عقب الله الحكم بهذه الآية المناسبة لأن الناس في مثل هذه الحالات لا يسلمون من الأحاديث في التعليق على ما يشاهدون ويشعرون، فتجري كلمات على ألسن البعض أو تحدث البعض نفوسهم إثر منظر أو كلام يسمعونه فحذر الله من ذلك وذكرنا بإحاطة علمه بالخفيات مما يتهامس به الناس أو توسوس به النفوس فهو سميع بما يخفى وما يعلن من الكلام، عليم بما يجول في النفوس من الوساوس والأهواء، فليحذر المؤمنون سمعه الشامل وعلمه المحيط وجزاءه العادل وليراقبوه في السر والعلن مراقبة من يخش ربه ويخاف عذابه المحذور.

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ
أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا
فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً
مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

ذكر العلماء في تفسير هذه الآيات وجوهاً من المعاني، منها أن الحرج المنفي في هذه الآية عن الأعمى والأعرج والمريض، هو نفس الحرج المنفي عن الأعمى والأعرج والمريض في سورة الفتح، وهو نفي الحرج عنهم في القعود عن الخروج إلى الجهاد كما نفى عنهم ذلك في سورة الفتح، والمعنى هنالك ظاهر وهنا أيضاً قبل هذه الآيات كان تكلم عن الخروج حيث يقول :

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن امرتهم ليخرجن﴾ ـ النور٥٣ ـ فناسب أن يتكلم هنا في عذر المتخلفين أصحاب الأعذار حتى يسكن ما في نفوسهم من التخوف والتحرج رحمة بالمؤمنين الصادقين، والعجزة الضعفاء ومنها أن الحرج المنفي عنهم هو نفس الحرج المنفي عمن ذكر بعدهم في هذه الآية، وهو متعلق بالأكل وذلك بالرجوع إلى سبب نزول الآية وهو أن الصحابة ﷺ تحرجوا من الأكل بعد نزول قوله تعالى :

﴿ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ ـ البقرة ١٨٨ ـ وفي مقدمتهم أصحاب الأعذار الذين يخلفون أصحاب الأموال في المدينة عند خروجهم إلى الجهاد فيحرسون أموالهم ويقومون عليها، وربما يأكلون في بطونهم من الثمار والزرع والطعام أثناء قيامهم عليها فتحرجوا من ذلك، وكذلك سائر الصحابة في سائر الأحوال، ربما يزور الواحد منهم أحد أقاربه فيقدم لهم من في البيت من النساء والأطفال والعبيد طعاماً، ورب المال غائب فتحرجوا من

ذلك كثيراً فنفى الله عنهم الحرج، لأن مثل هذا يقع كثيراً والناس يبادرون بتقديم الأكل للزائر، وهو من الكرامة وحق على المزور أن يكرم زائره، والأقارب يتزاورون فيما بينهم، وكذلك الأصدقاء فنفى الله الحرج على المؤمنين في الأكل من بيوت أقاربهم، وحدد هؤلاء الأقارب ولم يغفل ذكر الصديق لأن للصداقة حقوقاً لا تقل عن حقوق القرابة وهؤلاء الأقارب معروفون بتعريف الآية واستشكل البعض قوله :

﴿أو بيوتكم﴾ ـ قالوا كيف وهي بيوتنا هل في الأكل منها حرج؟ وأجاب الآخرون أن المقصود منها بيوت أبنائنا وبناتنا لأن بيوت أولادنا هي بيوتنا ومالهم هو مالنا، ولأنهم لم يذكروا بعد في تفصيل الأقارب وهم أولى الأقارب بالذكر والمعنى وجيه ومقبول وقوله تعالى:

﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ ـ ذكر المفسرون أنهم هم الوكلاء الذين يستخلفهم أرباب الأموال على أموالهم وزروعهم وطعامهم عند خروجهم إلى الجهاد أو الحج أو طلب الرزق، ويوصونهم بالإنفاق على أهاليهم والمحافظة على أرزاقهم، فأذن الله لهؤلاء المستخلفين في الأكل في بطونهم بالمعروف، من غير إسراف أو تضييع، كما لو كانت أموالهم يأكلون منها عند مباشرة القيام بمعالجتها، وهم يتصرفون فيها بما يصلحها وبما يصلح شأن عيال المستخلف صاحب المال وذلك رفقاً من الله بهم.

﴿أو صديقكم﴾ ـ وهو الذي تربطه بأخيه صداقة متينة، وقليل من الأصدقاء من تبلغ بهم صدق المودة إلى رفع الكلفة والحرج في التصرف بمال صديقه في غيبته أخذاً وعطاء كما لو كان حاضراً، ولما كان هذا النوع قليلاً أفردت صيغته، بينما جمع الأصناف المتقدمة كلها، وفي هذا ما فيه من التنبيه للناس أن لا يغتروا بمجرد التعارف والصداقة العامة فيحملهم ذلك على التدلل في أموال الناس فيقعون في السرقة وهم لا يشعرون، وقد ذكر

العلماء لدلالة الأصدقاء على أصدقائهم شروطاً لا تتوفر إلا في القليل من خلصاء الأصدقاء، منها أن ترتفع الكلفة مطلقاً فلا يشعر أحدهم بالخجل عندما يجد صديقه يأكل من ماله بل يسر لذلك سروراً عظيماً .

كما روي عن الحسن البصري أنه دخل بيته فوجد جماعة من أصدقائه وقد أخذوا طعاماً من تحت سريره وهم يأكلونه فسر سروراً عظيماً، وقال: هكذا وجدناهم يفعلون. يشير بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ وذكر عن بعضهم أنه اضطر لشيء من النفقة فقصد أحد أصدقائه فوجد أمته فأمرها أن تناوله كيس مولاها ففعلت لما تعلم من عمق الصداقة التي بينهما، فأخذ منه حاجته فرده إليها، فلما قدم سيدها أخبرته بذلك ففرح فرحاً عظيماً وقال لها : أنت حرة لوجه الله، وذلك مكافأة لها على مساعدتها لصديقه فإذا بلغت الصداقة هذا المبلغ من صدق المودة فالتدلل والتصرف حينئذ جائز بينهما لأن كل واحد منهما يرى ماله مال أخيه لا يجد في نفسه غضاضة من تصرف أحدهما في مال الآخر .

﴿ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعاً اَو اَشتاتاً﴾ ـ في الآية رفع الحرج عن أكل الناس بعضهم مع بعض أو متفرقين، وكانوا تحرجوا من الأكل جميعاً ومن إناء واحد وفيهم العميان والضعاف، وخافوا أن يكون لبعضهم ما لا يكون لأخيه من جيد الطعام أو فضله فيحاسب بذلك. فنفى الله عنهم الحرج في ذلك مما يكون منهم من غير قصد، والمؤمن يأكل بأدب ورفق ويأكل مما يليه ولا يحمله جشع النفس أن يستخلص لنفسه أطاييب الطعام مما يلي أكيله سيما إن كان من أهل العاهات، بل يوفره لهم ويرفق بهم، ونفى الله الحرج في الأكل أشتاتاً أي متفرقين كل في إنائه، وقد يستحسن الناس ذلك في بعض أنواع الطعام ويكون أرفق بهم، والآيات تطبع قلوب المسلمين بطابع السماحة والسخاء فلا تشاحح ولا تشاجر ولا تنازع بل

الكل متسامحون متحابون قلوبهم طيبة يحب الواحد ما يحب لأخيه ويسعى فيما يسره ويرضيه، وقد يبلغ صدق الأخوة بينهم أن يأكل أحدهم من مال صديقه وفي بيته ولا يجد أحدهم في نفسه إلا الرضى والسرور وهذه من أعظم القربات، ولا يزال سياق الآية مستمراً فيما يثبت الأخوة بين المؤمنين ويشيع المودة بينهم ويجعلهم كالبنيان المرصوص لا يتخلله الضعف، فجاءت الآيات التي بعدها تعلم الجماعة الإسلامية حسن الأدب ولزوم الطاعة لإمامها فقال تبارك وتعالى:

﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ - هذه الآية امتداد لما قبلها فهي تأمر هذه الجماعة المسلمة المتحابة التي يسودها التوادد والتآلف أن تفشي السلام فيما بين أفرادها، فهم يدخل بعضهم على بعض تحيتهم السلام كتحية بعضهم لبعض في الجنة، تحية من عند الله، فكم شرفتها هذه العندية، تحية مباركة كثيرة الخير والبركة، تحية طيبة تسود مجتمع الطيبين قلوبهم وتطمئن من خواطرهم، فهي عنوان الأمن والسلام في الحضر والسفر يلقيها الناس بعضهم على بعض ويردها بعضهم على بعض، فيسود الوئام ويرتفع الجفاء والخصام، وتزول الوحشة فما أعلاها وما أحلاها من كلمة، وما أخيب من يستبدل بها كلمات أخرى من تحايا أهل الغفلة والإعراض، عجباً لهم كيف يعرضون عنها إلى غيرها من الكلمات كأنهم يخجلون أن يوصفوا بما يوصف به أولياء الله المتمسكون بإسلامهم، والمسلمون يعتزون بكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، لأن قلوبهم مفعمة بحب الإسلام والمسلمين، فهم يجهرون بها في مجامع المسلمين الذين يستحقونها ولا يحيون بها الكفار لأنهم ليسوا أهلاً لها، وفي الآية نكتة لطيفة وهي قول الله تعالى:

﴿فسلموا على أنفسكم﴾ ـ في إضافة السلام وهو من عند أنفسنا إلى أنفسنا، فيه ما فيه من اللطف ومزج أرواح المسلمين حتى كأنها نفس واحدة وزعت على أجساد شتى، فإذا سلمت على أخيك فقد سلمت في الحقيقة على نفسك لأنك أنت وهو نفس واحدة في جسدين عواطفكما وإيمانكما ورغبتكما واحدة، ولأنك حين تسلم على أخيك يرد عليك السلام فقد سلمت على نفسك بواسطة أخيك، فتبركتم بالسلام جميعاً وفزتم برضى ربكم وغنمتم الحسنات. فالمسلمون إذ يسلم بعضهم على بعض إنما يسلمون على أنفسهم لأنهم جسد واحد.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ ـ أي بمثل هذا البيان السالف يبين الله لكم الآيات التي ترشدكم وتهديكم لما فيه سعادتكم في الدنيا وفي الآخرة لعلكم تعقلون أحكام الله وتعملون بها، وكثيراً ما يعلق الله أحكامه على العقل والعلم والتفكر، ويمدح هؤلاء الصنف من الناس الذين يستعملون عقولهم، ويذم الذين لا يعقلون ولا يعلمون، ونعمة العقل في الإنسان نعمة عظيمة ينبغي أن يستعملها ولا يغفلها، فإنه متى استعملها أدرك حكم الله في هذه الأحكام، فإن الله يريد من المجتمع المسلم أن يكون مجتمعاً متماسكاً مترابطاً يكثر بين أفراده التزاور وتبادل المودة والتهادي وإفشاء السلام، فإن في هذه الكلمة المباركة معنى السلامة من الآفات ومن كيد الشياطين من الإنس والجن، فلننشرها بيننا تقرباً إلى الله بنية العبادة لا بمجرد الإلف والعادة حتى ننال الأجر العظيم بإفشائها والبركة الشاملة والحفظ والسلامة، وحتى تلتحم المودة بين أفرادنا ومجتمعاتنا وترتفع الوحشة والجفاء، وحتى يكون مجتمعنا يشبه مجتمع الملائكة الأطهار تسوده الروحانية ولا تطغى فيه المادية، وهذا ما نستفيده ونعقله من هذه الآيات وكل كلام الله نور وهدى.

ثم ينتـقل بنا سـيـاق الآيات إلى نوع آخـر من الأدب العـالي وهو أدب الرعية مع إمامها وعند انعقاد مجامع التشاور فيقول تبارك وتعالى:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ
شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ
يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ
عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

بعد تبـين الآيات الحكيمـة لآداب المجتمع الإسـلامي النظيف فيـما بين أفراده، وفي البيوت والأسر والعـائلات وسائر العلاقات، تنتقل بنا إلى آداب الجماعة الإسلامية في إجتماعـاتها الهامة، ومع أمرائها ولابد للمسائل الهامة من مجالـس جامعة لاستـعراض الآراء والتشاور قـبل البت في الأمر، ولابد لهذه المجالس من أمير يقوم على تنظيم الجلسة وإدارة المفاوضات والمناقشات ولابد أن يطاع هذا الرئيس، وإلا أصـبـحت المفاوضـات فـوضى ولا يصلح القوم فـوضى لا سراة لهم، فبين الله تعـالى في هذه الآيات الحكيمة صـفات المؤمنين الصـادقين وآدابهم في هذه التـجـمعـات ليـقـتـدي بهم من بعـدهم،

وليلتـزموا بها، وبين صـفات المنافـقين وفضحـهم ليمـيز الخبـيث من الطيب، وليحذر المؤمنين في كل زمان مثل تلك الخصال المذمومة فقال:

﴿إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه﴾ ـ جاءت صيغة الآية مفتوحة بأداة الحصر ـ إنما ـ لتفـيد حـصر الإيمان في هذا الصنف من الناس، وهم الـذين يقدرون لهذه المجالس قدرها، لأنهم يؤمنون بالله ورسـوله إيماناً خالصا لا يشوبه شك ولا نفاق، فهم الذين يستجيبون لله والرسـول، ويستجيبون لأئمة أمورهم إذا كان أمـر جامع، والتعبـير بأمر جـامع تعبير مـعجز جـامع لا يمكن لأية كلمة أخرى أن تسد مسده، فلله ما أروع إعـجاز القرآن والأمر الجامع كل أمر يهم جـماعـة المسلمين، من أمـور سلمهم وحـربهم، وهي الأمـور العظيمـة التي تستدعي جـمع أولي الأمر للنظر وجمع الآراء والتشـاور ثم البت في الأمر، وبعد البت استجـابة جميع المؤمنين لامتثال الأوامـر الصادرة وتنفيذ المخطط كما تقتضي المصلحة لا هـوادة في ذلك ولا نكول، فالاجتماع إذن ضروري وواجب والانصراف قبل الإذن حرام وخيـانة، فالمؤمنون ولو كانت لأحدهم حاجة ضرورية لا يذهب إليها حتـى يستأذن ولي الأمر، وولي الأمر مفوض في الإذن وعدمه.

﴿فإذا استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم﴾ ـ فهو يأذن لمن فهم منه ضـرورة القيام له عذر لا يقـبل التأخير، أمـا من يقبل عذره التـأخير فربما يمنعـه ويرجئه إلى وقت آخر، وربما يكون انتـهاء الاجتمـاع قريباً فيـرجئه إلى نهايته، فرئيس المجلس مفوض ثم إنه أمر أن يستغفر للمستأذنين.

﴿واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾ - فاستئذانهم للخروج من المجلس الجامع نوع من تقصير يحتاج إلى الاستغفار من ولي الأمر، ومن علم الله صدق عذره فالله غفور رحيم، وهؤلاء الذين يستأذنون ثم لا ينصرفون إلا بإذن هم الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإيمانهم بالله ورسوله هو الذي حملهم على الاستئذان، وإيمانهم هو الذي حبسهم حتى يؤذن لهم فينصرفون، أو لا يؤذن فيجلسون فهم لا يحاولون أن ينصرفوا بغير إذن كالمنافقين الذين يترقبون الغفلات ليتسللوا، وما ذلك إلا لأنهم مستخفون بأمر الله ورسوله، فهم لا يقدرون هذه المجالس قدرها، أو هم يبغضوها ويودون أن لا تنجح القرارات التي يتخذها الرسول والمؤمنون فيها، لأن هواهم مع الكفار فهم لا يحضرونها إلا نفاقاً، فحذر الله المؤمنين أن يغفلوا عن جدية هذه المجتمعات، أو يصدر منهم ما يخالف الآداب مما لا يليق بأهل الإيمان فقال تعالى:

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ - هذه الآية نزلت في حق الرسول حين يدعو المؤمنين لأمر جامع وهي محكمة في حق خلفائه أئمة المؤمنين أولي الأمر حين يدعون الناس لأمر جامع تجب طاعتهم، لأن المصلحة حينئذ هي مصلحة جماعة المؤمنين، ومضرة التقصير في الاستجابة ترجع إليهم جميعاً، فدعاء الرسول ﷺ ليس كدعاء بعضهم لبعض، وكذلك دعاء الذين يخلفونه من بعده في أمور المسلمين، يليه في الأهمية ويكون حكمه كحكمه يجب على المسلمين المسارعة إلى استجابته والاهتمام بما يجري من الإجتماع، ويحرم عليهم القيام منه إلا بإذن، ومن حاول التسلل منه فالله مطلع عليه وسيجزيه على عمله شر الجزاء.

﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ ـ هذا تهديد من الله شديد لهؤلاء المتسللين من هذه المجالس بسواري المسجد أو بالناس، فيخرجون خفية لأعمالهم الدنيوية أو لغير عمل وهم مستخفون بمجلس الرسول ﷺ وكأنهم غافلون عن إطلاع الله عليهم، وعن علمه بما في قلوبهم المريضة، هؤلاء سيجزيهم الله جزاء سيئاً كسوء نواياهم وأعمالهم فليحذر هؤلاء المخالفون عن أمر الله ورسوله أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم والأمر هنا يشمل الأمور التي هي الشؤون والأوامر، وهي ما يأمرنا به الله أو يأمرنا به الرسول فكل من خالف الأمور أو الأوامر مهدد بهذا الوعيد و ـ أَوْ ـ مانعة خلو لا مانعة جمع، فهو لا يخلو من عقوبة الفتنة في الدنيا أو عقوبة العذاب الأليم في الآخرة، وقد يصاب بهما جميعاً، أما أن يسلم منهما جميعاً فلا وهذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين، يعنون جالس أحدهما إن ظفرت به وإن ظفرت بهما جميعاً فذلك أحسن، فهؤلاء لا يسلمون من إحدى العقوبتين، وقد يفنون في الدنيا وينتظرهم العذاب الأليم في الآخرة إن لم يتوبوا وينيبوا إلى الله ويخلصوا له، وفي هذه الآية وعظ وتحذير للمؤمنين من مخالفة أمر الرسول ﷺ في حياته ومماته فاتعظوا يا أولي الألباب .

﴿ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ ـ ألا إن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما، فملكه عظيم ودائم وعلمه محيط بما ظهر وما بطن، قد يعلم ما أنتم عليه و ـ قَدْ ـ هنا للتحقيق كالتي سبقتها فهو يعلم

ما أنتم عليه من أحوالكم الظاهرة والخفية، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسوف ينبئكم بما عملتم، ويوم يرجع إليه هؤلاء المتسللون الذين يظنون أنهم يخفون عن الله يوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ليعلموا أن جزاءه لهم عدل لا ظلم فيه، فهم يستحقون العقوبة النازلة وبأمثالهم.

﴿والله بكل شيء عليم﴾ - عليم بأعمال عباده الظاهرة ونوايا قلوبهم الباطنة، عليم بمقادير عقوباتهم التي يستحقونها.

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تكن حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجر عظيما﴾ - النساء ٤٠ - عليم بما يصلح أمر دينهم ودنياهم فهو يشرعه لهم، فالتذييل بهذه الآية راجع لكل السورة من أولها إلى آخرها لما فيها من تشريعات وأحكام وآداب يصلح عليها أمر المجتمع المسلم.

فعلى المؤمنين أن يثقوا بعلم الله ويطمئنوا إلى تشريعه ويتبعوه ويطيعوا الله ورسوله طاعة من يؤمن بعلم الله المحيط، وحكمته البالغة وجزائه العادل والله نور السماوات والأرض، فالذي يعلم ويعمل على نور من ربه فذلك هو المهتدي، وذلك هو المتمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم. وصدق الله العظيم، والحمد لله رب العالمين.

- تم تفسير سورة النور -

● ﴿ سورة الحج ﴾ ●

● ﴿ ســـورة المؤمنون ﴾ ●

● ﴿ ســورة النــور ﴾ ●

رقم الإيداع : ١٠٥/٢٠٠٠